



عناصر الموضوع



مفهوم التزكية

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (زكا) على النمو والزيادة[1]. قال الراغب: «وأصل الزكاة: النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية. يقال: زكا الزرع يزكو: إذا حصل منه نمو وبركة، ومنه الزكاة: لما يخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة، أو لتزكية النفس، أي: تنميتها بالخيرات والبركات، أو لهما جميعا، فإن الخيرين موجودان فيها»[2].

ويقال: «زكى الرجل نفسه تزكيةً أي: مدحها. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]. قيل: لا تمدحوها بحسن أعمالها»[3].

وقد تطلق التزكية على الصلاح، قال الفيومي رحمه الله: «زكا الرجل يزكو إذا صلح وزكيته -بالتثقيل- نسبته إلى الزكاء وهو الصلاح»[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

التزكية: إنها تعني: تطهير النفس من نزعات الشر والإثم، وتنمية فطرة الخير فيها؛ مما يؤدي إلى استقامتها، وبلوغها درجة الإحسان[5].

وقيل: تخليص النفس الإنسانية من كل ما يتعلق بها من شوائب، ونواقص، وترسيخ الفضائل والقيم النبيلة والأخلاق السامية فيها، وتوجيهها إلى كل ما فيه الخير والصلاح[6].

وترجمة ذلك كله في كلمتين مشهورتين عن أهل السلوك والطريق، وهما: (التخلية) و(التحلية). والمقصود من التخلية: هو تطهير النفس من الرذائل؛ كالحسد والرياء والكبر، والعجب وحب الدنيا، وغيرها من الرذائل. والمقصود بالتحلية: هو العمل بالطاعات والمبرات والقربات؛ مما يترتب عليه تحلي النفس وتزكيتها بالفضائل؛ كالعفة والشجاعة والعدل والصدق.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٨.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٣٨١.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٩٠.
(٤) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٥٤.
(٥) منهج الإسلام في تزكية النفس، د أحمد كرزون ١/ ٥.
(٦) مفهوم التزكية وتطبيقاتها في التربية الإسلامية، نايف الشريف ص ٢١٩.



التزكية في الاستعمال القرآني

وردت مادة (زكى) في القرآن (٢٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ [الشمس:٩]
الفعل المضارع	١٥	﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]
صيغة المبالغة	٢	﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ [مريم:١٩]

وجاءت التزكية في الاستعمال القرآني على ثلاثة وجوه:

الأول: الإصلاح: ومنه قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]. أي: تصلحهم بها.

الثاني: الثناء والمدح: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢]. أي: فلا تمدحوها[٢].

الثالث: الطهارة والنقا: ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ [الشمس:٩] أي: طهرها من الذنوب والمعاصي[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٣٣١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٧.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٨٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ التربية:

التربية لغة:

قال ابن فارس: «الراء والباء والحرف المعتل يدل على أصلٍ واحد، وهو: الزيادة والنماء. تقول: ربا الشيء يربو، إذا زاد». ويتعدى بالتضعيف فيقال: ربيته وتربيته فتربى. وهذا مما يكون على معنيين:

أحدهما: من الذي ذكره، وهو النمو والزيادة؛ لأنه إذا ربي نما وزكا وزاد.

والمعنى الثاني: من ربيته من التربيب، من رب، بمعنى أصلحته وأحسنت القيام على أمره[(١)].

التربية اصطلاحًا:

يرى ابن سينا: أن التربية تعني: إبلاغ الذات إلى كمالها الذي خلقت له. وقيل: التربية: تعني: تنمية وزيادة الوظائف الجسمية والعقلية والخلقية عند الإنسان، وذلك بهدف البلوغ إلى الكمال والرقي والتمام الإنساني، ولا يتم ذلك إلا عن طريق التدريب والمجاهدة المستمرة، بالإضافة إلى وجود القابلية والطواعية لدى هذا الإنسان[(٢)]. وقيل: التربية طريقة لإعداد الإنسان الصحيح والصالح والمتميز بسلوكه الفكري والإنساني، والقادر على توظيف مصادر المعرفة لديه في حل مشاكله ومشاكل مجتمعه[(٣)].

الصلة بين التزكية والتربية:

عن العلاقة بينهما يقول الشيخ محمد الغزالي: «والتزكية أقرب الكلمات وأدلها على معنى التربية، بل تكاد التزكية والتربية تترادفان في إصلاح النفس، وتهذيب الطباع، وشد الإنسان إلى أعلى؛ كلما حاولت المثبطات والهواجس أن تسف به وتعوج»[(٤)].

---

(١) انظر: مادتي ربا و رب في مقاييس اللغة ٢/ ٣٨١- ٤٨٤، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢١٧، ٢١٤.
(٢) انظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا ص٢٦٦، جوانب التربية الإسلامية الأساسية، مقداد يالجن، ص ٢٢، التربية الوالدية في مرحلة الطفولة المبكرة، محمد القزاز ص١٤١.
(٣) انظر: المبادىء التربوية في القرآن الكريم، ئاراس محمد صالح، ص ٤.
(٤) انظر: نظرية التربية الإسلامية للفرد والمجتمع، محمد الغزالي، ص١٠.

٢ التطهير:

التطهير لغة:

هو النقاء من الدنس والنجس ومن كل ما يشين[١].

فالتطهير في المفهوم اللغوي يدور حول: النزاهة والنظافة، والخلوص من الأدناس؛ حسية كانت كالأنجاس، أم معنوية كالعيوب من الحقد والحسد ونحوهما[٢].

التطهير اصطلاحًا:

المقصود به في بحثنا: تطهير النفس وتنزيهها من الذنوب والخطايا والعيوب المعنوية، كالحقد والغل والكبر ونحوهم.

الصلة بين التزكية والتطهير بناءً على ماسبق ذكره:

يكونان متقاربين إلى غاية كبيرة في المفهوم والمضمون.

٣ التهذيب:

التهذيب لغة:

التنقية مما يعيب. قال ابن فارس: «الهاء والذال والباء: كلمة تدل على تنقية شيء مما يعيبه. يقال: شيء مهذب: منقى مما يعيبه. وأصله الإهذاب: السرعة في الطيران والعدو، ومعناه أنه لا يمكن التعلق به... كذلك المهذب لا يتعلق منه بعيب»[٣]، فتنقية كل شيء وإصلاحه وتخليصه من الشوائب يسمى تهذيبًا[٤].

التهذيب اصطلاحًا:

لايخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين التزكية و التهذيب:

هما متقاربان في المفهوم والمضمون.

---

(١) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٧٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٥٦٨.
(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١٧/ ١٠٩.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٤٥.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٤/ ٣٨٦.

٤ التدسية:

التدسية لغة:

إدخال الشيء تحت الشيء بما يفيد الستر والخفاء[١].

قال ابن منظور: «دسس: الدس: إدخال الشيء من تحته، دسه يدسه دسًا فاندس ودسسه.....، ودسه يدسه دسًا إذا أدخله في الشيء بقهرٍ وقوة»[٢]. وقال الفيومي: «دسه في التراب دسا –من باب قتل– أي: دفنه فيه، وكل شيء أخفيته فقد دسسته، ومنه يقال للجاسوس: دسيس القوم»[٣].

وفي التنزيل العزيز: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

يعني: ﴿أَفْلَحَ مَن﴾ جعل نفسه زكيةً مؤمنةً، و﴿خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ في أهل الخير وليس منهم[٤]. قال البغوي: «و﴿دَسَّىٰهَا﴾ أصله: دسسها من التدسيس، وهو إخفاء الشيء، فأبدلت السين الثانية ياء. والمعنى هاهنا: أخملها وأخفى محلها بالكفر والمعصية»[٥].

التدسية اصطلاحًا:

لا تخرج عن المفهوم اللغوي.

الصلة بين التزكية والتدسية:

العلاقة بينهما التناقض كما هو واضح. قال الزمخشري: «ودسى نفسه: نقيض زكاها»[٦].

---

(١) مختار الصحاح، الرازي ص١٠٤.
(٢) لسان العرب ٦/ ٨٢.
(٣) المصباح المنير، الفيومي ص. ١٩٤.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٧٧.
(٥) معالم التنزيل ٨/ ٤٣٩.
(٦) أساس البلاغة، ١/ ٢٨٦.

من له تزكية النفوس؟

مما لاشك فيه أن الحق سبحانه وتعالى هو المطهر للنفوس المزكي لها بهدايته وتوفيقه؛ ولهذا نسبت التزكة إليه في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤٩-٥٠].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ عام في ظاهره، ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد اليهود[١].

قال النيسابوري: «ويدخل فيه كل من زكى نفسه، ووصفها بزكاء العمل أو قبول الطاعة والزلفى عند الله»[٢].

والرؤية: إما بمعنى الإبصار: أي ألم تنظر إليهم، وإما بمعنى الإدراك القلبي متضمنًا معنى الوصول والانتهاء: أي ألم ينته علمك إليهم. والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتعجب من أحوالهم، والتهوين من شأنهم، حيث بالغوا في مدح أنفسهم مع أنهم كاذبون في ذلك. فهم يصفون أنفسهم بالأفعال الحسنة، ويمدحونها مدحًا كثيرًا، مع أنهم لا يستحقون إلا الذم بسبب سوء أقوالهم وأفعالهم[٣].

قال أبو جعفر: «وأولى الأقوال بالصواب في: معنى (تزكية القوم)، الذين وصفهم الله بأنهم يزكون أنفسهم، وصفهم إياها بأنها لا ذنوب لها ولا خطايا، وأنهم لله أبناء وأحباء، كما أخبر الله عنهم أنهم كانوا يقولونه في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]؛ لأن ذلك هو أظهر معانيه؛ لإخبار الله عنهم أنهم إنما كانوا يزكون أنفسهم دون غيرها»[٤].

فالمراد بتزكيتهم أنفسهم: ادعاؤهم الطهارة عن المعاصي والرذائل، وهذا يدل على إدعائهم الصلاح. ولكن الحق سبحانه وتعالى يبطل معتقدهم وإدعائهم بإثبات ضده، فيقول تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ وهذا إضراب وإعراض عن قولهم.

قال أبو السعود: «عطفٌ على مقدر ينساق إليه الكلام: كأنه قيل هم لا يزكونها في الحقيقة لكذبهم وبطلان اعتقادهم، بل الله يزكي من يشاء تزكيته ممن يستأهلها من المرتضين من عباده المؤمنين؛ إذ هو العليم الخبير بما ينطوي عليه البشر من المحاسن

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٤٦، الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٢٤٧.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري٢/ ٤٢٥.
(٣) انظر: الوسيط، طنطاوي ٣/ ١٧٩.
(٤) جامع البيان، ٨/ ٤٥٥.

والمساويء»[١].

فهذه الآية تقتضي الغض من المزكي لنفسه بلسانه، والإعلام بأن الزاكي المزكى من حسنت أفعاله، وزكاه الله عز وجل، فليدع العباد تزكية أنفسهم، ويفوضوا أمر ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، فإن تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوى فاسدة، تحمل عليها محبة النفس، وطلب العلو، والترفع والتفاخر[٢].

قال الإمام الرازي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]: «لما بالغ اليهود في تزكية أنفسهم -يعني: أثنوا على أنفسهم بما ليسوا هم له بأهل- ذكر تعالى في هذه الآية أنه لا عبرة بتزكية الإنسان نفسه، وإنما العبرة بتزكية الله له؛ لأن التزكية متعلقةٌ بالتقوى، والتقوى صفةٌ في الباطن، ولا يعلم حقيقتها إلا الله، فلا جرم لا تصلح التزكية إلا من الله، وفي هذا دلالة على أن الإيمان يحصل بخلق الله تعالى ؛ لأن أجل أنواع الزكاة والطهارة وأشرفها هو الإيمان، فلما ذكر تعالى أنه هو الذي يزكي من يشاء؛ دل على أن إيمان المؤمنين لم يحصل إلا بخلق الله تعالى »[٣].

وبعد أن بين الحق تعالى أنه لا تصلح التزكية إلا من الله، أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وهذه الجملة عطفٌ على جملةٍ قد حذفت تعويلًا على دلالة الحال عليها، وإيذانًا بأنها غنيةٌ عن الذكر، أي: يعاقبون بتلك الفعلة القبيحة ولا يظلمون في ذلك العقاب[٤].

فالمقصود من الجملة: أنهم لا ينقصون أي قدر من أعمالهم، ولو كان كأصغر الأشياء التي لا يلتفت إليها، ولا يتجه النظر نحوها، ولو كان بقدر الفتيل، وهو الخيط الذي يكون في شق نواة التمر، أو القشرة التي تكون حول النواة، أو هو ما تفتله بين أصابعك من وسخ وغيره[٥].

وفى الآية موضع من العبرة: حيث يحذر الحق المسلمين الغرور بدينهم كما كان أهل الكتاب فى عصر التنزيل، وأن يبتعدوا عن تزكية أنفسهم بالقول، واحتقار من عداهم من المشركين، وأن يعلموا أن الله لا يحابى فى نظم الخليقة أحدًا، لا مسلمًا ولا يهوديًا ولا نصرانيًا، ألا ترى أن خاتم النبيين قد شج رأسه، وكسرت سنه، وردي فى حفرة من جراء تقصير عسكره فيما يجب من اتباع أمر القائد وعدم مخالفته، وأن يهتدوا بكتاب الله وبسنته فى الأمم، وأن يتركوا وساوس

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٨٨.
(٢) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٢٤٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٥١.
(٣) مفاتيح الغيب، ١٠/ ١٠٠.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٨٨.
(٥) انظر: مراح لبيد، الجاوي ١/ ٢٠١.

الدجالين الذين يصرفونهم عن الاهتداء بهدى كتابهم، ويشغلونهم بما لم ينزل الله به عليهم سلطانًا، فإنه ما زال ملكهم وما ذهب عزهم إلا بتركهم لهدى دينهم، واتباعهم لأولئك الدجالين والمشعوذين[1].

ولما أخبر تعالى أن التزكية إنما هي إليه بما له من العظمة والعلم الشامل، وكان ذلك أمرًا لا نزاع فيه، وشهد عليهم بالضلال، والكذب، ثبت كذبهم فزاد في توبيخهم فقال معجبًا لرسوله صلى الله عليه وسلم من وقاحتهم واجترائهم على من يعلم كذبهم، ويقدر على معالجتهم بالعذاب: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾[النساء: ٥٠][2].

فالآية: تشجب لمدعيات هؤلاء القوم، وتكذب مفترياتهم، وتفضحهم على رؤوس الأشهاد، وتدعو الناس جميعًا أن ينظروا إليهم وهم فى هذا الثوب الكاذب المفضوح[3]!!.

وهو تعجيب إثر تعجيب، وتنبيه على أن ما ارتكبوه متضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجيب: ادعاؤهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه. وافتراؤهم على الله سبحانه، فإن ادعاءهم الزكاء عنده تعالى متضمن لادعائهم قبول الله وارتضاءه إياهم، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، ولكون هذا أشنع من الأول جرمًا، وأعظم قبحًا -لما فيه من نسبته سبحانه وتعالى إلى ما يستحيل عليه بالكلية من قبول الكفر وارتضائه لعباده، ومغفرة كفر الكافر وسائر معاصيه- وجه النظر إلى كيفيته؛ تشديدًا للتشنيع وتأكيدًا للتعجيب. والتصريح بالكذب، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبًا؛ للمبالغة في تقبيح حالهم[4]. فجعل افتراءهم الكذب، -لشدة تحقق وقوعه-، كأنه أمر مرئي ينظره الناس بأعينهم، وإنما هو مما يسمع ويعقل، وكلمة ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ نهاية في بلوغه غاية الإثم[5].

وإنما وصف ﴿إِثْمًا﴾ بقوله: ﴿مُّبِينًا﴾ في: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾؛ لأن كذب الإنسان على مثله ممن قد يصدقه هذا معقول، لكن إن كذب على الله فهو قبيح؛ لذلك قال الحق: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾. إذن فالكذب مطلقًا هو إثم، والكذب المبين: هو الكذب على الله[6].

ولما كانت التزكية من الله للعباد فضلًا وكرمًا، امتن عليهم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(١) تفسير المراغي، ٥/ ٦١.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٢٦٦.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ٨١٣.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ١٨٨.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٨٥.
(٦) انظر: تفسير الشعراوي ٤/ ٢٣١١.

[النور: ٢١].

قال الشيخ الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية، أنه لولا فضله ورحمته، ما زكا أحد من خلقه، ولكنه بفضله ورحمته يزكي من يشاء تزكيته من خلقه. ويفهم من الآية أنه لا يمكن أحدًا أن يزكي نفسه بحال من الأحوال»[١]. فالآية: بيان لمظاهر فضله تعالى ولطفه بعباده المؤمنين. والمراد بالتزكية هنا: التطهير من أرجاس الشرك، ومن الفسوق والعصيان[٢].

قال الإمام الطبري: «ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته لكم، ما تطهر منكم من أحد أبدًا من دنس ذنوبه وشركه، ولكن الله يطهر من يشاء من خلقه. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول: والله سميع لما تقولون بأفواهكم، وتلقونه بألسنتكم، وغير ذلك من كلامكم، عليم بذلك كله وبغيره من أموركم، محيط به، محصيه عليكم، ليجازيكم بكل ذلك»[٣].

وقال الإمام ابن عجيبة عند تفسيره لهذه الآية: «﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ بالهداية والتوفيق لأسباب التطهير والعصمة والحفظ، ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾ أي: ما طهر من أدناس العيوب ولوث الفواحش ﴿مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ إلى ما لا نهاية له، وإذا كان التطهير والعصمة بيد الله فلا تروا لأنفسكم؛ فضلًا عمن لم يعصمه الله، فإنه مقهور تحت مجاري الأقدار، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ يطهر من يشاء من عباده بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه بالحفظ والرعاية، أو بالتوبة بعد الجناية، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالكم وإن خفيت، ومن جملتها: الحلف على ترك فعل الخير، عليم بنياتكم وإخلاصكم»[٤].

(١) أضواء البيان ٥/ ٤٨٥.
(٢) الوسيط، طنطاوي ١/ ٣٠٦١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٣٥.
(٤) البحر المديد ٤/ ٢٣.

أنواع الثناء على النفس

أولًا: الثناء المذموم:

إن هناك أناسًا كثيرين يظنون أن ثناء الإنسان على نفسه أمر مذموم مطلقًا، وفي كل الأحوال والمواطن، وفي المقابل هناك مبالغون في الثناء على أنفسهم في كل الأحوال والأوقات، والكل مجانب للصواب، فالثناء قد يكون مذمومًا في بعض الأحوال، و قد يكون محمودًا في بعضها، وإذا كان الأمر كذلك يمكن القول بأنه يمنع ثناء الإنسان لنفسه لغير ضرورة أو حاجة؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

قال صاحب اللباب: «التزكية -ها هنا- عبارةٌ عن مدح الإنسان نفسه»[١]. قال ابن عباس: «أي: فلا تمدحوها». ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: بمن بر وأطاع وأخلص العمل لله تعالى [٢]. وقال الحسن: «علم الله من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة، فلا تزكوا أنفسكم، ولا تبرؤوها عن الآثام، ولا تمدحوها بحسن أعمالها»[٣].

قال أبو حيان: «أي: لا تنسبوها إلى زكاء الأعمال والطهارة عن المعاصي، ولا تثنوا عليها، واهضموها، فقد علم الله منكم الزكي والتقي قبل إخراجكم من صلب آدم، وقبل إخراجكم من بطون أمهاتكم. وقال الكلبي ومقاتل: كان الناس يعملون أعمالًا حسنة ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[٤].

قال الثعالبي: «وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ظاهره النهي عن تزكية الإنسان نفسه»[٥].

وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء، لا على سبيل الاعتراف بالنعمة، والتحدث بها، فإنه جائز لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكرها. والأحسن في إيراد الاعتراف والشكر أن يقدم ذكر نقصه، فيقول مثلًا: كنا جهالًا فعلمنا الله، وكنا ضلالًا فهدانا الله، وكنا غافلين فأيقظنا الله، وهكذا، فنحن اليوم كذا وكذا[٦].

وقال الزمخشري: «وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء: فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح من الله وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح: لم يكن من المزكين أنفسهم؛ لأن المسرة بالطاعة طاعة،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٦/ ٤١٩.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي٧/ ٤١٣.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١١٠، الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٦٥٨.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٩٠، البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ١٩، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢١٢.
(٥) الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٣٢٩. إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٦٢.
(٦) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٥١١.

وذكرها شكر»[1].

وقد جاء في صحيح مسلم: عن محمد ابن عمرو بن عطاءٍ، قال: سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم، وسميت برة)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم) فقالوا: بم نسميها؟ قال: (سموها زينب)[2].

قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: «فقد دل الكتاب والسنة على المنع من تزكية الإنسان نفسه»[3].

ذلك أن المثني على نفسه يكون قد وقع في عدة محاذير شرعية، منها: الكبر والعجب وأن يكون فخورًا... إلخ وكلها أمراض خطيرة تورث النفس الهلكة، وتقودها إلى جهنم وبئس المصير. وقد قيل لحكيم: ما الذي لا يحسن أن يقال وإن كان حقا، فقال: «مدح الرجل نفسه، وقد قال معاوية رحمه الله لرجل: من سيد قومك، فقال: أنا، فقال: لو كنته لما قلته»[4].

(١) الكشاف، ٤/ ٤٢٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسنٍ، وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية. رقم ٢١٤٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٤٦.
(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص١٩٧.

خلاصة القول: أن الأصل منع الإنسان الثناء على نفسه؛ لما قد يصاحبه من العجب أو الفخر؛ ولذا يحذر الحق سبحانه وتعالى أتباع هذا الدين الحنيف من مدح أنفسهم والثناء عليها بأي شيء مما تمدح له النفس، أو يتباهى به تباهيًا وتفاخرًا على الغير؛ لأن هذا ثناء ومدح مذموم، فإذا كان الله تعالى ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، يعلم البر والفاجر التقي والعاصي، فلا حاجة لمثل هذا الثناء البغيض. فأعرف الناس بنفسه أشدهم إيقاعًا للتهمة بها في كل ما يبدو ويظهر له منها، وأجهلهم بمعرفتها وخفايا آفاتها وكوامن مكرها من زكاها، وأحسن ظنه بها؛ لأنها مقبلةٌ على عاجل حظوظها، معرضةٌ عن الاستعداد لأخرتها[5].

ثانيًا: الثناء المحمود:

إذا دعت حاجة أو ضرورة لأن يمدح الإنسان نفسه فإن الأمر يكون جائزًا ومباحًا ولاشيء فيه، بل قد يستحب أو يجب في بعض الأحوال. قال الإمام السيوطي: «يحسن من الإنسان الثناء على نفسه في مواضع مستثناة من الأصل الغالب، وهو أن الإنسان يهضم نفسه ولا يثني عليها»[6].

(٥) الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٣٢٩.
(٦) نزول الرحمة في التحدث بالنعمة، السيوطي ص٢٣.

وقال السيوطي أيضًا: «قال ابن الجوزي رحمه الله: اعلم أن المدحة إذا خلت عن البغي والاستطالة على أهل الحق، وكان مقصود قائلها إقامة حق أو إبطال جور أو إظهار نعمة، لم يلم»[1].

ومن المواطن التي يجوز فيها للإنسان أن يثني على نفسه: الموطن الذي يشبه ما قال فيه يوسف صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]

قال ابن كثير: «مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره، للحاجة. وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي: خازن أمين، ﴿عَلِيمٞ﴾ ذو علم وبصر بما يتولاه. وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما في ذلك من المصالح للناس، وإنما سأل أن يجعل على خزائن الأرض، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات؛ لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها؛ ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه، وتكرمة له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦ - ٥٧]»[2].

(١) المصدر السابق ص٣٢- ٣٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩٦.

وقال القرطبي: «دلت الآية أيضًا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل، قال الماوردي: وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصفه، أو تعلق بظاهره مكسب، وممنوع منه فيما سواه؛ لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله، فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله، ولما يرجو من الظفر بأهله»[3].

ومن المواطن التي يجوز فيها الثناء: ما قاله شعيب: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

قال الطبري: «﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في حسن الصحبة والوفاء بما قلت»[4].

وقال الزمخشري: «يريد بالصلاح: حسن المعاملة ولين الجانب. ويجوز أن يريد الصلاح على العموم»[5].

والمراد باشتراطه مشيئة الله فيما وعد من الصلاح: الاتكال على توفيقه فيه ومعونته؛ لأنه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ذلك[6].

يقول شمس الدين ابن قيم الجوزية

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢١٧.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٦٥.
(٥) الكشاف ٣/ ٤٠٥.
(٦) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٣٩.

عن هذا الموطن المحمود: قال: «وكذلك -يعني من الثناء الجائز- إذا اثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر، أو ليستوفى بذلك حقًا له يحتاج فيه الى التعريف بحاله، أو ليقطع عنه اطماع السفلة فيه أوعند خطبته الى من لا يعرف حاله»[1].

وكذلك يكون الثناء على النفس ممدوحًا: إذا لم ينصف الإنسان أو نوزع أو عورض، أو كان بين قوم لا يعرفون مقامه، فسيدنا أبو بكر رضي الله عنه لما ولى الخلافة وخطب قائلًا: «إنى وليت عليكم ولست بخيركم»[2] على قاعدة التواضع وهضم النفس، ثم بلغه عن بعض الناس كلام، فخطب فقال: «ألست أحق الناس بها؟ ألست أول من أسلم؟ ألست صاحب كذا؟ ألست صاحب كذا؟»[3] فحدث بمناقبه وأثنى على نفسه بمحاسنه عندما تكلم بعضهم في مبايعته[4].

ومن مواطن الثناء الجائزة: المواطن التي يكون المقصد منها التحدث بنعمة الله، كما قال الله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وعن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول: «رزقني الله البارحة خيرًا، قرأت كذا وصليت كذا، فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا؟ قال: يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله». وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اللطف، وأن يقتدى به غيره، وأمن على نفسه الفتنة، والستر أفضل[5].

وروي عن الحسن بن علي في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ قال: «إذا أصبت خيرًا فحدث إخوانك ليقتدوا بك». وعن عمرو بن ميمون أنه قال: «من قام لورده في الليل فلا بأس أن يحدث به الثقة من إخوانه، ويقول: رزقني الله كذا وكذا»[6].

ولما سئل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عن الصحابة فأثنى عليهم وذكر خصالهم، فقالوا له: فحدثنا عن نفسك فقال: «مهلًا، فقد نهى الله عن التزكية. فقيل له: أليس الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فقال: فإني أحدث، كنت إذا سئلت أعطيت، وإذا سكت ابتديت، وبين الجوانح علم جم، فاسألوني»[7].

استحب بعض السلف التحدث بما عمله من الخير إذا لم يرد به الرياء والافتخار،

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٣٩
(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٥/ ٢٦٩.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب رقم ١٦، ٥/ ٦١١، رقم ٣٦٦٧.
(٤) نزول الرحمة، السيوطي ص ٣٢، ٣٣.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٦٩.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٤٤٤، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٢٤٦، الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٥٤٥.
(٧) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٦٩.

وعلم الاقتداء به[1].

وقال ابن القيم: «الشيء الواحد يكون صورته واحدة، وهو ينقسم إلى: محمود، ومذموم، فمن ذلك: التحدث بالنعمة شكرًا، والفخر بها. فالأول: القصد به إظهار فضل الله وإحسانه ونعمته، والثاني: القصد به الاستطالة على الناس والبغي عليهم، والجور والتعدي، وإهانتهم واستعبادهم، وهذا هو المذموم»[2].

قال النووي: «باب مدح الإنسان نفسه وذكر محاسنه: قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

اعلم أن ذكر محاسن نفسه ضربان: مذموم، ومحبوب. فالمذموم: أن يذكره للافتخار، وإظهار الارتفاع، والتميز على الأقران، وشبه ذلك. والمحبوب: أن يكون فيه مصلحة دينية، وذلك بأن يكون آمرًا بمعروف، أو ناهيًا عن منكر، أو ناصحًا، أو مشيرًا بمصلحة، أو معلمًا، أو مؤدبًا، أو واعظًا، أو مذكرًا، أو مصلحًا بين اثنين، أو يدفع عن نفسه شرًا، أو نحو ذلك، فيذكر محاسنه ناويًا بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله واعتماد ما يذكره، أو أن هذا الكلام الذي أقوله لا تجدونه عند غيري فاحتفظوا به، أو نحو ذلك»[3].

خلاصة القول: أن الثناء على النفس يبين حكمه آيتان في القرآن، الأولى قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وهذا لمن يقصد الفخر والعجب والاستطالة على خلق الله، وهذا مذموم، والثانية: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وهذا لمن بعد عن الفخر والعجب، ويريد التحدث بنعم الله عليه والتعريف بها، والاعتراف بفضل الله عليه، أو التعريف بنفسه لمن لا يعرفه، وعلى ذلك يحمل قول النبي: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع)[4].

وأشباه ذلك كثيرة[5].

(١) انظر: حاشية الشهاب ٨/ ٣٧٢.
(٢) انظر: الروح، ص٢٣٠، ٢٧٤.
(٣) الأذكار، ١/ ٢٧٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق رقم ٢٢٧٨.
(٥) قال النووي: «وقوله صلى الله عليه وسلم: أنا سيد ولد آدم قاله لوجهين أحدهما: امتثال قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ والثاني: أنه من البيان الذي يجب عليه تبليغه إلى أمته؛ ليعرفوه ويعتقدوه، ويعملوا بمقتضاه، ويوقروه صلى الله عليه وسلم بما تقتضي مرتبته كما أمرهم الله تعالى».
انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٥/ ٣٧.

أنواع التزكية

إن الناظر في آيات القرآن يجد أنه قد تحدث عن نوعين:

أولًا: التزكية الفطرية:

التزكية الفطرية هي التي تكون مع الإنسان وملازمة له منذ ولادته، وعندما يكون في مرحلة الطفولة والبراءة إلى أن يبلغ الحلم، فعنده فطرية الإيمان، ونقاء السريرة، وطهارة النفس، وصفاء القلب، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

وردت هذه الآية في سياق سرد القرآن الكريم لقصة سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح الخضر، فبعد المشهد العجيب الأول وهو خرق السفينة، كان المشهد العجيب الثاني وهو قتل الغلام الصغير، المشار إليه بقوله: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، فانطلق لسانه عليه السلام ولعله هنا يمثل كل إنسان على سليقته حال رؤيته مثل هذا المشهد- حيث قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ كيف عرف سيدنا موسى عليه السلام وحكم أن نفس الغلام زكية هكذا، رغم أنه لأول مرة يرى هذا الغلام؟، إنها التزكية الفطرية التي هي الأصل الذي يولد بها كل إنسان، لقد وصف النفس بالزاكية لأنها نفس غلام لم يبلغ الحلم فلم يقترف ذنبًا فكان زكيًا طاهرًا[١] على أصل خلقته، وهذه هي التزكية الفطرية، فكل إنسان يولد على التزكية الفطرية التي تشمل كونه على عبادة الله، وطاهرًا من العيوب والذنوب[٢].

أولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، أو يمجسانه..**)[٣]؟.

ولما انضم إلى ذلك كون هذا القتل (بغير نفس) أي: بغير مستند لقتله[٤] ازداد عجب سيدنا موسى عليه السلام فقال: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي: منكرًا عظيمًا. يقال: نكر الأمر، أي: صعب واشتد. والمقصود: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا﴾ أشد من الأول -وهو خرق السفينة- في فظاعته واستنكار العقول

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٧٨.

(٢) وللمفسرين فيها أقوال: منها: أن الزكية: المطهرة، قاله أبو عبيدة. وهو الراجح؛ لأن ذلك هو المتناسب مع لفظ الغلام، فالغلام به تزكية فطرية وتطهير رباني وفطرة سليمة، فالنفس المطهرة هي التي لا ذنب لها، ولم تذنب قط لصغرها أي: أنها لم تبلغ حد التكليف...، وقال الشيخ ابن عاشور: «والزكاة: الطهارة، مراعاة لقول موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾». ١٦/ ١٣. والله أعلم.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه؟ رقم ١٣٥٩.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ١٩١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٣.

له[1].

ومن قبيل التزكية الفطرية أيضًا ما جاء في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٦-١٩].

يقول الإمام الرازي: «لما علم جبريل عليه السلام خوفها قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ ليزول عنها ذلك الخوف، ولكن الخوف لا يزول بمجرد هذا القول، بل لابد من دلالة تدل على أنه كان جبريل عليه السلام وما كان من الناس»[2].

قال القرطبي: «قال لها جبريل عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ﴾، أسند الفعل إليه وإن كانت الهبة من الله تعالى لأنه أرسل به ﴿لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾. قال ابن عباس: ولدًا صالحًا طاهرًا من الذنوب»[3]. وهو عيسى عليه السلام، أو ناميًا على الخير، أي مترقيًا من سن إلى سن على الخير والصلاح[4].

قال الإمام أبو زهرة: «أي: غلامًا طاهرًا ناميًا في جسمه ونفسه وروحه، وكل ما يتصل بالنمو الإنساني الكامل»[5].

خلاصة القول: أن التزكية الفطرية هي تزكية يمر بها كل إنسان يولد في هذه الحياة الدنيا، وتكون تلك التزكية الفطرية في مرحلة بداية ولادة الإنسان، إلى مرحلة أن يصير غلامًا؛ لأنه في تلك المرحلة غير مكلف، بل هو في مرحلة الصفاء والنقاء والإيمان الفطري بالله. وتمتد التزكية الدائمة من الله بعد ذلك للأنبياء دون غيرهم؛ لأنهم متصفون بالعصمة والوقوع في الزلل.

ثانيًا: التزكية المكتسبة:

يقصد بالتزكية المكتسبة: التزكية التي يكتسبها الإنسان من خلال مجاهدته لنفسه الأمارة بالسوء، ومقاومة شهواته المختلفة؛ لتتخلى تلك النفس عن القبائح والرذائل، وتتحلى بالفضائل من السلوكيات والأخلاق، من خلال العمل بالطاعات والمبرات والقربات، وهذا يعني أن التزكية المكتسبة تحتاج لأمرين: الأمر الأول: عزيمة قوية وإرادة متينة. الثاني: الاستمرار طالما بقي الإنسان على قيد الحياة.

من أجل ذلك أمر الله الحق بها، فقال تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى

(١) الوسيط، طنطاوي ٨/ ٥٥٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٢٣.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ١٨٤.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٨.
(٥) زهرة التفاسير ٩/ ٤٦٢٣.

﴿ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ٨١].

يحض الحق سبحانه وتعالى على تزكية النفوس وتطهيرها فيقول: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

يقول تعالى ذكره: ومن يتطهر من دنس الكفر والذنوب بالتوبة إلى الله، والإيمان به، والعمل بطاعته، فإنما يتطهر لنفسه، وذلك أنه يثيبها به رضا الله، والفوز بجنانه، والنجاة من عقابه الذي أعده لأهل الكفر به(١).

فالجملة الكريمة دعوة من الله تعالى للناس إلى تزكية النفوس وتطهيرها من كل سوء، بعد بيان أن كل نفس مسؤولة وحدها عن نتائج أفعالها، وأن أحدًا لن يلبي طلب غيره في أن يحمل شيئًا عنه من أوزاره(٢).

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يعني: وإلى الله مصير كل عامل منكم أيها الناس، مؤمنكم وكافركم، وبركم وفاجركم، وهو مجازٍ جميعكم بما قدم من خير وشر على ما أهل منه(٣).

قال الرازي: «ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مصير المتزكي إن لم تظهر فائدته عاجلًا، فالمصير إلى الله يظهر عنده في يوم اللقاء في دار البقاء، والوازر إن لم تظهر تبعة وزره في الدنيا فهي تظهر في الآخرة؛ إذ المصير إلى الله»(٤).

قال صاحب الظلال: «﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ لا لك ولا لغيرك. إنما هو يتطهر لينتفع بطهره. والتطهر معنى لطيف شفاف، يشمل القلب وخوالجه ومشاعره، ويشمل السلوك واتجاهاته وآثاره. وهو معنى موحٍ رفاف. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهو المحاسب، والمجازي، فلا يذهب عمل صالح، ولا يفلت عمل سيئ، ولا يوكل الحكم والجزاء إلى غيره ممن يميلون أو ينسون أو يهملون»(٥).

إذن القرآن يدعوا إلى تزكية النفس ويدعو الإنسان إلى السعي والبحث عن الوسائل التي تساعده على تزكية نفسه، وتطهيرها من الآثام والذنوب، وسيأتي الحديث عن تلك الوسائل في السطور القادمة إن شاء الله.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٥٦.
(٢) الوسيط، طنطاوي ١١/ ٣٤٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٥٦.
(٤) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٢٣١.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٣٩.

التزكية وظيفة الأنبياء وأتباعهم

لقد نسب الحق سبحانه وتعالى التزكية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه المربي والمزكي لأمته، والمرشد لها إلى طريق الخير، وهذه هي المهمة التي كلفه الله تعالى بها وأمره بأدائها.

قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥١-١٥٢].

وقد اختلف المفسرون في اتصال قوله: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ بما قبلها أو بعدها على قولين: قال العلماء: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ﴾ كاف التشبيه تحتاج إلى شيء ترجع إليه:

فقيل: ترجع إلى ما قبلها: والتقدير: لقد حولت القبلة إلى شطر المسجد الحرام لأتم نعمتي عليكم إتماما مثل إتمام نعمتي عليكم؛ بإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم فيكم؛ إجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل إذ قالا: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ وإن قلنا: إنها متعلقة بما قبلها كان وجه التشبيه: أن النعمة في أمر القبلة كالنعمة بالرسالة. وهو تشبيه يدل على عظم شأن تحويل القبلة إلى الكعبة[1].

وقيل: إن الكاف متعلقة بما بعدها وهو قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾: والتقدير: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ يعلمكم الدين القويم، والخلق المستقيم ومنحتكم هذه النعمة فضلًا مني وكرمًا، ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ بالشكر عليها ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ برحمتي وثوابي، ووجه التشبيه أن النعمة بالذكر جارية مجرى النعمة بإرسال الرسول.

وتبين الآية الكريمة صفات الرسول صلى الله عليه وسلم والتي من بينها التزكية، فعدد هنا خمس صفات هي بمثابة وظائف للرسول، وهي على النحو الآتي:

الصفة الأولى: ﴿أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ وقوله: ﴿فِيكُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ وقدم على المفعول تعجيلًا بإدخال السرور، وقوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ في موضع نصب؛ لأنه صفة لقوله: ﴿رَسُولٗا﴾ والمخاطبون بهذه الآية الكريمة هم العرب. وفي إرساله الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم وهو منهم نعمة تستوجب المزيد من الشكر؛ لأن إرساله منهم يسبقه معرفتهم لنشأته الطيبة وسيرته العطرة، ومن شأن هذه المعرفة أن تحملهم على المسارعة إلى تصديقه والإيمان به، ولأن في إرساله فيهم وهو منهم شرف عظيم لهم، ومجد لا يعدله

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٩٢.

مجد؛ حيث جعل سبحانه خاتم رسله من هذه الأمة، ولأن المشهور من حالهم الأنفة الشديدة من الانقياد، فكون الرسول منهم ادعى إلى إيمانهم به وقبولهم لدعوته[1].

فالحق يمن على العرب بأن جعل فيهم رسولًا منهم ليقول مانًا عليهم بذلك، كما من عليهم بجعل القبلة إلى الحرم الآمن الذي قدسوه وكرموه، فالرسول صلى الله عليه وسلم أرسل فيهم وهو منهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. [التوبة: ١٢٨].

فهو فيهم ومنهم، وهو أكثر تأليفًا لقلوبهم، ورعاية لنفوسهم وهو الحق من ربهم[2].

وقد قال كذلك: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]

الصفة الثانية: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾.

قال صاحب اللباب: «فيه نعمٌ عليكم عظيمة؛ لأنه معجزة باقية تتأدى به العبادات، ومستفاد منه مجامع الأخلاق الحميدة. وإذا كان المراد بالآيات القرآن، فالتلاوة فيه ظاهرة، وإذا كان المراد بالآيات المعجزات، فمعنى التلاوة لها تتابعها؛ لأن الأصل في التلاوة التتابع، يقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضًا أي بعضهم إثر بعض»[3].

وفي هذه الجملة -كما قال الألوسي- إشارة إلى طريق إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام؛ لأن تلاوة الأمي للآيات الخارجة عن طوق البشر باعتبار بلاغتها واشتمالها على الإخبار بالمغيبات والمصالح التي ينتظم بها أمر المعاد والمعاش؛ أقوى دليل على نبوته[4].

الصفة الثالثة: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾.

قال ابن كثير: «أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية»[5].

من وأد البنات، وقتل الأولاد؛ تخلصًا من النفقة، وسفك الدماء لأوهن الأسباب، ويغرس فيها فاضل الأخلاق وحميد الآداب. وبهذه الزكاة التي زكوا بها أنفسهم فتحوا الممالك الكبرى، وكانوا أئمة الأمم التي كانت تحتقر هذا الجنس، وعرفوا لهم فضلهم بعدلهم وسياستهم للأمم سياسة حكيمة أنستهم سياسة الأمم التي قبلهم، وجعلت لذلك الدين أثرًا عميقًا في

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٢٣، لباب التأويل، الخازن ١/ ٩٢.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٦٢.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣/ ٧٤.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٢/ ١٨
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٦٤.

نفوسهم، فدانوا لحكمه خاضعين، واهتدوا بهديه راشدين[1].

فالتزكية تطهير النفس؛ لأن في أصل خلقة النفوس كمالات وطهارات تعترضها أرجاس ناشئة عن ضلال أو تضليل، فتهذيب النفوس وتقويمها يزيدها من ذلك الخير المودع فيها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤-٦].

وفي الحديث: (بعثت لأتمم حسن الأخلاق)[2]، ففي الإرشاد إلى الصلاح والكمال نماء لما أودع الله في النفوس من الخير في الفطرة[3].

«إن الإسلام كما جاء بالتوحيد الماحي للشرك، جاء بالتهذيب المطهر من سفساف الأخلاق وقبائح العادات والمعاصي التي كانت فاشية في العرب، فقد كانوا يئدون بناتهم -يدفنونهن أحياء- ويقتلون أولادهم للتخلص من النفقة عليهم، وذلك نهاية القسوة والشح، وكانوا يسفكون الدماء فيما بينهم لأهون سبب يثير حميتهم الجاهلية؛ لما اعتادوه من البغي في الثارات، ومن شن الغارات، ونهب بعضهم بعضًا، وكان عندهم من التسفل أن أحدهم يتزوج زوج أبيه أو يعضلها حتى تفتدي منه، إلى غير ذلك. وقد زكاهم النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك كله باقتدائهم بأخلاقه العظيمة في عباداته الكاملة وآدابه العالية، وجمعهم بعد تلك الفرقة، وألف الله بينهم على يديه، حتى صاروا كرجل واحد، وجعلت شريعته ذمتهم واحدة يسعى بها أدناهم، فإذا أعطى مولى أو رقيق لهم أمانا لأي إنسان محارب؛ كان ذلك كتأمين أمير المؤمنين له، فأي تزكية أعلى من هذه التزكية؟»[4].

وقدمت جملة ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ هنا على جملة ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ عكس ما جاء في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ لأن المقام هنا للامتنان على المسلمين، فقدم ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم، وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتمامًا بها، وبعثًا لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلًا للبشارة بها. أما في دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما

(١) تفسير المراغي ٢/ ١٨.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، ١٤/ ٥١٢، رقم ٨٦٥٢.
قال ابن عبدالبر في الاستذكار ٨/ ٢٨٠: «وهذا حديثٌ مسندٌ صحيحٌ».
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٤٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٩.

(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٢٣.

تضمنته في الخارج، مع ما في ذلك التخالف من التفنن. وقيل: حيث يقدم التزكية يكون معظم المخاطبين عوامًا مقلدين ليسوا أهلًا لتعلم الحكمة والكتاب، فتكون التزكية أهم، وحيث يقدم التعليم يكون المخاطبون خواصًا، فيكون الأهم التعليم مع أن كلا الأمرين مطلوب[1].

وإذا أشرقت النفوس بنور الحق، وتحلت بالأخلاق الحميدة، قويت على تلقي ما يرد عليها من الحقائق السامية. فقال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي صفة رابعة للرسول صلى الله عليه وسلم. أي: ويعلمكم القرآن الكريم، ويبين لكم ما انطوى عليه من الحكم الإلهية، والأسرار الربانية، التي لأجلها وصف بأنه هدى ونور، فالنبى صلى الله عليه وسلم كان يتلوه عليهم ليحفظوا نظمه ولفظه؛ حتى يبقى مصونًا من التحريف والتصحيف، ويرشدهم إلى ما فيه من أسرار وحكم ليهتدوا بهديه، ويستضيئوا بنوره. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي العلم المقترن بأسرار الأحكام ومنافعها، الباعث على العمل بها، ذاك أن سنة الرسول العملية وسيرته صلى الله عليه وسلم في بيته، ومع أصحابه في السلم والحرب، والسفر والإقامة، فى القلة والكثرة، جاءت مفصلة لمجمل القرآن، مبينة لمبهمه، كاشفة لما في أحكامه من الأسرار والمنافع، ولولا هذا الإرشاد العملي لما كان البيان القولي كافيًا في انتقال الأمة العربية من طور الشتات والفرقة والعداء والجهل، إلى الائتلاف والاتحاد، والتآخي والعلم، وسياسة الأمم.

فالنبى صلى الله عليه وسلم وقف أصحابه على فقه الدين، ونفذ بهم إلى سره، فكانوا حكماء علماء عدولًا أذكياء، حتى إن أحدهم كان يحكم المملكة العظيمة، ويقيم فيها العدل، ويحسن السياسة، وهو لم يحفظ من القرآن إلا بعضه، لكنه فقهه وعرف أسرار أحكامه[2].

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ صفة خامسة له صلى الله عليه وسلم. قال القاسمي: «تنبيه على أنه تعالى أرسل رسوله على حين فترة من الرسل، وجهالة من الأمم، فالخلق كانوا متحيرين ضالين في أمر أديانهم. فبعث الله تعالى النبي بالحق، حتى علمهم ما احتاجوا إليه في دينهم، فصاروا أعمق الناس علمًا، وأبرهم قلوبًا، وأقلهم تكلفًا، وأصدقهم لهجة، وذلك من أعظم أنواع النعم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية.

وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٥.

(٢) تفسير المراغي ٣/ ١٩.

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قال ابن عباس يعني: بنعمة الله، محمدًا صلى الله عليه وسلم. والمراد بعدم علمهم: أنه ليس من شأنهم أن يعلموه بالفكر والنظر وغير ذلك من طرق العلم؛ لانحصار الطريق في الوحي.

ومما لم يكونوا يعلمونه وعلمهم إياه صلى الله عليه وسلم: وجوه استنباط الأحكام من النصوص أو الأصول المستمدة منها، وأخبار الأمم الماضية، وقصص الأنبياء، وغير ذلك مما لم تستقل بعلمه عقولهم. وبهذا النوع من التعليم صار الدين كاملًا قبل انتهاء عهد النبوة[١].

إذًا التزكية هي إحدى وظائف الأنبياء عليهم السلام جميعًا، وقد أدوها خير الأداء دون تقصير أو إخلال، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد بلغ الرسالة و أدى الأمانة، وبما أن العلماء الذين هم الصف الأول في اتباع الأنبياء، فهم ورثة الأنبياء، والأنبياء عليهم السلام لم يورثوا درهما ولا دينارًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر، إن مهمة التزكية تنتقل إليهم بوفاة الأنبياء.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢١١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٧٩.

وسائل التزكية في القرآن

إن طبيعة الأديان تعتبر النفس الصالحة هي البرنامج المفضل لكل إصلاح، والخلق القوي هو الضمان الخالد لكل حضارة. وليس في هذا تهوين، ولا غض من عمل الساعين لبناء المجتمع والدولة، بل هو تنويه بقيمة وأهمية تزكية النفوس والإصلاح النفسي في صيانة الحياة وإسعاد الأحياء.

إن النفس المختلسة تثير الفوضى في أحكم النظم، وتستطيع النفاذ منه إلى أغراضها الدنيئة، والنفس الكريمة ترقع الفتوق في الأحوال المختلفة، ويشرق نبلها من داخلها، فتحسن التصرف والمسير وسط الأنواء والأعاصير[٢]، ومن هنا كان حتمية تزكية النفس وإصلاحها وتقويمها، وسوف نستعرض أهم وسائل التزكية من خلال القرآن على النحو الآتي:

لكن قبل ذلك نقول: أنه يقصد بوسائل التزكية: الأعمال التي تؤثر تاثيرًا مباشرًا على النفس بأن تشفيها من مرض، أو تخرجها من أسر، أو تحققها بخلق[٣].

أولًا: الإيمان:

الأساس الأول في التزكية هو الإيمان

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالي ص٢١.

(٣) المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى ص ٢٧.

بالله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، فهذا هو الوسيلة الأساسية والأولى التي تبنى عليها كافة الوسائل الأخرى للتزكية، فلابد لكل بناء من أساس، وبمقدار قوة ذلك الأساس ورسوخه بمقدار ما ينهض البناء ويعلو ويقاوم الأعاصير، وبناء النفس على الاستقامة والصلاح، أساسه العبودية الحقة لله وحده، والإيمان به سبحانه وتعالى وبالدين الحق الذي ارتضاه لعباده؛ ليكون لهم شرعة ومنهاجًا، والإيمان ليس مجرد إعلان المرء بلسانه أو كلمات يرددها بين الحين والآخر، وإنما هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، فهو عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويصحبه الخضوع والطاعة والتسليم والعبادة، وكلما ازداد الإيمان رسوخًا أثمر ثمراته اليانعة في تزكية النفس واستقامة السلوك[1].

والقرآن قد بين أركان الإيمان الستة في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقد جاء في حديث جبريل المشهور بيان لأصل الإيمان الذي هو التصديق الباطن، وفيه تفصيل لما يجب أن نؤمن به، وذلك جوابًا عن قوله صلى الله عليه وسلم: (فأخبرني ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال صلى الله عليه وسلم: صدقت)[2].

فالإيمان بالله من شأنه أن يفجر المشاعر النبيلة، ويوقظ حواس الخير، ويربي ملكة المراقبة، ويبعث على طلب المعالي من الأمور وأشرفها، وينأى بالمرء عن محقرات الأعمال وسفسافها.

والإيمان بالملائكة يدعو إلى التشبه بهم والتعاون معهم على الحق والخير، كما يدعو إلى الوعي الكامل واليقظة التامة، فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو حسن، ولا يتصرف إلا لغاية كريمة.

والإيمان بالكتب السماوية السابقة، إنما هو عرفان بالمنهج الرشيد الذي رسمه الله للإنسان كي يصل بالسير عليه إلى كماله المادي والأدبي.

(١) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي ص ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم ٩.

والإيمان بالرسل إنما يقصد به ترسم خطاهم، والتخلق بأخلاقهم، والتأسي بهم، باعتبارهم أنهم يمثلون القيم الصالحة، والحياة النظيفة التي أرادها الله للناس. فالتمسك بما جاءوا به هو الطريق الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة.

والإيمان باليوم الآخر هو أقوى باعث على فعل الخير، وترك الشر، فيحرص الإنسان على طاعة الله؛ رغبة في ثواب ذلك اليوم، والبعد عن معصيته؛ خوفًا من عقاب ذلك اليوم.

والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره، يزود المؤمن بقوى وطاقات إيمانية تساعده على تحدي كل العقاب والصعاب. والمؤمن بالقدر إذا رزقه الله مالًا، أو جاهًا أو علمًا أو غير ذلك تواضع لله؛ لعلمه أن هذا من الله ويقدر الله، ولو شاء لانتزعه منه، إنه على كل شيء قدير، كما أنه يجعله يرضى بالله ربًا مدبرًا مشرعًا، فتمتلئ نفسه بالرضا عن ربه، فإذا رضي بالله أرضاه الله[1].

وهكذا يبدو بجلاء أن العقيدة الإسلامية، وأسسها يقصد بها تهذيب السلوك، وتزكية النفوس، وتوجيهها نحو الأمثل، فضلًا عن أنها حقائق ثابتة، بل هي تعد من أعلى المعارف الإنسانية إن لم تكن أعلاها على الإطلاق، وتهذيب سلوك الفرد وتزكية نفسه

(١) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص١١.

من خلال الإيمان وغرس العقيدة الإيمانية هو من أعظم أساليب التربية، ذلك أن للدين سلطانًا على النفوس وتأثيرًا على المشاعر والأحاسيس، لا يكاد يدانيه في سلطانه وتأثيره شيء آخر من الوسائل التي ابتكرها العلماء والحكماء ورجال التربية[2].

ولهذا جعل القرآن الإيمان رأس تزكية النفوس، فقال موسى عليه السلام لفرعون عدو الله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨-١٩]

قال الطبري: «فقل له يا موسى: هل لك إلى أن تتطهر من دنس الكفر، وتؤمن بربك؟»[3]. يعني: هل ترغب في توحيد ربك، وتشهد أن لا إله إلا الله، وتزكي نفسك من الكفر؛ فتطهر من الذنوب[4] وهذا لطف في الاستدعاء؛ لأن كل عاقل يجيب مثل هذا السؤال بنعم، وتزكى[5].

فالمقصود من الآية: حثه على أن يستعد لتخليص نفسه من العقيدة الضالة التي هي خبث مجازي في النفس، فيقبل إرشاد من يرشده إلى ما به زيادة الخير، فإن فعل المطاوعة يؤذن بفعل فاعل يعالج نفسه ويروضها إذ كان لم يهتد أن يزكي نفسه

(٢) المصدر السابق.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٠١.
(٤) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٤٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢٠١.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٩٨.

بنفسه[١].

فالحق أرشده إلى طريق الدعوة بألطف طريق؛ وذلك أن يعرض عليه ليؤامر نفسه ويرى رأيه، كما تقول للضيف: ألا تنزل بنا؟ وهذا فحوى قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[٢].

وهنا يرد سؤال: لم أمرا بتليين القول للعدو المعاند؟ جوابه: لأن من عادة الجبابرة إذا أغلظ لهم في الكلام أن يزدادوا عتوًا وعلوًا. وقيل: لما له من حق تربية موسى شبه حق الأبوة[٣].

ولما أشار له إلى الطهارة عن الشرك، أتبعها بالأعمال فقال: ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ أي: أبين لك بعد التزكية بالإيمان الذي هو الأساس: كيف المسير ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: الموجد لك، والمحسن إليك، والمربي لك بتعريفك ما يرضيه من الأعمال، وما يغضبه من الخصال، بعد أن بلغك في الدنيا غاية الآمال ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ أي: فيتسبب عن ذلك أنك تصير تعمل أعمال من يخاف من عذابه خوفًا عظيمًا، فتؤدي الواجبات وتترك المحرمات وسائر المنهيات، فتصير إلى أعلى رتب التزكية، فتجمع ملك الآخرة إلى ملك الدنيا، فإن الخشية هي الحاملة على كل خير، والأمن هو الحامل على الشر. وتقديم التزكية على الهداية لأنها تخلية[٤].

أي: أن المطلوب أولًا: التخلي عن دنس الشرك والكفر بالإيمان، ثم التحلي ثانيًا بخصال الخير والفضائل وملء النفس بالأخلاق الفاضلة، وإحلالها محل الأخلاق الرذيلة -وعلى رأسها الشرك- بعد أن خليت منها.

وقوله: ﴿هَل لَّكَ﴾ خبر مبتدأ مضمر. و﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ متعلق بذلك المبتدأ، وهو حذفٌ سائغٌ، والتقدير: هل لك سبيل إلى التزكية، ومثله: هل لك في الخير، تريد: هل لك رغبة في الخير[٥].

وفى هذا الأسلوب القرآنى الخطة المثلى، والمثل الكامل القويم لأصحاب الدعوات، من القادة، والزعماء، والمصلحين، إنهم لن يبلغوا بدعوتهم مواطن الإقناع، ولن يحصلوا منها على ثمر طيب، إلا إذا جعلوا الرفق واللين سبيلهما إلى الناس، والا إذا غذوها بمشاعر الحب، والرغبة الصادقة فى الإصلاح، وبخاصة إذا كان الداعي يدعو إلى حق، ويهدف إلى هدى وإصلاح، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[النحل: ١٢٥].

وليس مما يدخل فى هذا الباب،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٧٧.
(٢) غاية الأماني، الكوراني ص٣٢٤.
(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٥٤٧.
(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢١/ ٢٣١، روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٣٠.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ١٣٦.



المداهنة، والمخادعة، والنفاق، فذلك كله شر، إذا اختلط بالدعوة الصالحة أفسدها، وإذا خالط الحق أثار الدخان الكثيف في سمائه الصافية، فغشى على الأبصار، وحجب الرؤية عن مواقع الهدى[1].

ومن هنا يظهر لنا أن نقطة البداية والنهاية في تزكية النفس هي التوحيد، فهو الذي يطهر النفوس من أدران الشرك، وما يستتبعه الشرك من عجب وغرور، وكبر وحسد، وغير ذلك، وبقدر ما يتعمق التوحيد في النفس بقدر ما تزكو وتتحقق بثمرات التوحيد من صبر وشكر، وعبودية، وتوكل، ورضا[2].

ثانيًا: أمهات العبادات:

إن العبادات التي شرعت في الإسلام واعتبرت أركانًا في الإيمان به ليست طقوسًا مبهمة في النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة، ويكلفه بأداء أعمال غامضة، وحركات لا معنى لها، كلا، فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل متنسب إليه، هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يطهر نفسه من قبائح الأعمال، فالصلاة والصيام والحج، وما

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٦/ ١٤٣٨.

(٢) المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى ص٢٨.

أشبه هذه الطاعات من تعاليم الإسلام هي مدارج الكمال المفرد، وروافد التطهر الذي يصون الحياة ويعلي شأنها، فإذا لم يستفد المرء منها ما يزكي قلبه، وينقي لبه، ويهذب بالله وبالناس صلته فقد هوى[3] وسوف نعرض لذلك كما يلي:

الوسيلة الأولى: الصلاة:

تأتي الصلاة في الرتبة الأولى من العبادات التي لها دور في تزكية النفس، وتطهيرها من الآثام والشرور، ولأهمية هذه الشعيرة عند الحق لم يعف منها مسلم ولا مسلمة -كأصل عام- مهما كانت ظروفهما، فلا يحول دون أدائها فقر ولا ضعف، ولا مرض ولا سفر، بل لم يعف منها مسلم وقت الحرب -ولذلك كانت صلاة الخوف-، وهذا دليل قاطع على منزلة الصلاة عند الله؛ لما فيها من فوائد تعود على مؤديها بالخير والصلاح في الدنيا والآخرة[4].

فالصلاة أبان الله لنا الحكمة منها قائلًا: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

يقول الإمام ابن كثير: «إن الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، أي: إن مواظبتها تحمل على

(٣) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ٩.

(٤) القرآن والسلوك الإنساني، محمد سليم ص٥٧.

ترك ذلك»[1].

فالصلاة تنأى بالمؤمن عن الغرور بمتاع الدنيا، والاستعلاء على غيره من خلق الله وظلمهم والطغيان فيهم، حين يقف بين يدي الواحد الديان، خاشعًا مكبرًا ومتجردًا ومنصرفًا عن كل متاع الدنيا وزخرفها، متوجهًا إلى الحق سبحانه إيمانًا بأن العزة كلها لله. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ حين تقام حق القيام ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ ذلك أنها اتصال بالله، يخجل صاحبه ويستحيي أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقى الله بها، وهي تطهرٌ وتجردٌ لا يتسق معها دنس الفحشاء والمنكر وثقلهما[2].

فالصلاة في الإسلام تشكل دعامة أساسية من دعامات التهذيب النفسي، فالإبعاد عن الرذائل، والتطهير من سوء القول، وسوء العمل، هو حقيقة الصلاة، وهذا هو جوهر التزكية.

الوسيلة الثانية: الزكاة:

إن الزكاة -ومثلها الصدقة- ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب، بل هي تطهير للنفس من داء البخل والشح، وتدريبها على البذل والسخاء، وتربيتها على الإنفاق والعطاء. وعليه فتشكل الزكوات والإنفاق في سبيل الله الوسيلة الثانية في الأهمية في باب التزكية، قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

والإنفاق في سبيل الله هو الذي يطهر النفس من الشح فتزكو بذلك النفس[3] كما قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة ١٠٣].

قال ابن عباس: لما أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة وصاحبيه انطلق أبو لبابة وصاحبه، فأتوا بأموالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: خذ أموالنا وتصدق بها عنا، وصل علينا، يريدون استغفر لنا وطهرنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا آخذ شيئًا منها حتى أومر به)، فأنزل الله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ...﴾ الآية. فظاهر قوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ أن الزكاة إنما وجبت لكونها طهرة من الآثام. فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم به[4].

وكأن الحق يقول: ﴿خُذْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: من أموال هؤلاء المذنبين التائبين النادمين عما صدر عنهم

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٨٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٣٨، القرآن والسلوك الإنساني، محمد سليم ص٦٠.

(٣) المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى ص٥١.

(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٠٣.



من المخالفة حين أذنوا لك أن تخرج أنت منها ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن أدناس الطبيعة المولعة بحب المال والحرص في جمعها ونمائها ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: تصفي بواطنهم عن الشواغل العائقة عن اللذات الروحانية.

قال ابن كثير: «وهذا عام، وإن أعاد بعضهم الضمير في ﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ إلى الذين اعترفوا بذنوبهم، وخلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا»[1].

فالزكاة تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك، وإنما طهارته بقدر بذله، وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى[2]؛ ولهذا جعل الحق الإنفاق والزكاة سببًا من الوقاية من النار فقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧-١٨].

غاية القول: أن للزكاة دورًا في تزكية النفس؛ ذلك أنها تدرب الإنسان على قهر نفسه وقمع شهواتها، بل يتعدى دور الزكاة إلى تزكية وتطهير نفس المحتاجين من الحقد والحسد، والمقاربة بين نفوس المؤمنين، فيحل التحاب والتواد محل البغضاء والكراهية.

الوسيلة الثالثة: الصوم:

يأتي الصوم في المرتبة الثالثة من الأهمية في تزكية الأنفس، فمن الشهوات العاتية عند الإنسان شهوتا البطن والفرج، ذلك أن المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية؛ لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين.

وتضيق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن كل عضو منها وكل قوة عن جماحه وتلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثارا لمحبة الله ومرضاته، وهو سر بين العبد وربه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمر لا يطلع عليه بشر، وذلك حقيقة الصوم[3].

إن الصوم علاج للنفس للبشرية، فرضه

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٠٧.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ١/ ٢١٤.
(٣) زاد المعاد، ابن القيم ٢/ ٢٧.

الله لحكمة ارتضاها؛ وقاية وصيانة وجهادًا وتربية وترقية وتهذيبًا، كما قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

لأن الصيام وصلة إلى التقى؛ إذ هو يكف النفس عن كثير مما تتطلع إليه من المعاصي[(١)].

فالحق سبحانه بين بهذا الكلام أن الصوم يورث التقوى؛ لما فيه من انكسار الشهوة وانقماع الهوى، فإنه يردع عن الأشر والبطر والفواحش، ويهون لذات الدنيا ورئاستها؛ وذلك لأن الصوم يكسر شهوتي البطن والفرج، وإنما يسعى الناس لهذين، كما قيل في المثل السائر: المرء يسعى لعارية بطنه وفرجه، فمن أكثر الصوم هان عليه أمر هذين، وخفت عليه مؤنتهما، فكان ذلك رادعًا له عن ارتكاب المحارم والفواحش، ومهونًا عليه أمر الرياسة في الدنيا، وذلك جامع لأسباب التقوى[(٢)].

والحديث عن الصيام ذو شجون، جملة الحديث: أن الصوم كما يقول الإمام الكمال بن الهمام -أحد فقهاء الحنفية- في فوائد الصوم: «أن الصوم يسكن النفس الأمارة بالسوء ويكسر سورتها في الفضول المتعلقة بجميع الجوارح، من العين واللسان والأذن والفرج؛ ولذلك قيل: إذا جاعت النفس شبعت جميع الأعضاء، وإذا شبعت جاعت كلها»[(٣)].

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يوصي الشباب، والذين تموج بهم عواصف الشهوات، وتكون غرائزهم مهيأة لاقترافها أكثر من غيرهم بالزواج، فإن لم يستطيعوا إليه سبيلًا، فإن أنجع طريق لهم مقيدة لشهواتهم وكسر حدتها الصوم؛ فيقول صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب: من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء)[(٤)].

الوسيلة الرابعة: الحج:

الحج في الإسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة، بالغ، عاقل، قادر على تكاليف الحج والقيام به، كما قال الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد نوه الحق بشأن دور الحج في

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي١/ ١٤١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٤١.
(٣) فتح القدير، ابن الهمام ٢/ ٣٠٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: من استطاع منكم الباءة فليتزوج، رقم ٥٠٦٥، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، رقم ١٤٠٠.

تهذيب النفوس ومعالجته لها من بعض أمراضها فقال: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[البقرة: ١٩٧].

بين الحق أثر الحج في تهذيب النفوس والسلوكيات فقال: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]

يبين الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية ثلاثة أمور ينبغي أن يتنبه إليها كل مسلم، لأهميتها في تزكية النفوس:

أولًا: الرفث:

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: من أحرم بالحج أو العمرة، فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذا التكلم به بحضرة النساء. أي: التعريض بذكر الجماع، ذلك بأن يقول مثلًا: (إذا حللنا فعلت بك كذا وكذا)، وما أشبه ذلك»[1].

قال ابن العربي: «المراد بقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ نفيه مشروعًا لا موجودًا، فإنا نجد الرفث فيه ونشاهده، وخبر الله سبحانه لا يجوز أن يقع بخلاف مخبره، وإنما يرجع النفي إلى وجوده مشروعًا لا إلى وجوده محسوسا»[2].

ثانيًا: الفسوق:

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ قيل: هي المعاصي. وقيل: الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم. وقيل: الفسوق هاهنا السباب، متمسكين بما ثبت في الصحيح (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر)[3].

ثم قال بعد ذكر تلك الأقوال: «والذين قالوا: الفسوق هاهنا هو جميع المعاصي، معهم الصواب، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السنة منهيا عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم آكد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال في الحرم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]»[4].

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ١٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٤٣.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ١٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم ٦٠٤٤، ومسلم في صحيحه، كتب الإيمان، باب بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم: سباب المسلم فسوق وقتاله كفرٌ، رقم ٦٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٤٦.

صلى الله عليه وسلم: (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[1].

ثالثًا: الجدال:

قال ابن عباس: الجدال هو المراء، وهو أن يماري الرجل صاحبه ويخاصمه حتى يغضبه. وقيل: هو الجدال الذي يخاف معه الخروج إلى السباب، والتكذيب، والتجهيل[2].

فالمراد النهى عن المماراة والمنازعة التي تؤدى إلى البغضاء وتغير القلوب. قال النيسابوري: «﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي: لا نزاع للسالك الصادق في طلب الوصول لا بالفروع ولا بالأصول، فلا في مالها -أي: الدنيا- مع أحد يخاصم، ولا في جاهها لأحد يزاحم، فمن نازعه في شيء من ذلك يسلمها إليه ويسلم عليه ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]»[3].

فإن قيل: ما الحكمة في أن الله تعالى ذكر هذه الألفاظ الثلاثة: وهي الرفث، والفسوق، والجدال في الحج، من غير زيادةٍ ولا نقصٍ؟. فالجواب: لأنه ثبت في العلوم العقلية أن للإنسان أربع قوىً: قوة شهوانيةٌ بهيميةٌ، وقوةٌ غضبيةٌ سبعيةٌ، وقوةٌ وهميةٌ شيطانيةٌ، وقوة عقليةٌ ملكيةٌ، والمقصود من جميع العبادات قهر القوى الثلاث، أعني: الشهوانية والغضبية والوهمية. فقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ إشارةٌ إلى قهر الشهوانية. وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ إشارةٌ إلى قهر القوة الغضبية التي توجب المعصية والتمرد. وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ إشارةٌ إلى قهر القوة الوهمية، التي تحمل الإنسان على الجدال في ذات الله، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وأسمائه، وهي الباعثة على منازعة الناس، ومماراتهم، والمخاصمة معهم في كل شيءٍ، فلما كان سبب الشر محصورًا في هذه الأمور الثلاثة؛ لا جرم لا يذكر معها غيرها[4].

وقال القاسمي: «قال بعضهم: النكتة في منع هذه الأشياء على أنها آداب لسانية: تعظيم شأن الحرم، وتغليظ أمر الإثم فيه، إذ الأعمال تختلف باختلاف الزمان والمكان، فللملأ آداب غير آداب الخلوة مع الأهل. ويقال في مجلس الإخوان ما لا يقال في مجلس السلطان. ويجب أن يكون المرء في أوقات العبادة والحضور مع الله تعالى على أكمل الآداب، وأفضل الأحوال، وناهيك بالحضور في البيت الذي نسبه الله سبحانه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، رقم ١٥٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، بابٌ في فضل الحج والعمرة، ويوم عرفة، رقم ١٣٥٠.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل٣/ ٤٠٢.
(٣) غرائب التأويل، النيسابوري ١/ ٥٧٣.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل٣/ ٤٠٥.

إليه! وأما السر فيها على أنها محرمات الإحرام، فهو أن يتمثل الحاج أنه بزيارته لبيت الله تعالى مقبل على الله تعالى، قاصد له، فيتجرد عن عاداته ونعيمه، وينسلخ من مفاخره ومميزاته على غيره، بحيث يساوي الغني الفقير، ويماثل الصعلوك الأمير، فيكون الناس من جميع الطبقات في زي كزي الأموات، وفي ذلك -من تصفية النفس، وتهذيبها، وإشعارها بحقيقة العبودية لله، والأخوة للناس- ما لا يقدر قدره، وإن كان لا يخفى أمره!»[(١)].

جملة القول: أن الحج تعويد للنفس على معانٍ، منها بذل الجهد والمال في سبيل الله، والاستسلام والخضوع لأمر الله، وتربية للنفس على خصال الخير ومحامد الطبائع والأخلاق.

ثالثًا: الأخلاق والقيم:

إذا كان القرآن قد بين أن للإيمان أثرًا في تزكية النفوس من خلال التخلي عن الكفر والنفاق، والتحلي بالإيمان والعبودية لله تعالى، كما بين أن للعبادات أثرًا في تزكية النفوس مثل الصلاة والزكاة والحج ونحوهم، أيضًا بين لنا القرآن أثر القيم والأخلاق في تزكية النفوس والارتقاء بها نحو الفضيلة والاستقامة على منهج الإسلام وطريقه الواضح القويم، ويمكن بيان أهمها كما يلي:

أولًا: أكل الطيبات:

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى في سياق الحديث عن أصحاب الكهف:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾

[الكهف: ١٩].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: كما أرقدنا هؤلاء الفتية في الكهف، فحفظناهم من وصول واصل إليهم، وعين ناظر أن ينظر إليهم، وحفظنا أجسامهم من البلاء على طول الزمان، وثيابهم من العفن على مر الأيام بقدرتنا، فكذلك بعثناهم من رقدتهم، وأيقظناهم من نومهم؛ لنعرفهم عظيم سلطاننا، وعجيب فعلنا في خلقنا، وليزدادوا بصيرة في أمرهم الذي هم عليه من براءتهم من عبادة الآلهة، وإخلاصهم لعبادة الله وحده لا شريك له، إذا تبينوا طول الزمان عليهم، وهم بهيئتهم حين رقدوا.

وقوله: ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ يقول: ليسأل بعضهم بعضًا ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ يقول عز ذكره: فتساءلوا، فقال قائل

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٧١.

منهم لأصحابه: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ وذلك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم يقول: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فأجابه الآخرون فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ظنًا منهم أن ذلك كذلك كان، فقال الآخرون: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فسلموا العلم إلى الله»[1].

وقوله: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ يعني: مدينتهم التي خرجوا منها هرابًا، التي تسمى (أفسوس) ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ ذكر أنهم هبوا من رقدتهم جياعًا، فلذلك طلبوا الطعام[2].

وعليه فالمعنى: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾، أي: أحل من جهة أنه ذبيحة مؤمن، أو من جهة أنه غير مغصوب، وأطهر وأجود وأطيب وأكثر بركة وأرخص ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾، أي: بطعام منه. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، أي: وليرفق في السؤال. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾، أي: لا يعلمن بمكانكم أحدًا من الناس. ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾، يعني: إن يطلعوا عليكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾، يقتلوكم. ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾، أي لن تفوزوا، ولن تسعدوا ﴿إِذًا أَبَدًا﴾ إن عبدتم غير الله تعالى[3].

والآية تحمل جملة من الفوائد لها تأثير في تزكية النفس الإنسانية والارتقاء بها: منها كما قال الإمام الألوسي: «والإشارة فيه.... إلى أن اللائق بأهل الإسلام استعمال الورع، ألا ترى كيف طلب القائل الأزكى، ولذلك قال ذو النون: العارف من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه...»[4].

ومنها: الحث على العلم، وعلى المباحثة فيه؛ لكون الله بعثهم لأجل ذلك. ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده. ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك. ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه؛ لقوله: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ [الكهف: ١٩].

ومنها: الحث على التحرز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين. ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم وتركهم أوطانهم في الله. ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد، الداعية لبغضه، وتركه، وأن هذه الطريقة،

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٦٢٧.
(٢) المصدر السابق ١٧/ ٦٢٨.
(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٤٢.
(٤) انظر: روح المعاني، ٨/ ٢٤٧.

هي طريقة المؤمنين المتقدمين، والمتأخرين لقولهم: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠][١].

ثانيًا: الاستئذان عند دخول البيوت أو الرجوع:

وإليه يشير قوله تعالى في سوة النور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٧-٢٨].

جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، فلا يزال يدخل علي رجل من أهلي فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟﴾ الآية[٢].

والنداء للذين آمنوا، وفي ذلك إشارة إلى ما يطلبه سبحانه من خواص أهل الإيمان، وهو من الأدب الذي يناسب إيمانكم وهو عدم التهجم على الأسر، وتكشف أستارها، وتحاشي إزعاجها[٣]. ومعنى قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوتًا ليست لكم[٤].

والصواب من القول في الاستئناس: أن يقال: إن الاستئناس: الاستفعال من الأنس، وهو أن يستأذن أهل البيت في الدخول عليهم، مخبرًا بذلك من فيه، وهل فيه أحد؟ وليؤذنهم أنه داخل عليهم، فليأنس إلى إذنهم له في ذلك، ويأنسوا إلى استئذانه إياهم. وقد حكي عن العرب سماعًا: اذهب فاستأنس، هل ترى أحدًا في الدار؟ بمعنى: انظر هل ترى فيها أحدًا؟[٥].

﴿وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ بيان حكم الآية أنه لا يدخل بيت الغير إلا بعد الاستئذان والسلام. واختلفوا في أيهما يقدم فقال الأكثرون: يقدم السلام، ففي الآية تقديم وتأخير، وهذا صفة الاستعلام والسلام[٦].

فتأويل الكلام إذن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ﴾ (تسلموا وتستأذنوا) وذلك أن يقول أحدكم: السلام عليكم، أأدخل؟[٧].

وعبر سبحانه عن الاستئذان في الدخول بالاستئناس؛ لأنه يوحي بأن القادم قد استأنس بمن يريد الدخول عليهم وهم قد

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٢.
(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٨٤. ٨٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢١٣، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٠.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٧٥.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٨٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٩.
(٦) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٨٨.
(٧) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٩.

أنسوا به، واستعدوا لاستقباله، فهو يدخل عليهم بعد ذلك وهم متهيئون لحسن لقائه، فإذا ما صاحب كل ذلك التسليم عليهم، كان حسن اللقاء أتم وأكمل[1].

فإن قيل: أن كلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، والحكم بعد الغاية يكون بخلاف ما قبلها، فقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ يقتضي جواز الدخول بعد الاستئذان، وإن لم يكن من صاحب البيت إذن، فما قولكم فيه؟

الجواب: من وجوه:

أحدها: أن الله تعالى جعل الغاية الاستئناس لا الاستئذان، والاستئناس لا يحصل إلا إذا حصل الإذن بعد الاستئذان.

وثانيها: أنا لما علمنا بالنص أن الحكمة في الاستئذان أن لا يدخل الإنسان على غيره بغير إذنه فإن ذلك مما يسوءه، وعلمنا أن هذا المقصود لا يحصل إلا بعد حصول الإذن، علمنا أن الاستئذان ما لم يتصل به الإذن وجب أن لا يكون كافيًا.

وثالثها: أن قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ فحظر الدخول إلا بإذن، فدل على أن الإذن مشروط بإباحة الدخول في الآية الأولى[2].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: استئناسكم وتسليمكم على أهل البيت الذي تريدون دخوله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تحية الجاهلية والدمور -وهو الدخول بغير إذن- فكان الرجل من أهل الجاهلية إذا دخل بيت غيره يقول: حييتم صباحًا، وحييتم مساء، ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قيل لكم هذا لكي تذكروا وتتعظوا وتعملوا ما أمرتم به في باب الاستئذان[3] وغيره مما أمركم الله به.

وقد خاطب بالإشارة بأمرين: أولهما- أنه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، لكي تصان الأعراض، وتستر العورات، ولا يكون نطاق اتهام، ونفور بالاستيحاش، وحيث كشفت الأستار كانت الفتن وكان ظن السوء، فتسود القطيعة، والتفاحش، ورمي الأبرياء. ثانيهما- رجاء التذكر وتعرف المصلحة وتحري الاحتشام، حتى من الآباء والأمهات[4].

وقد ثبت في الصحيح: أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثًا، فلم يؤذن له، انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له. فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله صلى

(١) الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٠٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٣٥٨.
(٣) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٩٨.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٧٦. ٥١٧٧

الله عليه وسلم يقول: (إذا استأذن أحدكم ثلاثًا، فلم يؤذن له، فلينصرف). فقال: لتأتين على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربًا. فذهب إلى ملأ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا. فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق[1].

من خلال ما سبق يتضح: أن الاستئناس والتسليم لثلاثة أسباب:

أولها: أن يكون صاحب البيت ليس على حال يصح للقاء واستقبال الناس.

وثانيها: احترام الملكية، سواء أكانت ملكية عينية بأن يكون البيت ملكه، أو ملكية منفعة إذا كان مؤجرًا.

وثالثها: إزالة وحشة المفاجأة[2].

ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨].

قال أبو بكر بعد نزول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا﴾ الآية: يا رسول الله، أرأيت الخانات والمساكن التي ليس فيها ساكن، فنزل ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [النور: ٢٩] الآية[3].

قال ابن العربي: «هذا تبيان من الله لإشكال يلوح في الخاطر، وهو أن يأتي الرجل إلى منزل لا يجد فيه أحدًا، فيقول في نفسه: إذا كانت المنازل خالية فلا إذن؛ لأنه ليس هناك محتجب، فيقال له: إن الإذن يفيد معنيين. أحدهما: الدخول على أهل البيت. والثاني: كشف البيت واطلاعه، فإن لم يكن هنالك أحد محتجب، فالبيت محجوب لما فيه، وبما فيه، إلا بإذن من ربه»[4].

يعني: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ أي: إن وجدتموها خالية ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ أي: إن ردوكم فلا تقفوا على أبوابهم وتلازموها.

والضمير في ﴿تَجِدُوا فِيهَا﴾ للبيوت التي هي بيوت الغير[5] ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: الرجوع هو أطهر وأطيب وأصلح لكم؛ لما فيه من سلامة الصدور والبعد عن الريبة؛ ذلك أنه لا يخلو الإلحاح والوقوف على الباب وفي ذلك من الكراهة وترك المروءة، وهذا لا يليق بكرامة الكريم، أو أنفع لدينكم ودنياكم. قوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب التسليم، رقم ٦٢٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب الاستئذان، رقم ٢١٥٣.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٧٦.
(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٨٤. ٨٦. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢١٣. البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٠.
(٤) أحكام القرآن ٢/ ٣٧٤.
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٨٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢١٩.

من الدخول بالإذن وغير الإذن. ﴿عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما كلفتموه، فيجازيكم عليه، وهو وعيد للمخاطبين، فالمقصود من هذا الإخبار: إفادة لازمه، وهو المجازاة على هذه الأعمال[1].

وهكذا فإن الآيات تظهر عظمة الإسلام في حرصه على حفظ العرض، واحترام الخصوصية، ومراعاة مشاعر الناس، وتقف في وجه النفس الإنسانية التي دوما تريد التطلع والنظر دونما قيود أو شروط، فتأتي تلك الضوابط والتوجيهات لتسمو بالنفس من الدنية إلى الطهر والتزكية التي تصلح الحال وتريح البال.

قال الزمخشري: «وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها من قرع الباب بعنف، والتصييح بصاحب الدار، وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من أكثر الناس»[2].

فهذه آداب اجتماعية شرعية ذات مدلول حضاري، وتمدن رفيع؛ لما فيها من تنظيم لحياة المجتمع، وأحوال الأسر في البيوتات؛ حفظًا لروابط الود والمحبة، وإبقاء على حسن العشرة، وتبادل الزيارات بين المؤمنين[3].

ثالثًا: غض البصر وحفظ الفرج:

ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله وبك يا محمد ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي: يكفوا من نظرهم إلى ما يشتهون النظر إليه، مما قد نهاهم الله عن النظر إليه ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ هذا أمر بالتعفف، و(من) للتبعيض، والمراد غض البصر عما يحرم، والاقتصار به على ما يحل.

فإن قلت: كيف دخلت في غض البصر دون حفظ الفروج؟

قلت: دلالة على أن أمر النظر أوسع. ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن وثديهن وأعضادهن وأسوقهن وأقدامهن، والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الروايتين. وأما أمر الفرج فمضيق، وكفاك فرقًا أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه. -وهذا على أن المراد حفظها عن الإفضاء إلى ما لا يحل[4]-، ولم يذكر

---

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٩٩، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٠، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ٣٤٧، الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١١٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٨.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي ١٣/ ٢٠٠.

(٤) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٠٨، الكشاف ٣/ ٢٢٩.



الله تعالى ما يغض البصر عنه ويحفظ الفرج، غير أن ذلك معلوم بالعادة، وأن المراد منه المحرم دون المحلل[1].

وقيل: المراد حفظها عن الإبداء.. يعني على المعنى الثاني: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا﴾ أبصارهم عن عورات النساء، ويحفظوا فروجهم عن أبصار الناس.

قال الإمام ابن كثير: «وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنى، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: ٢٩-٣٠].

وتارة يكون بحفظه من النظر إليه، كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن: (احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك)[2]»[3].

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ يقول: فإن غضها من النظر عما لا يحل النظر إليه، وحفظ الفرج عن أن يظهر لأبصار الناظرين أو عن الإفضاء إلى ما لا يحل، أطهر لهم عند الله وأفضل ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ يقول: إن الله ذو خبرة بما تصنعون -أيها الناس- فيما أمركم به من غض أبصاركم عما أمركم بالغض عنه، وحفظ فروجكم عن إظهارها لمن نهاكم عن إظهارها له، أو عن ما لا يحل لها[4].

فالأمر للمؤمنين بغض البصر فيه تزكية للنفوس، وتطهير للمجتمع من أدران الفاحشة، والتردي في بؤرة الفساد والتحلل الخلقي، وتجنيب للنفوس من أسباب الإغراء والغواية.

قال الإمام أبو زهرة: «﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ ذلك، وهو غض البصر، وحفظ الفروج، أطهر لكم، فيكون المجتمع طاهرًا نقيًا سليمًا، والبيوت طاهرة سليمة، وهم في ذات أنفسهم أطهار طيبون، ويكونون خيرًا في خير يظلهم الخير دائمًا، ويكونون في قبة من الفضيلة تظلهم، وتؤدي بهم جميعًا إلى جنة الآخرة، كما كانوا في ظلة من الفضيلة في الدنيا»[5].

لذلك فإن رسوله صلى الله عليه وسلم نهى عن النظر إلى الحرام وسماه زنا العين، ففي الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله كتب على ابن

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٢٢.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٣/ ٢٣٥، رقم ٢٠٠٣٤، وأبو داود في سننه، كتاب الحمام، باب ما جاء في التعري، ٤/ ٤٠، رقم ٤٠١٧، والترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب ما جاء في حفظ العورة، ٤/ ٤٩٣، رقم ٢٧٦٩، والنسائي في الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب نظر المرأة إلى عورة زوجها، ٨/ ١٨٧، رقم ٨٩٢٣، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب التستر عند الجماع، ١/ ٦١٨، رقم ١٩٢٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري١٩/ ١٥٤.
(٥) زهرة التفاسير ١٠/ ٥١٨١.

آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمني وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه)[١].

قال الشعراوي: «﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ...﴾ [النور: ٣٠].

يعني: أطهر وأسلم وأدعى لراحة النفس؛ لأنه إما أن ينزع فيرتكب محرمًا، ويلج في أعراض الناس، وإما ألا ينزع فيكدر نفسه ويؤلمها بالصبر على ما لا تطيق. ثم يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

فهو سبحانه خالق هذه النفس البشرية، وواضع مسألة الشهوة والغريزة الجنسية التي هي أقوى الغرائز ليربط بها بين الرجل والمرأة، وليحقق بها عملية النسل وبقاء الاستخلاف في الأرض، ولو لم تربط هذه العلاقة بالشهوة الملحة لزهد الكثيرون في الزواج وفي الإنجاب وما يترتب عليه من تبعات»[٢].

وفي غض البصر عدة منافع:

منها: أنه امتثالٌ لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده.

ومنها: أنه يورث القلب أنسًا بالله وجمعيةً عليه.

ومنها: أنه يقوي القلب ويفرحه.

ومنها: أنه يكسب القلب نورًا.

ومنها: أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها.

ومنها: أن بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انتقال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه، ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب، فسد النظر، وإذا فسد النظر، فسد القلب، وكذلك في جانب الصلاح، فإذا خربت العين وفسدت، خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه، والأنس به والسرور بقربه فيه، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك[٣].

جملة القول: أن غض البصر فيه تزكية للنفس وتطهيرها من أوحال الرذيلة؛ ولذا قال تعالى بعد الأمر بغض البصر: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، كما أن في غض البصر استعلاء على النفس الأمارة بالسوء، وإغلاقًا للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية، ودليلًا صادقًا على قوة العزيمة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، رقم ٦٢٤٣.

(٢) تفسير الشعراوي ١٣/ ١٠٢٥٤.

(٣) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ص١٧٩-١٨٠.

جزاء التزكية

لقد اهتم القرآن الكريم اهتمامًا كبيرًا بتزكية النفس، ولا أدل على ذلك من أن القرآن قد جعل التزكية من وظائف الأنبياء، فضلًا عن كونه بين الكثير من الوسائل التي تعين الإنسان على التزكية بداية من الإيمان، مرورًا بالعبادات، وانتهاءً بالأخلاق -كما رأينا في ثنايا البحث-، وكنتيجة طبيعية لهذا الاهتمام والترغيب في سلوك طريق التزكية رتب القرآن الكريم على تزكية النفس جزاءً عظيمًا في الدنيا والآخرة. فبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان مستحقًا في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة[1].

ويمكننا بيان ذلك الجزاء في القرآن كما يلي:

أولًا: الفلاح والنجاح:

كما قرر ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى ١٤-١٥]

قال الإمام ابن كثير ما مضمونه: «يعني قد فاز وظفر من تطهر من دنس الشرك والمعاصي، وتعهد نفسه بالتزكية والتهذيب والتطهير من الرذائل والمفاسد والأخلاق الوضيعة، وتابع ما أنزل الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه. وعمل بما أمره الله به، ونهاه الله عنه»[2].

ومن هذا تعلم أن تزكية النفس إنما تكون بالإيمان بالله ونفي الشركاء، والتصديق بكل ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم مع صالح العمل والأخلاق الطيبة[3].

وقد قال الله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات ٤٠-٤١].

قال القاسمي: «﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ أي: تذكر جلال ربه وعظمته، فخشع وأشفق وقام بما له وعليه»[4].

قال صاحب الظلال: «يقرر أن هذا الذي تطهر وذكر اسم ربه، فاستحضر في قلبه جلاله: ﴿فَصَلَّىٰ﴾.. إما بمعنى خشع وقنت. وإما بمعنى الصلاة الاصطلاحي، فكلاهما يمكن أن ينشأ من التذكر واستحضار جلال الله في القلب، والشعور بمهابته في الضمير.. هذا الذي تطهر وذكر وصلى ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ يقينًا. أفلح في دنياه، فعاش موصولًا، حي القلب، شاعرًا بحلاوة الذكر وإيناسه، وأفلح في أخراه، فنجا من النار الكبرى، وفاز بالنعيم والرضى»[5].

وعبر سبحانه بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ ليجمع في هذا التعبير البليغ، كل معاني الخير

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٨١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٣٨١.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٣٠/ ١٢٨.
(٤) محاسن التأويل، ٩/ ٤٥٩.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٩٣.

والنفع؛ لأن الفلاح معناه: وصول المرء إلى ما يطمح إليه من فوز ونفع. وجاء التعبير بالماضي المسبوق بقد للدلالة على تحقيق هذا الفلاح بفضل الله تعالى ورحمته.

وقد اشتملت هاتان الآيتان على الطهارة من العقائد الباطلة والمعاصي والذنوب وسوء الأخلاق ﴿تَزَكَّىٰ﴾ وعلى استحضار معرفة الله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ وعلى أداء التكاليف الشرعية التي على رأسها الصلاة فصلى. وهذه المعاني هي التي أوصلت صاحبها إلى الفلاح الذي ليس بعده فلاح[1].

وقد أكد ذلك مرة أخرى: فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس ٩-١٠]

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: دسسها، أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله عز وجل[2]. وأصل فعل دسى: دسس، فلما اجتمع ثلاث سينات، قلبت الثالثة ياء، يقال: دس فلان الشيء إذا أخفاه وكتمه.

قال ابن القيم: «فالطاعة والبر: تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره، وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى. وبهذا الذل لله حصل لها العز والشرف والنمو، فما صغر النفس مثل معصية الله، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله»[3].

قال العلامة البقاعي عند تفسيره لتلك الآية: «قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي ظفر بجميع المرادات ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: نماها وأصلحها وصفاها تصفية عظيمة بما يسره الله له من العلوم النافعة والأعمال الصالحة، وطهرها على ما يسره لمجانبته من مذام الأخلاق؛ لأن كلًا ميسّر لما خلق له، والدين بني على التحلية والتخلية و(زكى) صالح للمعنيين، ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ أي: حرم مراده مما أعد لغيره في الدار الآخرة وخسر، وكان سعيه باطلًا ﴿مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: أغواها إغواء عظيمًا، وأفسدها، ودنس محياها وقذرها وحقرها وأهلكها بخبائث الاعتقاد ومساوىء الأعمال، وقبائح النيات والأحوال، وأخفاها بالجهالة والفسوق، والجلافة والعقوق..»[4].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها)**[5].

ثم قال: «فالتزكية أن يحرص الإنسان

(١) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٣٦٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤١٢.

(٣) التفسير القيم ص٥٧١.
(٤) نظم الدرر ٢٢/ ٧٨.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم ٢٧٢٢.

على شمسه أن لا تكسف، وقمره أن لا يخسف، ونهاره أن لا يتكدر، وليله ألا يطفى، والتدسيس أقله إهمال الأمر حتى تكسف شمسه، ويخسف قمره، ويتكدر نهاره، ويدوم ليله، وطرق ذلك اعتبار نظائر المذكورات من الروحانيات وإعطاء كل ذي حق حقه، فنظير الشمس هي النبوة؛ لأنها كلها ضياء باهر وصفاء قاهر، وضحاها الرسالة، وقمرها الولاية، والنهار هو العرفان، والليل عدم طمأنينة النفس بذكر الله وما جاء من عنده، وإعراضها عن الانقياد لقبول ما جاء من النبوة أو الولاية، والعلماء العاملون هم أولياء الله، ونظير السماء العزة والترفع عن الشهوات، وعن خطوات الشياطين من الإنس والجن، والأرض نظيرها التواضع لحق الله ولرسوله وللمؤمنين، فيكون بإخراجه المنافع لهم كالأرض المخرجة لنباتها، والتدسية خلاف ذلك، من عمل بالسوء»[1].

ثانيًا: الدخول في الجنة ونيل نعيمها:

ويقرر ذلك تعالى في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه ٧٤-٧٦]

قال الإمام ابن كثير: «الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد»[2].

والمجرم: فاعل الجريمة، وهي المعصية والفعل الخبيث. والمجرم في اصطلاح القرآن هو الكافر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩][3].

والهاء في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ضمير الشأن، أي: حال وشأن ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ﴾ يوم القيامة في حال كونه ﴿مُجْرِمًا﴾ أي: مرتكبًا لجريمة الكفر والشرك بالله تعالى ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي: لهذا المجرم ﴿جَهَنَّمَ﴾ يعذب فيها عذابًا شديدًا، من مظاهره: أنه لا يموت فيها فيستريح، ولا يحيى حياة فيها راحة[4].

قال ابن عطية: «هذا مختص بالكافر؛ فإنه معذب عذابًا ينتهي به إلى الموت، ثم لا يجهز عليه فيستريح، بل يعاد جلده ويجدد عذابه، فهو لا يحيى حياة هنية، وأما من يدخل النار من المؤمنين بالمعاصي فهم قبل أن تخرجهم الشفاعة في غمرة، قد قاربوا الموت، إلا أنهم لا يجهز عليهم ولا يجدد عذابهم فهذا فرق ما بينهم وبين الكفار»[5].

(١) نظم الدرر ٢٢/ ٧٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٠٥- ٣٠٧.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢٦٨.

(٤) الوسيط، طنطاوي ٩/ ١٣٠.

(٥) المحرر الوجيز، ٤/ ٥٣.

وقوله: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ أي: ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الطاعات وما أمر به ونهي عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى (من)، وفي التعبير بـ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم، أي: فأولئك المؤمنون العاملون للأعمال الصالحات -وما أمر به ونهي عنه- لهم بسبب إيمانهم وعملهم ذلك ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات[(١)].

قال الإمام الطبري: «ثم بين تلك الدرجات العلى ما هي، فقال: هن ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ يعني: جنات إقامة لا ظعن عنها ولا نفاد لها ولا فناء ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ يقول: تجري من تحت غرفها وسررها وأشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من الخمر والعسل واللبن والماء ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكثين فيها إلى غير غاية محدودة؛ فالجنات من قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ مرفوعة بالرد على الدرجات. أي: بدل من ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾.

وهذه الدرجات العلى -التي هي جنات عدن على ما وصف جل جلاله- ثواب من طهر نفسه من الدنس والخبث والذنوب، فعبد الله وحده لا شريك له، وصدق المرسلين فيما جاءوا به من خبر وطلب. فأطاع الله فيما أمره، ولم يدنس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه. وهذا معنى قوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾»[(٢)].

قال الشيخ الشعراوي: «فمعنى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهر من المعاصي، ثم نمى نفسه، ومعنى التنمية هنا: ارتقاءات المؤمن في درجات الوصول للحق، فهو مؤمن بداية، لكن يزيد إيمانه وينمو ويرتقي يومًا بعد يوم، وكلما ازداد إيمانه ازداد قربه من ربه، وازدادت فيوضات الله عليه. والطهارة للأشياء سابقة على تنميتها؛ لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

إذن: زكى نفسه: طهرها أولًا: ثم ينميها ثانيًا، كمن يريد التجارة، فعليه أولًا: أن يأتي برأس المال الطاهر من حلال ثم ينميه، لكن لا تأتي برأس المال مدنسًا ثم تنميه بما فيه من دنسٍ. وكلما نمى الإنسان إيمانه ارتقى في درجاته، فكانت له الدرجات العلا في الآخرة»[(٣)].

ثالثًا: النجاة من النار:

ويبين ذلك قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل ١٤-١٨].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٠٥- ٣٠٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٤٢.

(٣) تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٣٣٦.

في هذه الآيات يبين لنا القرآن صفات صنفين من الناس: صنف من الذين يكون مصيرهم النار، وصنف من الذين يكون مصيرهم الابتعاد عنها، كما يبين أعمال كلٍ منهم التي قادته إلى مصيره.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أيها الناس ﴿نَارًا﴾ تتوهج، وهي نار جهنم، يعني: احذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا، وتكفروا به، فتصلونها في الآخرة»[1].

قال السمرقندي: «قوله عز وجل: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ يعني: لا يدخل في النار -فيصلى بسعيرها- ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ يعني: الذي ختم له بالشقاوة ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يعني: كذب بالتوحيد، وتولى عن الإيمان، وعن طاعة الله تعالى، وأخذ في طاعة الشيطان»[2].

ثم يبين الحق سبحانه وتعالى صفات عباده الذين سيبتعدون عن النار، وينجون منها فقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ أي: وسيبتعد عن هذه النار المتأججة الأتقى، وهو من بالغ في صيانة نفسه عن كل ما يغضب الله تعالى، وحرص كل الحرص على فعل ما يرضيه عز وجل، فالمراد بالأشقى والأتقى: الشديد الشقاء، والشديد التقوى، والتعبير بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ يشعر بابتعاده عنها ابتعادًا تامًا، بحيث تكون النار في جانب، وهذا الأتقى في جانب آخر[3].

فصفات الإنسان المبالغ في تقواه وطاعته لربه أنه ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي: هذا الإنسان الشديد التقوى من صفاته أنه يقدم ماله لغيره، وينفقه في وجوه البر والطاعة، رجاء أن يكون عند ربه زاكيًا ناميًا، خاليًا من شبهة الرياء والتفاخر وأملًا في أن يتطهر به من الذنوب. فقوله: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿يُؤْتِى﴾ أي: يؤتى ماله حال كونه لا يطلب من وراء ذلك إلا تزكية ماله، وتطهير نفسه. وفائدة الحال التنبيه على أنه يؤتي ماله لقصد النفع والزيادة من الثواب تعريضًا بالمشركين الذي يؤتون المال للفخر والرياء والمفاسد والفجور[4].

قال القاسمي: «وفي حصر ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ بالمنفق، على الشريطة المذكورة، عناية عظيمة به، وترغيب شديد في اللحاق به، كيف لا؟ وبالمال قوام الأعمال، ورفع مباني الرشاد وهدم صروح الفساد»[5].

قال ابن كثير: «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، حتى إن بعضهم

(١) جامع البيان، ٢٤/ ٤٧٧.
(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٩٠.
(٣) الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٤٢٢.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٤٨٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣٩١.
(٥) محاسن التأويل ٩/ ٤٨٧.

حكى الإجماع من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ [الليل ١٧-١٩].

ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقًا، تقيًا، كريمًا، جوادًا، بذالًا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله...»[1].

موضوعات ذات صلة

التربية، الدعوة، الزكاة، العفة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٢٢.



عناصر الموضوع

مفهوم التسبيح

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س ب ح) تدل على معنيني: أحدهما: جنسٌ من العبادة، ومنه التسبيح، وهو تنزيه الله جل ثناؤه من كل سوء. والمعنى الآخر: جنسٌ من السعي، وهو السبح والسباحة، وهو العوم في الماء[1].

يتبين مما سبق أن للتسبيح في اللغة معنيين: أحدهما: التنزيه والتبرئة من السوء، والآخر: قول: (سبحان الله)، والمعنى الثاني راجع إلى المعنى الأول[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يعد التسبيح من الألفاظ الشرعية التي اشتهرت في الشرع أكثر من اشتهارها في اللغة، والمعنى الاصطلاحي (الشرعي) للتسبيح هو نفس المعنى اللغوي، لا يختلف عنه، أي: بمعنى تنزيه الله عن السوء، وقد ورد هذا المعنى للتسبيح عن النبي صلى الله عليه وسلم[3]، وعن ابن عباس رضي الله عنه، وعن كثير من أئمة السلف والخلف[4].

وقال أبو السعود: «والتسبيح تنزيه الله تعالى وتبعيده اعتقادًا وقولًا وعملًا، عما لا يليق بجنابه سبحانه»[5].

وقال ابن القيم: «ومعنى هذه الكلمة - يعني (سبحان الله) - تنزيه الرب وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به»[6].

وبهذا يمكن أن نخرج بتعريف اصطلاحي للتسبيح بأنه: تنزيه الله عز وجل في الاعتقاد والقول والعمل، عما لا يليق به سبحانه.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٥.

(٢) انظر: التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو ١/ ٢٣.

(٣) جاء ذلك في حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن تفسير سبحان الله قال: هو تنزيه الله عن كل سوء، أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء، ١/ ٥٠٢ ح١٨٠٢، وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(٤) جمع كثيرًا من تلك الأقوال الدكتور محمد كندو في كتابه التسبيح في الكتاب والسنة ١/ ٧٢-٧٥.

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١/ ٨٣.

(٦) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٢.

التسبيح في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سبح) في القرآن (٩٢) مرة، يخص التسبيح منها (٨٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾ [الحديد:١]
الفعل المضارع	٢٠	﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة:٣٠]
فعل الأمر	٢	﴿فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ④⓪﴾[ق:٤٠]
المصدر	٢	﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء:٤٤]
اسم المصدر	٤١	﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ①⓪⑧﴾[يوسف:١٠٨]
اسم الفاعل	٢	﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ①⑥⑥﴾[الصافات:١٦٦]

وجاء (التسبيح) في القرآن بمعناه اللغوي، وهو تنزيه الله جل ثناؤه من كل سوء[٢]. ولم يخرج عن هذا المعنى.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٦٣٨-٦٤٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٢٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ التقديس:

التقديس لغة:

مشتق من الفعل (قدس) بمعنى: طهر، والتقديس هو التطهير والتبريك، وتقدس أي تطهر، من ذلك قيل للسطل: القدس؛ لأنه يتقدس منه، أي: يتطهر، وسمي بيت المقدس بذلك لأنه البيت المطهر، والمكان الذي يتطهر به من الذنوب، والتقديس: تنزيه الله عز وجل[(١)].

التقديس اصطلاحًا:

التقديس: التطهير الإلهي، والتعظيم لله عز وجل، والتطهير هنا غير التطهير الذي هو إزالة النجاسة المحسوسة[(٢)].

الصلة بين التقديس والتسبيح:

اللفظان يحملان نفس المعنى من تبعيد الله عن السوء؛ إلا أن التقديس أعم من التسبيح؛ إذ كل مقدس مسبح، وليس العكس؛ فالتسبيح يختص بالله عز وجل دون سواه، أما التقديس فلا يختص به سبحانه؛ بل يستعمل في حق الآدميين وغيرهم من المخلوقات، فيقال: فلان رجل مقدس: إذا أريد تبعيده عن مسقطات العدالة ووصفه بالخير، ولا يقال: رجل مسبح، ويقال: قدس الله روح فلان، ولا يقال: سبحه، ويقال: الأرض المقدسة، ولا يقال: الأرض المسبحة[(٣)].

وذكر بعض المفسرين: أن التسبيح يكون بتنزيه الله عز وجل بالقول والعمل، والتقديس تنزيه الله عز وجل باعتقاد صفات الكمال المناسبة للذات العلية[(٤)].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٥٥٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٩٦.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٢٤.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٠٦.



تسبيح الله عز وجل نفسه

كل ما في القرآن الكريم من تمجيد الله عز وجل لنفسه العلية؛ وذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وبيان قدرته وعظمته، والحديث عن آياته وآلائه، وقوته وجبروته سبحانه وتعالى، كل ذلك يدخل في تسبيح الله عز وجل لنفسه، وهذا كثير في كتاب الله عز وجل لا يمكن حصره؛ ومن أمثلته آية الكرسي، وسورة الإخلاص، وأواخر سورة الحشر، وغير ذلك كثير في كتاب الله عز وجل.

والذي نريد بيانه في هذا المبحث هو ما ورد من تسبيح الله عز وجل لنفسه في كتابه العزيز بلفظ التسبيح الصريح، ولقد سبح الله عز وجل نفسه العلية في كتابه العزيز -بلفظ التسبيح- في مواضع كثيرة، بلغت سبعة وعشرين موضعًا.

وباستقراء الآيات التي سبح الله عز وجل فيها نفسه نجد أن الله عز وجل قد نزه نفسه فيها عن الولد، وعن الشريك، وعن أن يلحقه نقص أو ضعف.

أولًا: تنزيه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الولد:

لقد ورد في كتاب الله عز وجل آيات تسع نزه الله عز وجل فيها نفسه المقدسة -بلفظ التسبيح- عما وصفه به المشركون المفترون من نسبة الولد له سبحانه، ففي سورة البقرة يقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

بين سبحانه في هذه الآية أن جميع ما في السماوات والأرض مملوك له، وعبيد له سبحانه، وفي هذا بيان للمانع عقلًا من اتخاذ الولد[١].

وفي سورة النساء قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

فبين سبحانه في هذه الآية أيضًا أن ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، فلا شريك له سبحانه، فكل الخلق -في السماوات والأرض- له، وعيسى عليه السلام وأمه مريم من جملة ما في السموات وما في الأرض؛ فكيف يكون عيسى إلهًا أو ولدًا لله وهو مخلوق لله عز وجل؟![٢].

وفي سورة يونس قال سبحانه: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا

---

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٣٨٨، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٤٢٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٥.

﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

فأخبر سبحانه أنه ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فأقام الحجة على بطلان قول المشركين؛ حيث بين أنه سبحانه هو الغني الذي لا يفتقر إلى غيره، فكيف إذًا يحتاج إلى ولد أو بنت فيستغني به وهو الغني الحميد؟! وبرهان آخر على غناه أن له ما في السموات وما في الأرض، فالجميع خلقه وملكه، فهل يعقل أن يتخذ السيد المالك عبدًا من عبيده ولدًا له[1].

وفي سورة النحل سبح الله عز وجل نفسه عما نسبه إليه المشركون من أن له البنات، فقال عز وجل: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

وفي التسبيح في هذه الآية تعجب من قول أولئك المشركين، حيث جعلوا لأنفسهم ما يشتهون من البنين، ونسبوا ما يكرهون من البنات لله عز وجل، ففضحهم الله عز وجل، وقال في الآية التالية لتلك الآية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩].

وفي سورة مريم والأنبياء والمؤمنون نزه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الولد، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فهو سبحانه بيده كل شيء ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

وكل المخلوقات ملكه وطوع أمره، حتى الملائكة العظام - الذين قال عنهم المشركون أنهم بنات الله - ما هم إلا عباد لله، مكرمون عنده في منازل عالية، ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولًا وفعلًا، لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمرهم به؛ بل يبادرون إلى فعله، وهو سبحانه محيط بهم، عليم خبير، فلا يخفى عليه منهم خافية ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨][2].

وفي سورة الزمر بين الله عز وجل بطلان ما نسبه إليه المبطلون من اتخاذ الولد؛ بأن بين أنه سبحانه له ملك كل شيء، وهو سبحانه الذي يعبده كل شيء، ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

---

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٤٩١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٣٩٨.

ولو كان له ولد لم يكن له عبدًا، فأنى يكون له ولد، وهو الواحد الذي لا شريك له في ملكه وسلطانه، والقهار لخلقه بقدرته، فكل شيء له متذلل، ومن سطوته خاشع، فتعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد؛ فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي كل شيء فقير إليه، وهو الغني عما سواه، قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا[1].

وفي آيتي الزخرف يسبح الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الولد بقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨١ - ٨٢].

قال القرطبي: «المعنى: قل يا محمد: إن ثبت لله ولد فأنا أول من يعبد ولده؛ ولكن يستحيل أن يكون له ولد؛ وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت بالدليل فأنا أول من يعتقده؛ وهذا مبالغة في الاستبعاد؛ أي لا سبيل إلى اعتقاده. وهذا ترقيق في الكلام، والمعنى على هذا: فأنا أول العابدين لذلك الولد؛ لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد. وقال مجاهد: المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده وحده، على أنه لا ولد له.

وقال السدي أيضًا: المعنى لو كان له ولد كنت أول من عبده على أن له ولدًا؛ ولكن لا ينبغي له ذلك سبحانه»[2].

وفي سورة الصافات نزه الله عز وجل نفسه عما نسبه المبطلون ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨ - ١٥٩].

لقد افترى المشركون بهتانًا عظيمًا، وقالوا زورًا كبيرًا؛ إذ زعموا أن بين الله وبين الجن نسبًا؛ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم من الجن، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله ليجازيهم عبادًا أذلاء، فلو كان بينهم وبينه نسب، لم يكونوا كذلك، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، الملك العظيم، الكامل الحليم، سبحانه عما يصفه به المشركون[3].

وفي الآية الأخرى من السورة ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

«ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدسها ويبرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون، تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٥٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ١١٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ١١٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠٨.

علوًا كبيرًا، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين»[1].

ثانيًا: تنزيه الله عز وجل نفسه عن الشريك:

ورد في كتاب الله عز وجل عشر آيات نزه الله عز وجل فيها نفسه -بلفظ التسبيح- عن أن يكون له شريك يشاركه في الخلق أو الملك أو الحكم[2].

وقد ساق الله عز وجل -في هذه الآيات- لعباده الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة المقنعة على بطلان القول باتخاذ الشريك؛ فالله سبحانه غني عن الشركاء، فهو خالق جميع المخلوقات، فكيف لمخلوق أن يشارك الخالق؟!

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ومن أعظم الأدلة التي ساقها الله عز وجل على نفي الشريك: قوله سبحانه في آية الإسراء: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢ - ٤٣].

فلو كان هناك آلهة أخرى لتسابقوا وتنافسوا إلى ذي العرش لإزالة ملكه والتغلب عليه، أو المعنى لو كان آلهة أخرى لسعوا إلى ذي العرش يبتغون رضاه لأنهم دونه، وفي ذلك كله ردٌّ على أولئك المشركين الذين نسبوا لله الشريك، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا[3].

وكذلك آية الأنبياء ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، «فلو كان في السموات والأرض آلهة أخرى سوى الله عز وجل تدبر أمرهما، لفسدتا، ولخرجتا عن نظامهما البديع، الذي لا خلل فيه ولا اضطراب؛ وذلك لأن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم، فيختل نظام الكون، ويضطرب الأمر، ويعم الفساد في العالم، ولما كان المشاهد غير ذلك؛ إذ كل شيء في هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق، دل الأمر على أن لهذا الكون كله إلهًا واحدًا قادرًا حكيمًا لا شريك له»[4].

أما في آية المؤمنون فقد نزه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الشريك، مبينًا دليلًا قطعيًا آخر على وحدانيته واستغنائه عن الشركاء

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٨٠٣.
(٢) هذه الآيات هي: الأنعام: ١٠٠، التوبة: ٣١، يونس: ١٨، النحل: ١، الإسراء: ٤٢-٤٣، الأنبياء: ٢١-٢٣، المؤمنون: ٩١، القصص: ٦٨، الروم: ٤٠، الطور: ٤٣.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٣٨.
(٤) الوسيط، طنطاوي ٩/ ١٩٧.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال ابن القيم: «فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين؛ فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقًا فاعلًا، يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه؛ بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به، كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضًا بممالكهم، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه، فلابد من أحد أمور ثلاثة: إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد، وملك واحد، يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم عليه ولا يمتنعون من حكمه عليهم، فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون»[1].

وفي آية القصص ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨].

«يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه، وقوله: ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئًا»[2].

أما في آية الروم فقد نزه سبحانه نفسه مبينًا بعض أفعاله التي لا يقدر عليها إلا هو سبحانه، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠]. فهل يقدر الشركاء على شيء من ذلك؟[3].

ثالثًا: تنزيه الله عز وجل نفسه عن النقائص من خلال بيان عظمته وقدرته:

سبح الله عز وجل نفسه في كتابه العزيز عن كل ما نسبه إليه الكافرون المفترون، وعن كل ما قد يظنه المبطلون من نقص أو عجز أو سوء، ومجد سبحانه نفسه ببيان بعض مظاهر قدرته وعظمته، وبيان بعض أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وورد ذلك في كتاب الله عز وجل بلفظ التسبيح الصريح في تسعة مواضع[4] في سبع سور،

---

(١) التفسير القيم ص ٣٣٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٤٧٩.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٨١.

(٤) هذه المواضع هي: الإسراء: ١، النمل:

وهذه المواضع هي:

قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

حيث «ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها؛ لأن له الأفعال العظيمة، والمنن الجسيمة، التي من جملتها أنه أسرى بعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام -الذي هو أجل المساجد على الإطلاق- إلى المسجد الأقصى -الذي هو من المساجد الفاضلة وهو محل الأنبياء-؛ فأسري به في ليلة واحدة، إلى مسافة بعيدة جدًا، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته ما ازداد بها هدى وبصيرة وثباتًا وفرقانًا، وهذا من اعتنائه ولطفه به صلى الله عليه وسلم؛ حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوله نعمًا فاق بها الأولين والآخرين»[(١)].

وفي سورة النمل يقص علينا ربنا عز وجل قصة موسى عليه السلام عندما قال لأهله -في طريق عودته إلى مصر-: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٧ - ٨].

ففي ذيل الآية الأخيرة نزه الله عز وجل نفسه المقدسة عن كل نقص أو سوء قد يتطرق إلى بعض العباد؛ فنزه سبحانه نفسه عن مشابهة المخلوقات، يفعل سبحانه ما يشاء، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المباين لجميع المخلوقات، لا تكتنفه الأرض والسموات؛ بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات[(٢)].

أما في آيتي سورة الروم: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨].

فيسبح الله عز وجل نفسه، ويأمر عباده أن يسبحوه في هذه الأوقات، وقد حمل كثير من المفسرين المقصود بالتسبيح في هاتين الآيتين على الصلوات الخمس المفروضة.

قال ابن الجوزي: «قال المفسرون: المعنى فصلوا لله حين تمسون، أي حين تدخلون في الظهيرة، وهي وقت الزوال، وعشيًا: أي وسبحوه عشيًا، وهذه الآية قد جمعت الصلوات الخمس؛ فقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يعني به صلاة المغرب والعشاء،

٦-٧، الروم: ١٧-١٨، يس: ٣٦، ٢-٨٣، الصافات: ١٥٨-١٥٩، ١٨٠، الزمر: ٦٧، الحشر: ٢٣.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٣٩٣.

﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ يعني به صلاة الفجر، ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر»[1].

وفي سورة يس سبح الله عز وجل نفسه في موضعين: الأول: قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

والآخر: قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢ - ٨٣].

وفي كلا الموضعين ينزه الله عز وجل نفسه ببيان بعض مظاهر عظمته وقدرته، وبديع خلقه وعظيم سلطانه وملكوته، فتنزه من خلق الأزواج والأصناف جميعًا، من النبات والحيوان والإنسان ومما لا نعلم[2]، وتنزه من بيده ملك كل شيء، وخزائن كل شيء، المتصرف في كل شيء، والجميع راجع إليه سبحانه[3].

وفي سورة الزمر بيان لعظيم قدرة الملك سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فالمشركون الذين أشركوا مع الله غيره، أو نسبوا لله الصاحبة أو الولد، أو افتروا على الله الكذب والبهتان، ما عرفوا الله حق المعرفة، وما عظموه وما قدروه حق قدره، وهو الذي يجعل الأرض بكل طبقاتها وأجزائها في قبضته، والسموات يطويها بيمينه -وذلك يوم القيامة-، فالسموات والأرض جميعًا في يده، ويقول: أنا الملك، أين الملوك؟ صاحب هذه القدرة العظمى كيف يعبد معه آلهة أخرى؟!

لذا نزه الله تعالى نفسه بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزه وتقدس عن الشريك والنظير والصاحبة والولد، وعن صفات المحدثين، وتعالى عما يشركون، وترفع عن أن يكون له شريك، وهو رب كل شيء ومليكه[4].

أما في آية الحشر فقد نزه الله عز وجل نفسه بعد أن ذكر بعض أسمائه الحسنى وصفاته العلى، فقال سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

«فالله سبحانه هو المعبود بحق، الذي لا إله إلا هو، الملك لجميع الأشياء، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، المنزه عن كل نقص، الذي سلم من كل عيب، المصدق

(١) زاد المسير ٦/ ٢٩٣.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ١١٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٥٧.
(٤) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٥٠٧.

رسله وأنبياءه بما يرسلهم به من الآيات البينات، الرقيب على كل خلقه في أعمالهم، العزيز الذي لا يغالب، الجبار الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، المتكبر الذي له الكبرياء والعظمة. تنزه الله تعالى عن كل ما يشركونه به في عبادته»[1].

هذه هي المواضع من كتاب الله عز وجل التي ورد فيها تسبيح الله عز وجل لنفسه بلفظ التسبيح الصريح، وقد رأينا أن التسبيح فيها كان بمعنى تقديس الله عز وجل وتنزيهه عن كل ما لا يليق به سبحانه؛ فنزه تعالى نفسه عن اتخاذ الولد، ونزه نفسه عن اتخاذ الشريك، ونزه نفسه عن المثيل والشبيه، وسمى سبحانه نفسه بأعظم الأسماء وأحسنها، ونبه سبحانه عباده على بعض مظاهر قدرته وعظمته وجبروته، وفي ذلك توجيه عظيم للعباد بأن يعظموا ربهم، ويسبحوه، ولا يغفلوا عن ذكره سبحانه طرفة عين.

المسبحون لله عز وجل من المخلوقات

لقد بين الله عز وجل في كتابه العزيز أن جميع المخلوقات تسبح له سبحانه، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وذكر عز وجل في كتابه العزيز تسبيح بعض مخلوقاته على وجه الخصوص؛ فذكر تسبيح الملائكة، وتسبيح بعض الأنبياء، وتسبيح المؤمنين، وتسبيح من عبدوا من دون الله، وفي المطالب التالية سنقف بإذن الله تعالى مع الآيات التي ذكرت تسبيح هذه المخلوقات لربها عز وجل.

أولًا: تسبيح الملائكة عليهم السلام:

الملائكة خلق من خلق الله عز وجل، وهم عباد مكرمون، خلقهم سبحانه لعبادته، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة، فمن أنكرهم فهو كافر، ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ولقد أخبر الله عز وجل عن تسبيح الملائكة لربها سبحانه في عشرة مواضع من

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٥٤٨.

الكتاب العزيز[1].

وبتأمل الآيات التي ورد فيها ذلك نستخرج منها الحقائق الآتية:

١. وظيفة الملائكة عبادة الله عز وجل وتسبيحه وتقديسه وتنزيهه سبحانه.

فهم عبادٌ لله، لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وفي هذا إبطال لما افتراه المفترون من أن الملائكة بنات الله، أو أنهم شركاء لله عز وجل، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وقد صرحت الملائكة نفسها بذلك في قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وتسبيح الملائكة لله بمعنى تعظيمه سبحانه، وتنزيهه عن كل سوء أو نقص، وقيل: تسبيح الملائكة: أي صلاتهم لله عز وجل، وقيل: تسبيحهم: أي التسبيح المعلوم، وهو قولهم سبحان الله[2].

قال القرطبي: «اختلف أهل التأويل في تسبيح الملائكة، فقال ابن مسعود وابن عباس: تسبيحهم: صلاتهم. وقيل: تسبيحهم: رفع الصوت بالذكر، قاله المفضل. وقال قتادة: تسبيحهم: سبحان الله، على عرفه في اللغة. وهو الصحيح لما رواه أبو ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: **(ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده، سبحان الله وبحمده)**[3]»[4].

٢. الملائكة يبدؤون حديثهم مع ربهم عز وجل بتسبيحه سبحانه.

وذلك من شدة تعظيمهم له، وعظيم تأدبهم معه سبحانه، فعندما علم الله عز وجل آدم الأسماء كلها وقال لملائكته: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

ردت ملائكة الرحمن بأدب جم وتعظيم وإجلال للرب سبحانه: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

فبدأوا قولهم بتسبيح ربهم عز وجل، وفي ذلك تقديس وتنزيه لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، أو أن يعلم

---

(١) هذه المواضع هي: البقرة: ٣٠-٣٢، الأعراف: ٢٠٦، الرعد: ١٣، الأنبياء: ١٩-٢٠، سبأ: ٤٠-٤١، الصافات: ١٦٤-١٦٦، الزمر: ٧٥، غافر: ٧، فصلت: ٣٨، الشورى: ٥.

(٢) انظر جامع البيان، الطبري ١/ ٤٧٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل سبحان الله وبحمده، رقم ٢٧٣١، ٤/ ٢٠٩٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٧٦.

الملائكة شيئًا إلا ما علمهم الله تعالى[1].

ويوم القيامة يحشر الله عز وجل الخلق جميعًا، ويقول لملائكته: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠].

فيكون جوابهم لربهم مبتدءًا بالتسبيح له سبحانه: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

فالملائكة بدأت كلامها بتنزيه الله عز وجل عن الشرك أو الند، ثم تبرأت مما افتراه المشركون من عبادتهم من دون الله عز وجل، ثم أقرت الملائكة لربها بأنهم مفتقرون إلى ولايته، مضطرون إليها، فكيف يدعون غيرهم إلى عبادتهم؟ أم كيف يصلح لأن يتخذوا من دون الله أولياء وشركاء؟ فما هم إلا عباد لله منقادون مطيعون له سبحانه[2].

٣. الملائكة تسبح ربها عز وجل تسبيحًا دائمًا متواصلًا من غير انقطاع ولا فتور ولا سآمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

فقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني بهم الملائكة[3].

وقد وصفهم الله عز وجل في الآية بثلاثة أوصاف: أنهم لا يستكبرون عن عبادة الله تعالى، وأنهم يسبحونه، وأنهم يسجدون له، وهذه الأوصاف الثلاثة دالة على كمال عبوديتهم لله تعالى ؛ حيث قد اجتمعت لهم العبادة القلبية والقولية والبدنية؛ فعدم استكبارهم عبادة قلبية نشأ عنها العبادة القولية والبدنية[4].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠].

وقد تضمنت هذه الآية بيان أن الملائكة -زيادة على عدم استكبارهم عن عبادة ربهم عز وجل- ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يملون[5]، ولهذا فهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾، وهذا كالبيان لقوله: ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾؛ لأن من يحب أمرًا ولا يتعب منه، لا يتركه ولا يمل منه؛ بل يواظب عليه[6].

ونظير هذا أيضًا في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٩٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٥٠.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٥٧.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٤٥٠.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٣٩٦.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٣٦.

﴿يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

فهذه الآيات دالة على قوة الملائكة وكمال حياتهم، وشدة الداعي القوي منهم إلى تسبيح الله تعالى وملازمته، فلا يلحقهم فيه فتور ولا سآمة، ولا يشغلهم عنه شاغل، وهم مستغرقون دائمًا في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ ولا خالٍ منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من بيان عظمة الله عز وجل وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته[(١)].

٤ . لقد أخبر القرآن الكريم عن تسبيح الملائكة على العموم، وأخبر كذلك عن تسبيح حملة العرش والحافين من حوله من الملائكة على الخصوص.

وذلك في موضعين منه.

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن أحداث يوم القيامة وما يقع فيه من القضاء بين العباد، ووفيت كل نفس ما عملت، ودخول أهل الجنة الجنة، ودخول أهل النار النار، فقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾، أي في ذلك اليوم العظيم ترى الملائكة محدقين محيطين بالعرش ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: يمجدونه ويعظمونه ويقدسونه، وينزهونه عن الظلم والجور، وعن كل ما لا يليق بجلاله، وقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: قضي بين الخلائق بالعدل،﴿وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهذا إخبار عن حمد الكون أجمعه لله رب العالمين، عقب قضائه سبحانه بالحق بين خلقه[(٢)].

أما الموضع الآخر: فهو قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

حيث بينت الآية الكريمة تسبيح صنفين من ملائكة الرحمن: من يحملون العرش، ومن يطوفون حول العرش، ثم أخبرت الآية الكريمة بثلاثة أمور عن هؤلاء الملائكة العظام:

الأمر الأول: أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ وهذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله عز وجل، وخصوصًا التسبيح والتحميد[(٣)].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨١.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٣٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ١٦٣.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٢.

والأمر الثاني: أنهم ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: «يقرون بالله أنه لا إله لهم سواه، ويشهدون بذلك، لا يستكبرون عن عبادته»[1].

والأمر الثالث: أنهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض، ممن آمن بالغيب، وأقر بمثل إقرار الملائكة من توحيد الله عز وجل والبراءة من كل معبود سواه[2].

وتخصيص هذين الصنفين من الملائكة بالذكر في الموضعين السابقين دليل على ما لهما من شأن عظيم؛ إذ اختارهم الله عز وجل لحمل عرشه العظيم والطواف من حوله، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم وأقربهم منه عز وجل[3].

٥. الملائكة تمدح نفسها بتسبيحها لربها عز وجل؛ إظهارًا لعبوديتها له سبحانه، وإخبارًا بفضله وامتنانه عليهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والشاهد من الآية هنا: قول الملائكة مقرين بتسبيحهم لله عز وجل، مادحين أنفسهم بذلك: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: ننزهك ونبرئك مما يصفك المشركون مما لا يليق بك[4].

وفي سورة الصافات[5] تمدحت الملائكة بتسبيحها لله عز وجل: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥ - ١٦٦].

قال قتادة: «هذا قول الملائكة يثنون بمكانهم من العبادة»[6].

وقال ابن كثير في قوله تعالى حكاية عن ملائكته: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾: «أي نصطف، فنسبح الرب، ونمجده ونقدسه، وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه»[7].

٦. وصف الله عز وجل حال الملائكة في تسبيحهم له سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

فالملائكة تسبح ربها عز وجل من خيفته؛ ومن هنا: للتعليل، وخيفته يعني:

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٥٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٩٠٩.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٤٤.
(٥) ذكر المفسرون أن المراد بالصافات الملائكة الصافات لربها في السماء.
انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٥٧.
(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ١٢٨.
(٧) تفسير القرآن العظيم ١٢/ ٨٠٠.

هيبته وإجلاله ورهبته[١].

وعلى هذا فلا يظن ظانٌّ من وصف الملائكة بأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنهم يلهمون التسبيح كما يلهم الناس النفس[٢] أن التسبيح يصدر منهم على وجه العادة بلا شعور ولا اهتمام، فهذا الظن بعيد غير صحيح؛ إذ الملائكة يسبحون الله خاشعين له، خائفين منه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «يخافون الله، وليس كخوف ابن آدم، لا يعرف أحدهم من على يمينه، ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله شيء»[٣].

٧. إذا علم المؤمن بتسبيح الملائكة لربها عز وجل كما أخبر سبحانه، فينبغي له أن يقتدي بهم في ذلك.

فيكثر من تسبيح ربه عز وجل بالليل والنهار على قدر طاقته؛ فإن إخبار الله عز وجل عن تسبيحهم فيه حثٌّ للمؤمنين، وترغيبٌ لهم أن يقتدوا بهم فيما ذكر عنهم[٤].

ثانيًا: تسبيح الأنبياء عليهم السلام:

الأنبياء عليهم السلام هم صفوة البشر، وأكملهم علمًا وعقلًا وخلقًا، وأعظمهم عبادة وتسبيحًا وتقديسًا لله عز وجل؛ اعتقادًا وقولًا وعملًا؛ لأن الله عز وجل قد اصطفاهم على الناس برسالاته، وخصهم بوحيه، وجعلهم واسطة بينه وبين عباده في تبليغ دينه، وأقام بهم الحجة على خلقه.

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه تسبيح بعض أنبيائه، وذلك في سياق ما قصه سبحانه من قصصهم وأخبارهم، فقد ذكر الله عز وجل تسبيح يونس عليه السلام، وتسبيح موسى عليه السلام، وتسبيح داود عليه السلام، وتسبيح زكريا عليه السلام، وتسبيح عيسى عليه السلام، وتسبيح محمد صلى الله عليه وسلم، وسنقف بإذن الله مع الآيات التي ورد فيها ذلك فيما يأتي:

أولًا: تسبيح يونس عليه السلام.

قص الله عز وجل في غير موضع من كتابه العزيز جوانب من قصة يونس عليه السلام، ويونس عليه السلام قد بعثه الله عز وجل إلى أهل قرية نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا عليه وتمادوا في كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاثٍ، فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم يتضرعون

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٦٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٠٤.
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفًا على كعب الأحبار، ١٥٨، ١/ ٣١٧، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٣٩٧.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣١٤.
(٤) انظر: التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو ١/ ٢٩٢.

إلى الله عز وجل، فرفع الله عنهم العذاب.

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة، فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا، فقام عليه السلام وألقى بنفسه في اليم، فالتقمه الحوت، وغاص به في ظلمات البحار[1].

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٤].

لقد أخبر الله عز وجل أن عبده ونبيه يونس عليه السلام بادر -وهو في تلك الظلمات- إلى مناداة ربه عز وجل، وتسبيحه وتوحيده، واعترف بظلمه لنفسه.

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وبهذا الدعاء العظيم، الذي فيه إقرار لله تعالى بكمال الألوهية، وتنزيه عن كل نقص وعيب، واعترف بظلم النفس وجنايتها، كان الفرج من الله عز وجل[2]، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

لقد كان تسبيح يونس عليه السلام لربه عز وجل سببًا لتفريج كربته وزوال شدته، ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣- ١٤٤].

وللمفسرين ثلاثة أقوال في معنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾:

أولها: من المصلين، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير.

والثاني: من العابدين، قاله مجاهد ووهب بن منبه.

والثالث: قول ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قاله الحسن[3].

أما الزمن الذي كان فيه هذا التسبيح فقد قال بعض المفسرين: إنه عليه السلام كان من المسبحين قبل أن يلتقمه الحوت.

وقال آخرون: إنه كان من المسبحين وهو في بطن الحوت[4]، ولا خلاف بين القولين؛ فإن نبي الله يونس عليه السلام

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٤٣٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٩.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٧/ ٨٧.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٠٨.

كان -ولاشك- من المسبحين قبل التقام الحوت له، فهو نبي من أنبياء الله، وهم خير خلق الله عز وجل، وخير من سبحه سبحانه.

وأما كونه من المسبحين في بطن الحوت فقد دل عليه قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

والخلاصة: أن تسبيح يونس عليه السلام كان سببًا في تفريج كربته، وفي ذلك موعظة وفائدة للعباد جميعًا بأن التسبيح سبب لتفريج الكروب وزوال الشدائد[١].

فقد قال الله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

ففي الآية بشارة لكل مؤمن يقتدي بيونس عليه السلام في إخلاصه وصدق توبته، ودعائه لربه، بأن الله عز وجل ينجيه من كربه، ويخلصه من همه[٢].

وقد جاء هذا المعنى في حديث النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال: (دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له)[٣].

ثانيًا: تسبيح موسى عليه السلام.

ذكر الله عز وجل تسبيح عبده ونبيه وكليمه موسى عليه السلام في موضعين من كتابه العزيز:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ففي هذه الآية بيان أن موسى عليه السلام طمع في رؤية ربه عز وجل حين كلمه من وراء حجاب، ولم يعنفه الله عز وجل على ذلك؛ لأنه سأل ما يجوز[٤]؛ ولكن الله عز وجل أراد أن يري موسى عليه السلام من كمال عظمته وجلاله ما يعلم به أن القوة البشرية في هذه الدار الدنيا لا تثبت لرؤيته ومشاهدته عيانًا، ولهذا قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾، يعني أن الجبل -رغم صلابته

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٩.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٤، الوسيط، طنطاوي ٩/ ٢٤٥.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب رقم ٨٢، ٥/ ٤٨٤، رقم ٣٥٠٥، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٨٣.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٧٥.

وعظمته- لا يستقر مكانه إذا تجلى الله عز وجل له، فكيف بالإنسان الضعيف؟![1].

وقد تبين ذلك لموسى عليه السلام حين رأى الجبل قد صار دكًا عندما تجلى له ربه سبحانه، وسقط موسى عليه السلام مغشيًا عليه من هول ما رأى، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[2].

ولما أفاق موسى عليه السلام من غشيته كان أول ما نطق به تسبيح الله عز وجل ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، سبح ربه في هذا الموقف الجليل الهائل الذي رأى فيه من عظمة ربه وجلاله ما يستدعي التسبيح؛ تعظيمًا لله عز وجل، وتنزيهًا له عما لا يليق بكماله وعظمته سبحانه، ومن أن يقوى أحد من الخلق على رؤيته عيانًا في هذه الحياة الفانية.

ولهذا أتبع التسبيح بقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: تبت إليك من مسألتي إياك ما سألتك من الرؤية، وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد في الدنيا إلا مات، وقيل: المراد أول المؤمنين من بني إسرائيل بما توحيه إلي[3].

أما الموضع الثاني: فهو قول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: ٢٩ - ٣٥].

ففي الآيات بيان أن موسى عليه السلام طلب من الله تعالى أن يجعل له من أخيه هارون معينًا على تبليغ الرسالة وتحمل أعبائها، يتقوى به ظهره، وذلك بأن يكون معه نبيًا مرسلًا من الله عز وجل، وعلل موسى عليه السلام طلبه هذا بقوله: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾، حيث علم موسى عليه السلام أن مدار العبادات كلها والدين كله على ذكر الله عز وجل وتسبيحه؛ فسأل الله أن يجعل أخاه معه يساعده ويعاونه على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات[4].

ثالثًا: تسبيح داود عليه السلام.

ذكر الله عز وجل تسبيح عبده ونبيه داود عليه السلام من خلال ذكر تسبيح الجبال والطير معه، وقد جاء ذلك في كتاب الله عز وجل في ثلاثة مواضع وهي:

١. قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٥٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٠٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠٤، أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٣٤٦.

[الأنبياء: ٧٩].

٢. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

٣. وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٧ - ١٩].

فهذه الآيات الثلاث بينت تسبيح نبي الله داود عليه السلام، حيث كان عليه السلام إذا سبح الله تعالى وأثنى عليه، سبحت بتسبيحه الجبال والطير، وجاوبته بالذكر والثناء على الله تبارك وتعالى[١].

وقد ذكر المفسرون أن الله عز وجل منح نبيه داود عليه السلام من الصوت الحسن العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات، وتجاويه بأنواع اللغات، تسبيحًا معه لله رب العالمين[٢].

رابعًا: تسبيح زكريا عليه السلام.

ذكر الله عز وجل تسبيح عبده ونبيه زكريا عليه السلام، وجاء ذلك في سياق ذكر قصته عليه السلام حينما طلب من الله عز وجل أن يهب له ذرية طيبة، فاستجاب الله عز وجل دعاءه، وبشره بالولد على لسان الملائكة، وحينها طلب زكريا من ربه أن يجعل له علامة يستدل بها على حصول الولد، فجعل الله عز وجل له علامة ذلك أن ينحبس لسانه عن الكلام مع الناس من غير آفة أو مرض، فلا يستطيع النطق إلا رمزًا وإشارة.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

ولقد أمره الله عز وجل بكثرة التسبيح والذكر في هذه الحال، فرغم أن لسانه في هذه الحال ممنوع من كلام الناس؛ إلا أنه لم يكن ممنوعًا من التسبيح والتهليل وذكر الله عز وجل، فعكف زكريا عليه السلام في محرابه وقد اطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامتثل أمر الله عز وجل له بكثرة الذكر، والتسبيح، والصلاة والعبادة[٣].

ولم يكتف زكريا بأن يسبح وحده لله عز وجل؛ بل خرج على قومه وأمرهم -بالإشارة- بتسبيح الله عز وجل؛ مزيدًا من شكر الله عز وجل على ما بشر به من نعمة الولد[٤]، قال تعالى عن نبيه زكريا: ﴿قَالَ

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٣٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣١٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ٢٦١.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٢٢٠.

﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١٠ - ١١].

وفي هذا بيان لعظم تسبيح نبي الله زكريا عليه السلام لربه عز وجل، وفيه بيان أن التسبيح من أجل العبادات التي يشكر بها العبد ربه عز وجل على ما أولاه من نعم.

خامسًا: تسبيح عيسى عليه السلام.

ورد في القرآن الكريم تسبيح عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام لربه عز وجل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ويكون هذا يوم القيامة، يوم يجمع الله الرسل ويسألهم ماذا أجبتم؟ ويسأل عيسى بمفرده توبيخًا للنصارى -الذين اتخذوه إلهًا- على شركهم، فيقول الله عز وجل هذا لعيسى عليه السلام، فيتبرأ عليه السلام من شركهم ومن مقولتهم الكفرية، وينزه الله عز وجل عن ذلك بالتسبيح له سبحانه[١].

لقد بدأ عيسى عليه السلام كلامه مع رب العزة سبحانه بالتسبيح -قبل أن يبرأ نفسه- تنزيهًا له سبحانه عما افتراه المفترون، وتعظيمًا له وإجلالًا، وثناءً عليه، وخضوعًا له وخوفًا منه، وهذا التسبيح من عيسى عز وجل متضمن لبراءته من أن يكون قال للناس شيئًا من ذلك؛ لأنه إذا كان قد نزه الله عز وجل عن ذلك فلاجرم أنه لم يأمر أحدًا به[٢].

سادسًا: تسبيح النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين وسيدهم، وهو أعظم من نزه الله وسبحه من الخلائق، ولقد ورد في كتاب الله عز وجل كثير من الآيات التي جاء فيها ذكر تسبيح النبي صلى الله عليه وسلم[٣].

والملاحظ أنه في كل هذه الآيات كان الأمر موجهًا للنبي صلى الله عليه وسلم بتسبيح ربه عز وجل، وبتأمل هذه الآيات نقف على بعض الحقائق المستفادة من تسبيح النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك فيما يأتي:

١. جميع الآيات التي ورد فيها أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتسبيح هي آيات

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٣٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١١٣.

(٣) من هذه الآيات: الحجر: ٩٨، طه: ١٣٠، الفرقان: ٥٨، غافر: ٥٥، ق: ٣٩-٤٠، الواقعة: ٩٦، الإنسان: ٢٦، الأعلى: ١، النصر: ٦.

مكية، ما عدا آية سورة الإنسان[1]، وآية سور النصر.

٢. أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمداومة التسبيح؛ في الليل والنهار. قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]. وقال سبحانه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]. وقال عز وجل: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠].

وفي ذلك بيان لعظيم عبادة التسبيح عند الله عز وجل، وحثٌّ للمؤمنين بمداومة التسبيح لربهم سبحانه.

٣. كثيرًا ما يقرن الأمر بالتسبيح مع الأمر بالصبر، كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠]. وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨ - ٤٩].

ويفهم من ذلك أن التسبيح معينٌ على الصبر، وأن في ملازمة التسبيح كشفًا للضيق، وتسلية عند الشدائد، ولعل ذلك مفسرٌ لكثرة ورود الأمر بالتسبيح في القرآن المكي، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعرض في مكة لأذى المشركين، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم (إذا حزبه أمر صلى)[2]. والصلاة فيها تسبيح لله تعالى بالقول والفعل.

٤. قرن الله عز وجل الأمر بالتسبيح مع الأمر بالتوكل عليه سبحانه. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]. وفي ذلك بيان أن التسبيح فيه العون الكبير للعبد على الثبات والصبر[3].

٥. التسبيح شكر لله عز وجل على نعمه العظيمة. قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ١ - ٣]. فلقد أمر

---

(١) سورة الإنسان مدنية عند جمهور المفسرين، ومكية عند بعضهم.
انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٤٢٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١١٨.

(٢) ورد ذلك في حديث حذيفة رضي الله عنه الذي أخرجه أبو داود في سننه، كتاب التطوع، باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، رقم ١٣٢١، ١/ ٥٠٧.
والحديث حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١/ ٢٤٥، رقم ١١٧١.

(٣) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢١٣.

الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمداومة التسبيح والتحميد لله عز وجل مع مداومة الاستغفار؛ شكرًا له سبحانه على نعمة النصر والفتح المبين، قال الدكتور وهبة الزحيلي: «أمر الله تعالى بالتسبيح أولًا: ثم بالحمد ثم بالاستغفار؛ لأنه قدم الاشتغال بما يلزم للخالق وهو التسبيح والتحميد على الاشتغال بالنفس، والسورة تدل على فضل التسبيح والتحميد، حيث جعل كافيًا في أداء ما وجب على النبي صلى الله عليه وسلم وأمته من شكر نعمة النصر والفتح»[(١)].

ثالثًا: تسبيح المؤمنين:

تسبيح الله عز وجل من هدي أصفياء الله المرسلين، ودأب عباد الله المؤمنين، وشغل أوليائه المتقين، وقد ذكر الله عز وجل في كتابه تسبيح عباده المؤمنين له سبحانه، وذلك في عدد من الآيات التي مدحت المسبحين، والتي أمرت المؤمنين بالمداومة على التسبيح.

أولًا: مدح المسبحين من المؤمنين:

جاءت عدة آيات في كتاب الله عز وجل تمدح المؤمنين الذين يسبحون الله عز وجل.

(١) التفسير المنير ٣٠/ ٤٥٢.

وأول هذه الآيات -من حيث ترتيب المصحف الشريف- قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

ففي هاتين الآيتين أخبر الله عز وجل عن آياته العظيمة، ودلائل قدرته الباهرة؛ من خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وما في ذلك كله من آيات عجيبة، تبهر الناظرين، وتقنع المتفكرين، وتجذب أفئدة الصادقين، ففي هذا الكون من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، والمنافع للخلق، ما يدل على عظمة خالقه، وعظمة سلطانه، وشمول قدرته، وعظيم حكمته، وسعة رحمته، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره[(٢)].

هذه الآيات التي بثها الله عز وجل في السماوات والأرض إنما يعقلها أولوا الألباب والنهى، الذين استنارت قلوبهم بنور الإيمان، فأبصرت حقيقة الأشياء، إنهم المؤمنون الموقنون، الذين يتفكرون

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦١.

في خلق الله عز وجل، ويقفون على آياته؛ فيزيدهم ذلك إيمانًا على إيمانهم، فتخشع قلوبهم، وتنشط ألسنتهم بذكر ربهم وتسبيحه في كل أحوالهم، ويديمون التفكر والنظر في عظيم خلق الله عز وجل، ولسان حالهم ومقالهم يقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، أي: لم تخلق يا ربنا هذا الخلق عبثًا ولا لعبًا، ولم تخلقه إلا لأمر عظيم؛ من ثواب وعقاب ومحاسبة ومجازاة، فأنت سبحانك منزه عن اللعب والعبث، ومنزه عن كل نقص أو عيب، لا يكون خلقك إلا لحكم عظيمة[(١)].

لقد مدح الله عز وجل المؤمنين المتفكرين في آياته، المسبحين له على الدوام، الذين دفعهم تفكرهم وتسبيحهم إلى الرغبة في ثواب ربهم عز وجل، والنجاة من عذابه ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

والموضع الثاني الذي مدح فيه الله عز وجل عباده المؤمنين المسبحين هو قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٨].

ففي هاتين الآيتين يخبر الله عز وجل عن تسبيح مؤمني أهل الكتاب، وابتدأ الله عز وجل في فيهما بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار المكذبين بالقرآن الكريم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾، وهذا على وجه التبكيت لهم والتهديد، لا على وجه التخيير.

والمعنى: سواء آمنتم بالقرآن أم لم تؤمنوا، فهو حق في نفسه، أنزله الله عز وجل، وإن إيمانكم لا يزيده كمالًا، وتكذيبكم به لا يلحق به نقصًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾، أي: إن العلماء الذين أوتوا الكتب السابقة من قبل القرآن، وعرفوا حقيقة الوحي من مؤمني أهل الكتاب إذا يتلى عليهم هذا القرآن يخرون سجدًا تعظيمًا له وتكريمًا، وعلمًا منهم بأنه من عند الله عز وجل[(٢)].

ثم ذكر الله عز وجل تسبيحهم له مادحًا لهم فقال: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، أي أنهم عندما يخرون سجدًا لسماع القرآن، يسبحون ربهم عز وجل في سجودهم؛ تسبيح تنزيه لله تعالى عن تكذيب المكذبين بالقرآن، وتعظيم وتبجيل لله عز وجل على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء السابقين المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا قالوا: ﴿إِن كَانَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٧٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٩١.

﴿وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[1].

ومن الآيات التي ورد فيها مدح الله عز وجل لعباده المؤمنين المسبحين له سبحانه قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

ففي هذه الآية مدح لأولئك المسبحين لربهم عز وجل، الذين لم تلههم الدنيا وما فيها من تجارة وبيع ومتاع عن عبادة ربهم، وعن صلاتهم، وزكاتهم، وتسبيحهم، وقد وعدهم الله عز وجل بحسن الجزاء وعظيم الثواب، مع الزيادة بغير حساب؛ لأنهم قدموا طاعته ورضاه على كل ما سواه.

وفي قول الله عز وجل: ﴿رِجَالٌ﴾ مدح لهم، وإشعار بهمتهم العالية، وعزيمتهم الصادقة، التي بها صاروا عمارًا للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه[2].

وفي سورة السجدة مدحٌ آخر للمؤمنين الساجدين لله، المسبحين له سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

فلقد أثنى الله عز وجل على هؤلاء المؤمنين الذين يؤمنون بآياته، ووصفهم بالصفة الحسنى بسجودهم عند التذكير والوعظ بآياته، وبتسبيحهم لربهم، وعدم استكبارهم، بخلاف ما يصنع الكفار من الإعراض عند التذكير، وإظهار التكبر[3].

ولقد وعد الله عز وجل أولئك المؤمنين المسبحين ربهم عز وجل، والذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

وعدهم بعظيم المثوبة والجزاء، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]

وبمدح الله عز وجل لعباده المؤمنين المسبحين نعلم علم اليقين مدى عظم التسبيح، ومدى محبة الله عز وجل لعباده المسبحين له على الدوام، ونعلم أن التسبيح عبادة جليلة، ترفع مقامات العبد عند ربه عز وجل، وهذا كله يدفع العباد الصادقين إلى الحرص الشديد على ملازمة تسبيح الله عز وجل في كل الأوقات، وعلى كل الأحوال.

ثانيًا: أمر المؤمنين بالمداومة على تسبيح الله عز وجل:

لقد أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بأن

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٩١.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٢٥٠.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٦١.

يسبحوه بكرةً وأصيلًا، في الصباح والمساء، في الشدة والرخاء، في كل أوقاتهم، وعلى كل أحوالهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢].

يأمرهم سبحانه أن يذكروه ذكرًا كثيرًا؛ من تهليل، وتحميد، وتسبيح، وتكبير، وغير ذلك من كل قول فيه قربةٌ إلى الله سبحانه وتعالى، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات، وعلى جميع الأحوال؛ فإن ذكر الله عبادة عظيمة، يفوز بها العبد برضوان ربه عز وجل، وينال محبته، ويفوز بأعلى الدرجات في جنته، وذكر يعين العبد على الخير، ويعينه على كف لسانه عن الكلام القبيح[(١)].

ولقد أردف الله عز وجل الأمر بالإكثار من ذكره بالأمر بتسبيحه، مع أن التسبيح داخل في الذكر، وفي ذلك بيان لشرف التسبيح وعظمه عند الله عز وجل.

قال الزمخشري: « والتسبيح من جملة الذكر؛ وإنما اختصه من بين أنواعه ليبين فضله على سائر الأذكار؛ لأن معناه تنزيه الله عز وجل عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال»[(٢)].

ومن الآيات التي ورد فيها أمر المؤمنين بالتسبيح في كل الأوقات قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨ - ٩].

ففي الآية الأولى من هاتين الآيتين بين الله عز وجل الوظيفة التي كلف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أن يكون صلى الله عليه وسلم شاهدًا على الناس؛ شاهدًا بالإيمان لمن آمن منهم، وشاهدًا بالكفر لمن كفر منهم، بعد أن بلغهم رسالة ربه تبليغًا تامًا كاملًا، ومن مهمته أيضًا تبشير المؤمنين برضا الله عز وجل، وبما أعد الله لهم من النعيم المقيم، ومن مهمته أيضًا: أن يكون نذيرًا للكافرين وللعصاة بسوء المصير، إذا ما استمروا على كفرهم وعصيانهم.

ثم بين الله عز وجل الحكمة من إرسال النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: لتؤمنوا بالله سبحانه وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وتعزروا الرسول صلى الله عليه وسلم وتوقروه، أي: تعظموه، وتفخموه، وتجلوه، وتقوموا بحقوقه صلى الله عليه وسلم، ولتسبحوا الله عز وجل بكرة وأصيلًا، أي تنزهوه سبحانه وتصلوا له، وتديموا ذكره

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٧.

(٢) الكشاف ٥/ ٧٧.

وتسبيحه، في أول النهار وآخره[(١)].

قال السعدي: «ذكر الله عز وجل في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، وذكر الحق المختص بالرسول صلى الله عليه وسلم وهو التعزير والتوقير، وذكر الحق المختص بالله عز وجل، وهو التسبيح له والتقديس بالصلاة وغيرها»[(٢)].

وهناك آيتان في كتاب الله عز وجل أمر الله سبحانه فيهما عباده المؤمنين بأن يسبحوه في حالات مخصوصة -زيادة على التسبيح العام في كل حال-، والآيتان هما:

الآية الأولى: قوله تعالى في سياق الحديث عن حادثة الإفك: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

لقد أمر الله عز وجل عباده المؤمنين في هذه الآية بأن يحسنوا الظن بإخوانهم عند سماع شيء يطعن في أعراضهم، وأن لا يخوضوا في حديث ينتهك أعراض إخوانهم من غير بينة أو دليل، وبين لهم سبحانه أنه كان الواجب عليهم عند سماع خبر الإفك في عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكذبوه ويكذبوا قائله، وأن يبادروا إلى تبرئة النبي صلى الله عليه وسلم وزوجه من هذا البهتان العظيم[(٣)].

قال القرطبي: «الآية عتاب لجميع المؤمنين، أي: كان ينبغي عليكم أن تنكروه، ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هـذا من زوج نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان»[(٤)].

وفي الآية: إرشاد حكيم من رب العزة سبحانه لعباده المؤمنين؛ بأن يسبحوه عند سماع مثل هذه الأخبار المكذوبة التي تطعن في عرض النبي صلى الله عليه وسلم، أو عرض المؤمنين الصالحين، ومناسبة التسبيح في مثل هذه الحالة: تنزيه الله عز وجل من أن يقال مثل هذا الكلام في نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو في نساء صالحي المؤمنين، ولبيان التعجب من تجرؤ الخائضين في مثل هذا الإفك والبهتان العظيم[(٥)].

الآية الثانية: قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾

(١) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٣/ ٢٦٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٧٩٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ص٥٦٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٢٠٥.
(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ١٩٥.

[الزخرف: ١٢ - ١٣].

ففي هاتين الآيتين: يذكر الله عز وجل عباده ببعض نعمه عليهم؛ من تسخير الفلك التي تحملهم في البحار بما ينفعهم، وتسخير الدواب والأنعام ليأكلوا منها ويركبوا على ظهورها، وأمرهم سبحانه بأن يذكروا هذه النعم العظيمة عليهم، ويسبحوا ربهم عز وجل؛ شكرًا على هذه النعم، وذلك حين التلبس بمنافعها والاستواء على ظهورها[١].

فقوله عز وجل: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ توطئة وتمهيد إلى ذكر نعمة الله عز وجل في قوله: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي حينئذ؛ فإن ذكر النعمة في حال التلبس بمنافعها أوقع في النفس وأدعى للشكر عليها، وأجدر بعدم الذهول عنها، أي جعل لكم ذلك نعمة منه سبحانه لتشعروا بها فتشكروه عليها، فالذكر هنا: هو التذكر بالفكر، لا الذكر باللسان فقط.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، ليكون إعلانًا للشكر باللسان بعد الشكر في النفس والقلب، فلقننا الله عز وجل صيغة شكره سبحانه، كما لقننا صيغة الحمد في سورة الفاتحة[٢].

قال ابن عاشور: «وافتتح هذا الشكر اللساني بالتسبيح لأنه جامع للثناء؛ إذ التسبيح تنزيه الله عما لا يليق، فهو يدل على التنزيه عن النقائص بالصريح، ويدل ضمنًا على إثبات الكمالات لله عز وجل»[٣].

ويفهم من هذه الآية أن التسبيح من أعظم ألفاظ الشكر لله عز وجل؛ فإذا ما تلبس عبد بنعمة من نعم الله عز وجل فشعر بها في قلبه، فلينطلق لسانه بتسبيح ربه تنزيهًا له وتعظيمًا، شكرًا على آلائه ونعمه التي لا تعد ولا تحصى.

ولعظم تسبيح الله عز وجل فإنه سيكون دعاء أهل الجنة وهم منعمون فيها، فتسبيح المؤمنين لربهم عز وجل لا ينتهي بانتهاء الدنيا؛ بل يبقى معهم في دار الخلد والنعيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٩ - ١٠].

قال السعدي: «عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألذ عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٣٠١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٤.

(٣) المصدر السابق ٢٥/ ١٧٤.

الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة»[١].

رابعًا: تسبيح المخلوقات كلها لله عز وجل:

لقد أسند الله عز وجل في كتابه العزيز التسبيح إلى أصناف مخلوقاته جميعًا؛ من الحيوانات، والنباتات، والجمادات، العاقلة منها وغير العاقلة، والناطقة وغير الناطقة، وكل شيء مما خلق الله عز وجل في السماوات أو في الأرض أو فيما بينهما من المخلوقات التي لا يحيط بعلمها، ولا يعلم عددها إلا الله عز وجل الذي خلقها، والذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا.

ففي كتاب الله عز وجل نحو إحدى عشرة آية من عشر سورٍ[٢] أسند فيها التسبيح إلى مخلوقات الله عز وجل؛ من هذه الآيات ما أسند فيها التسبيح إلى المخلوقات مجملة، ومنها ما أسند فيها التسبيح إلى مخلوقات معينة.

أولًا: الآيات التي أسند فيها التسبيح لجميع المخلوقات:

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٥٨.

(٢) هذه السور هي: الرعد: ١٣، والإسراء: ٤٤، والأنبياء: ٧٩، والنور: ٤١، وص: ١٨، والحديد: ١، والحشر: ١، ٢٤، والصف: ١، والجمعة: ١، والتغابن: ١.

الآيات التي أسند فيها التسبيح إلى جميع المخلوقات هي ثماني آيات:

أولها: قول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ففي هذه الآية يخبر سبحانه بأن السماوات والأرض وجميع مخلوقاته تنزهه سبحانه، وتمجده، وتسبحه بلسان الحال والمقال؛ فما من شيء من خلق الله عز وجل إلا ويسبح بحمده؛ ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إلا ما كان تسبيحه بمثل ألسنتكم[٣].

يقول محمد طنطاوي في تفسير هذه الآية: «بين الله سبحانه أن جميع الكائنات تسبح بحمده، فقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي تنزه الله تعالى وتمجده السموات السبع، والأرض، ومن فيهن من الإنس والجن والملائكة وغير ذلك، وما من شيء من مخلوقاته التي لا تحصى إلا ويسبح بحمد خالقه سبحانه؛ ولكن أنتم يا بني آدم لا تفقهون تسبيحهم؛ لأن تسبيحهم بخلاف لغتكم، وفوق مستوى فهمكم، وإنما الذي يعلم تسبيحهم هو

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٥٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥٨.

خالقهم عز وجل.

والمتدبر في هذه الآية الكريمة يراها تبعث في النفوس الخشية والرهبة من الخالق عز وجل؛ لأنها تصرح تصريحًا بليغًا بأن كل جماد وكل حيوان وكل طير وكل حشرة.. بل كل كائن في هذا الوجود يسبح بحمد الله عز وجل، وهذا التصريح يحمل كل إنسان عاقل على طاعة الله، وإخلاص العبادة له، ومداومة ذكره؛ حتى لا يكون -وهو الذي كرمه ربه وفضله- أقل من غيره طاعة لله تعالى»[1].

أما الآية الثانية التي أخبر فيها ربنا عز وجل عن تسبيح جميع المخلوقات له سبحانه فهي قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أن جميع ما في السماوات وما في الأرض من شيء يسبح له، ويمجده، ويقدسه، ويصلي له، ويوحده سبحانه»[2].

ومعنى قول الله عز وجل: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ يحتمل توجيهين: الأول: أن يكون الضمير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ عائد على الله عز وجل، فيكون معنى الكلام: كل مصل ومسبح منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه، والتوجيه الآخر: أن يكون الضمير عائدًا على قوله: ﴿كُلٌّ﴾ فيكون المعنى: قد علم كل مصل ومسبح منهم صلاة نفسه وتسبيحه، الذي كلفه الله به وألزمه إياه[3].

أما الآيات الأخرى التي يخبر فيها ربنا عز وجل عن تسبيح جميع المخلوقات له سبحانه، فهي فواتح كل من السور التالية: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، ففي سورة الحديد والحشر والصف جاء الإخبار بصيغة الفعل الماضي.

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

وقال سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

وقال عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الصف: ١].

أما في سورتي الجمعة والتغابن فقد جاء الإخبار بصيغة الفعل المضارع.

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

وقال عز وجل: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

---

(١) الوسيط ٨/ ٣٥٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٣/ ٥٣٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٠.

وقد وجه المفسرون الحكمة من إخبار الله عز وجل عن تسبيح مخلوقاته بالفعل الماضي تارة، وبالفعل المضارع تارة أخرى؛ بأن الفعل الماضي فيه دلالة على أن تنزيه المخلوقات وتسبيحهم لله عز وجل أمرٌ مقرر، أمر الله عز وجل به خلقه وعباده من قبل، وأمر به الناس، فالمخلوقات مسبحة لله عز وجل أبدًا في الماضي، وستظل مسبحة له سبحانه في المستقبل[1].

أما الفعل المضارع فيدل -كما هو معلوم عند أهل اللغة- على الدوام والاستمرار والتجدد، وفي ذلك بيان بأن أهل السماوات والأرض والمخلوقات كلها يجددون تسبيحهم لله عز وجل، وهم مستمرون فيه، لا يفترون عنه أبدًا[2].

قال الشوكاني: «وجاء هذا الفعل في بعض الفواتح ماضيًا، وفي بعضها مضارعًا، وفي بعضها أمرًا؛ للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة في كل الأوقات، لا يختص تسبيحها بوقت دون وقت؛ بل هي مسبحة أبدًا في الماضي، وستكون مسبحة أبدًا في المستقبل»[3].

ويبقى آية أخيرة أخبر الله عز وجل فيها عن تسبيح جميع خلقه له سبحانه، وهي الآية التي ختمت بها سورة الحشر، وهي

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣،٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٥٧.
(٣) فتح القدير ٥/ ٢٣٣.

قول الله عز وجل: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على ذكر بعض أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، فأخبر سبحانه بأنه: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ﴾ لجميع المخلوقات، المنشئ لها من العدم، ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أي مصور المخلوقات ومركبها على هيئات مختلفة، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك، ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: له سبحانه الأسماء الكثيرة العظيمة، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحدٌ إلا هو سبحانه، وكلها حسنى تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها: أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها، ومن كماله سبحانه وكمال أسمائه وصفاته أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يريد شيئًا إلا ويكون، ولا يكون شيء إلا لحكمة عظيمة[4].

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي

ثانيًا: الآيات التي أسند فيها التسبيح لمخلوقات معينة:

أخبر الله عز وجل عن تسبيح مخلوقات معينة له سبحانه، والآيات التي أخبر فيها ربنا عز وجل عن ذلك ثلاث آيات:

الآية الأولى: قول الله عز وجل: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

وللمفسرين قولان في المقصود بالرعد في هذه الآية:

أحدهما: أنه اسم الملك الذي يزجر السحاب، وصوته: تسبيحه.

والثاني: أنه الصوت المعهود، المسموع عند حدوث البرق.

والآية تحتمل المعنيين، وإنما خص الرعد بالتسبيح؛ لأنه من أعظم الأصوات[(١)].

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

ففي هذه الآية الكريمة أخبر سبحانه عن تسبيح مخلوقات معينة له سبحانه، حيث أخبر عن تسبيح الجبال والطير لله عز وجل مع نبي الله داود عليه السلام؛ وذلك أن داود عليه السلام كان من أعبد الناس، وأكثرهم لله ذكرًا وتسبيحًا وتمجيدًا، وكان قد أعطاه الله عز وجل من حسن الصوت ورقته ورخامته ما لم يؤته أحدًا من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله، جاوبته الجبال الصم، والطيور البهم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه، فلهذا قال: ﴿وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾[(٢)].

قال القرطبي: «قال وهب: كان داود عليه السلام يمر بالجبال مسبحًا والجبال تجاوبه بالتسبيح، وكذلك الطير. وقيل: كان داود عليه السلام إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق؛ ولهذا قال: ﴿وَسَخَّرْنَا﴾ أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح. وقال قتادة: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يصلين معه إذا صلى، والتسبيح: الصلاة، وكلٌّ محتمل، وذلك فعل الله تعالى بها»[(٣)].

والآية الثالثة: يخبر فيها ربنا عز وجل أيضًا عن تسبيح الجبال والطير مع نبيه داود عليه السلام.

قال سبحانه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧ - ١٩].

---

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٠٣، ص٨٥٤، أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٣١٧.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٣١٩.

فهذه الآيات مثل آية الأنبياء؛ إلا أنه سبحانه ذكر هنا أن التسبيح كان ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾، والعشي: من وقت العصر إلى الليل، والإشراق: شروق الشمس إلى الضحى، وهذا يدل على كثرة تسبيح نبي الله داود عليه السلام، وكثرة تسبيح الجبال والطير معه[1].

خامسًا: تسبيح من عبدوا من دون الله عز وجل:

لقد عبد بعض الضلال من الناس مخلوقات لله عز وجل، بهتانًا وزورًا وافتراءً على الله، فمنهم من عبد نبي الله عيسى عليه السلام، ومنهم من عبد الملائكة، ومنهم من عبد غير ذلك، وكل ذلك شرك وكفر يستحق من فعله الخلود في عذاب الله عز وجل.

ولقد أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز أن عيسى عليه السلام والملائكة الذين عبدوا من دون الله سيتبرؤون يوم القيامة مما فعله المبطلون، ومن شرك المشركين، وسيسبحون الله عز وجل وينزهونه عما افتراه المفترون، فعيسى عليه السلام ما دعا أحدًا إلى عبادته؛ وإنما دعا الناس لعبادة الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧].

لقد بدأ عيسى عليه السلام كلامه مع رب العزة -سبحانه بالتسبيح -قبل أن يبرأ نفسه- تنزيهًا له سبحانه عما افتراه المفترون، وتعظيمًا له وإجلالًا، وثناءً عليه، وخضوعًا له وخوفًا منه، وهذا التسبيح من عيسى عز وجل متضمن لبراءته من أن يكون قال للناس شيئًا من ذلك؛ لأنه إذا كان قد نزه الله عز وجل عن ذلك فلاجرم أنه لم يأمر أحدًا به[2].

أما الملائكة الذين عبدهم الضلال من دون الله عز وجل، فقد أخبر الله عز وجل بأنهم سيتبرؤون يوم القيامة من عبادة أولئك المشركين لهم، وسيسبحون الله عز وجل تنزيهًا له عن شرك المشركين وافتراء الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٦٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٨١٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١١٣.

﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٨].

وفي هذا تقريع للكفار الذين عبدوا الملائكة من دون الله عز وجل.

وفي سورة سبأ آيات مماثلة لهذه الآيات، إذ يقول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١].

فالملائكة تقر لله عز وجل بأنه ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدًا سواه سبحانه، لا هم ولا غيرهم؛ وتسبح الملائكة ربها عز وجل يوم القيامة قائلين: ما دعونا هؤلاء الكفار إلى عبادتنا؛ فما يكون لنا ذلك؛ بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم؛ فما ينبغي لأحد أن يعبدنا؛ فإنا عبيد لك، فقراء إليك، وكذلك الخلق كلهم[1].

وبعد هذا الاستعراض لتسبيح الخلائق كلها لله عز وجل -من الملائكة، والنبيين، والمؤمنين، وسائر المخلوقات- نستشعر عظمة من سبح له الخلق كله؛ فما استكبر مخلوق عن تسبيح خالقه، وما استنكف عبد علم قدر ربه عن عبادة مولاه؛ فالكون كله خلق الله، والخلق كله قد سبح لله، سبحانه وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٢٩١.

من صيغ التسبيح

من خلال تتبع الآيات التي ورد فيها التسبيح في كتاب الله عز وجل، نجد أن التسبيح فيها ورد بعدة صيغ؛ وذلك كما يأتي:

أولًا: التسبيح بصيغة: (سبحان) مضافًا إليها هاء الضمير العائد إلى الله عز وجل (سبحانه).

وهذه الصيغة هي أكثر صيغ التسبيح ورودًا في كتاب الله عز وجل؛ حيث إنها وردت في أربع عشرة آية[1].

وبتتبع هذه الآيات التي ورد فيها التسبيح بهذه الصيغة نجد أنها كلها جاءت في سياق تسبيح الله عز وجل لنفسه العلية؛ فمن هذه الآيات -على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]

والملاحظ أيضًا أن كل هذه الآيات قد وردت: إما في سياق تنزيه الله عز وجل نفسه عما افتراه المفترون من اتخاذ الولد، أو في سياق تنزيهه سبحانه لنفسه عما نسبه المشركون إليه سبحانه من اتخاذ الشريك، وإما في سياق تعظيم الله عز وجل لنفسه، وبيان بعض مظاهر آيات قدرته وملكه، وامتنانه سبحانه على عباده بما يوجب الشكر والثناء له سبحانه، بتنزيهه وتسبيحه وتمجيده.

ثانيًا: التسبيح بصيغة (سبحان) مضافًا إليها كاف المخاطب (سبحانك).

التسبيح بصيغة (سبحانك) ورد في كتاب الله عز وجل في تسع آيات[2].

(١) وردت هذه الصيغة من صيغ التسبيح في المواضع التالية من كتاب الله عز وجل: البقرة: ١١٦، والنساء: ١٧١، والأنعام: ١٠٠، والتوبة: ٣١، ويونس: ١٨، ٦٨، والنحل: ١، ٥٧، والإسراء: ٤٣، ومريم: ٣٥، والأنبياء: ٢٦، والروم: ٤٠، والزمر: ٤، ٦٧.

(٢) هذه الآيات هي: البقرة: ٣٢، آل عمران: ١٩١، المائدة: ١١٦، الأعراف: ١٤٣، يونس: ١٠، الأنبياء: ٨٧، النور: ١٦، الفرقان: ١٨، سبأ: ٤١.

وبتتبع هذه الآيات نجد أن التسبيح بهذه الصيغة قد ورد على لسان الملائكة المكرمون في ثلاث آيات منها، وورد على لسان ثلاثة أنبياء من أنبياء الله عز وجل -وهم يونس عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام - في ثلاث آيات أخرى، والآيات الثلاث المتبقية ورد فيها التسبيح بهذه الصيغة على لسان المؤمنين.

ثالثًا: التسبيح بصيغة (سبحان الله).

وهذه الصيغة هي أشهر صيغ التسبيح، وتكثر هذه الصيغة أيضًا في سياق الآيات التي يسبح الله عز وجل فيها نفسه العلية عن شرك المشركين وافتراء المفترين؛ من نسبة الولد أو الشريك لله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨-١٥٩].

وقوله أيضًا: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣].

ووردت هذه الصيغة أيضًا في سياق أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن دعوته التي يدعو هو وأتباعه الناس إليها، ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يعلن تسبيحه وتنزيهه لربه عز وجل كما أمر أن يعلن عن دعوته[1].

ووردت هذه الصيغة كذلك في سياق أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بتسبيحه في أوقات مخصوصة، قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: فسبحوا الله أيها الناس: أي صلوا له، ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، وذلك صلاة المغرب، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾، وذلك صلاة الصبح، ﴿وَعَشِيًّا﴾ يقول: وسبحوه أيضًا عشيًا، وذلك صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ يقول: وحين تدخلون في وقت الظهر»[2].

ففي هذه الآية: إخبار عن تنزه الله عز وجل عن السوء والنقص، وعن أن يماثله أحد من الخلق، وفيها أيضًا: أمر للعباد أن يسبحوا ربهم عز وجل حين يمسون وحين يصبحون، ووقت العشي ووقت الظهيرة؛ فهذه الأوقات هي أوقات

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٨٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٦٦.
(٢) جامع البيان ٢٠/ ٨٣.

الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من النوافل[1].

رابعًا: التسبيح بصيغة: (سبحان الذي) (الاسم الموصول العائد على الله عز وجل).

ورد التسبيح بهذه الصيغة في أربع آيات من كتاب الله عز وجل؛ وكل هذه الآيات قد وردت في سياق بيان بعض مظاهر قدرة الله عز وجل وعظمته سبحانه، وبيان بعض نعمه على عباده؛ وهذه الآيات هي: قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢ - ٨٣].

خامسًا: التسبيح بصيغة: (سبحان ربي)، و(سبحان ربك)، و(سبحان ربنا).

ورد التسبيح مضافًا إلى الرب -جل وعلا- في خمسة مواضع من كتاب الله عز وجل، في موضعين من هذه المواضع ورد بصيغة الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٧٨ - ١٨٢].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

ففي هذه الآيات الأخيرة أمر الله عز

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٨.

وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينزه ربه عز وجل عما طلبه أولئك الكفار السفهاء من مطالب فيها سوء أدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، طلبوها على سبيل التعنت والتعجيز له صلى الله عليه وسلم؛ حيث طلبوا منه أمورًا لا يقدر عليها إلا الله عز وجل، وليست في مقدور أحد سواه، فأمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينزهه عن أقوالهم الباطلة، ومطالبهم السفيهة، فتنزه الله سبحانه عن أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة[1].

وورد التسبيح مضافًا إلى رب السماوات والأرض في موضع واحد، وهو قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨١- ٨٢].

وهذه الآية من الآيات التي نزه الله عز وجل فيها نفسه عما افتراه عليه المفترون من اتخاذ الولد، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

وفي ذكره عز وجل في هذا الموضع بصفته رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم -وهذه المخلوقات أعظم ما خلق الله سبحانه- يفيد انتفاء أن يكون له سبحانه ولد؛ فهو سبحانه مستغنٍ عن الولد؛ وهو سبحانه رب كل شيء، قال ابن عاشور: «ووصفه -في هذه الآية- بربوبية أقوى الموجودات وأعظمها؛ يفيد انتفاء أن يكون له ولد؛ لانتفاء فائدة الولادة، فقد تم خلق العوالم ونظام نمائها ودوامها، وعلم من كونه خالقها أنه غير مسبوق بعدم، وإلا لاحتاج إلى خالق يخلقه، واقتضى عدم السبق بعدم أنه لا يلحقه فناء؛ فوجود الولد له يكون عبثًا»[2].

وورد التسبيح بصيغة: (سبحان ربنا) في موضعين من كتاب الله عز وجل.

الموضع الأول: على لسان مؤمني أهل الكتاب، وذلك في قول الله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٨].

لقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول للكافرين الذين كفروا بالقرآن الذي أنزل: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾، أي سواء آمنتم به أم لا فهو حق في نفسه، أنزله الله، ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي من صالحي أهل الكتاب، الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٦.

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٦٦.

ولم يبدلوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي لله عز وجل شكرًا على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلًا أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم[1].

والموضع الثاني: هو قول الله عز وجل إخبارًا عن أصحاب الجنة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩].

فبعد أن ذكرهم أوسطهم، وعادوا إلى رشدهم، سارعوا إلى تنزيه ربهم عز وجل وتسبيحه، نزهوه سبحانه عن أن يكون ظالمًا فيما فعل بهم؛ بل هم الذين ظلموا أنفسهم بتركهم قول: إن شاء الله، وبما قصدوا من حرمان المحتاجين[2].

سادسًا: التسبيح المقرون بالحمد (سبحان الله وبحمده).

ورد الأمر بقرن التسبيح لله عز وجل بحمده سبحانه في سبع آيات من كتاب الله عز وجل؛ حيث قال تعالى في أربع آيات منها: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[3]، وفي آيتين: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[4]، وفي آية واحدة قال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾[الفرقان: ٥٨].

كما جاء في كتاب الله عز وجل الخبر عن قرن التسبيح بالتحميد في مواضع متعددة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

وقوله تعالى عن ملائكته: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥] وغير ذلك من الآيات.

وتسبيح الله عز وجل بهذه الصيغة يكون بأن يجمع بين التسبيح والتحميد، وذلك بأن يقول القائل: سبحان الله وبحمده، وهذا ما دل عليه فعل النبي صلى الله عليه وسلم، حيث إنه جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم ما صلى صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول فيها: (سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)[5].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٩١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٤٤، أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٤١٢.

(٣) ورد ذلك في أربع آيات من كتاب الله عز وجل، وهذه الآيات هي: طه: ١٣٠، غافر: ٥٥، ق: ٣٩، الطور: ٤٨.
(٤) الآيتان هما: الحجر: ٩٨، النصر: ٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير،

وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد وضح لنا تسبيح الملائكة لربها عز وجل، وذلك عندما سئل: أي الكلام أفضل؟ فقال: (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده)[1].

وهذا التسبيح المقرون بالحمد يتضمن التعظيم لله تعالى على الإجمال والكمال؛ وذلك لأن التسبيح مع التحميد يجمع النفي والإثبات: نفي المعايب كلها عنه سبحانه، وإثبات المحامد كلها له سبحانه[2].

وإن تسبيح الله عز وجل بهذه الصيغة هو أحب الكلام إليه سبحانه، ففي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله)؟ قلت: يا رسول الله، أخبرني بأحب الكلام إلى الله. فقال: (إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده)[3].

سابعًا: التسبيح باسم الله العظيم.

ورد الأمر بالتسبيح باسم الله العظيم في ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[4]، وفي موضع واحد ورد الأمر بقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وليس المراد من التسبيح باسم الله أن يقول العبد: سبحان اسم الله؛ وإنما المراد بذلك التسبيح أن يسبح العبد بقلبه ولسانه لله عز وجل[5].

قال ابن القيم: «إن الذكر الحقيقي محله القلب؛ لأنه ضد النسيان، والتسبيح نوع من الذكر، فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه إلا ذلك دون اللفظ باللسان، والله تعالى أراد من عباده الأمرين جميعًا، ولم يقبل الإيمان وعقد الإسلام إلا باقترانهما واجتماعهما، فصار معنى الآيتين: سبح ربك بقلبك ولسانك، واذكر ربك بقلبك ولسانك، فأقحم الاسم تنبيهًا على هذا المعنى، حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان»[6].

ومما يؤيد أن المراد من التسبيح باسم الله العظيم هو قول: (سبحان ربي العظيم) ذكرًا بالقلب واللسان ما جاء في الحديث

رقم ٤٩٦٧، ٦/ ١٧٨، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل سبحان الله وبحمده، ٤/ ٢٠٩٣، رقم ٢٧٣١، عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، ابن تيمية ص ٢٢.

(٣) سبق تخريجه في الحديث السابق.

(٤) وردت هذه الآية في كتاب الله عز وجل في ثلاث مواضع: الواقعة: ٧٤، ٩٦، الحاقة: ٥٢.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٧٣.

(٦) التفسير القيم ٢/ ١٨٥.

عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اجعلوها في ركوعكم)، فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال صلى الله عليه وسلم: (اجعلوها في سجودكم)[1].

مواطن التسبيح

إن المتدبر للآيات التي ورد فيها التسبيح في كتاب الله عز وجل يجد أن التسبيح يشرع في مواطن مخصوصة -فضلًا عن التسبيح العام في كل وقت وعلى كل حال-، ومن خلال استقراء تلك الآيات نجد أن معظم التسبيح الوارد فيها جاء في مواطن تنزيه الله عز وجل عن شرك المشركين، وافتراء المفترين، أو في مواطن الحديث عن عظمة الله تعالى وجلاله، وبيان آياته الباهرة في خلقه، ويشرع التسبيح أيضًا في مواطن التعجب، وعقيب الطاعات، وبعد الفوز بنصر الله عز وجل.

ونقف فيما يأتي على بيان هذه المواطن، مستشهدين ببعض الآيات في ذلك:

أولًا: التسبيح في موطن تنزيه الله عز وجل:

لقد سبح الله عز وجل نفسه العلية عن كل نقص أو عيب نسبه إليه الكفار المشركون الجاهلون بربهم عز وجل؛ فنزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الصاحبة والولد، ونزه نفسه عن الشريك والند والمثيل، والآيات في ذلك أكثر من أن تحصى في بحث واحد.

فمن الآيات التي نزه الله عز وجل فيها نفسه عن اتخاذ الولد، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٤٥٠، ٤/ ١٥٥، وأبو داود في سننه، تفريع أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، ١/ ٢٣٠، رقم ٨٦٩، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة، باب التسبيح في الركوع والسجود، ١/ ٢٨٧، رقم ٨٨٧، والحاكم في المستدرك، رقم ٣٧٤٢، ٢/ ٤٧٧.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وتعقبه الذهبي بقوله: إياس ابن عامر الراوي عن عقبة ليس بالمعروف.

﴿وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقوله عز وجل: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

أما الآيات التي سبح الله عز وجل فيها نفسه عن شرك المشركين، وعن أن يكون له شريك في ملكه أو ألوهيته، فهي أيضًا كثيرة في كتاب الله عز وجل، منها -على سبيل المثال-: قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢ - ٤٣].

وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

ولقد أمر الله عز وجل رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يسبحه عندما طلب منه سفهاء المشركين -على سبيل الاستهزاء- أن يأتيهم بمعجزات لا يقدر عليها البشر، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

فأمر الله عز وجل نبيه أن يسبحه في موطن خاض فيه أولئك المشركون فيما ينافي تنزيه الله عز وجل وإجلاله.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، القائلين لك هذه الأقوال، ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تنزيهًا لله عما يصفونه به، وتعظيمًا له من أن يؤتى به أو بملائكته، أو يكون لي سبيل إلى شيء مما تسألونيه، ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ يقول: هل أنا إلا عبد من عبيده من بني آدم، فكيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور، وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والذي سألتموني أن أفعله بيد الله عز وجل، الذي أنا وأنتم عبيد له، لا يقدر على ذلك غيره»(١).

وقد ذكر الله عز وجل تسبيح عبده ونبيه عيسى عليه السلام له سبحانه يوم القيامة

(١) جامع البيان ١٧/ ٥٥٥.

عما افتراه المبطلون؛ من عبادته عليه السلام من دون الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

وكذلك الملائكة المكرمون يسبحون ربهم عز وجل، منزهين له سبحانه عن افتراء المفترين وشرك المشركين، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

«وفي هذه الآية: دليل على أن العبد المؤمن يسبح الله تعالى عند حدوث ما ينافي تنزيهه وتعظيمه سبحانه؛ من قول أو فعل أو اعتقاد»[1].

ثانيًا: التسبيح في المواطن الدالة على قدرة الله عز وجل وعظمته:

إن المواطن التي يستشعر فيها العبد عظمة ربه عز وجل، ويرى من عجيب قدرة الله عز وجل؛ لا يمكن لمخلوق حصرها، ولا يحيط بها إلا الذي خلقها سبحانه وتعالى، وكم من عجائب لله تعالى في العالمين يتغافل عنها الناس ويتجاهلونها؛ إلا أولي الألباب منهم، الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

إن هؤلاء المتفكرين في خلق الله عز وجل من أولي الألباب لما استشعروا عظمة الخالق امتلأت قلوبهم تنزيهًا له سبحانه، وانطلقت ألسنتهم بتسبيحه ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾، فإن المواطن التي يقف فيها العبد على شيء من عظيم قدرة ربه وبديع صنعه، لا يملك العبد فيها إلا أن يلهج بتسبيح ربه وتنزيهه عن كل نقص أو عيب نسبه إليه المبطلون.

«إن المؤمن المتفكر بعد أن تدبر ونظر، ودقق وتفكر، يتوجه إلى الله تعالى متضرعًا معلنًا قناعته بحكمة الله العليا في خلق المخلوقات»[2].

ولقد افتتح الله عز وجل سورة الإسراء بالتسبيح؛ لأن السياق يتحدث عن معجزة عظيمة لا يقدر عليها أحد إلا الله سبحانه، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

(١) التسبيح في الكتاب والسنة/ محمد كنده ٢/ ١٨.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ٢٠٧.

فالإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم آية من آيات الله دالة على عظيم قدرته سبحانه.

قال ابن عاشور: «الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام يؤذن بأن خبرًا عجيبًا يستقبله السامعون، دالًا على عظيم القدرة من المتكلم سبحانه»(١).

ومن الآيات التي ورد فيها التسبيح في موطن بيان عظمة الله عز وجل، قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقوله في ذات السورة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢- ٨٣].

قال ابن كثير: «أي تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه رجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه يرجع العباد يوم المعاد، فيجازي كل عامل بعمله وهو العادل المنعم المتفضل»(٢).

ثالثًا: التسبيح في مواطن التعجب:

ومن المواطن التي يرد فيها التسبيح ويشرع: مواطن التعجب، وقد ورد التسبيح في عدد من الآيات في موطن التعجب -سواء كان التعجب من عظمة قدرة الله عز وجل أو تعجبٌ من غير ذلك-، ومن الآيات في ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

فتسبيحه تعالى لنفسه في هذه الآية كما يتضمن تنزيهه عن اتخاذ الولد، يتضمن كذلك التعجب من هذه المقولة الباطلة(٣).

ومن ذلك -أيضًا: قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم جوابًا عما اقترحه الكفار من الآيات: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

ففي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تعجبٌ من تعنت هؤلاء الكفار ومن ظنهم السيء في الله عز وجل، وتنزيه له عز وجل عما لا يليق به مما يصفونه به، ومن أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكه(٤).

وفي هذه الآية: دليل على أن العبد المؤمن يشرع له أن يسبح الله عز وجل عند حدوث ما ينافي تنزيهه وتعظيمه، من قول أو فعل أو اعتقاد(٥).

ومن الآيات التي ورد فيها التسبيح في

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١١/ ٣٨٧.
(٣) انظر: التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو ٢/ ١٧.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٣١.
(٥) انظر: التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو ٢/ ١٨.

موطن التعجب، قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

ففي هذه الآية يؤدب الله عز وجل المؤمنين بما يجب عليهم فعله وقوله إذا سمعوا كلامًا يسيء إلى عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالذي عليهم أن يبادروا إليه هو إنكار هذا الكلام أشد الإنكار، وأن يزجروا أنفسهم عنه زجرًا ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، أي: ما يصح منا إطلاقًا أن نتكلم بهذا الحديث البالغ أقصى الكذب والافتراء، وعلمهم ربهم في هذا الموطن أن يسبحوه سبحانه؛ يسبحوه على سبيل التعجب من شناعة هذا الخبر، فقولهم في هذا الموطن: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: نتعجب يا ربنا من شناعة ما سمعناه؛ فإن ما سمعناه عن أم المؤمنين عائشة كذب يبهت ويدهش من يسمعه، وهو في الشناعة لا تحيط بوصفه عبارة[1].

رابعًا: التسبيح عقيب الطاعات:

ومن المواطن التي يشرع فيها التسبيح أيضًا: بعيد الانتهاء من الطاعات والعبادات، كالتسبيح في أدبار الصلوات، وقد أمر الله عز وجل بذلك في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩- ٤٠].

ففي هذه الآية يأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر، ويأمره بأن يسبح بحمد ربه في أوقات مخصوصة خصها سبحانه، وذكر سبحانه من هذه الأوقات: أدبار السجود، وللمفسرين أقوال في المقصود بالتسبيح في أدبار السجود، ذكرها الإمام الطبري فقال: «واختلف أهل التأويل في معنى التسبيح الذي أمر الله نبيه أن يسبحه أدبار السجود، فقال بعضهم: عني به الصلاة، فقالوا: وهما الركعتان اللتان يصليان بعد صلاة المغرب. وقال آخرون: عنى به التسبيح في أدبار الصلوات المكتوبات، دون الصلاة بعدها. وقال آخرون: هي النوافل في أدبار المكتوبات»[2].

وسواء كان التسبيح المأمور به في أدبار السجود هو صلاة النوافل أم كان مطلق التسبيح؛ فالأمران يصلح أن يطلق عليما تسبيح؛ فالصلاة تسبيح، والتسبيح المطلق المعروف تسبيح، وقد جاءت السنة بالحث على التسبيح في أدبار الصلوات، وذلك في عدة أحاديث، من ذلك: ما رواه كعب ابن عجرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**معقبات لا يخيب قائلهن -أو**

(١) الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٩٨.

(٢) جامع البيان ٢٢/ ٣٧٧.

فاعلهن-: ثلاث وثلاثون تسبيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة، وأربع وثلاثون تكبيرة، في دبر كل صلاة)[1].

خامسًا: التسبيح بعد النصر:

إن النصر بيد الله عز وجل، يمتن به على من يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

فإذا أنعم الله عز وجل على الأمة بالنصر على أعدائها، فعليها أن تجتهد في شكر ربها على هذه النعمة العظيمة، ولقد علم الله عز وجل الأمة المؤمنة كيف تشكر ربها عز وجل عند حصول نعمة النصر، وذلك من خلال تلك السورة العظيمة التي أنزلها الله عز وجل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم - وهي آخر سورة أنزلت كاملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم -، موجهًا له كيف يقابل نعمة ربه بالنصر والفتح المبين.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③﴾ [النصر: ١ - ٣].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إذا جاءك نصر الله يا محمد على قومك من قريش، والفتح: فتح مكة ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ من صنوف العرب وقبائلها ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ يقول: في دين الله الذي بعثك به أفواجًا، يعني: زمرًا، فوجًا فوجًا، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يقول: فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره، على ما أنجز لك من وعده، وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ يقول: وسله أن يغفر ذنوبك؛ إنه كان ذا رجوع لعبده المطيع إلى ما يحب»[2].

ومن هذه السورة الكريمة نعلم: أن من أعظم المواطن التي يشرع فيها التسبيح شكرًا لله عز وجل، موطن حصول النصر للمؤمنين.

ولقد امتثل النبي صلى الله عليه وسلم أمر ربه عز وجل فيما أمره به في هذه السورة، فعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: كان صلى الله عليه وسلم يكثر -بعد نزول هذه السورة- أن يقول في ركوعه وسجوده: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي) يتأول القرآن[3].

قال النووي في شرحه لهذا الحديث:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم ١٣٧٨، ٢/ ٩٨.

(٢) جامع البيان ٢٤/ ٦٧١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ١١١٢، ٢/ ٥٠.

«معنى يتأول القرآن: يعمل ما أمر به في قول الله عز وجل: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وكان صلى الله عليه وسلم يقول هذا الكلام البديع في الجزالة، المستوفي ما أمر به في الآية، وكان يأتي به في الركوع والسجود؛ لأن حالة الصلاة أفضل من غيرها، فكان يختارها لأداء هذا الواجب الذي أمر به ليكون أكمل»[1].

سادسًا: التسبيح عند الاستواء على المركوب:

يشرع للمسلم إذا ركب مركوبًا من دابة، أو سفينة، أو سيارة، أو طائرة، أو غيرها من وسائل النقل أن يسبح الله عز وجل تسبيحًا مقرونًا بالحمد والتهليل والتكبير والاستغفار، وذلك امتثالًا لقول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

ففي هذه الآيات يذكر الله عز وجل عباده بما خلق من أصناف المخلوقات المتنوعة، ويمتن سبحانه على عباده بما جعله لهم من أنواع المراكب التي يركبونها في البحر والبر، إلى حيث قصدوا في الأرض لمعايشهم ومطالبهم، ويعلمهم ما يقولون إذا استقروا على ظهور هذه المراكب، من تسبيح الله عز وجل، وشكره على نعمه، التي منها: تسخير هذه المراكب للناس، والتي لولاه سبحانه ما أطاقوها ولا ضبطوها؛ ولكنه سبحانه من لطفه وكرمه سخرها وذللها ويسر أسبابها، وهذا معنى قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[2].

ولقد شرع الله عز وجل تسبيحه عند الاستواء خاصة ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ لأن العبد في هذا الموطن -موطن الشعور بالانتفاع بالنعمة- يكون أدعى لشكر النعمة، وأوقع في نفسه، وأبعد ما يكون عن الغفلة عنها[3].

ولقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ما أمر الله به معلمًا الأمة كيفية الامتثال لأمر ربها عز وجل، فعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبر ثلاثًا، ثم قال: **(سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن**

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم، ٤/ ٢٠١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٦٧٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٨٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٤.

العمل ما ترضى...)[1].

وفي مشروعية التسبيح عند الاستواء على ظهر المركوب شكرًا لنعمة الله عز وجل تذكير بمشروعية التسبيح عند الانتفاع بكل ما سخر الله عز وجل لنا في هذه الدنيا، فشكر النعمة واجب، ومن أعظم أوجه شكر المنعم سبحانه تسبيحه وتقديسه وتنزيهه، فسبحان الله وبحمده.

سابعًا: التسبيح عند الكرب:

فمن المواطن التي أشار القرآن الكريم إلى مشروعية التسبيح فيها أيضًا: موطن الكرب والشدة، فقد يتعرض العبد في هذه الدنيا إلى الوقوع في شدة أو كرب، يحتاج عندئذ إلى الالتجاء إلى من ينجي من الكرب، ويفرج الشدائد، و﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

ولقد علمنا ربنا عز وجل ماذا نقول في مناجاتنا له سبحانه عند الكرب، وذلك من خلال ما أخبر به سبحانه من قصة ذي النون عليه السلام، عندما ناجى ربه في الظلمات.

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧- ٨٨].

فقد اشتمل دعاء ذي النون عليه السلام على التسبيح لله عز وجل، وبهذا نعلم أن التسبيح مشروع في موطن الكرب والشدة؛ ليكون فيه تضرع إلى الله عز وجل المنجي من الكرب.

ولقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن دعاء ذي النون عليه السلام في الكرب سبب لتفريج الله عز وجل عن المكروبين، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له)[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر، رقم ٣٣٣٩، ٤/ ١٠٤.

(٢) سبق تخريجه.

أزمنة التسبيح

ذكر الله عز وجل التسبيح في كتابه العزيز مقيدًا بأوقات مخصوصة وأزمنة معينة، حاثًا عباده على الإكثار من تسبيحه في تلك الأوقات المباركة، ومن خلال تتبع الآيات التي ورد فيها ذلك[1] يمكن أن نجملها بما يأتي:

أولًا: التسبيح في العشي والإبكار:

ورد الأمر بالتسبيح بالعشي والإبكار موجهًا إلى نبي الله زكريا عليه السلام، وذلك في قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

ففي هذه الآية: أمر الله عز وجل نبيه زكريا عليه السلام بأن يذكره كثيرًا، وبأن يسبحه في وقتين مخصوصين؛ وهما: العشي والإبكار[2].

والعشي: هو من حين زوال الشمس إلى أن تغيب. قال الأزهري: «ويقع العشي على ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها، كل ذلك عشي، فإذا غابت الشمس فهو العشاء»[3].

وأما الإبكار فهو مصدر أبكر، بمعنى خرج ما بين مطلع الفجر إلى وقت الضحى، فوقت الإبكار هو أول النهار، من الفجر إلى الضحى[4]، وبذلك يكون الله عز وجل قد أمر زكريا عليه السلام بأن يكثر من التسبيح في آخر النهار وأوله.

ومن الآيات التي ورد فيها التسبيح في وقتي العشي والإبكار أيضًا: ما ذكره الله عز وجل عن نبيه زكريا عليه السلام، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

فبعد أن أمره الله عز وجل بأن يكثر من ذكر ربه، ويداوم على تسبيحه في العشي والإبكار، خرج عليه السلام إلى قومه، وأشار إليهم بأن يسبحوا هم أيضًا في هذين الوقتين العظيمين؛ شكرًا لله عز وجل على ما أنعم عليه[5].

ومن الآيات التي فيها أمرٌ بالتسبيح في وقتي العشي والإبكار: قول الله تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ

---

(١) بلغ عدد المواضع التي ورد فيها التسبيح مقيدًا بزمن معين في كتاب الله عز وجل اثني عشر موضعًا، في اثنتي عشرة سورة، وهذه المواضع هي: آل عمران: ٤١، مريم: ١١، طه: ١٣٠، النور: ٣٦، الروم: ١٧-١٨، الأحزاب: ٤٢، ص ١٨، غافر: ٥٥، الفتح: ٩، ق: ٣٩-٤٠، الطور: ٤٩، الإنسان: ٢٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٨.

(٣) تهذيب اللغة ٣/ ٥٨.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٩٢، الوسيط، الواحدي ص٢٠٩

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٢٢٠.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

وهذه الآية جاءت عقب الآيات التي أخبر الله عز وجل فيها عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وذكر ما تعرض له عليه السلام من شدة وأذى من فرعون وملئه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣- ٢٤].

وذكر أخبار ذلك الرجل المؤمن الذي وقف في وجه فرعون نصرةً لموسى عليه السلام، باذلًا وسعه في هداية قومه وإرشادهم ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

جاءت هذه الآية بعد ذلك تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر تأسيًا بمن سبقه من الرسل والأنبياء، ومبشرةً له صلى الله عليه وسلم بأن ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ سينصر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم كما نصر موسى عليه السلام، ثم أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يستغفر لذنبه[(١)]، وبأن يكثر من تسبيح ربه عز وجل وتنزيهه عند حلول الليل وعند تباكير الصباح، فإن هذا الاستغفار وذلك التسبيح خير زاد للوصول إلى السعادة، والفوز في الدنيا والآخرة[(٢)].

قال السعدي: «أمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالى خصوصًا ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما؛ لأن في ذلك عونًا على جميع الأمور»[(٣)].

ومن الآيات التي ذكرت التسبيح في أول النهار وآخره: قول الله عز وجل مخبرًا عن عبده ونبيه داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨- ١٩].

أي: إن الله تعالى سخر الجبال تسبح مع داود عليه السلام عند إشراق الشمس وآخر النهار، وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه،

---

(١) قال القرطبي في معنى لذنبك: «قيل: لذنب أمتك، حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقيل: لذنب نفسك على من يجوز الصغائر على الأنبياء، ومن قال لا تجوز قال: هذا تعبد للنبي عليه السلام بدعاء، والفائدة زيادة الدرجات، وأن يصير الدعاء سنة لمن بعده، وقيل: فاستغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة». الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٣٢٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٢٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٧٣٩.

وترجع بترجيعه؛ إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب؛ بل يقف في الهواء ويسبح معه، وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعًا له[1].

ويُفهم من الآية أن نبي الله داود عليه السلام كان يسبح ربه تسبيحًا خاصًا في هذين الوقتين ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، وتسبح معه الجبال والطير فيهما، والإشراق الوارد في الآية: هو وقت شروق الشمس إلى وقت الضحى، وهو بذلك مرادف لوقت الإبكار الوارد في الآيات السابقة.

ثانيًا: التسبيح بكرة وأصيلًا:

ورد التسبيح في كتاب الله عز وجل مقيدًا بوقتي البكرة والأصيل في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

ففي هاتين الآيتين: يأمر الله عز وجل عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى وبكثرة تسبيحه في الصباح والمساء؛ لما لهم في ذلك من جزيل الثواب وجميل المآب[2].

فوقت البكرة هو وقت الإبكار، وهو -كما ذكرنا- أول النهار، أما الأصيل فهو الوقت من بعد العصر إلى غروب الشمس، وهو بذلك مرادف لوقت العشي، وحدده بعض أهل اللغة بأنه آخر العشي، قال ابن فارس: «الأصيل بعد العشي»[3].

وذكر بعض المفسرين أن المقصود بالتسبيح بكرة وأصيلًا: صلاة الصبح وصلاة العصر[4]، والصلاة متضمنة للتسبيح ولاشك، وذكر بعضهم أن الله عز وجل يأمر في الآية بالتسبيح في كل الأوقات، مجددًا الزمان بطرفي نهاره وليله[5].

والموضع الثاني: قول الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨-٩].

ففي الآية الأولى من هاتين الآيتين: بيان للوظيفة التي كلف الله عز وجل بها رسوله صلى الله عليه وسلم؛ من الشهادة على الناس، وتبشير المؤمنين، وإنذار العصاة والكافرين، وفي الآية الثانية: بيان للحكمة من إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي أن يقوم الناس بالإيمان بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم، ويعظموا الرسول ويوقروه، ويسبحوا الله عز وجل

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٨٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ١٨٠.
(٣) تهذيب اللغة ١/ ١١٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٧٩.
(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٨.

أول النهار وآخره[1].

أما الموضع الثالث: فهو قول الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧].

وفي هاتين الآيتين: مدح لعمار بيوت الله عز وجل، الذين يديمون التسبيح له سبحانه في بيوته في أول النهار وآخره، «وخص هذين الوقتين لشرفهما، ولتيسر السير فيهما إلى الله عز وجل وسهولته، ويدخل في ذلك التسبيح في الصلاة وغيرها؛ ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادهما عند الصباح والمساء»[2].

والمراد بالغدو الوارد في الآية: هو نفس وقت البكرة الوارد في الآيات السابقة، وهو وقت أول النهار[3].

ثالثًا: التسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وآناء الليل وأطراف النهار، وأدبار السجود:

ورد التسبيح في هذه الأزمنة في ثلاثة مواضع من كتاب الله عز وجل:

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٩.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ١٤٧.

الموضع الأول: قول الله تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

لقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بأن يصبر على ما يقوله المشركون المكذبون من أباطيل، وأمره بأن يسبح بحمد ربه في أوقات مخصوصة؛ وهي: قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، وفي ساعات الليل، وفي ساعات النهار.

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بالتسبيح في هذه الأوقات: هو الصلوات المكتوبة، فقد روى ابن أبي حاتم «عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ قال: هي الصلاة المكتوبة. وعن قتادة في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ قال: هي صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ قال: صلاة العصر، ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ قال: صلاة المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ قال: صلاة الظهر»[4].

ولا يخفى أن الصلاة مشتملة على تسبيح الله عز وجل، فيكون الأمر بالتسبيح هنا مشتملًا الأمر بالصلاة والأمر بالتسبيح فيها،

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٢٥.

فيكون المعنى: «وسبح بحمد ربك في صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، وفي صلاة العصر قبل غروبها، وفي صلاة العشاء في ساعات الليل، وسبح بحمد ربك أطراف النهار في صلاة الظهر -إذ وقتها طرف النصف الأول والنصف الثاني من النهار- وفي صلاة المغرب؛ كي تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به»[(١)].

والموضع الثاني: قول الله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠].

وهاتان الآيتان مماثلتان للآية السابقة، حيث أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله المشركون، وهما أيضًا متضمنتان للأمر بالصلوات الخمس المفروضة؛ فالتسبيح قبل طلوع الشمس يشمل صلاة الفجر، والتسبيح قبل غروبها يشمل صلاة العصر، وقيل: يشمل الظهر والعصر، والتسبيح من الليل يشمل صلاتي المغرب والعشاء[(٢)].

«وللمفسرين في هذا التسبيح -أي التسبيح في أدبار السجود- ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنه الركعتان بعد صلاة المغرب. والثاني: أنه النوافل بعد المفروضات. والثالث: أنه التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات»[(٣)].

وفي أمر الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار دليلٌ عظيمٌ على أن التسبيح فيه إعانة على الصبر المأمور به[(٤)].

والأمر بالتسبيح في نهاية الليل قد ورد أيضًا في قول الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨ - ٤٩].

فالمراد بإدبار النجوم وقت آخر الليل[(٥)]، فيكون هذا الوقت داخلًا في وقت آناء الليل، وداخلًا أيضًا في وقت قبل طلوع الشمس.

أما الموضع الثالث: ففيه أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالتسبيح في جزء طويل من الليل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥ - ٢٦].

فأمر سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم -بعد أمره بالذكر بكرة وأصيلًا- بتسبيحه في مقدار من الليل طويل، والمراد بذلك: صلاة التهجد التي كانت مفروضة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل المراد بالتسبيح هنا: الذكر المطلق سواء كان في الصلاة أو

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٣٢١.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٣٦٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٤.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٢٣.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤٣٢.
(٥) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ص ٢٥١.

في غيرها[1].

رابعًا: التسبيح في الصباح والظهر والمساء وحين القيام:

ورد الأمر بالتسبيح في وقت الصباح والمساء والظهيرة موجهًا للمؤمنين جميعًا في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨].

وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد من هاتين الآيتين أمر المؤمنين بالصلوات الخمس؛ فقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أي: صلاة المغرب والعشاء، وقوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي: صلاة الصبح، وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي: صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي: صلاة الظهر[2].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالتسبيح هنا معناه اللغوي، أي تنزيه الله عز وجل، فيكون المراد في الآية: الأمر بتنزيه الله عز وجل عما لا يليق به سبحانه، في وقت الصباح والمساء، وفي العشي، وفي وقت الظهيرة[3].

ووقت المساء هو وقت إقبال الليل بظلامه، فيكون هذا أمرًا بالتسبيح في بعض الليل، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠].

وقوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي: تدخلون في الصباح، والصباح إسفار النهار بضيائه، وهذا الوقت مرادف لوقت البكرة والإبكار، ومرادف أيضًا لوقت قبل طلوع الشمس، وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي حين تزول الشمس إلى المغيب، وهذا مرادف لوقت قبل غروب الشمس، وقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي حين يشتد الضياء من النهار، وهذا الوقت داخل في وقت أطراف النهار[4].

قال السعدي: «فهذه الأوقات الخمسة، أوقات الصلوات الخمس أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب، كأذكار الصباح والمساء، وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من النوافل؛ لأن هذه الأوقات التي اختارها الله عز وجل أفضل من غيرها؛ فالتسبيح والتحميد والعبادة فيها أفضل من غيرها؛ بل العبادة وإن لم تشتمل على قول (سبحان الله) فإن الإخلاص فيها تنزيه لله عز وجل بالفعل أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه سبحانه

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٥٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ٧٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٣.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣١١.

(٤) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي ٩/ ٣٦.

من الإخلاص والإنابة»[1].

وذكر بعض المفسرين أن المراد: أن الله سبحانه أمر عباده بتنزيهه في هذه الأوقات؛ لما يتجدد فيها من النعم.

ويحتمل أن تكون هذه الأوقات كناية عن استغراق الزمان كله في التسبيح، فيكون العبد ذاكرًا ربه في كل وقت وعلى كل حال[2].

أما الأمر بالتسبيح عند القيام فقد ورد في قول الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

وللمفسرين أقوال في المراد بقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾، عدد ابن الجوزي ستة منها، أشهرها: أن المراد بذلك: حين تقوم من منامك للصلاة. وقيل: حين تقوم من مجلسك[3]، ورجح الإمام الطبري القول الأول[4].

وفي ختام هذا المبحث تبين أن الله عز وجل جعل للتسبيح أوقاتًا مخصوصة، وأن هذه الأوقات قد شغلت معظم أوقات الإنسان -إن لم يكن كلها-.

ولعل الحكمة من تخصيص تلك الأوقات للتسبيح هي أن تعاقب هذه الأوقات وتتابعها، وما يحدث فيها من أمور مختلفة عجيبة دالة على قدرة الله عز وجل وعظمته، وذلك موجب لتسبيحه عز وجل وتنزيهه عن النقائص والعيوب.

ثم إن لهذه الأوقات مزية خاصة؛ حيث إن الله عز وجل خصصها لشرفها، ولتيسر السير فيها إلى الله عز وجل، فكان التسبيح لله سبحانه فيها من أحسن ما تنهض إليه عقول المؤمنين، وترطب به ألسنة الصالحين، تنزيهًا لله سبحانه، وتعظيمًا له وثناءً عليه[5].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٦٣٨.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ١٦١.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٦٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٨٩.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٩.

فوائد التسبيح

إن من تأمل في الآيات التي ورد فيها التسبيح في كتاب الله عز وجل يعلم -ولا ريب- مدى عظم هذه العبادة الجليلة، وعظم فوائدها على العبد المؤمن في الدنيا والآخرة، ونذكر فيما يأتي بعض هذه الفوائد:

أولًا: التسبيح من أعظم العبادات وأجل القربات إلى الله عز وجل.

فهو عبادة الملائكة المكرمين؛ بل هو عبادة المخلوقات جميعًا، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولقد ذكر الله عز وجل أنه أرسل رسوله ليقوم الناس بالإيمان، وليقوموا بتسبيح الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨ - ٩].

وبهذا فإن العبد المؤمن يجتهد في تسبيح ربه عز وجل؛ في الليل والنهار، وفي السر والعلن، في الشدة والرخاء، مبتغيًا رضا الرحمن، مقتديًا بالملائكة الأطهار، راجيًا الأجر الجزيل والثواب العظيم من الله رب العالمين، سبحانه وتعالى.

ثانيًا: الفوز بثناء الله عز وجل.

إذ إن الله عز وجل قد أثنى في كتابه العزيز على عباده المسبحين، فقال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

وفي موضع آخر مدح الله سبحانه عباده المسبحين فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

ثالثًا: التسبيح عون على الصبر، وسبب لزوال الكرب وضيق الصدر.

ولهذا أمر الله عز وجل به نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم في كثير من المواضع في القرآن الكريم؛ ليكون له فيه العون على الصبر، والفرج من الكرب، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن

﴿مِنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٨].

ولقد نجا الله عز وجل نبيه يونس عليه السلام من الظلمات بسبب تسبيحه، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

رابعًا: التسبيح من أعظم ما يشكر به العبد ربه عز وجل على عطاياه التي لا تعد، ونعمه التي لا تحصى.

قال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

خامسًا: التسبيح سبب لمغفرة الخطايا والذنوب.

ولقد رغبنا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما ترغيب، فمن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال: **(من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة؛ حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر)**[(١)]، وقال صلى الله عليه وسلم: **(كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)**[(٢)].

سادسًا: التسبيح أفضل ما يستعد به العبد للقاء ربه عز وجل.

فقد اختاره الله عز وجل لنبيه وصفيه ليختم به أجله في هذه الدنيا، وليلقى به ربه عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ - ٣].

موضوعات ذات صلة:

الاستغفار، الحمد، الدعاء، الذكر، الصلاة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم ٦٤٠٥، ٨/٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ونضع الموازين القسط ليوم القيامة، رقم ٧٥٦٣، ٩/١٦٢.



عناصر الموضوع

مفهوم التسخير

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «سخر: السين والخاء والراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستذلال، من ذلك قولنا سخر الله عز وجل الشيء، وذلك إذا ذلله لأمره وإرادته، ثم قال: ومن الباب: سخرت منه، إذا هزئت به، ولا يزالون يقولون: سخرت به، وفي كتاب الله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]»[١].

والتسخير: تذليل الشيء وجعله منقادًا للآخر وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣]. أي: ذللهما، وكل ما ذل وانقاد أو تهيأ لك على ما تريد فقد سخر لك[٢].

فالتسخير له معنيان:

الأول: التسخير والتذليل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١١٠].

والثاني: السخرية والاحتقار، ومنه قوله: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠].

وقد استعمل القرآن الكريم هذا المعنى اللغوي للتسخير، وعلى ذلك وردت أقوال المفسرين في بيان هذه اللفظة كما سيأتي.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

والتسخير اصطلاحًا: تذليل الشيء وجعله منقادًا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣][٣].

قال ابن عاشور: «والتسخير حقيقته تذليل ذي عمل شاق، أو شاغل بقهر وتخويف، أو بتعليم وسياسة بدون عوض»[٤].

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ١٤٤.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٥٣، تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٥٢٢.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٢٠٣.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ١٦٨.



التسخير في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سخر) في القرآن (٤٢) مرة، يخص التسخير منها (٢٧) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٢	﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل:١٤]
المصدر	١	﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢]
اسم المفعول	٤	﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤]

وجاء (التسخير) في القرآن بمعناه اللغوي العام، وهو السياقة إلى الغرض المختص قهرًا[(٢)]، ومنه تسخير العبيد والأسرى، وتسخير البهائم، وكذلك تصريف الشيء غير ذي الإرادة، في عمل عجيب، يصعب استعماله فيه، بحيلة أو إلهام؛ كتسخير الفلك للمخر في البحر بالريح، وتسخير السحاب للأمطار، وتسخير النهار للعمل، والليل للسكون، وتسخير الليل للسير في الصيف، والشمس للدفء في الشتاء، والظل للتبرد[(٣)].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٤٧-٣٤٨.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٤٠٢.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٦٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ التذليل:

الذل لغة:

ضد العز، ومنه: التذليل، وهو الخضوع والانقياد والاستكانة، واللين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢﴾ [يس: ٧٢]. أي: وصيرناها سهلة غير مستعصية عليهم في شيء مما يريدون بها[١].

التذليل اصطلاحًا:

الخضوع والانقياد والاستكانة، واللين، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾ [النحل: ٦٩]. أي: منقادة غير متصعبة[٢].

والتذليل: جعل الشيء منقادًا من غير صعوبة، وتسهيله على وجه ينتفع منه العباد[٣].

الصلة بين التسخير والتذليل:

أنهما بمعنى واحد، وهو تذليل الشيء، وجعله منقادًا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا، وبينهما عموم وخصوص، فالتذليل يخص الله كما يخص البشر، بينما التسخير فلا يسخر إلا الله[٤].

٢ الانقياد:

الانقياد لغة:

الخضوع والطاعة والإذعان، تقول: قدته فانقاد، واستقاد لي، إذا أعطاك مقادته، وانقاد فلان للأمر وأعطى القياد إذا أذعن طوعًا أو كرهًا[٥].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٤٥، تاج العروس، الزبيدي ٢٩/ ١٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٣٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٧ تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ١٣٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ١٣٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٣٢١.
(٥) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥١٨، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٣١٣، تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٧٧.

الانقياد اصطلاحًا:

الخضوع والذل والطاعة والإذعان، يقال: انقاد للأمر والطريق سهل واستقام[1]، ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي له.

الصلة بين التسخير والانقياد:

أنهما بمعنى واحد، وهو: تذليل الشيء وجعله منقادًا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا، والتسخير أعم من الانقياد، فيشمل ما كان داخلًا تحت قدرة الإنسان وتسخيره حقيقة، كالحيوان، وما كان داخلًا تحت تصرفه بتسخير وإلهام وتعليم، كتسخير الفلك[2].

٣ التسليط:

التسليط لغة:

التغليب، وإطلاق القهر والقدرة، يقال: سلطه الله عليه، أي: جعل له عليه قوة وقهرا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾ [النساء: ٩٠][3].

التسليط اصطلاحًا:

التحكم، والتمكين، والسيطرة، والقوة، والقهر، والغلبة، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٩٠][4]، ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي له.

الصلة بين التسخير والتسليط:

أنهما بمعنى واحد، وهو: تذليل الشيء وجعله منقادًا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا، ولكن التسخير يقال في المحبوب والمكروه، والتسليط يقال في المكروه.

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٦٥، تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٧٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٦٨.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٩٥، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣٢١، تاج العروس، الزبيدي ١٩/ ٣٧٧.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٢٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٢٤٦، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٤٣.

دلالات التسخير العقدية

إن تسخير هذا الكون بما فيه من المنافع لهذا الإنسان العاجز الضعيف، فيه دلالة على الربوبية والألوهية وصفات الله تعالى، كما أنها تدل على البعث والنشور، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: دلالاته على الربوبية والألوهية:

لقد ذكر القرآن الكريم دلالة التسخير على الربوبية والألوهية.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٢].

الرب: هو السيد والمالك، والخالق والمدبر، والمربي والمصلح، والقيم والمنعم، والإله: هو المعبود، أي: الذي يتوجه إليه الإنسان عند الشعور بالحاجة إلى ما يعجز عنه بكسبه ومساعدة الأسباب له، فيدعوه لكشف الضر أو جلب النفع، ويتقرب إليه بالأقوال والأعمال التي يرجى أن ترضيه، وأما اسم الجلالة الأعظم (الله) فهو اسم لرب العالمين، خالق الخلق أجمعين، الذي ينفي الموحدون الحنفاء ربوبية غيره وألوهية سواه، ويقول بعض المشركين: إنه أكبر الأرباب أو رئيسهم، وأعظم الآلهة أو مرجعهم الذي يشفعون عنده، وكان مشركو العرب وأمثالهم ينفون وجود رب سواه، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه[1].

يخبر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه سخر لخلقه خمسة أشياء عظام، وهي: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم، وفيها من عظيم نعمته ما لا يعلمه إلا هو، وفيها الدلالات الواضحات لأهل العقول: على أنه الواحد المستحق لأن يعبد وحده، وكرر في القرآن ذكر إنعامه بتسخير هذه الأشياء، وأنها من أعظم أدلة وحدانيته واستحقاقه للعبادة وحده؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢].

افتتح الآية باسم الجلالة دون الضمير الذي يعود إلى ﴿رَبِّكَ﴾ [الرعد: ١]، لأنه معين به لا يشتبه غيره من آلهتهم ليكون الخبر المقصود جاريا على معين لا يحتمل غيره؛ إبلاغا في قطع شائبة الإشراك، والذي رفع هو الخبر، وجعل اسم موصول لكون الصلة معلومة الدلالة على أن من تثبت

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٩٥، تفسير المراغي ٨/ ١٦٩، الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو ص ١٣٨، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٤٦٣.

له هو المتوحد بالربوبية؛ إذ لا يستطيع مثل تلك الصلة غير المتوحد ولأنه مسلم له ذلك، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١][1].

وقوله جل جلاله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

وإغشاؤه الليل النهار: هو تسخيرهما، وقوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقوله جل وعلا: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٧-٣٩].

فقد بين سبحانه إلهيته وربوبيته: بأن هذا الكون وكل ما فيه من الخيرات الكثيرة والنعم العظيمة؛ فهي منه، وتحت تدبيره وتسخيره، فيجب على عباده أن يشكروه عليها، ويعبدوه دون غيره مما عبدوه معه وليس له من الخلق ولا من الأمر شيء[2].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾﴾ [الزمر: ٥].

«وهذه اللفتة إلى ملكوت السماوات والأرض، وإلى ظاهرة الليل والنهار، وإلى تسخير الشمس والقمر، توحي إلى الفطرة بحقيقة الألوهية التي لا يليق معها أن يكون هناك ولد ولا شريك، فالذي يخلق هذا الخلق وينشئه إنشاء، لا يحتاج إلى الولد ولا يكون معه شريك، وآية الوحدانية ظاهرة في طريقة خلق السماوات والأرض، وفي الناموس الذي يحكم الكون، والنظر المجرد إلى السماوات والأرض يوحي بوحدة الإرادة الخالقة المدبرة»[3].

ثانيًا: دلالاته على أسماء الله وصفاته:

لقد ذكر القرآن الكريم دلالة التسخير على أسماء الله وصفاته.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

(١) انظر: تفسير المراغي ٨/ ١٧٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٨٠.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٨/ ١٧٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٤٠.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٣٨.

﴿١٣﴾ [الجاثية: ١٢-١٣].

يخبر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن من فضله وإنعامه أنه سخر لخلقه هذا الكون بما فيه، فلا يوجد شيء في هذا الكون إلا وللإنسان به انتفاع من وجوه، فهو سبحانه الذي خلق البحر بهذه الخصائص، وخلق مادة الفلك بهذه الخصائص، وجعل خصائص الضغط الجوي، وسرعة الرياح، وجاذبية الأرض، وسائر الخصائص الكونية الأخرى؛ مساعدة على أن تجري الفلك في البحر، وهدى الإنسان إلى هذا كله، فأمكنه أن ينتفع به، وأن ينتفع كذلك بالبحر في نواح أخرى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾، كالصيد للطعام وللزينة، وكذلك التجارة، والمعرفة، والتجربة، والرياضة، والنزهة، وسائر ما يبتغيه الحي من فضل الله في البحار، فالسماء لهم بناء، والأرض لهم مهاد، وفي البحر منافع عظيمة، والشمس ضياء، وفي كل مخلوق من هذه المخلوقات منافع، وقد هدى الله تعالى الإنسان للانتفاع بهذه النعم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، هذا تعميم بعد تخصيص اقتضاه الاهتمام أولًا، ثم التعميم ثانيًا، فمن تخصيص البحر بالذكر إلى التعميم والشمول، فلقد سخر الله لهذا الإنسان ما في السماوات وما في الأرض، من قوى وطاقات، ونعم وخيرات، مما يصلح له ويدخل في دائرة خلافته: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، فكل شيء في هذا الوجود منه وإليه، وهو منشئه ومدبره، وهو مسخره أو مسلطه، وهذا المخلوق الصغير الإنسان، مزود من الله بالاستعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية، وأتاح لهم الانتفاع به في كل وجه من وجوه الانتفاع، حسب استعدادهم وقدرتهم على التصرف فيه[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: في ذلك المذكور من خلقها وتدبيرها وتسخيرها؛ دالٌّ على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة دالٌّ على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دالٌّ على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دالٌّ على أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٢٦، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٢٣٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٢٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٣٧.

والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبًا ولا شكًا[1].

قال الرازي: «وأما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر: فهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

واعلم أن هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة: النوع الأول: قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الأجرام، وذلك لأن الأجسام متماثلة، فهذه الأجرام قابلة للحركة والسكون، فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لا بد له من مخصص، وأيضًا أن كل واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفية معينة من البطء والسرعة، فلا بد أيضًا من مخصص، لا سيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات، وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك في بعض الأحياز وتسكن في البعض، فحصول الحركة في ذلك الحيز المعين والسكون في الحيز الآخر؛ لا بد فيه أيضًا من مرجح....

ثم قال: والنوع الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وفيه قولان:

الأول: قال ابن عباس: للشمس مائة وثمانون منزلًا، كل يوم لها منزل، وذلك يتم في ستة أشهر، ثم إنها تعود مرة أخرى إلى واحد منها في ستة أشهر أخرى، وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا، فالمراد بقوله: كل يجري لأجل مسمى هذا، وتحقيقه: أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيرًا خاصًا إلى جهة خاصة، بمقدار خاص من السرعة والبطء، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك.

والقول الثاني: أن المراد: كونهما متحركين إلى يوم القيامة، وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات، كما وصف الله تعالى ذلك في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: ١-٢]»[2].

وقال المهايمي: «إن ربط العالم بعضه ببعض دليل توحيده، وجعل البعض سبب البعض، دليل حكمته، وجعل الكل مسخرًا للإنسان، دليل كمال جوده، فمن أنكر هذه الآيات ولم يشكر هذه النعم، استوجب أعظم وجوه الانتقام»[3].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٧٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٣٧.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٨/ ٥٢٦.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٢٨.

ثالثًا: دلالاته على البعث:

لقد ذكر القرآن الكريم دلالة التسخير على البعث.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾﴾ [الزمر: ٥].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢].

فقد بين سبحانه أن هذا الكون وكل ما فيه من الخيرات الكثيرة والنعم العظيمة، وهذه الصفات الدالة على كمال قدرته، دليل على قدرته في البعث والإعادة، فخلق السماوات والأرض، وتسخير الشمس والقمر؛ هو تذليلهما للعمل على ما جعل الله لهما من نظام السير، سير المتبوع والتابع.

وعطفت جملة ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ على جملة ﴿يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾؛ لأن ذلك التسخير مناسب لتكوير الليل على النهار وعكسه، فإن ذلك التكوير من آثار ذلك التسخير. فتلك المناسبة اقتضت عطف الجملة التي تضمنته على الجملة التي قبلها.

والأجل: هو أجل فنائهما، فإن جريهما لما كان فيه تقريب فنائهما جعل جريهما كأنه لأجل الأجل، أي: لأجل ما يطلبه ويقتضيه أجل البقاء.

ويجوز أن يكون المراد بالأجل: أجل حياة الناس الذي ينتهي بانتهاء الأعمار المختلفة، وليس العمر إلا أوقاتًا محدودة وأنفاسًا معدودة، وجري الشمس والقمر تحسب به تلك الأوقات والأنفاس، فصار جريهما كأنه لأجل.

والمسمى: المجعول له وسم، أي: ما به يعين، وهو ما عينه الله لأن يبلغ إليه.

ويشهد لهذا حديث أبي ذر، رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يومًا: (أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **(إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك،**

فتصبح طالعة من مغربها)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨])[1][2].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾، أي: أن الذي فعل هذه الأفعال وأنعم على خلقه هذه النعم، هو العزيز في انتقامه ممن عاداه، الغفار لذنوب عباده التائبين إليه منها بعفوه لهم عنها، والجملة استئناف ابتدائي، هو في معنى الوعيد والوعد، فإن وصف العزيز كناية عن أنه يفعل ما يشاء لا غالب له، فلا تجدي المشركين عبادة أوليائهم، ووصف الغفار مؤذن باستدعائهم إلى التوبة باتباع الإسلام، وفي وصف الغفار مناسبة لذكر الأجل؛ لأن المغفرة يظهر أثرها بعد البعث الذي يكون بعد الموت، وانتهاء الأجل تحريضا على البدار بالتوبة قبل الموت حين يفوت التدارك[3].

وقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، أي: يبين الآيات التي تدل على أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتسخيرها قادر على البعث والإعادة، ﴿تُوقِنُونَ﴾، أي: تتيقنوا وتتحققوا، أو لتعلموا علم اليقين القاطع الذي لا شك فيه أن الله قادر على البعث والإعادة، والحساب والجزاء، وإحياء الموتى من القبور في أي مكان دفنوا، في البر أو البحر أو في أجواف الحيوان[4].

قال الشوكاني: «والمراد من هذا: تنبيه العباد أن من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والإعادة، ولذا قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]. أي: لعلكم عند مشاهدة هذه الآيات توقنون بذلك لا تشكون فيه، ولا تمترون في صدقه»[5].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم ١٥٩، ١/ ١٣٨.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٢٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٥٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٢٩، التفسير المنير، الزحيلي ١٣/ ١٠٤.
(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٣٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٧٩.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٧٧.

مظاهر التسخير

إن الله تعالى سخر كل ما في هذا الكون لخدمة العباد واستخراج جميع ما فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية، فسخر الشمس والقمر والأرض وسخر ما يركب ويؤكل ويلبس، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: تسخير الشمس:

من نعم الله العظيمة تسخير الشمس في منافع العباد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٢].

بينت الآيات: أن من نعم الله على العباد تسخير الشمس والقمر لمنافعهم، وتأثير الشمس والقمر أظهر الآثار السماوية، وتأثير الشمس أظهر من تأثير القمر، وأظهر الآثار بعد الشعاع التسخين الحاصل منه، ولولا ذلك ما كان كون ولا فساد، ولا استحالة ولا ليل، ولا نهار ولا فصول، ولا مزاج ولا حيوانات، ولا غيرها، ومن آثارهما انتشار الضوء[1]، ومعرفة عدد السنين والحساب، وتأثيرهما في إزالة الظلمة، وإصلاح النبات والحيوان، فالشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل، فلولا الشمس لما حصلت الفصول الأربعة، ولولاها لاختلت مصالح العالم بالكلية[2].

ومنافع الشمس والقمر اللذين سخرهما الله لأهل الأرض لا يحصيها إلا الله، وقدم القرآن الكريم ذكر الشمس على القمر، لأن نعمة الشمس أكثر نفعًا وأعم فضلًا من نعمة القمر.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٦].

وقدم هنا القمر على الشمس، قيل: لمراعاة الفاصلة، وقيل: لأن انتفاع أهل السموات العائد عليهن الضمير به أكثر[3].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وقال جل وعلا: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

---

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ٧/ ٢١٠.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٣٩١.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٣/ ٤٢، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ١٣٩.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

إلى غير ذلك من الآيات المبينة لذلك التسخير لأهل الأرض[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣].

أي: دائمين في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات، وأصل الدأب: العادة المستمرة[(٢)].

قال علي صبح: «ومن روعة الإعجاز في التصوير القرآني في مجال ذكر النعم التي سخرها الله تعالى لعباده؛ لينتفعوا بها، مع تأتي النعمة الأكثر نفعًا والأعظم فضلًا للعباد متقدمة على ما دونها في النفع والفضل؛ لذلك تقدمت الشمس على القمر، لأن نعمة الشمس أكثر نفعًا وأعم فضلًا من نعمة القمر، ويؤيد هذا اتساق الآيات بعضها مع بعض، وتلاؤم ما بعدها وما قبلها في ترابط وتلاحم وثيق»[(٣)].

وقال سيد قطب: «إن هذا المخلوق الصغير.. الإنسان.. يحظى من رعاية الله سبحانه بالقسط الوافر، الذي يتيح له أن يسخر هذه الخلائق الكونية الهائلة، وينتفع بها على شتى الوجوه، وذلك بالاهتداء إلى سنن الكون الإلهي الذي يحكمها، والذي تسير وفقه ولا تعصاه! ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة، بل ما استطاع أن يعيش معها وهو هذا القزم الصغير، وهي هذه المردة الجبارة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام، والبحر أحد هذه الجبابرة الضخام التي سخرها الله للإنسان، فهداه إلى شيء من سر تكوينها وخصائصها عرف منه هذه الفلك التي تمخر هذا الخلق الهائل، وهي تطفو على ثبج أمواجه الجبارة ولا تخشاها!»[(٤)].

ثانيًا: تسخير الأرض:

سخر الله عز وجل الأرض لعباده وذللها وهيأها لهم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: ٦٥].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٦٤.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٧٤، روح المعاني، الألوسي ٧/ ٢١٠.
(٣) التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ١٣٩.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣٢٢٦.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال جل وعلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣].

بينت الآيات: أن الله تعالى سخر لخلقه ما في السماوات وما في الأرض، من دابة، وشجر، وجبل، وجماد، وسفن، وغير ذلك لمنافعكم ومصالحكم.

وبدأ بذكر السموات والأرض لأنهما أصلان يتفرع عليهما سائر ما يذكر بعد من النعم، ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، أي: نعمة منه عليكم، فإياه فاحمدوا واشكروا.

وقد جاء هذا التسخير مبينًا في آيات أخر، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

الذلول: فعول بمعنى مفعول، وهو مبالغة في التذليل، تقول: دابة ذلول بينة الذل، وهو تمكين الانتفاع منها عن تسهيل الاستقرار عليها وتثبيتها بالجبال، كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٣٠-٣٣][1].

ومن تسخيرها: استخراج جميع ما فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية، فذللها لنا لنحرثها ونزرعها ونغرسها، ونستخرج معادنها وبركتها، وجعلها طوع علومنا وأعمالنا؛ لنستخرج منها الصناعات النافعة، فجميع فنون الصناعات على كثرتها وتنوعها وتفوقها -لاسيما في هذه الأوقات- كل ذلك داخل في تسخيرها لنا، وقد عرفت الحاجة بل الضرورة في هذه الأوقات إلى استنباط المنافع وترقية الصنائع إلى ما لا حد له، وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها أمور فيها فوائد عظيمة للخلق.

قال تعالى: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٧-٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٠-١٣].

وقوله جل في علاه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٦٥، الهداية، مكي بن أبي طالب ١٠/ ٦٧٧٤، روح المعاني، الألوسي ٧/ ٢١١.

﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧].

أي: أن من تسخير الله تعالى للأرض أن جعلها كفاتًا للإنسان في حياته؛ بتسهيل معيشته منها وحياته على ظهرها، فإذا مات كانت له أيضا كفاتًا بدفنه فيها.

ومما يشير إلى هذه المعاني كلها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]؛ لترتبه على ما قبله بالفاء، أي: بسبب تذليلها بتيسير المشي في أرجائها، وطلب الرزق في أنحائها؛ بالتسبب فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ.

والأمر في قوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾، للإباحة، ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، فيه امتنان من الله تعالى على خلقه، مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيهًا وحثًا للأمة على السعي والعمل والجد، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب؛ لتسخيرها وتذليلها، مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها.

وعليه، فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية في أعز مواضع الغنى، والاستغناء والاستثمار والإنتاج، فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل وأضاعت من حقها في هذا الوجود[1].

ثالثًا: تسخير البحر لاستخراج المأكل والملبس:

لقد ذكر القرآن الكريم تسخير البحر لاستخراج ما يؤكل ويلبس منه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

يخبر تعالى في هذه الآية أنه هو الذي سخر البحر، وهو الذي سخر ما فيه من منافع للناس، وهذه نعمة عظيمة من الله؛ حيث جعل البحر مستودعًا لا ينضب لمادة غذائية تعتبر شيئًا أساسيًا في حياة معظم الشعوب، يتناولونها من البحر دون أن يخسروا مالًا وجهدًا في تربيتها، ولولا ذلك لضاقت معيشة أكثر الناس؛ حيث إن عليها اعتمادهم في الغذاء، وبها يتجرون ويتكسبون، ومن رحمة الله إباحتها حية وميتة في الحل والإحرام، حيث يؤكل منها السمك الطري.

والطري: ضد اليابس، ووصف سبحانه لحم أسماكه بالطراوة، لأن أكله في هذه الحالة أكثر فائدة، وألذ مذاقًا، فالمنة بأكله

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٨، القواعد الحسان، السعدي ص ٧١.

على هذه الحالة أتم وأكمل.

وقيل: في وصفه بالطراوة، تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله؛ لأنه يسرع إليه الفساد والتغير، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء، فسبحان الخبير بخلقه، ومعرفته ما يضر استعماله وما ينفع، وفيه أيضًا إيماء إلى كمال قدرته تعالى في خلقه الحلو الطري في الماء المر الذي لا يشرب[1].

وقوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، أي: لتستخرجوا منه ما يتحلى به نساؤكم كاللؤلؤ والمرجان وما يشبههما، وأسند اللبس إليهم لأنهن من جملتهم، ولأنهن يتزين بها لأجلهم، والحلية: اسم لما يتحلى به الناس، وجمعها حلى وحلى، يقال: تحلت المرأة إذا لبست الحلي، والتعبير بقوله سبحانه: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟﴾ يشير إلى كثرة الإخراج فالسين والتاء للتأكيد، كما يشير إلى أن من الواجب على المسلمين أن يباشروا بأنفسهم استخراج ما في البحر من كنوز، وألا يتركوا ذلك لأعدائهم[2].

ومما جاء في بهيمة الأنعام قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل: ٦٦-٦٧].

وقوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣].

لقد خلق الله سبحانه وتعالى بهيمة الأنعام لمصالح عباده، وجعلها مذللة مسخرة لقضاء شؤونهم الحياتية، إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجمالهم.

وعلى الرغم من أن هذه البهائم تملك من القوة الجسمية والعضلية أضعاف ما يملكه الإنسان؛ إلا أن سنة التسخير قد سلبها المقاومة والتمرد على إرادة الإنسان وتدبيره، وهذا ما يوجب أداء حق الشكر لله سبحانه وتعالى، ولو ترك أمر تذليل هذه المخلوقات للإنسان لعجز عن تذليل ذبابة كما عجز من خلقها، ولكنها المشيئة الإلهية وقدرته في الخلق والتذليل والتسخير[3].

قال القاسمي: «والسر في إفراده هذه

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ٢٧٧، الوسيط، طنطاوي ٨/ ١١٨، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٤٠.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٢٢، الوسيط، طنطاوي ٨/ ١١٨.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٤١، مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ١٣٨.

النعمة، والتذكير بها دون غيرها من نعمه وآلائه، أن بها حياة العرب وقوام معاشهم، إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجمالهم، فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لهم، لما قامت لهم قائمة، لأن أرضهم ليست بذات زرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة، ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة، ومن كانوا كذلك، فيجدر بهم أن يذكروا المتفضل عليهم بما يقيهم، ويشكروه ويعرفوا له حقه، من عبادته وحده وتعظيم حرماته وشعائره، فالاعتبار بها من ذلك، موجب للاستكانة لرازقها، والخضوع له والخشية منه، هذا أولًا. وثانيًا: قد يقال: إنما أفردت لتتبع بما هو البر الأعظم والخير الأجزل، وهو مواساة البؤساء منها، نظير الآية -على ما ظهر لنا- قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: ٣-٤]. فإن ذلك من أجل ما يرضيه تعالى»[1].

وقال سيد قطب: «إن هذه الأنعام التي خلقها الله لهم وملكهم إياها، وذللها لهم، يركبونها، ويأكلون منها، ويشربون ألبانها، وينتفعون بها منافع شتى، وكل ذلك من قدرة الله وتدبيره، ومن إبداعه: ما أودع من الخصائص في الناس والأنعام، فجعلهم قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها، وحين ينظر الإنسان إلى الأمر بهذه العين وفي هذا الضوء الذي يشيعه القرآن الكريم؛ فإنه يحس لتوه إنه مغمور بفيض من نعم الله، فيض يتمثل في كل شيء حوله، وتصبح كل مرة يركب فيها دابة، أو يأكل فيها قطعة لحم، أو يشرب جرعة من لبن، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن، أو يلبس ثوبًا من شعر أو صوف أو وبر، لمسة وجدانية، تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته، ويطرد هذا في كل ما تمس يده من أشياء حوله، وكل ما يستخدمونه في حي أو جامد في هذا الكون الكبير، وتعود حياته كلها تسبيحًا لله وحمدًا، وعبادة آناء الليل وأطراف النهار»[2].

وفي هذه الآية: دعوة للمؤمنين إلى استغلال هذه النعمة العظيمة والاستفادة منها بكل الوسائل الممكنة والمتاحة، وشكر الله تعالى عليها.

رابعًا: تسخير ما يركب:

من نعم الله تعالى على عباده تسخير ما يركب.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا

(١) محاسن التأويل ٧/ ٢٤١.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٦.

﴿اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ١٣﴾ [الزخرف: ١٢-١٣].

يخبر جل وعلا في هذه الآية خلقه بما سخر لهم من قوى وطاقات، ووسائل المواصلات والنقل والتجارة، وأنه هو الذي سخر لهم ما يركبونه في البر والبحر من الفلك، التي هي السفن، ومن الأنعام والدواب وغيرها من كل ما يركب، فيدخل فيه الطائرات والغواصات والسيارات على اختلاف أنواعها.

والتسخير: التذليل والتطويع، وتسخير الله الدواب هو: خلقه إياها قابلة للترويض فاهمة لمراد الراكب، وتسخير الفلك حاصل بمجموع خلق البحر صالحًا لسبح السفن على مائه، وخلق الرياح تهب فتدفع السفن على الماء، وخلق حيلة الإنسان لصنع الفلك، ورصد مهاب الرياح، ووضع القلوع والمجاذيف، ولولا ذلك لكانت قوة الإنسان دون أن تبلغ استخدام هذه الأشياء القوية، ولهذا عقب بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، أي: مطيقين، أي: بمجرد القوة الجسدية، أي: لولا التسخير المذكور[1].

وقوله تعلى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ إن تسخير وسائل النقل والمواصلات من الأنعام والدواب والسفن والسيارات والطائرات، وغيرها من وسائل النقل من أعظم النعم على البشرية.

وهذا التسخير سهل للناس سبل الحياة، ولذلك يمتن الله على عباده بتسخيرها، وجيء بفعل جعل مراعاة؛ لأن الفلك مصنوعة وليست مخلوقة، والأنعام قد عرف أنها مخلوقة؛ لشمول قوله: ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ إياها، ومعنى جعل الله الفلك والأنعام مركوبة: أنه خلق في الإنسان قوة التفكير التي ينساق بها إلى استعمال الموجودات في نفعه، فاحتال كيف يصنع الفلك ويركب فيها، واحتال كيف يروض الأنعام ويركبها.

وقدم الفلك على الأنعام؛ لأنها لم يشملها لفظ الأزواج، فذكرها ذكر نعمة أخرى، ولو ذكر الأنعام لكان ذكره عقب الأزواج بمنزلة الإعادة، فلما ذكر الفلك بعنوان كونها مركوبًا عطف عليها الأنعام، فصار ذكر الأنعام مترقبًا للنفس لمناسبة جديدة[2].

ولما كانت هذه النعمة عظيمة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٥، بيان المعاني،عبد القادر العاني ٤/ ٦٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٨٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٣.

بألسنتكم، وتقييدها في هذه الحالة وقت تبوء النعمة؛ لأن كثيرًا من الخلق تسكرهم النعم، وتغفلهم عن الله، وتوجب لهم الأشر والبطر، فهذه الحالة التي أمر الله بها هي دواء هذا الداء المهلك، وهذا يشير إلى أن الإنسان إذا غفل عن ذكر الله، والنعمة غائبة عنه، فإنه لا ينبغي أن يغفل والنعمة حاضرة بين يديه، يعيش فيها وينعم بها، ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾، أي، وتقولوا سبحان الذي ذلله وجعله منقادًا لنا، متعجبين من ذلك، وليس الإشارة للتحقير، بل تصوير الحال وفيها مزيد تقرير لمعنى التعجب، والكلام -وإن كان إخبارًا على ما سمعت أولًا- يشعر بالطلب[1].

خامسًا: تسخير بني آدم بعضهم لبعض:

سخر الله تعالى العباد بعضهم لبعض.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢].

ذكرت الآية أن الله تعالى هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل، على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره، وهو الذي جعل لكل واحد من عباده درجة معينة في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان.

وجعل لكل واحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة، ومنهم من يعيش بالحلال، ومنهم من يعيش بالحرام.

وجعل الله تعالى هذا التفاوت بين العباد لحكمة؛ لأنه لو سوى بينهم في كل هذه الأحوال لم يخدم أحد أحدًا، ولم يصر أحد منهم مسخرًا لغيره، وحينئذ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا.

وفي هذا التفاوت الذي بين الناس، وفي درجات التفاضل المقسومة بينهم، يتحرك الناس، فيلحق المتأخر بالمتقدم، ويسعى المتقدم ليلحق بمن تقدم عليه وفضله، أو ينزل عن مكانه الذي هو فيه ليأخذه غيره.

وهكذا يتحرك الناس في الحياة صعودًا وهبوطًا، ويتبادلون المواقف، ويتنازعون منازل الفضل، وبهذا تظل ريح الحياة في حركة دائمة مجددة، يتنفس فيها الناس

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٥، تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٣٤٥، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ١١٣، تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٧٢١.

أنفاس الأمل، والقوة، والحياة[١].

وقد أوضح تعالى الحكمة من هذا التفاضل والتفاوت في الأرزاق والحظوظ، والقوة والضعف، ونحو ذلك، فقال تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: يخدم بعضهم بعضًا، ويسخر بعضهم لبعض؛ لأن نظام العالم في الدنيا يتوقف قيامه على ذلك.

فمن حكمته جل وعلا أن يجعل هذا فقيرًا مع كونه قويًا قادرًا على العمل، ويجعل هذا ضعيفًا لا يقدر على العمل بنفسه، ولكنه تعالى يهيء له دراهم يؤجر بها ذلك الفقير القوي، فينتفع القوي بدراهم الضعيف، والضعيف بعمل القوي؛ فتنتظم المعيشة لكل منهما.

وهكذا ليس فيهم خادم ومخدوم، بل كلهم يخدم ويخدم، ويستوى في هذا العالم والجاهل، والزارع، والصانع، والقوى والضعيف، والحاكم والمحكوم، إنهم جميعًا أشبه بالآلة الميكانيكية، لا تكون آلة عاملة، ذات قوة محركة، إلا إذا عمل كل جزء من أجزائها، أيًا كان وضعه فيها، وأيًا كانت قيمته الذاتية بين أجزائها، بل إنهم أشبه بالجسد الإنساني في تجاوب أعضائه جميعًا في العمل على كل ما من شأنه أن يحفظ عليه حياته، ويوفر له أمنه وسعادته[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، يعني أن النبوة والاهتداء بهدى الأنبياء، وما يناله المهتدون يوم القيامة خير مما يجمعه الناس في الدنيا من حطامها[٣].

قال سيد قطب: «وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت في مواهب الأفراد، والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل، والتفاوت في مدى إتقان هذا العمل.

وهذا التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة في هذه الأرض، ولو كان جميع الناس نسخًا مكرورة ما أمكن أن تقوم الحياة في هذه الأرض بهذه الصورة، ولبقيت أعمال كثيرة جدًا لا تجد لها مقابلًا من الكفايات، ولا تجد من يقوم بها، والذي خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها، وعن هذا التفاوت في الأدوار يتفاوت الرزق، هذه هي القاعدة.

أما نسبة التفاوت في الرزق فقد تختلف من مجتمع إلى مجتمع، ومن نظام إلى نظام، ولكنها لا تنفي القاعدة الفطرية المتناسقة مع طبيعة الحياة الضرورية لنمو الحياة، ومن

---

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٨٤، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٣٥٩.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ١٢٢٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١١٢.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١١٤.

ثم لم يستطع أصحاب المذاهب المصطنعة المتكلفة أن يساووا بين أجر العامل وأجر المهندس، ولا بين أجر الجندي وأجر القائد، على شدة ما حاولوا أن يحققوا مذهبهم، وهزموا أمام الناموس الإلهي الذي تقرره هذه الآية من كلام الله، وهي تكشف عن سنة ثابتة من سنن الحياة[1].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٨٧.

آثار التسخير الإيمانية على العبد

إن تسخير هذا الكون بما فيه من المنافع والنعم العظيمة في المأكل والملبس والمشرب والزينة ووسائل النقل والمواصلات، وغيرها من النعم، يوجب على الإنسان شكر الله تعالى وتعظيمه، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: شكر الله تعالى:

من آثار التسخير الإيمانية التي ذكرها القرآن الكريم شكر الله.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج: ٣٦].

إن تسخير البحار وجعلها خاضعة وميسرة لمنافع الإنسان، فتجري عليها السفن في حمل البضائع والأسفار واستخراج الطعام واللباس منها، وتسخير وسائل النقل والمواصلات من الأنعام والسفن والسيارات والطائرات، وغيرها من وسائل النقل.

وتسخير الأنعام من إبل وبقر وغنم فتذبح

وتركب وتحلب، وتمكنه من الانتفاع بها من أعظم النعم على البشر، لذا يوجههم إلى الأدب الواجب في شكر هذه النعمة وتذكر المنعم كلما عرضت النعمة، لتبقى القلوب موصولة بالله عند كل حركة في الحياة.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من نعمه، وأثابكم على شكركم أجرًا جزيلًا.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣].

استفهامٌ تعجبيٌّ لتركهم تكرير الشكر على هذه النعم العدة فلذلك جيء بالمضارع المفيد للتجديد والاستمرار لأن تلك النعم متتالية متعاقبة في كل حين[1].

وأصل الشكر في اللغة: الوصف بالجميل على جهة التعظيم على النعمة، من اللسان والجنان والأركان، وقيل: الظهور، ويضاده الكفران، وهو نسيان النعمة وسترها، وشكر العبد لربه: هو أن يستعين بنعمه على طاعته، وشكر الرب لعبده: هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل، وأما من يستعين بنعم الله على معصيته فليس من الشاكرين؛ وإنما هو كنود كفور.

وقد بين تعالى أن الشكر يزيد النعم والكفر يذهبها، إلا ما كان استدراجًا، فقال في شكر النعمة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال في الكفران وعواقبه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

وبهذه المناسبة: فعلى كل المسلمين أفرادًا وجماعات، أن يقابلوا نعم الله بالشكر، وأن يشكروها بالطاعة والعبادة لله، وأن يحذروا كفران النعم[2].

ويخص البدْن بالذكر لأنها أعظم الهدي، فيقرر أن الله أراد بها الخير لهم، فجعل فيها خيرًا وهي حية تركب وتحلب، وهي ذبيحة تهدى وتطعم، فجزاء ما جعلها الله خيرًا لهم أن يذكروا اسم الله عليها، ويتوجهوا بها إليه وهي تهيأ للنحر بصف أقدامها، ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾، والإبل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾، واطمأنت على الأرض

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٠، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٣٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٨٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٦٩.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣/ ٧٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٦٠.

بموتها أكل منها أصحابها استحبابًا، وأطعموا منها الفقير القانع الذي لا يسأل، والفقير المعتر الذي يتعرض للسؤال، فلهذا سخرها الله للناس ليشكروه على ما قدر لهم فيها من الخير حية وذبيحة[1].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: ذللناها لكم، وجعلناها منقادة لكم، تفعلون بها ما شئتم من نحر وركوب، وحلب وغير ذلك من المنافع، ولولا أن الله ذللها لكم لم تقدروا عليها؛ لأنها أقوى منكم، ألا ترى البعير إذا توحش صار صاحبه غير قادر عليه، ولا متمكن من الانتفاع به، وقوله هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قد قدمنا مرارًا أن لعل تأتي في القرآن لمعان، أقربها اثنان: أحدهما: أنها بمعناها الأصلي، الذي هو الترجي والتوقع[2].

وفي الآيات تسخير الله تعالى لهذا الكون دون مقابل يستوجب الشكر، وهذا هو الأدب الواجب في حق المنعم، يوجهنا الله إليه، لنذكره كلما استمتعنا بنعمة من نعمه التي تغمرنا، والتي نتقلب بين أعطافها ثم ننساه.

ثانيًا: تعظيم الله تعالى:

من آثار التسخير الإيمانية التي ذكرها القرآن الكريم: تعظيم الله تعالى.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٢٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٢٦٠.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣﴾ [الزخرف: ١٢-١٣].

إن تسخير وسائل النقل والمواصلات من الأنعام والسفن والسيارات والطائرات، وغيرها من وسائل النقل من أعظم النعم على البشرية، لذا يجب على الإنسان تعظيم الله حين ركوبها والاستواء عليها، وقد نبهنا ربنا جل وعلا وعلمنا كيفية هذا التعظيم بقوله: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ والتسبيح: تنزيه الله عما لا يليق، فهو يدل على التنزيه عن النقائص، وهو من مادة السبح والسباحة، وهي: الذهاب السريع البعيد في البحر أو البر.

و ﴿سُبْحَٰنَ﴾، اسم يدل على الثبوت والدوام، فكأن تنزيه الله موجود وثابت له سبحانه قبل أن يوجد المنزه، كما نقول في الخلق، فالله خالق ومتصف بهذه الصفة قبل أن يخلق شيئًا، وهو يدل على تنزيه الله جل وعلا أكمل التنزيه وأتمه، عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

والإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا﴾، راجعة إلى لفظ ﴿مَا﴾، من قوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، وجمع الظهور نظرًا إلى معنى ما؛ لأن معناها عام

شامل لكل ما تشمله صلتها، ولفظها مفرد، فالجمع في الآية باعتبار معناها، والإفراد باعتبار لفظها[1].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، ثم تذكروا مع التعظيم في قلوبكم وألسنتكم نعمة ربكم إذا استويتم عليه، وذلك الذكر هو: أن يعرف أن الله تعالى خلق وجه البحر، وخلق الرياح، وخلق جرم السفينة على وجه يتمكن الإنسان من تصريف هذه السفينة إلى أي جانب شاء وأراد.

فإذا تذكروا أن خلق البحر، وخلق الرياح، وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الإنسان ولتحريكاته ليس من تدبير ذلك الإنسان، وإنما هو من تدبير الحكيم العليم القدير، عرف أن ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى، فيحمله ذلك على الانقياد والطاعة له تعالى، وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التي لا نهاية لها.

وتقييدها في هذه الحالة وقت تبوء النعمة؛ لأن كثيرًا من الخلق تسكرهم النعم، وتغفلهم عن الله، وتوجب لهم الأشر والبطر، فهذه الحالة التي أمر الله بها هي دواء هذا الداء المهلك، فإنه متى ذكر العبد أنه مغمور بنعم الله، وأن أصولها وتيسيرها وتيسير أسبابها وبقائها ودفع ما يضادها أو ينقصها، كله من فضل الله وإحسانه، خضع لله وذل، وشكره وأثنى عليه، وبهذا تدوم النعمة ويبارك الله فيها، وتكون نعمة حقيقية.

فأما إذا قابلها بالأشر والبطر، ونسي المنعم، وربما تكبر بها على عباد الله، فهذه نقمة في صورة نعمة، وهي استدراج من الله للعبد سريعة الزوال، وشيكة بالعقاب عليها والنكال، نسأل الله أن يوزعنا شكر نعمه[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، أي: بمجرد القوة الجسدية[3].

وفي الآية: تعظيم الله تعالى وتمجيده وشكره؛ لأنه هو الذي سخر لنا ما نركبه من الأنعام والسفن وذللها، ولو لم يذللها الله لهم لما قدرنا عليها، ولا يخفى أن الجمل أقوى من الرجل، وكذلك البحر لو لم يذلله لهم ويسخر لهم إجراء السفن فيه لما قدروا على شيء من ذلك.

وقد علمنا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم تعظيم الله عند الركوب.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٢٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٨٦.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٠٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٢١، تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٣٤٥، التفسير المنير، الزحيلي ٢٥/ ١٢٥.

(٣) انظر: تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٣٤٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٥.

قال: (إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا ركب راحلته، كبر ثلاثًا، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ثم يقول: اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا السفر، واطو لنا البعيد، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، وأخلفنا في أهلنا)، وكان صلى الله عليه وسلم إذا رجع إلى أهله قال: (آيبون تائبون إن شاء الله عابدون، لربنا حامدون)[1].

وإن تسخير الأنعام من إبل وبقر وغنم للإنسان وتمكنه من الانتفاع بها من أعظم النعم على البشر، لذا يطلب تعظيم الله حين ذبحها والتسمية عليها، والأكل منها.

وإن الله لا ينتفع من أعمال العباد بشيء، ولكن النفع يعود على الإنسان ذاته.

فما يقدمه من قرابين وهدايا للحرم المكي أو أضاحي أو نذور، فإنما يقصد به تربية الإنسان، وغرس جذور التقوى في نفسه، وأداء واجبه، وشكر نعمة الله عليه، وتكبيره على هداية الله إياه، وإحسانه القول والعمل.

قال الله تعالى مبينًا ما يطلب حال ذبح الإبل: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٦-٣٧].

والتكبير في الآية: قيل: إنه ما يكون عند الذبح: بسم الله، الله أكبر، والأحسن أن يفسر بالتعظيم والتقديس والشكر، وترى أيضًا أنه قد أعيد في الآية حديث تسخير الأنعام، وتذليلها للناس، لأن في الإعادة تذكيرًا بالنعمة يبعث على شكرها والثناء على الله من أجلها، والقيام له بما يجب لعظمته وكبريائه، لأنه تعالى سخر لهم تلك البهائم، وأخضعها لتصريفهم، وأراهم ما يصنعون فيها، وكيف يتقربون بها[2].

وفي الآية: دلالة على أن التقوى وشكر الله تعالى والإحسان في العمل له جل شأنه من أهم المطالب الشرعية، التي لا يجوز لأحد إغفالها أو التهاون فيها.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، رقم ١٣٤٢، ٢/ ٩٧٨.

(٢) انظر: الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٦٤٧، تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٥١٢.

آثار التسخير في عمارة الأرض

لقد ظهر أثر هذا التسخير في الكون في كل مناحي الحياة، في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء، فظهرت آثار مادية ومعنوية، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الآثار الحسية:

لقد ذكر القرآن الكريم آثار التسخير المادية في عمارة الأرض.

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٦-٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٢-١٣].

بينت الآيات الآثار الحسية، والتي منها: التجارة، والاقتصاد، والصناعة.

فأخبر تعالى أنه سخر لسليمان عليه السلام الريح، ومعنى تسخيره الريح: خلق ريح تلائم سير سفنه للغزو أو التجارة، فجعل الله لمراسيه في شواطئ فلسطين رياحًا موسمية تهب شهرًا مشرقة لتذهب في ذلك الموسم سفنه، وتهب شهرًا مغربة لترجع سفنه إلى شواطىء فلسطين.

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١].

فأطلق الغدو على الانصراف والانطلاق من المكان تشبيهًا بخروج الماشية للرعي في الصباح، وهو وقت خروجها، أو تشبيهًا بغدو الناس في الصباح[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾، والإسالة: جعل الشيء سائلًا في الأرض كمسيل الوادي، وعين القطر ليست عينًا حقيقة، ولكنها مستعارة لمصب ما يصهر في مصانعه من النحاس، حتى يكون النحاس المذاب سائلًا خارجًا من مساقي، ونحوها من الأنابيب، كما يخرج الماء من العين لشدة إصهار النحاس وتوالي إصهاره، فلا يزال يسيل ليصنع له آنية وأسلحة ودرقًا، وما ذلك إلا بإذابة وإصهار خارقين للمعتاد بقوة إلهية.

شبه الإصهار بالكهرباء أو بالألسنة النارية الزرقاء، وذلك ما لم يؤته ملك من ملوك زمانه، ويجوز أن يكون السيلان مستعارًا لكثرة القطر كثرة تشبه كثرة ماء العيون والأنهار[2].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٥٨.

(٢) انظر: المصدر السابق.

وقوله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ قصور حصينة ومساكن شريفة، سميت بها؛ لأنها يذب عنها ويحارب عليها، والمحاريب: جمع محراب، وهو الحصن الذي يحارب منه العدو والمهاجم للمدينة، أو لأنه يرمى من شرفاته بالحراب، ثم أطلق على القصر الحصين، وقد سموا قصور غمدان في اليمن: محاريب غمدان، وهذا المعنى هو المراد في هذه الآية، ثم أطلق المحراب على المكان الذي يختلى فيه للعبادة، فهو بمنزلة المسجد الخاص[(١)].

والتماثيل: هي الصورة الممثلة، أي: المجسمة، فكان النحاتون يعملون لسليمان تماثيل للملائكة والأنبياء على ما اعتادوا من العبادات ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم[(٢)].

والجفان: جمع جفنة، وهي القصعة العظيمة التي يجفن فيها الماء، وشبهت الجفان في عظمتها وسعتها بالجوابي، وهي جمع جابية، وهي: الحوض العظيم الواسع العميق، الذي يجمع فيه الماء لسقي الأشجار والزروع[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَغَوَّاصٖ﴾، من يغوصون له من الشياطين، أي: يغوصون له في البحار فيستخرجون له منها الجواهر النفيسة، كاللؤلؤ والمرجان، والغوص: النزول تحت الماء، والغواص: الذي يغوص البحر ليستخرج منه اللؤلؤ ونحوه، أن الشياطين المسخرين له يعملون له عملًا دون ذلك، أي: سوى ذلك الغوص المذكور، أي: كبناء المدائن، والقصور، وعمل المحاريب، والتماثيل، والجفان، والقدور الراسيات، وغير ذلك من اختراع الصنائع العجيبة[(٤)].

وظهر أثر هذا التسخير في الكون في كل مناحي الحياة، في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء، فشيدت ناطحات السحاب، وأقيمت السدود العملاقة لإنتاج الطاقة، وحولت الصحاري إلى مناطق زراعية خصبة، وعمرت المدن الكبيرة.

ومن هذه الآثار الحسية: ما نشاهد من مصانع تشاد لصناعة وسائل النقل بمختلف أنواعها، السفن البحرية، الشراعية والنارية، والطائرات والسيارات والقطارات، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

ومن آثار التسخير الحسية التي ذكرها القرآن الكريم: صناعة الدروع والأسلحة

(١) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٩/ ٥٨٩٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٦٠.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٦٢.
(٣) انظر: المصادر السابقة.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣٦، الوسيط، طنطاوي ٩/ ٢٣٩.

من الحديد.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وقال سبحانه: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠-١١][1].

ومن آثار التسخير الحسية التي ذكرها القرآن الكريم: صناعة السدود، فيصور القرآن ما صنعه ذو القرنين ليوقف زحف يأجوج ومأجوج على الآخرين.

فقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٤-٩٧].

وكان إقامة هذا السد لدفع الأذى عن الإنسان، وقد استخدمت السدود اليوم في توليد طاقة المياه الجارية، فيقيم على مسارها عجلات تحركها المياه فتدير الطواحين لغلاله.

كذلك عرف الإنسان كيف يقيم مراوح تحركها الرياح، وكيف يحول تلك الحركة إلى إدارة الطواحين، وساهم هذا الاختراع في توليد الطاقة الكهربائية، التي تستخدم في جميع المجالات والاحتياجات الإنسانية، ومن الرياح ما يحمل النفع للناس، ففيها تحريك السفن التي تنقل الناس والتجارة، ومن الرياح ما يحمل السحاب ويسوق المطر.

قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤][2].

ومن آثار التسخير المادية: صناعة الأسورة وأدوات الزينة من الذهب، واستخراج الأحجار الكريمة في خدمة البشر. فمن المياه كان يستخرج اللؤلؤ والمرجان، واللؤلؤ: إفراز كلسي تحتضنه قواقع معينة ذات ضلفتين (صدفتين)، ويكون اللؤلؤ في حبيبات مستديرة أو قريبة من الاستدارة في حجم حبة الحمص، وقد تكون أصغر أو أكبر، بيضاء اللون عادة، وقد يشوبها لون آخر، واشتهرت المياه الدافئة بوجود أصداف اللؤلؤ، ويمارس غواصو اللؤلؤ صناعة الحصول على اللؤلؤ

(١) انظر: التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ٢٨٧.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٣، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٢٣١.

من أصدافه، أما المرجان فيكون في أعواد متشعبة ذات لون برتقالي أو أحمر، ولها مظهر أعواد النبات، إلا أنها حيوان بحري من عائلة المرجانيات، وهو حيوان رخوي يحتمي داخل أعواد كلسية مجوفة، هي أعواد المرجان، ويمكن الحصول على اللؤلؤ وعلى المرجان من المياه المالحة أساسًا، ومن المياه العذبة في ظروف خاصة.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢][1].

ثانيًا: الآثار المعنوية:

لقد ذكر القرآن الكريم الآثار المعنوية للتسخير، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠-١١].

بينت هذه الآية الصورة الكريمة والثناء الجميل للإنسان الذي يحقق معنى التسخير، وفي هذا التسخير للجبال والطير مع كونه معجزة لداود عليه السلام وكرامة وعناية من الله به إذ آنسه بتلك الأصوات في وحدته في الجبال وبعده عن أهله وبلده، على التمام والكمال، وإذا كان داود وسليمان قد خلع الله سبحانه وتعالى عليهما هذه الخلع العظيمة من نعمه، فإن هذه النعم قد وضعها الله تعالى للبشرية جميعًا، وتسخير هذا الكون بما فيه من الطاقات الهائلة التي تغطي احتياجات البشرية هو الذي يحقق للأمة كرامتها وعزها ومجدها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقد جمعت الآية خمس منن: التكريم، وتسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات. والتكريم: جعله كريمًا، أي: نفيسًا غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته، والتكريم بما جعل الله فيه من المعارف والصنائع، وقبول التطور في أساليب حياته وحضارته، وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره، حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة

(١) انظر: القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح ص ١٩١.

والباطنة، ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾، على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البرية، ﴿وَالْبَحْرِ﴾، في السفن والمراكب، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، من المآكل والمشارب والملابس والمناكح، فما من طيب تتعلق به حوائجهم إلا وقد أكرمهم الله به ويسره لهم غاية التيسير، ومن التكريم: أن يكون الإنسان قيمًا على نفسه، محتملًا تبعة اتجاهه وعمله، فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنسانًا، حرية الاتجاه وفردية التبعة، وبها استخلف في دار العمل، فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب[1].

وإن آيات التسخير في القرآن الكريم فيها دلالة عظيمة ودعوة للمؤمنين إلى أن هذا التسخير يجب أن يستفيدوا منه في الحصول على كل الطاقات المسخرة في هذا الكون بما يغطي جميع الاحتياجات، ويدفع المسلمين إلى النهضة، ويلفتهم إلى جلال القرآن، ويحركهم إلى الانتفاع بقوى هذا الكون العظيم الذي سخره الله لنا، انتفاعًا يعيد لأمة الإسلام نهضتها ومجدها وكرامتها، قال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣].

فلا يليق بالمسلمين وهم المخاطبون بهذا أن يفروا من وجه هذه المنافع العامة، ولا أن يزهدوا في علوم الكون، ولا أن يحرموا أنفسهم فوائد التمتع بثمرات هذه القوى العظيمة التي أودعها الله لخلقه في خزائن سماواته وأرضه، ولهذا نص علماؤنا على أن تعلم تلك العلوم الكونية وحذق هذه الصناعات الفنية فرض من فروض الكفايات؛ ما داموا في حاجة إليها لمصلحة الفرد أو المجموع، وذلك لأن البقاء في هذه الحياة للأصلح، والحياة في هذا الوجود إنما تقوم على التمهر في العلوم، وعلى السبق في حلبة الصناعات والفنون.

ومما يشير إلى هذه المعاني كلها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]؛ لترتبه على ما قبله بالفاء، أي: بسبب تذليلها بتيسير المشي في أرجائها، وطلب الرزق في أنحائها بالتسبب فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ، والأمر في قوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٦٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٣، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٧٨٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٦٥، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤١.

﴿رِزْقِهِ﴾، للإباحة، ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، فيه امتنان من الله تعالى على خلقه مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيهًا وحثًا للأمة على السعي والعمل والجد، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب؛ لتسخيرها وتذليلها، مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها.

وعليه، فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية في أعز مواضع الغنى، والاستغناء والاستثمار والإنتاج، فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل، وأضاعت من حقها في هذا الوجود، وإن على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار وإنتاج كل حاجياتها حتى الإبرة؛ لتستغني عن غيرها، وإلا احتاجت إلى الغير بقدر ما قصرت في الإنتاج، وهذا هو واقع العالم اليوم، إذ القدرة الإنتاجية هي المتحكمة وذات السيادة الدولية، وقد أعطى الله العالم الإسلامي الأولوية في هذا كله، فعليهم أن يحتلوا مكانهم، ويحافظوا على مكانتهم، ويشيدوا كيانهم بالدين والدنيا معا[1].

قال عبد الكريم الخطيب: «ولكن هذه الخلقة المهيأة لأن تكون بمقام الخلافة لله تعالى على الأرض، لا يتحقق لها هذا، حتى تحقق هي ذاتيتها، وتخرج القوى الكامنة فيها، وتفجر الطاقات المندسة في كيانها، كالنواة التي تضم في كيانها عناصر شجرة عظيمة، أو نخلة باسقة، تظل هكذا شيئًا ضئيلًا ميتًا، حتى تندس في صدر الثرى، ثم تتفاعل معه، وتخرج خبأها بعد جهد وصراع، أما الإنسان الذي لا يعمل على الانتفاع بما أودع الله فيه من قوى، فسيظل كتلة باردة من لحم ودم، لا يرتفع كثيرًا عن مستوى أدنى الحيوانات وأحطها منزلة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٤-٦].

هذا هو مقام الإنسان في العالم الأرضي، إنه سيد المخلوقات كلها في هذا العالم، مادام محتفظًا بإنسانيته، عاملًا على الارتقاء بوجوده، أما المخلوقات التي في غير هذا العالم الأرضي، فلا شأن للإنسان بها، كما أنها لا شأن لها بالإنسان، ومن ثم فالمفاضلة بينه وبينها شيء غير وارد، وغير منظور إليه، إذ لا تعامل بين الإنسان وبين تلك المخلوقات!»[2].

ومن الآثار المعنوية للتسخير في قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٨، مناهل العرفان، الزرقاني ١/ ٢٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٨/ ٥٢٥.

أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ [ص: ٣٦-٣٨]. ففي هذه الآية دليل على عظمة وقوة ملك سليمان عليه السلام وعزة سلطانه، وذلك أن الريح قوة عاتية وجبارة وقد سخرها الله تعالى في خدمة سليمان عليه السلام ومملكته العظيمة، وكذلك الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة تسخر هذه الطاقة في خدمة مملكة سليمان عليه السلام.

وقال تعالى يصف معجزة سليمان في تسخير الرياح: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

وقال جل وعلا: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وهكذا صور القرآن الكريم الحرف الصناعية تصويرًا معجزًا ليرسي الخلق الإسلامي، خلق القرآن الكريم؛ فيتحقق ما يأتي: التشريع والتقرير لهذه الصناعات، وأنها مشروعة من قبل الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

وغرس القيم وتنمية الفضائل من خلال التشريع لهذه الصناعات المتنوعة، لتحقق الغاية من الإسلام وهي الأخلاق، كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)**[1]، كما حث الإسلام على العمل والصمود فيه، فخير الكسب ما كان من عمل اليد.

عن المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: **(ما أكل أحد طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده)**[2][3].

موضوعات ذات صلة:

الأرض، الأنهار، الشمس، القمر، الجبال

(١) أخرجه أحمد في المسند، رقم ٨٩٥٢، ١٤/ ٥١٢، والبيهقي في السنن الكبرى رقم كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، ٢٠٧٨٢، ١٠/ ٣٢٣.
والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١١٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم ٢٠٧٢، ٣/ ٥٧.

(٣) انظر: النكت، القصاب ٣/ ٦٨٧، روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٦٩.





عناصر الموضوع

مفهوم التشاؤم

لم يرد لفظ التشاؤم في القرآن الكريم، بل جاء ما يدل عليه في بعض الآيات الكريمة بالمعنى نفسه وبسياقات متنوعة، لذا لا بد أن نبين معنى التشاؤم في اللغة والاصطلاح.

أولًا: المعنى اللغوي:

التشاؤم في اللغة: مصدر شئم، والشؤم: خلاف اليمن، يقال: رجل مشؤوم على قومه، أي: غير مبارك، والجمع مشائيم، وتشاءم القوم به مثل تطيروا به، ويقال: شؤم الدار: ضيقها وسوء جارها، نذير شؤم: علامة وقوع مكروه، ما ينبئ بشر ويبعث على الخوف، والتشاؤم: توقع الشر[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي.

عرفه الحليمي: بأنه سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق[(٢)].

أو هو توقع حدوث الشر أو المكروه من شيء ما تراه أو تسمعه وتتوهم وقوع المكروه به[(٣)]، ويكون وجوده سببًا في وجود ما يحزن ويضر[(٤)].

«ويأتي بمعنى تشاؤم الإنسان بشيء يقع تحت المناظر والمسامع مما تنفر منه النفس مما ليس بطبيعي، فأما نفارها مما هو طبيعي في الإنسان كنفاره من صرير الحديد وصوت الحمار فلا يعد من هذا، وأصله في زجر الطير، وما سواه ملحق به، ثم كثر في غيره حتى قال تعالى حكاية عمن أخبر عنه: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٧]. أي: السبب الذي يسعدكم ويشقيكم عند الله»[(٥)].

ويتضح من المعنى اللغوي والاصطلاحي أن التشاؤم: حالة نفسية تلازم بعض الناس، وتبعث في نفوسهم اليأس وعدم الرضا بقدر الله عز وجل.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٩٥٧، لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٣١٤، المصباح المنير، الفيومي، ١/ ٣٢٨، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٢/ ١١٥٤.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٠/ ٢١٥.

(٣) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، ١/ ٤٨٢.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ٦٦.

(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الاصفهاني، ص١٤٨.



الألفاظ ذات الصلة

١ التطير:

التطير في اللغة:

وهو مأخوذ من مادة (ط ي ر)، والطاء والياء والراء أصل واحد يدل على خفة الشيء في الهواء، ثم يستعار ذلك في غيره وفي كل سرعة، فأما قولهم: تطير من الشيء، فاشتقاقه من الطير، كالغراب وما أشبهه[(١)]، والاسم (الطيرة) وهو ما يتشاءم به من الفأل الرديء، قال تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ [النمل: ٤٧]أصله: تطيرنا، فأدغم[(٢)].

التطير في الاصطلاح:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن اللغوي.

قال ابن القيم رحمه الله: «التطير: هو التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع»[(٣)].

قال الشيخ ابن عاشور رحمه الله: «وإنما غلب لفظ الطيرة على التشاؤم لأن للأثر الحاصل من دلالة الطيران على الشؤم دلالةً أشد على النفس، لأن توقع الضر أدخل في النفوس من رجاء النفع»[(٤)].

الصلة بين التطير والتشاؤم:

يتضح من المعنى اللغوي والاصطلاحي أن التطير مأخوذ من الطير في الأصل، ويأتي بمعنى التشاؤم أو التيمن بحركات الطير وأصواتها، ثم صار لفظًا عامًا لكل ما تشاءمت به من طائر أو إنسان أو حيوان أو جماد، وغير ذلك، وعلى هذا فالتطير هو التشاؤم بما يرى من مرور الطير ونحو ذلك ناحية الشمال أو بما يسمع من صوت طائر، كائنًا ما كان، وعلى أية حال كان، ثم أطلق على كل ما يتوهم أنه سبب في حصول الشر.

٢ التفاؤل:

التفاؤل في اللغة:

وأصله الفأل (الفاء والألف واللام)، أي: ما يتفاءل به، وضد الطيرة، والجمع: فؤول، قال الجوهري: الجمع أفؤل، وتفاءلت به وتفأل به؛ قال ابن الأثير: يقال تفاءلت بكذا وتفألت،

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٤٣٦.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ١/ ١٩٤.
(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ٢/ ٢٤٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ٩/ ٦٦.

على التخفيف والقلب، والفأل: أن يكون الرجل مريضًا فيسمع آخر يقول يا سالم، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول يا واجد، فيقول: تفاءلت بكذا، ويتوجه له في ظنه كما سمع أنه يبرأ من مرضه أو يجد ضالته، والطيرة: ضد الفأل، وهي فيما يكره كالفأل فيما يستحب، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، والفأل يكون فيما يحسن وفيما يسوء، والاسم الفأل مهموز، يقال: لا فأل عليك، بمعنى لا ضير عليك، ولا طير عليك، ولا شر عليك[1].

التفاؤل في الاصطلاح:

وهو حسن ظن بالله عز وجل[2].

الصلة بين التفاؤل والتشاؤم:

العلاقة بين التفاؤل والتشاؤم هو: أن الفأل يأتي من طريق حسن الظن بالله تعالى والتوكل عليه، بينما التشاؤم لا يكون إلا في السوء والمكروه.

٣ التوكل:

التوكل في اللغة:

مصدر توكل يتوكل، وهو مأخوذ من مادة (وك ل) التي تدل على اعتماد على الغير في أمر ما، ومن ذلك التوكل، وهو: إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك[3].

التوكل في الاصطلاح:

صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح ودفع المضار[4].

الصلة بين التوكل والتشاؤم:

التوكل هو ثقة العبد بالله تعالى والاعتماد عليه في كل الأمور، والرضا بقضائه وقدره، بخلاف التشاؤم الذي يظهر فيه سوء الظن بقضاء الله تعالى وقدره.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٤٦٨، لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٥١٣.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٠/ ٢١٥.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٧٣٦، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٧٠.
(٤) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص٤٠٩، التعريفات، الجرجاني ص ٧٠.

التشاؤم عادة جاهلية

لا شك أن التشاؤم هو من عادات أهل الجاهلية والأمم الوثنية السابقة حيث كانوا يتشاءمون من أمور كثيرة، لذا جاء الإسلام فأبطلها؛ لأنها تخل بعقيدة المسلم الصحيحة القائمة على الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، وفي هذا المبحث سنبين بعض الأقوام الذين كانت أبرز صفاتهم التشاؤم وذلك من خلال النماذج الآتية:

أولًا: تشاؤم قوم صالحٍ عليه السلام:

كان دأب الكفار من قبل أنهم يتطيرون بالأنبياء والرسل عليهم السلام، كما أخبر الله تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكاره والمصائب، أو ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرًا، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحدًا منهم سوء إلا قال: هذا من قبل صالح وأصحابه[1].

وأجاب صالح عليه السلام فقال لهم: ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، بأنه ومن معه ليسوا سبب شؤم، ولكن سبب شؤمهم وحلول المضار بهم هو قدرة الله، واستعير لما حل بهم اسم الطائر مشاكلة لقولهم ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، ومخاطبة لهم بما يفهمون لإصلاح اعتقادهم، بقرينة قولهم اطيرنا بك»[2].

ثم بين أن هذا جهل منهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، أي: تختبرون بتعاقب السراء والضراء، والإضراب من بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه، ويحتمل أن غيرهم دعاهم إلى هذا القول، ويحتمل أن يكون المراد أن الشيطان يفتنكم بوسوسته[3].

ثم ذكر مآل أمرهم وشديد عقابه بهم فقال تعالى عنهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦٧-٦٨].

ويتضح مما تقدم: أن ثمود -وهم قوم صالح عليه السلام- كانوا يتشاءمون من نبيهم ومن معه من المؤمنين، كأنهم يقولون لهم: أنتم نحس علينا، بمعنى أنك يا صالح كنت أنت ومن معك سببًا لتشاؤمنا، فرد عليهم صالح عليه السلام: طائركم الذي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٤٧٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٩٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٨١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٥٦٠، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ١٦٢.

تدعونه لأنفسكم عند الله وحده، وإنكم تمتحنون بتلك الأوهام من التشاؤم، وتظنون أنه يسعدكم أو يشقيكم، وأن علم الغيب الذي تتعرفونه بالطير هو عند الله تعالى علام الغيوب، ونتيجة تشاؤمهم وكفرهم بنبيهم ومن معه أهلكهم الله تعالى بالصيحة، فصعقوا بها جميعًا، فانكبوا على وجوههم ولم ينج منهم أحد.

ثانيًا: تشاؤم أصحاب القرية:

قال تعالى مخبرًا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ [يس: ١٨-١٩].

وقولهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ أي: لم نر على وجوهكم خيرًا في عيشنا.

وقال قتادة: يقولون إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم.

وقال مجاهد: يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها، وقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾، قال قتادة: بالحجارة، وقال مجاهد: بالشتم، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: عقوبة شديدة[1].

قال الزمخشري: «وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه، وآثروه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا: ببركة هذا، وبشؤم هذا»[2].

قال ابن عاشور: «لما غلبتهم الحجة من كل جانب وبلغ قول الرسل ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾ [يس: ١٧] من نفوس أصحاب القرية مبلغ الخجل، والاستكانة من إخفاق الحجة، والاتسام بميسم المكابرة والمنابذة للذين يبتغون نفعهم؛ انصرفوا إلى ستر خجلهم وانفحامهم بتلفيف السبب لرفض دعوتهم بما حسبوه مقنعا للرسل بترك دعوتهم؛ ظنًا منهم أن ما يدعونه شيء خفي لا قبل لغير مخترعه بالمنازعة فيه، وذلك بأن زعموا أنهم تطيروا بهم ولحقهم منهم شؤم، ولا بد للمغلوب من بارد العذر»[3].

وقول أصحاب القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ أي: «إنا تشاءمنا بكم، ومعنى «بكم» بدعوتكم، وليسوا يريدون أن القرية حل بها حادث سوء يعم الناس كلهم، من قحط أو وباء أو نحو ذلك من الضر العام، مقارن لحلول الرسل أو لدعوتهم، -وقد جوزه بعض المفسرين- وإنما معنى ذلك: أن أحدًا لا يخلو في هذه الحياة من أن يناله مكروه،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٦٩، ٥٧٠.

(٢) الكشاف، ٤/ ٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٣٦٢.

ومن عادة أصحاب الأوهام السخيفة والعقول المأفونة أن يسندوا الأحداث إلى مقارناتها دون معرفة أسبابها، ثم أن يتخيروا في تعيين مقارنات الشؤم أمورًا لا تلائم شهواتهم وما ينفرون منه، وأن يعينوا من المقارنات للتيمن ما يرغبون فيه وتقبله طباعهم، يغالطون بذلك أنفسهم، شأن أهل العقول الضعيفة، فمرجع العلل كلها لديهم إلى أحوال نفوسهم ورغائبهم»[1].

«ويجوز أن يكونوا أرادوا بالشؤم أن دعوتهم أحدثت مشاجرات واختلافًا بين أهل القرية، فلما تمالأت نفوس أهل القرية على أن تعليل كل حدث مكروه يصيب أحدهم بأنه من جراء هؤلاء الرسل، اتفقت كلمتهم على ذلك فقالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، أي: يقولها الواحد منهم أو الجمع، فيوافقهم على ذلك جميع أهل القرية»[2].

حينئذ أجابهم الرسل بقولهم: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، أي قالوا لهم: سبب شؤمكم من أفعالكم لا من قبلنا كما تزعمون، فأنتم أشركتم بالله سواه، وأولعتم بالمعاصي واجترحتم السيئات، أما نحن فلا شؤم من قبلنا، فإنا لا ندعو إلا إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له والإنابة إليه، وفي ذلك منتهى اليمن والبركة[3].

قال قتادة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، أي: أعمالكم معكم[4].

ثم قالوا: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، أي: «أمن جراء أنا ذكرناكم وأمرناكم بعبادة الله مخلصين له الدين تقابلوننا بمثل هذا الوعيد؟ بل أنتم قوم ديدنكم الإسراف ومجاوزة الحد في الطغيان، ومن ثم جاءكم الشؤم، ولا دخل لرسل الله في ذلك»[5].

ويتضح مما تقدم أن أصحاب القرية قد تشاءموا بالرسل الذين أرسلهم الله تعالى لهم وتوقعوا الشر منهم ومن دعوتهم، لذلك كذبوهم وهددوهم بالتعذيب أو القتل أو الرجم، إلا أن الله تعالى نجاهم من أصحاب تلك القرية، ولم يذكر القرآن من هم أصحاب القرية، ولا ما هي القرية، ولعل عدم الإفصاح عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئًا في دلالة القصة، بل ذكرت على سبيل الاتعاظ والاعتبار.

ثالثًا: تشاؤم آل فرعون:

قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق، ٢٢/ ٣٦٣.
(٣) تفسير المراغي، ٢٢/ ١٥٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٥٠٣.
(٥) انظر: تفسير المراغي، ٢٢،١٥٢.

﴿طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف: ١٣١].

والمعنى: «فإذا جاءت آل فرعون العافية والخصب والرخاء وكثرة الثمار، ورأوا ما يحبون في دنياهم ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، نحن أولى بها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، يعني جدوب وقحوط وبلاء ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، يقول: يتشاءموا ويقولوا: ذهبت حظوظنا وأنصباؤنا من الرخاء والخصب والعافية، مذ جاءنا موسى عليه السلام»[١].

قال ابن عاشور رحمه الله: «والمراد به في الآية: أنهم يتشاءمون بموسى ومن معه، فاستعمل التطير في التشاؤم بدون دلالة من الطير، لأن قوم فرعون لم يكونوا ممن يزجر الطير فيما علمنا من أحوال تاريخهم، ولكنهم زعموا أن دعوة موسى فيهم كانت سبب مصائب حلت بهم، فعبر عن ذلك بالتطير على طريقة التعبير العربي»[٢].

«فمعنى ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ﴾ يحسبون حلول ذلك بهم مسببًا عن وجود موسى ومن آمن به؛ وذلك أن آل فرعون كانوا متعلقين بضلال دينهم، وكانوا يحسبون أنهم إذا حافظوا على اتباعه كانوا في سعادة عيش، فحسبوا وجود من يخالف دينهم بينهم سببًا في حلول المصائب والإضرار بهم، فتشاءموا بهم، ولم يعلموا أن سبب المصائب هو كفرهم وإعراضهم، لأن حلول المصائب بهم يلزم أن يكون مسببًا عن أسباب فيهم لا في غيرهم»[٣].

لذلك رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

ومقصود الآية الرد عليهم فيما نسبوا إلى موسى عليه السلام من الشؤم.

قال ابن عباس: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: «مصائبهم عند الله»[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: «لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم للإشعار بأن بعضهم يعلم ولكن لا يعمل بمقتضى علمه. وقالوا شروع في بيان بعض آخر مما أخذوا به من فنون العذاب التي هي في أنفسها آيات بينات وعدم ارعوائهم عما هم عليه من الكفر والعناد»[٥].

وبعد أن ذكر أن هذه الحسنات والسيئات التي لم تردعهم عما هم فيه من الطغيان ذكر أنه أصابهم بضروب أخرى من العذاب، وهي في أنفسها آيات بينات، كما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ

---

(١) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٧.
(٢) التحرير والتنوير، ٩/ ٦٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٨.
(٥) روح المعاني، الألوسي، ٥/ ٣٣.

﴿يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وهم مع ذلك لم يرعووا عن كفرهم وعنادهم وتشاؤمهم بموسى عليه السلام ومن معه، ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ١٣٢﴾ [الأعراف: ١٣٢].

فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله تعالى بالغرق، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ١٣٦﴾ [الأعراف: ١٣٦].

رابعًا: تشاؤم كفار قريش:

سار كفار قريش على ما سار عليه الأقوام والأمم السالفة في تشاؤمهم برسلهم وأنبيائهم عليهم الصلاة والسلام، وقد فعلوا ذلك مع النبي صلى الله عليه وسلم، فتطيروا به، وردوا كل مصائبهم إليه وإلى ما يدعو إليه، فقال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

«أي: إن تصبهم حال حسنة تحسن عندهم، من رخاء أو خصب أو ظفر أو غنيمة أو سعة في الرزق، يقولوا: هذه الحال من عند الله تعالى، فإن كان النصر قالوا: من عند الله، وإن يصبهم أمر يسيئهم، كالهزيمة، قالوا: ذلك من محمد، كأنهم ينسبونه إلى سوء تدبيره عليه الصلاة والسلام، أو يتشاءمون به، ويهبطون بذلك هبوطًا شديدًا فالحسنة ما يحسن عندهم، والسيئة ما يسوؤهم، وذلك التفكير الذي يفكرونه ناشئ من ضعفهم النفسي، وضعفهم الإيماني، وسوء ظنهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك شأن أهل النفاق ومن يستمعون إليهم من ضعفاء أهل الإسلام»[1].

وجيء في حكاية قولهم: ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾، بكلمة (عند) للدلالة على قوة نسبة الحسنة إلى الله ونسبة السيئة للنبي عليه الصلاة والسلام، أي: قالوا ما يفيد جزمهم بذلك الانتساب، ولما أمر الله رسوله أن يجيبهم قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ مشاكلة لقولهم، وإعرابًا عن التقدير الأزلي عند الله[2].

«والقول المراد في قوله: ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾، هو قول نفسي، لأنهم لم يكونوا يجترئون على أن يقولوا ذلك علنًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يظهرون الإيمان به، أو هو قول يقولونه بين إخوانهم من المنافقين، يقولون: هذه من عند محمد، فيكون الإتيان

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٤/ ١٧٧٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٣٤.

بكاف الخطاب من قبيل حكاية كلامهم بحاصل معناه على حسب مقام الحاكي والمحكي له، وهو وجه مطروق في حكاية كلام الغائب عن المخاطب إذا حكى كلامه لذلك المخاطب»[1].

فأخبر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام، وأمره أن يقول لهم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: «الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البر والفاجر، والمؤمن والكافر»[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الحسنة والسيئة من عند الله، أما الحسنة فأنعم بها عليك، وأما السيئة فابتلاك بها»[3].

ثم قال تعالى منكرًا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، أي: لا يكادون يعلمون حقيقة ما تخبرهم به، من أن كل ما أصابهم من خير أو شر، أو ضر وشدة ورخاء فمن عند الله، لا يقدر على ذلك غيره، ولا يصيب أحدًا سيئة إلا بتقديره، ولا ينال رخاءً ونعمة إلا بمشيئته، وهذا إعلام من الله عباده أن مفاتح الأشياء كلها بيده، لا يملك شيئًا منها أحد غيره[4].

وقال ابن القيم رحمه الله: «ولو فقهوا أو فهموا لما تطيروا بما جئت به؛ لأنه ليس فيما جاء به الرسول ما يقتضي الطيرة، فإنه كله خير محض لا شر فيه، وصلاح لا فساد فيه، وحكمه لا عبث فيها، ورحمة لا جور فيها، فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا؛ فإن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والمصلحة والحكمة والرحمة، وليس فيما أتيتهم به لو فهموا ما يوجب تطيرهم، بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم، وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصبائهم التي يتناولونها منه بأعمالهم وكسبهم، ويحتمل أن يكون المعنى: طائركم معكم، أي: راجع عليكم، فالطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم»[5].

(١) المصدر السابق، ٥/ ١٣٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٦٢.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٨/ ٥٥٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٨/ ٥٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٦٢.
(٥) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ٢/ ٢٣٣.

أسباب التشاؤم

للتشاؤم أسباب عديدة ومتنوعة، من أهمها:

أولًا: الكفر:

إن التشاؤم شرك بالله تعالى، خصوصًا إذا اعتقد المتشائم أن ما يتشاءم به مؤثر بذاته، فهو شرك أكبر، وذلك لأنه اعتقد مع الله عز وجل موجدًا وخالقًا آخر، وأما إذا اعتقد أن المؤثر هو الله تعالى ولكن هذه سبب، فيعد هذا شركًا أصغر، لأنه جعل التشاؤم سببًا في التأثير، والشرع لم يجعله سببًا.

ولا شك أن التشاؤم قد يصل بالإنسان إلى الكفر لما فيه من شرك وادعاء علم الغيب واعتقاد جلب النفع ودفع الضر، واليأس مما عند الله تعالى من خير؛ مما يؤدي إلى انتفاء الإيمان من المتشائم تدريجيًا وصولًا إلى الكفر؛ لذلك ذم الله تعالى اليائسين منه بقوله تعالى: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

أي: «أنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون؛ لأن من آمن يعلم أنه متقلب في رحمة الله ونعمته فلا ييأس من رحمته، وأما الكافر فإنه لا يعلم رحمة الله ولا تقلبه في رحمته؛ فييأس من رحمته»[1].

قال الإمام الرازي رحمه الله: «واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال، أو غير عالم بجميع المعلومات، أو ليس بكريم بل هو بخيل، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرًا، والله أعلم»[2].

وقد يصل العبد بتشاؤمه أيضًا إلى القنوط والوقوع في الكبائر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم: ٣٦].

أي: «﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمة من مطر أو سعة أو صحة ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ أي: بلاء من جدب أو ضيق أو مرض، والسبب فيها شؤم معاصيهم، قنطوا من الرحمة»[3].

وذم الله تعالى أقوامًا كما مضى سابقًا في تشاؤم قوم موسى عليه السلام وأصحاب القرية من رسلهم عليهم السلام، فقد كان تشاؤمهم سببًا في كفرهم بالله تعالى، ومن ثم بأنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٦/ ٢٧٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٨/ ٥٠١.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٤٨٠.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وإنهم مسرفون في قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشؤم الذي أتاكم من عند الله بكفركم»[(١)].

وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الطيرة شرك)[(٢)].

وإنما جعل التشاؤم شركًا لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعًا أو يدفع ضررًا، فاعتمدوا عليها، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى، وذلك مثل أن يريد الرجل سفرًا، فيسمع: يا راشد، أو يا غانم، أو يا سالم؛ فيمضي في سفره اعتمادًا على ما سمع، أو يريد سفرًا فيسمع صياح الغراب، أو البومة فيرجع عن سفره تشاؤمًا منه، كل ذلك شرك؛ لكونه لم يخلص توكله على الله عز وجل.

لذلك نهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وبين كفارته، فقد روي عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك)، قالوا: يا رسول الله، فما كفارة ذلك؟ قال: (يقول: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله إلا أنت)[(٣)]، أو يقول: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)[(٤)].

وقال عليه الصلاة والسلام: (لا طيرة، وخيرها الفأل) قالوا: وما الفأل؟ قال: (الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم)[(٥)].

قال الإمام النووي: «معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (لا طيرة) أي: اعتقاد أنها تنفع أو تضر إذا عملوا بمقتضاها معتقدين تأثيرها فهو شرك؛ لأنهم جعلوا لها أثرًا في الفعل والإيجاد، وأما الفأل وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بالكلمة الصالحة والحسنة والطيبة، قال العلماء: يكون الفأل فيما يسر وفيما يسوء، والغالب في السرور،

(١) لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٣٤٩.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٣٦٨٧، ٣/ ٥٤٦، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، رقم ٣٩١٠، ٤/ ١٧، والترمذي في سننه، أبواب السير، باب ما جاء في الطيرة، رقم ١٦١٤، ٤/ ١٦٠، وابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب من كان يعجبه الفأل، رقم ٣٥٣٨، ٢/ ١١٧٠.
قال الترمذي: «وهذا حديث حسن صحيح».
(٣) اخرجه أحمد في مسنده، رقم ٧٠٤٥، ٦/ ٤٧١، والطبراني في المعجم الكبير، رقم ٢٢/ ١٣، ٣٨.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات».
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، رقم ٣٩١٩، ٦/ ٦١.
وصححه النووي في رياض الصالحين ص ٤٧٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الطيرة، رقم ٥٧٥٤، ٧/ ١٣٥.

والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «إن التطير هو: التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفره وامتنع بها مما عزم عليه فقد قرع باب الشرك، بل ولجه، وبرىء من التوكل على الله، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله، والتطير مما يراه أو يسمعه، وذلك قاطع له عن مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] و﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] و﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:١٠] فيصير قلبه متعلقًا بغير الله عبادة وتوكلًا، فيفسد عليه قلبه وإيمانه»[2].

ويتضح مما تقدم: أن التشاؤم قد يكون من الشرك الأصغر المنافي لعبادة الله تعالى وتوحيده، لما فيه من سوء الظن بالله تعالى كما مر سابقًا، وقد يتحول إلى شرك أكبر، إذا اعتقد المتشائم أن ما يتشاءم به كان مؤثرًا في حصول المكروه، أو جلب النفع ودفع الضر وأنها فاعلة بذاتها، إذ لا فاعل إلا الله تعالى، ولا مؤثر في الكون سواه، وقد يصل إلى الكفر بالله تعالى الذي يوجب الوعيد.

ثانيًا: سوء الظن بالله تعالى:

لا يخلو التشاؤم من سوء الظن بالله تعالى وبأقداره الجارية، وتوقع الشر والبلاء مع اعتقاد حصول الضر والنفع من غير الله تعالى، وإن من أعظم الذنوب عند الله: إساءة الظن به جل وعلا، وقد ذم الله تعالى في آياته الكريمة الذين يظنون بالله تعالى ظن السوء بقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

«ومعنى ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: حدثتهم أنفسهم بما يدخل عليهم الهم، وذلك بعدم رضاهم بقدر الله تعالى، وبشدة تلهفهم على ما أصابهم، وتحسرهم على ما فاتهم مما يظنونه منجيًا لهم لو عملوه: أي من الندم على ما فات، وإذ كانوا كذلك كانت نفوسهم في اضطراب وتحرق يمنعهم من الاطمئنان»[3].

ومعنى قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، أي: أنهم ذهبت بهم هواجسهم إلى أن ظنوا بالله ظنونا باطلة من أوهام الجاهلية، وفي هذا تعريض بأنهم لم يزالوا على جاهليتهم

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم ١٤/ ٢١٩.
(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ٢/ ٢٤٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٣٤.

ولم يخلصوا الدين لله تعالى.

وقد بين لهم المراد بالظن بقوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، و﴿هَل﴾ للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، وهو تبرئة لأنفسهم من أن يكونوا سببًا في مقابلة العدو.... ويظنون أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس برسول؛ إذ لو كان لكان مؤيدًا بالنصر.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: يسرون هذه المقالة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

والشاهد في الآية الكريمة أن التشاؤم هو صفة من صفات بعض أهل الجاهلية، وهو سوء ظن بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، واعتراض على أقدار الله تعالى.

وهذا كله من صفات المنافقين والمشركين الذين توعدهم الله تعالى بالوعيد الشديد بقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح: ٦].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٤٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٣٥.

وقد بين الإمام ابن القيم أن الظن الوارد في الآية: ظنٌّ لا يليق بالله تعالى؛ بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته؛ ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن لا يليق به سبحانه ولا بحكمته وحمده ووعده الصادق؛ فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستمرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة؛ فذلك ظن الذين كفروا؛ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله، وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء[2].

وقال أيضًا في وصفه لحال هذا الصنف من الناس: «فأكثر الخلق بل كلهم إلا ما شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق،

(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٠٦.

ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: «ظلمني ربي ومنعني ما أستحق» ونفسه تشهد عليه وإن كان لسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها رأى ذلك فيها، ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعنتًا على القدر وملامة له، وأنه ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر»[1].

لذلك يقول ابن عاشور: «الشؤم يقع على من يتشاءم، جعل الله ذلك عقوبة له في الدنيا لسوء ظنه بالله تعالى»[2].

وتوعد الله تعالى الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، وذلك بقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

فكان جزاؤهم بأن أرداهم الله تعالى فقال تعالى عنهم: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [فصلت: ٢٣].

ثالثًا: الإسراف في المعاصي والآثام:

لا شك أن الإسراف في المعاصي هو أساس كل شر وضلالة، فالإسراف: هو الإكثار من الشيء، والمجاوزة عن الحد[3]، ويأتي أيضًا بمعنى مجاوزة الحد في العصيان، كما حصل مع قصة أصحاب القرية التي مر ذكرها، حيث إن المعاصي والذنوب كانت سببًا في الشؤم الذي أصابهم نتيجة كفرهم برسلهم.

وقد وصف الله تعالى أصحاب القرية بالمسرفين في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾ [يس: ١٩].

أي: قوم عادتكم الإسراف في العصيان، فمن ثم جاءكم الشؤم، أو في الضلال، ولذلك توعدتم وتشاءمتم بمن يجب أن يكرم ويتبرك به[4].

قال قتادة رحمه الله: «مسرفون في تطيركم»[5].

قال الشيخ ابن عاشور: «﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: لا طيرة فيما زعمتم، ولكنكم قوم كافرون، غشيت عقولكم الأوهام، فظننتم ما فيه نفعكم ضرًا لكم، ونطتم الأشياء بغير أسبابها من إغراقكم في الجهالة والكفر وفساد الاعتقاد، ومن إسرافكم اعتقادكم بالشؤم والبخت»[6].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «فلا شؤم إلا المعاصي والذنوب؛ فإنها تسخط

(١) المصدر السابق، ٣/ ٢١١.
(٢) التحرير والتنوير، ٩/ ٦٦.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/ ٤٨٨.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٦٥.
(٥) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٤١٩.
(٦) التحرير والتنوير، ٢٢/ ٣٦٤.

الله عز وجل، فإذا سخط على عبده شقي في الدنيا والآخرة، كما إنه إذا رضي عن عبده سعد في الدنيا والآخرة»[1].

وقال أيضًا: «فالعاصي مشؤوم على نفسه وعلى غيره، فإنه لا يؤمن أن ينزل عليه عذاب فيعم الناس، خصوصًا من لم ينكر عليه عمله، فالبعد عنه متعين، فإذا كثر الخبث هلك الناس عمومًا، وكذلك أماكن المعاصي وعقوباتها يتعين البعد عنها والهرب منها خشية نزول العذاب»[2]، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه لما مر على ديار ثمود بالحجر: (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم)[3].

ويتضح مما تقدم ومن خلال الآية الكريمة: أن الإسراف في المعاصي والآثام سبب من أسباب التشاؤم الذي لحق أصحاب القرية، فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله تعالى بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم، كما قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾ [يس: ٢٩].

(١) لطائف المعارف، ابن رجب، ١/ ٧٦.
(٢) المصدر السابق، ١/ ٧٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، رقم ٤٣٣، ١/ ٩٤.

رابعًا: الجهل والضلال:

لا شك أن الجهل من أسباب التشاؤم؛ لذا وصف الله تعالى آل فرعون وغيرهم بأن أكثرهم لا يعلمون، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: «فلجهلهم بذلك كانوا يطيرون بموسى عليه السلام ومن معه»[4].

قال الزمخشري: «ويجوز أن يكون معناه: ألا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله، ويعاقبون له بعد موتهم، بما وعدهم الله في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: ٤٦]. ولا طائر أشأم من هذا»[5].

قال الخازن رحمه الله: «وإنما قال: ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب ولا يضيفونها إلى القضاء والقدر»[6].

ويتضح من الآية الكريمة: أن الله تعالى ذم آل فرعون، ووصفهم بأنهم لا يعلمون بسبب جهلهم؛ حيث أسندوا حوادث هذا

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٨.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ١٤٥.
(٦) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٣٩.

العالم لا إلى قضاء الله تعالى وقدره، بل إلى شؤمهم.

وعلى هذا فالجهل: هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه، واعترضوا عليه بأن الجهل قد يكون بالمعدوم، وهو ليس بشيء، والجواب عنه: أنه شيء في الذهن، ويكون بسيطًا، أو مركبًا، والجهل البسيط هو عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالمًا، أما الجهل المركب فهو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع[1].

وقد جعل الراغب الأصفهاني الجهل على ثلاثة أضراب:

«الأول: هو خلو النفس من العلم وهذا هو الأصل، وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنى مقتضيًا للأفعال الخارجة عن النظام كما جعل العلم معنى مقتضيًا للأفعال الجارية على النظام.

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أم فاسدًا، كتارك الصلاة عمدًا، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

فجعل فعل الهزؤ جهلًا، وقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: ٦]»[2].

والمتأمل في القرآن الكريم يجد آيات كثيرة ذم الله تعالى الجهل وأهله؛ لأنه هو سبب الشر والذنوب والمعاصي، ومنه: ما حصل من تشاؤم آل فرعون وقومه من موسى عليه السلام، وثمود مع صالح عليه السلام، وأصحاب القرية مع رسلهم، ومشركو قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم، فسبب اعتقادهم هذا الشيء على خلاف ما هو عليه، فالأنبياء والرسل عليهم السلام لا دخل لهم بما نسبوه إليهم من الشؤم.

وجاء في السنة النبوية ذم الجهل، فمن ذلك ما ورد في الحديث الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ذات يوم في خطبته: (**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا...**) **الحديث**[3].

---

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٨٠.

(٢) المفردات ص٢٠٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم ٢٨٦٥، ٤/ ٢١٩٧.

وقوله: (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم)، أي: مسلمين، وقيل: طاهرين من المعاصي، وقيل: مستقيمين منيبين لقبول الهداية، (وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)، أي: استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل[1].

ودلالة الحديث واضحة في بيان أن الجهل سبب الضلال؛ لذلك حذر الله تعالى منه عباده المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود: ٤٦].

واستعاذ نبي الله موسى عليه السلام من الجهل في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

وكذلك استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم منه، بما صح عن الشعبي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «ما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: (اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي)»[2].

والجهل لا يزول إلا بالعلم؛ لذا فعلى المسلم إذا جهل أمرًا ما فعليه الرجوع إلى العلماء قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [النساء: ٨٣].

ويتضح مما تقدم أن الجهل والضلال واقع في أكثر الناس، لذا لا بد للمؤمن أن يتبين من الأمور ما كان جاهلًا بها، وخصوصًا من كان لديه اعتقاد الشؤم، فالأولى به أن يعالج نفسه بالعلم النافع، ويبذل قصارى جهده فيه، لكي ينقذ نفسه من ضلالة الجهل الذي وقع فيه.

خامسًا: وساوس الشيطان:

حذر الله تعالى في القرآن الكريم عباده من اتباع وساوس الشيطان؛ فهو عدو للإنسان، كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: ٦].

---

(١) انظر: شرح النووي على مسلم، ١٧/ ١٩٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم ٥٠٩٤، ٧/ ٤٢٤، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب رقم ٣٥، رقم ٣٤٢٧، ٥/ ٤٩٠، والنسائي في سننه الكبرى، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من أن يظلم، رقم ٧٨٧٠، ٧/ ٢٢٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته، رقم ٣٨٨٤، ٢/ ١٢٧٨. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

أي: إن الشيطان معلن عداوته لكم بوسوسته، فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به، ثم ذكر أعماله ودعوته أتباعه إلى الغواية والضلالة فقال: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي ما غرضه من دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى لذات الدنيا إلا إضلالهم وإلقاؤهم في العذاب الدائم من حيث لا يشعرون[1].

ولا شك أن وساوس الشيطان هي سبب من أسباب التشاؤم؛ لذلك وصف الله تعالى قوم صالح عليه السلام بأنهم قوم فتنوا بتشاؤمهم من نبيهم صالح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٧].

ومعنى قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، أي: تختبرون، أو تعذبون، أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة، وقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال[2].

قال قتادة رحمه الله: «تبتلون بالطاعة والمعصية»[3].

وعلى أية حال، فإن القصد بيان أن سبب نزول الشر بهم هو عصيانهم وكثرة ذنوبهم، وكلها تعود إلى وساوس الشيطان لهم.

وكل هذه الوساوس التي يلقيها الشيطان من باب الفتنة، لذلك قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج: ٥٣].

ونهى الله تعالى عن اتباع خطوات الشيطان وحذر منها بقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

وشرع لنا الاستعاذة منه ومن وسوسته فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وعلى هذا فالأحرى بالمسلم الذي تتنابه دواعي الشؤم وتنقدح في قلبه أن يستعيذ بالله تعالى مما ألقى الشيطان في نفسه من تلك الوساوس والعوارض، ويلجأ إلى الله تعالى بكثرة الدعاء، مع حسن الظن بالله والتوكل عليه في كل الأحوال.

---

(١) انظر: تفسير المراغي، ٢٢/ ١٠٨.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٥٦٠، البحر المحيط، أبو حيان، ٨/ ٢٤٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٩٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٩٨.

سادسًا: التقليد:

لا شك أن التقليد سبب من أسباب التشاؤم، فهو عادة سارت عليها الأمم الوثنية القديمة، وتبعها بعد ذلك أهل الجاهلية، وبقيت مستمرة إلى وقتنا الحاضر، ويأتي التقليد بأشكال متعددة، منها: ما كان في الاعتقاد أو الأفعال أو الأقوال، والسير على ما سار عليه الآباء والأجداد، وذلك بتقليدهم في الباطل دون استناد إلى دليل في ذلك، وهذا ما حصل مع الأقوام التي ذكرناها سابقًا، مثل قوم صالح عليه السلام، وأصحاب القرية، وغيرهم حيث كان التشاؤم عندهم من باب تقليد الآباء والأجداد.

لذلك ذم الله تعالى المقلدين لآبائهم في كل أنواع الضلالة والباطل بما فيها التشاؤم؛ فقال تعالى عنهم: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢].

أي: ليس لهم علم فيما قالوه ولا نقل، فكان هذا الكلام مسوقًا مساق الذم لهم؛ إذ لم يقارنوا بين ما جاءهم به الرسول وبين ما تلقوه من آبائهم، فإن شأن العاقل أن يميز ما يلقى إليه من الاختلاف ويعرضه على معيار الحق، و﴿أُمَّةٍ﴾ هنا بمعنى الملة والدين، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾، أي: أنهم لا حجة لهم في عبادتهم الأصنام إلا تقليد آبائهم، وذلك ما يقولونه عند المحاجة إذ لا حجة لهم غير ذلك، وجعلوا اتباعهم إياهم اهتداء لشدة غرورهم بأحوال آبائهم، بحيث لا يتأملون في مصادفة أحوالهم للحق[١].

«والمقصود أنه تعالى لما بين أنه لا دليل لهم على صحة ذلك القول البتة بين أنه ليس لهم حامل يحملهم عليه إلا التقليد المحض، ثم بين أن تمسك الجهال بطريقة التقليد أمر كان حاصلًا من قديم الدهر، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]»[٢].

ورد الله تعالى على المقلدين لآبائهم وأجدادهم في العقائد الضالة وأبطل شبههم وتمسكهم بالتقليد الباطل، حيث قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

«أي أيتبعون ما ألفوا عليه آباءهم في كل حال وفي كل شيء، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا من عقائد الدين وعباداته: أي حتى لو تجردوا من دليل عقلي أو نقلي في عقائدهم وعباداتهم»[٣].

وهو كقوله تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف:

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٨٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٧/ ٦٢٧.
(٣) تفسير المراغي، ٢/ ٤٤.

[٢٤].

«فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة، ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝﴾[الزخرف: ٢٣][1].

فكان جزاؤهم أن حلت عليهم النقمة من الله تعالى؛ وذلك لتقليدهم الأعمى في العقائد الضالة، وتكذيبهم للرسل عليهم الصلاة والسلام، فقال الله تعالى عنهم: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾ [الزخرف: ٢٥].

صور التشاؤم

اشتهرت العرب في الجاهلية بالتشاؤم كما مر، ولا شك أن التشاؤم يظهر بصور متعددة متنوعة بحسب اختلاف الأمكنة والأزمنة والناس، وسنذكر في هذا المبحث بعض صور التشاؤم، والتي منها:

أولًا: التشاؤم بالصور:

ويشمل هذا النوع من التشاؤم أنواعا متعددة منها ما يأتي:

١ . التشاؤم بالبشر.

وهذا النوع من التشاؤم قد حصل مع بعض أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام من قبل أقوامهم، كما أخبر الله تبارك وتعالى عن ذلك في قصصهم.

قال الله تعالى عن تشاؤم فرعون وقومه من موسى عليه السلام: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٣١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ «أي: الخصب والسعة ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، أي: هذا ما كنا نعرفه أبدًا وما جرينا على اعتياده، أو أن يقولوا: لنا هذه بفرعون وبعبادتنا له، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، قيل:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٢٤.

الضيق والقحط، ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ﴾، وقالوا بشؤمه»[1].

وهذا كما قال العرب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

ويتضح من هذه الآيات وغيرها أن التشاؤم بالبشر عادة قديمة كانت عند بعض الأقوام كفرعون وقومه، حيث كانوا يتشاءمون ويتطيرون من موسى وأتباعه، معتقدين أنهم هم سبب ما أصابهم من الجدب والضيق والقحط، وتبعهم في ذلك قوم صالح وأصحاب القرية وغيرهم، فبين الله تعالى لهم أن ما أصابهم إنما هو بقضاء الله وقدره، ولا دخل للرسل عليهم الصلاة والسلام في ذلك.

وكذلك منهم من يتشاءم بملاقاة الأعور أو الأعرج أو المهزول أو الشيخ الهرم أو العجوز الشمطاء، وكثير من الناس إذا لقيه وهو ذاهب لحاجة صده ذلك عنها ورجع معتقدًا عدم نجاحها، وكثير من أهل البيع لا يبيع ممن هذه صفته إذا جاءه أول النهار، حتى يبيع من غيره تشاؤمًا به وكراهة له، وكثير منهم يعتقد أنه لا ينال في ذلك اليوم خيرًا قط[2].

٢. التشاؤم بالطيور.

ورد لفظ الطير في القرآن الكريم بغير معناه الحقيقي بل ببعض اشتقاقاته التي تدل على معنى التشاؤم كما مر ذكره في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾ [يس: ١٨-١٩].

قال الأزهري: «وقيل للشؤم: طائر وطير وطيرة، لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها، والتطير ببارحها وبنعيق غربانها، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها، فسموا الشؤم طيرًا وطائرًا وطيرة لتشاؤمهم بها وبأفعالها»[3].

قال الشافعي رحمه الله: «وكان العربي إذا لم ير طائرًا سانحًا، فرأى طائرًا في وكره حركه من وكره ليطير، فينظر أيسلك طريق الأشائم، أو طريق الأيامن، فيشبه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أقروا الطير على مكناتها)[4]، أي: لا تحركوها، فإن تحريكها

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/ ٥٤٥.
(٢) انظر: معارج القبول، الحكمي، ٣/ ٩٩٠.

(٣) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٤/ ١٢.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٧١٣٩، ٤٥/ ١١٣، أبو داود في سننه، كتاب الضحايا، باب في العقيقة، رقم ٢٨٣٥، ٤/ ٤٥٥، وابن حبان في صحيحه، رقم ٦١٢٦، ١٣/ ٤٩٥، والحاكم في المستدرك، رقم ٧٥٩١، ٤/ ٢٦٥.
قال الحاكم: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

وما تعملونه، من الطيرة لا يصنع شيئًا، إنما يصنع فيما توجهون به قضاء الله تعالى»[1].

وعلى هذا فإن أصل التشاؤم يعتمد على حركة الطيور وأصواتها، كما قال الإمام البيهقي: «وذلك بزجر الطائر وإزعاجها عن أوكارها عند إرادة الخروج للحاجة، حتى إذا مرت على اليمين تفاءل به ومضى على وجهه، وإن مرت على الشمال تشاءم به وقعد، فهذا من فعل أهل الجاهلية الذين كانوا يوجبون ذلك، ولا يضيفون التدبير إلى الله عز وجل»[2].

ومن أبرز الطيور التي كانت العرب تتشائم منها قديمًا وحديثًا ما يأتي:

١. الغراب.

وهو أعظم ما يتطيرون به، ويسمونه غراب البين؛ لأنه إذا بان أهل الدار للنجعة وقع في موضع بيوتهم يلتمس ويتقمم، فتشاءموا به وتطيروا إذا كان يعتري منازلهم إذا بانوا، وليس شيء مما يزجرونه من الطير والظباء وغيرها أنكد منه، ولست تراه محمودًا في شيء من الأحوال، ويشتقون من اسمه الغربة[3].

ويسمونه أيضًا حاتمًا؛ لأنه يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعور على جهة التطير بذلك؛ إذ كان أصح الطير بصرًا، ويقال: سمي أعور لقولهم: « عورات الرجل عن حاجته » إذا رددته عنها[4].

وعلى هذا فالغراب أكثر ما يتطير به في الشؤم، كلما ذكروا مما يتطيرون منه شيئا ذكروا الغراب معه.

٢. الهامة.

اسم طائر، كان أهل الجاهلية يتشاءمون بها، وهي من طير الليل، وقيل: هي البومة، وقيل: كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لا يدرك بثأره تصير هامة، فتقول: اسقوني، فإذا أدرك بثاره طارت، وقيل: كانوا يزعمون أن عظام الميت، وقيل روحه، تصير هامة فتطير، ويسمونه الصدى، فنفاه الإسلام ونهاهم عنه[5].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قال القزاز: الهامة طائر من طير الليل كأنه يعني البومة، وقال ابن الأعرابي كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول: نعت إلي نفسي، أو أحدًا من أهل داري»[6].

وعلى هذا فالهامة هي نوع من أنواع الطيور، وربما تكون البومة حيث كانت العرب تتشاءم منها، فجاء في الحديث

(١) السنن المأثورة للشافعي، المزني ١/ ٣٤٢.
(٢) شعب الإيمان، ٢/ ٣٩٦.
(٣) انظر: المعاني الكبير، ابن قتيبة الدينوري، ١/ ٢٦٤.
(٤) انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق، ٢/ ٢٦١.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الاثير، ٥/ ٢٨٣.
(٦) فتح الباري، ابن حجر، ١٠/ ٢٤١.

الشريف النهي عن التطير بالهامة، بما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر)[1].

٣. البارح والسانح.

«البارح من الظباء والطير، لكن خص البارح بما ينحرف عن الرامي إلى جهة لا يمكنه فيها الرمي فيتشاءم به، وجمعه بوارح، وخص السانح بالمقبل من جهة يمكن رميه، ويتيمن به»[2].

قال ابن الأثير: «فالسانح: ما مر من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك، والعرب تتيمن به لأنه أمكن للرمي والصيد، والبارح ما مر من يمينك إلى يسارك، والعرب تتطير به لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف»[3].

ويتضح مما تقدم أن التشاؤم بالطيور كالغراب والبومة ونحوهما عادة كانت منتشرة عند أهل الجاهلية والأمم السالفة، يتشاءمون منها ومن حركاتها وأصواتها وأفعالها، وهي من مخلوقات الله لا أثر لها في حكم الله وقضائه، فجاء الإسلام ونهى عن كل ذلك.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب لا هامة، رقم ٥٧٥٧، ٧/ ١٣٥.
(٢) المفردات، الراغب ص١١٦.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ١/ ١١٤.

٣. التشاؤم بالحيوانات.

لا يختلف التشاؤم بالحيوانات عن التشاؤم بالطيور الذي مضى ذكره؛ لذا نجد أن كثيرًا من أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون ببعض الحيوانات وأصواتها، منها:

١. النطيح والناطح.

«الظبي والطائر الذي يستقبلك بوجهه، كأنه ينطحك، ويتشاءم به، والقعيد من الوحش»[4].

٢. الفرس النطيح.

إذا طالت غرته حتى تسيل تحت إحدى أذنيه، وهو يتشاءم به[5].

٣. الكلب الأسود.

وهناك من يتشاءم بالأسود من الكلاب، وربما يعود هذا التشاؤم لما ورد في الحديث بقوله صلى الله عليه وسلم: (الكلب الأسود شيطان)[6].

والمراد بالحديث ليس التشاؤم منه، بل الإخبار بأن مرور الكلب الأسود يقطع الصلاة، وعلى ذلك فلا يصح التشاؤم به.

٤. الظباء.

وذلك بتنفيرها، فإن تيامنت ذهبوا لحاجتهم، وإن تياسرت تركوها.

(٤) المفردات، الراغب ص ٨١١، ٦٧٩.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٦٢١.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب قدر ما يستر المصلي، رقم ٥١٠، ١/ ٣٦٥.

وكثير مما شاكل هذا كان الناس في الجاهلية قبل النبوة يتشاءمون به، فجاء الإسلام فنهى عن كل ذلك وأبطله.

ثانيًا: التشاؤم بالأصوات:

يتشاءم كثير من أهل الجاهلية وغيرهم من بعض ما يصدر من الإنسان والحيوان من أصوات، منها ما يأتي:

١. أصوات الطيور.

ومنه: التشاؤم بنعيق الغراب، أو صوت البومة إذا صاحت، قالوا: إنها ناعبة أو مخبرة بشر، ونحو ذلك.

«قال عكرمة: كنا جلوسًا عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير، فقال له ابن عباس: لا خير ولا شر، مبادرة بالإنكار عليه لئلا يعتقد له تأثير في الخير أو الشر، وخرج طاووس مع صاحب له في سفر فصاح غراب، فقال الرجل: خير، فقال طاووس: وأي خير عنده؟! والله لا تصحبني»[١].

٢. الثعلب.

وذلك بالتشاؤم من صوته.

٣. صوت العطاس.

وهو من العادات الجاهلية فإذا سمع المتشائم صوت العاطس تشاءم منه، وكذلك التثاؤب لأنه من الشيطان، وأما العطاس فقد كان أثره في إيجاد الشؤم شديدًا.

وقيل: إن العرب كانت تتطير منه، فإذا عطس العاطس، قالوا: قد ألجمه، كأنها قد تلجمه عن حاجته[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «وكانوا إذا عطس من يحبونه قالوا له: عمرًا وشبابًا، وإذا عطس من يبغضونه، قالوا له: وريًا وقحابًا، والوري كالرمي: داء يصيب الكبد فيفسدها، والقحاب: كالسعال وزنًا ومعنى، فكان الرجل إذا سمع عطاسًا يتشاءم به، يقول: بكلابي إني أسال الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لأبي»[٣].

وقال أيضًا: «وكان تشاؤمهم بالعطسة الشديدة أشد، كما حكي عن بعض الملوك أن سامرًا له عطس عطسة شديدة راعته، فغضب الملك فقال سميره: والله ما تعمدت ذلك، ولكن هذا عطاسي، فقال: والله لئن لم تأتني بمن يشهد لك بذلك لأقتلنك، فقال: أخرجني إلى الناس، لعلي أجد من يشهد لي، فأخرجه، وقد وكل به الأعوان، فوجد رجلًا فقال: يا سيدي، نشدتك بالله إن كنت سمعت عطاسي يومًا، فلعلك تشهد لي به عند الملك. فقال: نعم، أنا أشهد لك، فنهض معه وقال: يا أيها الملك، أنا أشهد أن هذا الرجل عطس يومًا فطار ضرس من

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ٢/ ٢٣٥.

(٢) المعاني الكبير، ابن قتيبة الدينوري، ٣/ ١١٨٥.

(٣) مفتاح دار السعادة، ٢/ ٢٦٢.

أضراسه، فقال له الملك: عد إلى حديثك ومجلسك. فلما جاء الله سبحانه بالإسلام وأبطل برسوله ما كان عليه الجاهلية من الضلالة»[١].

وهذا خلاف ما جاء في السنة النبوية الشريفة التي بينت أن العطاس أمر يحبه الله تعالى، وذلك بما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن الله يحب العطاس، ويكره التثاؤب، فإذا عطس فحمد الله، فحق على كل مسلم سمعه أن يشمته...الحديث)**[٢].

ثالثًا: التشاؤم بالأزمنة:

لا شك أن التشاؤم ببعض الأزمنة، مثل شهر شوال وصفر ومحرم، أو بيوم من أيامه هو من باب التشاؤم المنهي عنه، فعلى سبيل المثال كان أهل الجاهلية وغيرهم يتشاءمون من الزواج في شهر شوال.

قال ابن رجب: «كذلك تشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة، وقد قيل: إن أصله أن طاعونًا وقع في شوال في سنة من السنين فمات فيه كثير من العرائس، فتشاءم بذلك أهل الجاهلية، وقد ورد الشرع بإبطاله، قالت عائشة رضي الله عنها:

«تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نسائه كان أحظى عنده مني»[٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «وفي دخوله صلى الله عليه وسلم بها -أي: بعائشة رضي الله عنها- في شوال رد لما يتوهمه بعض الناس من كراهية الدخول بين العيدين؛ خشية المفارقة بين الزوجين، وهذا ليس بشيء»[٤].

«وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال، وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم سلمة في شوال أيضًا»[٥].

ووقع زواج علي بن أبي طالب رضي الله عنه من السيدة فاطمة رضي الله عنها في شهر صفر، كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وأما فاطمة رضي الله عنها فتزوجها ابن عمها علي بن أبى طالب رضي الله عنه في صفر سنة اثنتين، فولدت له الحسن والحسين، ويقال: ومحسن، وولدت له أم كلثوم وزينب»[٦].

فلم يتشاءم النبي صلى الله عليه وسلم بشهر شوال ويمتنع عن الزواج به من عائشة رضي الله عنها، ولم يؤخر زواج علي بن أبي طالب من فاطمة رضي الله عنهما في شهر

---

(١) المصدر السابق، ٢/ ٢٦٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يستحب من العطاس وما يكره من التثاؤب، رقم ٦٢٢٣، ٨/ ٤٩.
(٣) لطائف المعارف، ابن رجب ١/ ٧٤، ٧٥.
(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، ٣/ ٢٣١.
(٥) لطائف المعارف، ابن رجب ١/ ٧٤، ٧٥.
(٦) البداية والنهاية، ابن كثير ٥/ ٣٠٩.

صفر، وهذا خلاف ما تفعله الشيعة، الذين يزعمون أنهم أتباع آل البيت وهم يتشاءمون من شهر صفر ومحرم، ولا يتزوجون فيهما أبدًا.

وجاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر**)[1].

وقوله عليه الصلاة والسلام: (ولا صفر): أي كانت العرب تزعم أن في البطن حية يقال لها: الصفر، تصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه، وإنها تعدي، فأبطل الإسلام ذلك، وقيل: أراد به النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، وهو تأخير المحرم إلى صفر، ويجعلون صفر هو الشهر الحرام، فأبطله الإسلام[2].

وكل هذه الأقوال غير صحيحة، أبطلها النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث المتقدم ذكره، فشهر صفر كبقية الشهور لا أثر له في حكم الله تعالى وقضائه، ولا أصل للتشاؤم فيه ولا بغيره في الإسلام، حيث إن الزواج مطلب شرعي، ومن يتزوج فقد أحرز شطر دينه، فكيف يحرمه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في شهر من الشهور، أو يوم من الأيام؛ وهي كلها لله تعالى، ولم يرد نص شرعي يمنع الزواج في أي وقت من الأوقات إلا للحاج أو المعتمر حال إحرامهما.

ومن صور التشاؤم عند العرب بالأزمنة أيضًا: أنهم كانوا يتشاءمون ببعض الأيام أو ببعض الساعات، كالحادي والعشرين من الشهر، وآخر أربعاء فيه، ونحو ذلك، فلا يسافر فيها كثيرٌ من الناس، ولا يعقد فيها نكاحًا، ولا يعمل فيها عملًا مهمًا ابتداءً، يظن أو يعتقد أن تلك الساعة نحسٌ، وكذا التشاؤم ببعض الجهات في بعض الساعات، فلا يستقبلها في سفرٍ ولا أمرٍ حتى تنقضي تلك الساعة أو الساعات، وهي من أكاذيب المنجمين الملاعين؛ يزعمون أن هناك فلكًا دوارًا يكون كل يوم أو ليلة في جهة من الجهات، فمن استقبل تلك الجهة في الوقت الذي يكون فيها هذا الفلك لا ينال خيرًا، ولا يأمن شرًا، وهم في ذلك كاذبون مفترون قبحهم الله[3].

ومنهم من يترك أكل اللبن والسمك في يومي السبت والأربعاء، ويحرمون الخياطة يوم الجمعة ويوم عرفات، ويمنعون الإبرة والمنخل ليلًا تشاؤمًا، ويعتقدون أن كنس البيت بالليل يجلب الفقر[4].

وغير ذلك، كثير من الأمور التي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب لا هامة، رقم ٥٧٥٧، ٧/ ١٣٥.

(٢) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني، ٢١/ ٢٤٧.

(٣) انظر: معارج القبول، حافظ حكمي ٣/ ٩٩١.

(٤) انظر: السنن والمبتدعات، الشقيري، ص٣٣٤.

يتشاءمون منها ولا أصل لها سوى سوء الظن بالله تعالى وضعف التوكل عليه.

رابعًا: التشاؤم بالأماكن:

وهو إظهار التشاؤم من عدة أماكن بحسب ما يتوقع المتشائم حصول الشر منها، كالدار التي يسكنها أو يريد أن يشتريها، فيخطر بباله الشؤم منها لأي سبب كان.

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله إنا كنا في دار كثير فيها عددنا، كثير فيها أموالنا، فتحولنا إلى دار أخرى، فقل فيها عددنا، وقلت فيها أموالنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ذروها ذميمة)**[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وإنما أمرهم بالخروج منها لاعتقادهم أن ذلك منها، وليس كما ظنوا، لكن الخالق جل وعلا جعل ذلك وفقًا لظهور قضائه، وأمرهم بالخروج منها لئلا يقع لهم بعد ذلك شيء فيستمر اعتقادهم، قال ابن العربي: وأفاد وصفها بكونها ذميمة جواز ذلك، وأن ذكرها بقبيح ما وقع فيها سائغ من غير أن يعتقد أن ذلك كان منها، ولا يمتنع ذم محل المكروه وإن كان ليس منه شرعًا، كما يذم العاصي على معصيته وإن كان ذلك بقضاء الله تعالى»[2].

وقال الخطابي: «هو استثناء من غير الجنس، ومعناه: إبطال مذهب الجاهلية في التطير، فكأنه قال: إن كانت لأحدكم دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس يكره سيره؛ فليفارقها، قال: وقيل: إن شؤم الدار ضيقها وسوء جوارها»[3].

وورد في السنة النبوية روايات تؤكد الشؤم في بعض الأمور، منها: الدار، مما يوهم التعارض مع النصوص التي ورد فيها النهي عن التشاؤم، حيث جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(لا عدوى، ولا طيرة، وإنما الشؤم في ثلاث: في الفرس والمرأة والدار)**[4]، وفي رواية أخرى: عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: ذكروا الشؤم عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن كان الشؤم في شيء ففي الدار، والمرأة، والفرس)**[5].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٩١٨، باب الشؤم في الفرس، ١/ ٣١٦، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، رقم ٣٩٢٤، ٦/ ٦٧.

قال الحافظ ابن حجر: «له شاهد من حديث عبد الله بن شداد أحد كبار التابعين وله رواية باسناد صحيح إليه عند عبد الرزاق»، فتح الباري ٦/ ٦٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ٦/ ٦٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب لا عدوى، رقم ٥٧٧٢، ٧/ ١٣٨.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يتقي من شؤم المرأة، رقم ٥٠٩٤، ٧/ ٨.

والأمر ليس كذلك، بل يعني: أن الشؤم لو كان له وجود في شيء لكان في هذه الأشياء؛ فإنها أقبل الأشياء له، لكن لا وجود له فيها أصلًا، وعلى هذا فالشؤم في الحديث السابق وغيره محمول على الإرشاد منه صلى الله عليه وسلم، يعني: إن كانت له دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس لا تعجبه، فليفارق بالانتقال من الدار، ويطلق المرأة، ويبيع الفرس، حتى يزول عنه ما يجده في نفسه من الكراهة[(١)].

قال الطبري: «وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس»، فإنه لم يثبت بذلك صحة الطيرة، بل إنما أخبر صلى الله عليه وسلم أن ذلك إن كان في شيء ففي هذه الثلاث، وذلك إلى النفي أقرب منه إلى الإيجاب، لأن قول القائل: إن كان في هذه الدار أحد فزيد، غير إثبات منه أن فيها زيدًا، بل ذلك من النفي أن يكون فيها زيد، أقرب منه إلى الإثبات أن فيها زيدًا»[(٢)].

قال ابن القيم: «فإخباره بالشؤم أنه يكون في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعيانًا مشؤمة على من قاربها وسكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولدًا مباركًا يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولدًا مشؤمًا نذلًا يريان الشر على وجهه، فكذلك في الديار والنساء والخيل، فهذا لون، والطيرة الشركية لون آخر»[(٣)].

وعلى هذا فلا يوجد تعارض بين هذه الأحاديث وغيرها التي جاء النهي فيها عن التشاؤم بالأماكن كالدار ونحو ذلك.

خامسًا: التشاؤم بالألقاب:

ومن صور التشاؤم عند العرب ما ذكره ابن القيم رحمه الله حيث قال: «وقد كانت العرب تقلب الأسماء تطيرًا وتفاؤلًا، فيسمون اللديغ سليمًا باسم السلامة، وتطيرًا من اسم السقم، ويسمون العطشان ناهلًا، أي: سينهل -والنهل: الشرب- تفاؤلًا باسم الري، ويسمون الفلاة مفازةً، - أي: منجاةً - تفاؤلًا بالفوز والنجاة، ولم يسموها مهلكة لأجل الطيرة»[(٤)].

وقال أيضًا: «وكانت لهم مذاهب في تسمية أولادهم، فمنهم: من سموه بأسماء تفاؤلًا بالظفر على أعدائهم، نحو غالبٍ وغلابٍ، ومالكٍ، وظالمٍ، وعارمٍ، ومنازلٍ، ومقاتلٍ، ومعاركٍ، ومسهرٍ، ومؤرقٍ، ومصبحٍ، وطارقٍ، ومنهم: من تفاءل بالسلام كتسميتهم بسالم، وثابت، ونحوه، ومنهم:

(١) إرشاد الساري، القسطلاني، ٨/ ٢٥.
(٢) تهذيب الآثار، الطبري، ٣/ ٣٢.
(٣) مفتاح دار السعادة، ٢/ ٢٥٧.
(٤) المصدر السابق، ٢/ ٢٤٥، ٢٤٦.

من تفاءل بنيل الحظوظ والسعادة كسعدٍ، وسعيد، وأسعد، ومسعود، وسعدى، وغانم، ونحو ذلك، ومنهم: من قصد التسمية بأسماء السباع ترهيبًا لأعدائهم نحو أسد، وليث، وذئب، وضرغام، وشبل، ونحوها، ومنهم: من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الأجسام تفاؤلًا بالقوة كحجر، وصخر، وفهرٍ، وجندلٍ، ومنهم: من كان يخرج من منزله وامرأته تمخض فيسمي ما تلده باسم أول ما يلقاه كائنا من كان من سبع أو ثعلب أو ضب أو كلب أو ظبي أو حشيش أو غيره»[(١)].

ومنعا للتشاؤم سمت العرب المنهوش بالسليم، والبرية بالمفازة؛ تفاؤلًا في تجاوزها والفوز، لئلا يهلكوا فيها عند قطعها، وكنوا الأعمى أبا بصير، والأسود أبا البيضاء، وسموا الغراب بحاتم، إذ كان يحتم الزجر به على الأمور[(٢)].

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تسمية المولود بما يتطير به، وذلك بما صح عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا تسم غلامك رباحًا، ولا يسارًا، ولا أفلح، ولا نافعًا)**[(٣)].

وفي رواية أخرى: **(ولا تسمين غلامك يسارًا، ولا رباحًا، ولا نجيحًا، ولا أفلح، فإنك تقول: أثم هو؟ فلا يكون، فيقول: لا. إنما هن أربع فلا تزيدن علي)**[(٤)].

وكذلك عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: **(أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينهى عن أن يسمى بيعلى، وببركة، وبأفلح، وبيسار، وبنافع، وبنحو ذلك، ثم رأيته سكت بعد عنها، فلم يقل شيئًا، ثم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينه عن ذلك)** ثم أراد عمر أن ينهى عن ذلك، ثم تركه[(٥)].

ومعنى هذه الأحاديث: «أن الناس يقصدون بهذه الأسماء التفاؤل بحسن ألفاظها أو معانيها، وربما ينقلب عليهم ما قصدوه إلى الضد إذا سألوا فقالوا: أثم يسار أو نجيح؟ فقيل: لا، فتطيروا بنفيه وأضمروا اليأس من اليسر وغيره، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن السبب الذي يجلب سوء الظن والإياس من الخير»[(٦)].

«وقول جابر رضي الله عنه: «ثم سكت عنها»: دليل أنه ترك النهي، وأن نهيه أولًا

(١) المصدر السابق، ٢/ ٢٤٦.
(٢) الحيوان، الجاحظ، ٣/ ٢٠٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، رقم ٢١٣٦، ٣/ ١٦٨٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، رقم ٢١٣٧، ٣/ ١٦٨٥.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، رقم ٢١٣٨، ٣/ ١٦٨٦.
(٦) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٧/ ٢٩٩٧.

إنما كان نهي تنزيه وترغيب؛ مخافة سوء الفأل، وما يقع في النفس مما ذكره، وعكس ما قصده المسمى بهذه الأسماء من حسن الفأل، وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم غلام اسمه رباح، ومولى اسمه يسار، وسمى ابن عمر غلامه نافعًا، وكراهته صلى الله عليه وسلم اسم حزن وسماه سهلًا، واسم حرب ومرة لقبح معانيها، وكراهة النفوس لها، وكذلك غير اسم غراب لتشاؤم العرب به، ولما في اسمه من الغربة، ولخبثه وفسقه، وقد غير اسم شيطان وحباب، وقيل أيضًا: لأنه اسم الحية، وغير اسم أصرم؛ لما فيه من ذكر الصرم وهو القطيعة، واسم شهاب؛ لأنه شعلة من نار»[1].

سادسًا: التشاؤم بالأرقام:

التشاؤم بالأرقام عادة لم تكن موجودة عند العرب، ولم يكن هذا الأمر معروفًا إلا عند الغربيين، ومعناه أنهم يتوقعون ما سوف يحصل لهم من أحداث سيئة بسبب رؤيتهم بعض الأرقام التي يحسبون أنها تجلب الشؤم والحظ السيء، وهذا بعيد عن مبادئ الإسلام الحنيف الذي يفوض كل ما يصيب الإنسان إلى قضاء الله وقدره الجاري على كل الكون.

حيث يتشاءم النصارى وغيرهم من بعض الأرقام، وأشهر رقم يتشاءمون به هو الرقم - ١٣ - ولذلك حذفته بعض شركات الطيران من ترقيم المقاعد، وحذفته بعض العمارات من أرقام الطوابق والشقق؛ لأن الناس يتشاءمون من ذلك الرقم، ويقال: إن قصة ذلك سببها خرافة نصرانية تزعم أن حواريي عيسى عليه السلام عددهم اثنا عشر حواريًا، فانضم إليه يهوذا الأسخريوطي فصاروا ثلاثة عشر، وهذا الأخير هو الذي وشى بعيسى عليه السلام وتسبب في صلبه - كما يزعمون -؛ فلذلك كرهوا هذا الرقم وتشاءموا منه، وهذه خرافة ظاهر بطلانها؛ ذلك أن الأرقام لا تقدم ولا تؤخر، وأن عيسى عليه السلام لم يصلب ولم يقتل، بل رفعه الله إليه[2].

وقد نفى الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧].

ولا دخل للرقم(١٣) في ذلك.

وسار على منهج هؤلاء في التشاؤم من الأرقام الشيعة كما أشار إليه ابن تيمية رحمه الله بقوله عنهم: «وأما سائر حماقاتهم فكثيرة جدًا، منها: كونهم يكرهون التكلم بلفظ العشرة، أو فعل شيء يكون عشرة، حتى في

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، ٧/ ١٣.

(٢) انظر: الطيرة، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ٤٠.

البناء لا يبنون على عشرة أعمدة، ولا بعشرة جذوع، ونحو ذلك، لكونهم يبغضون خيار الصحابة، وهم العشرة المشهود لهم بالجنة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، ويبغضون هؤلاء إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويبغضون سائر المهاجرين، والأنصار من السابقين الأولين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم -تحت الشجرة- وكانوا ألفًا وأربعمائة، وقد أخبر الله أنه قد رضي عنهم، ومعلوم أنه لو فرض في العالم عشرة من أكفر الناس لم يجب هجر هذا الاسم (يعني الرقم عشرة) لذلك، كما أنه سبحانه وتعالى لما قال: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨] لم يجب هجر اسم التسعة مطلقًا، بل اسم العشرة قد مدح الله مسماه في مواضع، كقوله تعالى في متعة الحج: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ [الفجر: ١-٢].

وقد ثبت في الصحيح **(أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله تعالى)**[1]، وقال في ليلة القدر: **(التمسوها في العشر الأواخر)** ومن العجب أنهم يوالون لفظ التسعة، وهم يبغضون التسعة من العشرة، فإنهم يبغضونهم إلا عليًا[2].

ويتضح مما تقدم: أن التشاؤم بالأرقام عادة مستحدثة لم يكن لها وجود إلا عند الغربيين، ثم انتقلت إلى المسلمين، فصار بعضهم يتشاءم من بعض الأرقام، وهو اعتقاد باطل لا صحة له؛ لأنه لا دخل للأرقام فيما يصيب الإنسان من خير أو شر، بل الأمر متعلق بقضاء الله تعالى وقدره.

سابعًا: التشاؤم بالأحداث:

هو التشاؤم بالمصائب والبلايا التي تصيب الإنسان، أو الحروب، أو الزلازل، أو المجاعات، فيذيع خبرها بين الناس، فيصيب بعضهم الجزع واليأس والشؤم، ومنهم من إذا أصيب بمصيبة أو بلية من مرض، أو خسارة، أو موت ونحو ذلك نسب كل ما أصابه إلى سوء الحظ، وذلك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأواخر في المساجد كلها، رقم ٢٠٢٦، ٣/ ٤٧.

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، ١/ ٤٠.

لسوء ظنه بالله تعالى، وعدم الرضا والتسليم لقضاء الله تعالى وقدره، وهذا كله منافٍ لإيمان المسلم؛ لأنه لا يجتمع الإيمان مع التشاؤم، فالأمر كله لله تعالى؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧].

«فيه إخبار أن ما يصيب العبد من الضر والخير إنما يصيب به، ثم الضر المذكور في الآية لا يخلو من أن يراد به سقم النفس، أو ضيق العيش، أو شدة وظلم يكون من العباد، لا يخلو من هذه الأوجه الثلاثة، فإذا كان كذلك فدل إضافة ذلك إلى الله تعالى على أن لله فيه فعلًا، وهو أن خلق فعل ذلك منهم، فهو على كل شيء قدير من كشف الضر له، والصرف عنه، وإصابة الخير، لا يملك ذلك غيره»(١).

قال الزمخشري: «﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه، فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ من غنى أو صحة ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادرًا على ادامته أو إزالته»(٢).

وجاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا، فقال: (يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف)(٣).

ولا يجوز للعبد التشاؤم من الزمان وحوادثه؛ لما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر، فإن الله هو الدهر)(٤).

ودلالة الحديث: أن العرب كان شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها، من موت أو هرم أو تلف مال أو غير ذلك، فيقولون: يا خيبة الدهر، ونحو هذا من ألفاظ سب الدهر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر، أي: لا تسبوا فاعل النوازل؛ فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/ ٣٨.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ١٠.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٦٦٩، ٣/ ١٩٥، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب رقم ٥٩، رقم ٢٥١٦، ٤/ ٦٦٧. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم ٢٢٤٦، ٤/ ١٧٦٣.

السب على الله تعالى؛ لأنه هو فاعلها ومنزلها، وأما الدهر الذي هو الزمان فلا فعل له، بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى، ومعنى: (فإن الله هو الدهر)، أي: فاعل النوازل والحوادث وخالق الكائنات[1].

ولا يصح التشاؤم من البلايا والمصائب كالمرض مثلًا؛ لأن فيه تهذيبًا للنفس وتكفيرًا للخطايا، وقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم السائب -أو أم المسيب-، فقال: (ما لك؟ يا أم السائب -أو يا أم المسيب- تزفزفين[2]؟) قالت: الحمى، لا بارك الله فيها، فقال: **(لا تسبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد)**[3].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له)**[4].

وهكذا يكون المسلم دائمًا مع الأحداث، ويترك دواعي الشؤم التي تعتريه وتبعث في نفسه الخوف وتوقع حدوث الشر، ويرجعها إلى خالقها، ويسأله من خيرها، وأن يدفع عنه شرها، وأن يؤمن أن الله تعالى قد يبتلي العبد بشتى البلايا والمصائب ومكاره الدنيا، من القحط والجدب والمرض ونحو ذلك، مثلما ينعم عليه من النعم التي لا تحصى.

وليعلم أن ما أصابه من الأحداث مما يكره إنما هو بتقدير الله تعالى، وربما تسلط عليه بسبب ذنوبه كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ولا شك أن الله عز وجل يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر؛ لذلك قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فالأمر كله راجع إلى الله تعالى، والواجب على المسلم حسن الظن به والتوكل عليه، وأن ما أصابه مما يكره إنما هو بسبب ذنوبه، فيلقي باللوم على نفسه لا على ما تجري به الأقدار.

---

(١) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٥/ ٣.

(٢) الزفزفة: أي الارتعاد من البرد. انظر: لسان العرب، ٩/ ١٣٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، رقم ٢٥٧٥، ٤/ ١٩٩٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٢٩٩٩، ٤/ ٢٢٩٥.

نسبة المصائب إلى أشخاص

يعتقد المتشاءمون قديمًا وحديثًا بنسبة المصائب والبلايا التي تصيبهم إلى أشخاص معينين، حيث يظنون أن ما يصيبهم من بلاء وشر إنما هو بسببهم، كما أخبر الله تعالى عن تشاؤم آل فرعون وقومه بموسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف: ١٣١].

أي: «يتشاءمون بهم، ويقولون: هذا من أجل اتباعنا لك وطاعتنا إياك، فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، يعني أن طائر البركة وطائر الشؤم من الخير والشر والنفع والضر من الله تعالى لا صنع فيه لمخلوق»[١].

وكذلك تشاؤم قوم ثمود، حيث نسبوا ما أصابهم من بلاء إلى نبيهم صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٧].

أي: قالت ثمود لرسولها صالح عليه الصلاة السلام: تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكاره والمصائب، فأجابهم صالح فقال لهم: ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، أي: ما زجرتم من الطير علمه عند الله، ولا يدرى أيكون ما تظنون من المصائب أو المكاره، أم ما ترجونه من العافية والمحاب[٢].

ولحقهم في ذلك أصحاب القرية التي جاءها المرسلون: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٨-١٩].

ومن ثم قوله تعالى فيما أخبر عن كفار قريش بأنهم يضيفون ما يصيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

ولا يقتصر التشاؤم على العرب فقط، بل تشائمت اليهود أيضًا من قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فقالوا: «غلت أسعارنا، وقلت أمطارنا مذ أتانا»[٣].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٢٨٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٤٧٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/ ٣٤٤.

آثار التشاؤم

لا شك أن للتشاؤم آثارا سيئة تنعكس على المتشائم، وتسبب له خللًا في عقيدته، وتورث في نفسه أمورًا كثيرة، كضعف الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره، والتسخط على كل ما يصيبه في حياته من أقدار، وعدم التوكل على الله تعالى، مع اعتقاده أن التشاؤم يضره.

وقلما يخلو من التشاؤم أحد لا سيما من عارضته المقادير في إرادته، وصده القضاء عن طلبته، فهو يرجو واليأس عليه أغلب، ويأمل والخوف إليه أقرب، فإذا عاقه القضاء، وخانه الرجاء، جعل الطيرة عذر خيبته، وغفل عن قضاء الله عز وجل ومشيئته، فإذا تطير أحجم عن الإقدام، ويئس من الظفر، وظن أن القياس فيه مطرد، وأن العبرة فيه مستمرة، ثم يصير ذلك له عادة، فلا ينجح له سعي، ولا يتم له قصد[1].

وقد ذكرت الطيرة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)[2].

«ومعنى هذا: أن من تشاءم تشاؤمًا منهيًا عنه، وهو أن يعتمد على ما يسمعه أو يراه مما يتطير به، حتى يمنعه مما يريد من حاجته؛ فإنه قد يصيبه ما يكرهه، فأما من توكل على الله ووثق به، بحيث علق قلبه بالله خوفًا ورجاءً وقطعه عن الالتفات إلى هذه الأسباب المخوفة، وقال ما أمر به من هذه الكلمات -أي ما ذكر في الحديث المذكور آنفا- ومضى، فإنه لا يضره ذلك»[3].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لا تضر الطيرة إلا من تطير»[4].

قال ابن القيم: «والتشاؤم إنما يضر من أشفق منه وخاف، وأما من لم يبال به ولم يعبأ به شيئًا لم يضره البتة، ولا سيما إن قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعه: «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[5].

ولا يخلو المتشائم بتشاؤمه من الوقوع في الشرك ووساوس الشيطان.

ويقول أيضًا: «فالطيرة باب من الشرك وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته، يكبر ويعظم شأنها على من اتبعها نفسه واشتغل

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين، الماوردي، ١/ ٣١٥.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، رقم ٣٩١٩، ٦/ ٦٢.

(٣) لطائف المعارف، ابن رجب ١/ ٧٢.

(٤) روح البيان، إسماعيل حقي، ٣/ ٢١٨.

(٥) انظر: مفتاح دار السعادة، ٢/ ٢٣٠.

بها وأكثر العناية بها، وتذهب وتضمحل عمن لم يلتفت إليها ولا ألقى إليها باله ولا شغل بها نفسه وفكره. واعلم أن من كان معتنيًا بها قائلًا بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدر، فتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه، وينكد عليه عيشه، فإذا سمع سفرجلًا أو أهدي إليه تطير به، وقال: سفر وجلاء. وإذا رأى ياسمينًا أو سمع اسمه تطير به، وقال: يأس ومين. وإذا رأى سوسنة أو سمعها قال: سوء يبقى سنة. وإذا خرج من داره فاستقبله أعور أو أشل أو أعمى أو صاحب آفة تطير به، وتشاءم بيومه»[1].

«والمتطير متعب القلب، منكد الصدر، كاسف البال، سيئ الخلق، يتخيل من كل ما يراه أو يسمعه، أشد الناس خوفًا، وأنكدهم عيشًا، وأضيق الناس صدرًا، وأحزنهم قلبًا، كثير الاحتراز والمراعاة لما لا يضره ولا ينفعه، وكم قد حرم نفسه بذلك من حظ، ومنعها من رزق، وقطع عليها من فائدة»[2].

وقد يصل المتشائم عند شعوره باليأس وضعف الإيمان بالله تعالى إلى الكفر، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

قال ابن عباس: «إن المؤمن من الله على خير، يرجوه في الشدائد، ويشكره ويحمده في الرخاء، وإن الكافر ليس كذلك»[3].

وعلى هذا: فإن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرًا، والمؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال، فلا يجتمع إيمانه بالله عز وجل مع اليأس وكراهيته ما قدره الله تعالى له.

وتتلخص آثار التشاؤم في عدة أمور منها[4]:

١. ينافي الإيمان، ويضاد التوكل.
٢. لا يدفع مكروها ولا يجلب محبوبًا.
٣. دليل قلة العقل وذهاب الحلم.
٤. اضطراب النفس وبلبلة الفكر.
٥. الفشل في الحياة.
٦. دعوة إلى تعطيل المصالح وترك السعي.
٧. صفة من صفات الجاهلية، وعادة مذمومة من عاداتهم.
٨. دعوة صريحة للكفر بالقضاء والقدر.
٩. فيها مخالفة صريحة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم.

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٣١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الوسيط، الواحدي، ٢/ ٦٢٩.
(٤) انظر: نضرة النعيم، ٩/ ٤١٩٩.

علاج التشاؤم

أولًا: الإيمان بالقضاء والقدر:

لا شك أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان العقيدة الصحيحة، وأصل من أصول الإيمان لا يصح إيمان إلا به، ومعلوم أن التشاؤم ينافيه؛ لأن فيه اعتراضًا وتسخطًا على أقدار الله تعالى الجارية على خلقه، وأنه لا يقع شيء إلا بقدر الله وقضائه ومشيئته، فالمؤمن يجب أن يؤمن بذلك، ويتوكل على الله تعالى، ولا يرده شعوره بالتشاؤم عن شيء فإنه لا يضره بشيء، فالأقدار سارية عليه بما قدرها الله تعالى له من الخير والشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

أي: قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، وإن كل كائن في هذه الحياة، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة والنظام الشامل، وبحسب السنن التي وضعها في الخليقة، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها[(١)].

ونحو الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ١-٣].

وبما إن التشاؤم من الأقدار عادة من عادات أهل الجاهليةً لذلك نرى أن كفار قريش كانوا يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر، كما صح في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر، فنزلت: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩][(٢)].

ومعنى الحديث: أن المشركين وأهل الفسق يتعلقون بالأقدار، طالبين بذلك النكول عن الأعمال، فيريدون بخوضهم في ذلك الفتنة، لا التماس الحق، وقد أنزل الله عز وجل في ذلك الكافي المقنع في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، ومعناه إنا خلقنا كل شيء، خلقناه بقدر، فيستنبط من هذا أن الله سبحانه خالق كل شيء من خير وشر، وأن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلقه بقدر سبق، ومقدار لا يزيد عنه شيء من ذلك ولا ينقص[(٣)].

قال الماوردي رحمه الله: «اعلم أنه

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٨٢، تفسير المراغي، ٢٧/ ١٠١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، رقم ٢٦٥٦، ٤/ ٢٠٤٦.

(٣) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، ٨/ ١٩٢.

ليس شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة -التشاؤم-، ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يرد قضاء أو يدفع مقدورا فقد جهل»[1].

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١١﴾ [التغابن: ١١].

أي: «بقضاء الله وقدره وإرادته ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي يصدق أنه لا يصيبه مصيبة من موت أو مرض أو ذهاب مال ونحو ذلك إلا بقضاء الله وقدره وإذنه، ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، أي: يوفقه لليقين، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيسلم لقضاء الله تعالى وقدره، وقيل يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾»[2].

ويحتمل أن يريد بالمصيبة الرزايا، وخصها بالذكر لأنها أهم على الناس، أو يريد جميع الحوادث من خير أو شر، وبإذن الله عبارة عن قضائه وإرادته تعالى ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قيل: معناه من يؤمن بأن كل شيء بإذن الله يهد الله قلبه للتسليم والرضا بقضاء الله، وهذا أحسن، إلا أن العموم أحسن منه[3].

قال ابن كثير رحمه الله: «ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيرًا منه»[4].

فمن لا يتشاءم ولا يستجيب لدواعي التشاؤم، ويتوكل على الله تعالى؛ فإنه ينال أفضل الدرجات وأكملها وأرفعها عند الله تعالى، وهي الجنة.

وقد بين الله تعالى أثر الإيمان بالقضاء والقدر في تخليص العبد من القلق، والحزن، والخوف من حصول المكروه والمصائب والبلايا الناتج من التشاؤم وغيره، بقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وعلم النبي صلى الله عليه وسلم أمته كيف يتخلصون مما يجدونه في نفوسهم من تشاؤم، وذلك بما صح عن معاوية بن الحكم رضي الله عنه، قال: **قلت: يا رسول الله أمورًا كنا نصنعها في الجاهلية، كنا نأتي الكهان، قال: (فلا تأتوا الكهان). قال: قلت: كنا نتطير. قال: (ذاك شيء يجده أحدكم في**

(١) أدب الدنيا والدين، ص٣١٤.
(٢) لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٣٠٣.
(٣) التسهيل، ابن جزي، ٢/ ٣٨١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٣٧.

نفسه، فلا يصدنكم)[١].

«فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لا ما رآه وسمعه، فأوضح لأمته الأمر، وبين لهم فساد الطيرة؛ ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه؛ لتطمئن قلوبهم ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى»[٢].

وبشرهم عليه الصلاة والسلام بدخول الجنة ما لم يتشاءموا بما صح عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب، هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)[٣].

«فأما من ساعدته المقادير ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة لإقدامه؛ ثقة بإقباله، وتعويلًا على سعادته، فلا يصده خوف ولا يكفه حزن، ولا يئوب إلا ظافرًا، ولا يعود إلا منجحًا؛ لأن الغنم بالإقدام، والخيبة مع الإحجام، فصارت الطيرة من سمات الإدبار، واطراحها من أمارات الإقبال، فينبغي لمن مني بها وبلي أن يصرف عن نفسه وساوس النوكى[٤]، ودواعي الخيبة، وذرائع الحرمان، ولا يجعل للشيطان سلطانًا في نقض عزائمه ومعارضة خالقه، ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالب، وأن رزقه له طالب، إلا أن الحركة سبب فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقًا ولا يدفع مقدورًا، وليمض في عزائمه واثقًا بالله تعالى إن أعطي، وراضيًا به إن منع»[٥].

ويتضح مما تقدم: أن من آمن بالقضاء والقدر، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه لن يصيبه إلا ما كتب له، وأن ما يجري من المصائب والبلايا والمحاب والمكروهات كله بقضاء الله وقدره، فقد سلم نفسه من الوقوع في آفة التشاؤم.

ثانيًا: حسن الظن بالله والتوكل عليه:

لا شك أن حسن الظن بالله تعالى له أثر كبير في حياة المؤمن وبعد مماته، فالمؤمن حين يحسن الظن بالله تعالى لا يزال قلبه مطمئنًا، ونفسه راضية بقضاء الله وقدره وما يصيبه في السراء والضراء، بخلاف التشاؤم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، بالب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، رقم ٥٣٧، ٤/ ١٧٤٨.
(٢) مفتاح دار السعادة، ٢/ ٢٣٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه، رقم ٦٤٧٢، ٨/ ١٠٠.
(٤) والأنوك: أي الأحمق، وجمعه النوكى. انظر: لسان العرب، ١٠/ ٥٠١.
(٥) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٣١٥، ٣١٦.



الذي هو سوء ظن بالله عز وجل بغير سبب، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى والتوكل عليه في كل أحواله.

وحقيقة التوكل: «هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، ودفع المضار، من أمور الدنيا والآخرة كلها، ووكلت الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع سواه»[1].

وعلى هذا فالتوكل مرتبط بحسن الظن بالله تعالى، وكلاهما علاج لما يصيب المسلم من دواعي الشؤم.

قال ابن القيم رحمه الله: فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله، وأن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه[2].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

أي: «ومن يكل أمره إلى الله ويفوض إليه الخلاص منه كفاه ما أهمه في دنياه ودينه، والمراد بذلك: أن العبد يأخذ بالأسباب التي جعلها الله من سننه في هذه الحياة، ويؤديها على أمثل الطرق، ثم يكل أمره إلى الله فيما لا يعلمه من أسباب لا يستطيع الوصول إلى علمها، وليس المراد أن يلقي الأمور على عواهنها، ويترك السعي والعمل ويفوض الأمر إلى الله تعالى»[3].

ثم ذكر السبب في وجوب التوكل عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

أي: إن الله تعالى منفذ أحكامه في خلقه بما يشاء، وقد جعل لكل شيء مقدارًا ووقتًا، فلا تحزن أيها المؤمن إذا فاتك شيء مما كنت تؤمل وترجو، فالأمور مرهونة بأوقاتها، ومقدرة بمقادير خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨][4].

وعلى هذا: فإن التوكل على الله تعالى هو حسن الظن بالله عز وجل، والبعد عن التشاؤم الذي من أسبابه سوء الظن بالله تعالى وبأقداره السارية على خلقه سواء أكان خيرًا أم شرًا؛ لأن كل هذا ينافي إيمان المسلم، ويخل بعقيدته وحسن عبادته لله تعالى.

وروي عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن حسن الظن بالله من حسن العبادة)[5].

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ٢/ ٤٩٧.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ٢/ ١٢١.
(٣) تفسير المراغي، ٢٨/ ١٤١.
(٤) المصدر السابق، ٢٨/ ١٤٢.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٨٠٢٣،

ودلالة الحديث واضحة في أن حسن الظن عبادة من العبادات الحسنة، كما أن سوء الظن معصية من المعاصي.

ويؤكد هذا المعنى ما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله: أنا عند ظن عبدي بي)[1].

فحسن الظن بالله تعالى يذهب الشعور بالشؤم؛ لأن الله تعالى هو الذي ينفع وحده ولا يضر سواه، ثم إن شعور المسلم بالشؤم لا يذهبه إلا التوكل على الله تعالى في كل حال، لذلك بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك من خلال تعليمه الصحابة الكرام كيفية علاج التشاؤم، كما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الطيرة من الشرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل)[2].

ولا مانع أن يتوكل العبد على الله تعالى مع اجتناب الأسباب التي تكون سببًا للبلاء لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

إذًا: حسن الظن بالله والتوكل عليه يزيل من النفس دواعي التشاؤم، وهما من أقوى الأسباب في علاجه، لذا على المسلم أن يثق بالله تعالى ويوقن أن قضاءه عليه ماض، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه جل وعلا.

ثالثًا: العلم النافع:

كما أن الجهل والضلال سبب من أسباب التشاؤم كما مر، فإن العلم النافع هو علاج له، فما كان التشاؤم عادة من عادات الجاهلية والأمم السالفة إلا بسبب جهلهم وضلالتهم، لذلك عندما جاء الإسلام حث على طلب العلم، ومدح الله سبحانه وتعالى أهل العلم في آيات كثيرة، وكذلك السنة الشريفة، إذ هو من أفضل الأعمال الصالحة، ومن أفضل العبادات وأجلها، فقد رفع الله تعالى شأن أهل العلم بقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ولم يساوهم أحد في منزلتهم ولا رتبتهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

ودلالة الآيات واضحة في بيان منزلة العلم النافع وأهله، فإنه يخرج الناس من

٨/ ١٣٤، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن الظن، رقم ٤٩٩٣، ٤/ ٢٩٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: يريدون أن يبدلوا كلام الله، رقم ٧٥٠٥، ٩/ ١٤٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٣٦٨٩، ٣/ ٥٤٦، والترمذي في سننه، كتاب الطب، باب ما جاء في الطيرة، رقم ١٦١٤، ٤/ ١٦٠. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

الجهل والضلال إلى النور والمعرفة.

ولأهمية العلم في حياة الناس أمر الله تعالى رسوله أن يطلب المزيد منه في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قال قتادة رحمه الله: «لو كان أحد يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى عليه السلام، ولكنه قال للخضر عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]»[١].

والعلم النافع يدل على أمرين:

أحدهما: معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه، وخشيته ومهابته، ومحبته ورجاءه، والتوكل عليه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه.

والأمر الثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات، والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال[٢].

وإن العلم النافع طريق الجنة كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ومن سلك طريقا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة)[٣].

ولهذا لا نجد أحدًا أنعم الله تعالى عليه بالعلم النافع إلا كان متفائلًا، بعيدًا عن التشاؤم، منشرح الصدر، ومطمئن النفس والقلب، ومؤمنًا بأقدار الله تعالى وما يحصل له في الحاضر والمستقبل، وهذا حال المؤمن؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

قال ابن القيم رحمه الله: «العلم هادٍ والحال الصحيح مهتد به، وهو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم ووراثهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال، به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد، ويحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام

(١) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ١/ ٤١٨.

(٢) فضل علم السلف على الخلف، ابن رجب، ص١٥٠-١٥١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم ٢٦٩٩، ٤/ ٢٠٧٤.

وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب، وهو إمام، والعمل مأموم، وهو قائد، والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزه، والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه، مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام»[1].

ويتضح مما مضى: إن العلم النافع هو نعمة من نعم الله تعالى على عباده، وعلاج لكل ما يصيب الإنسان من الآفات النفسية والقلبية، بما فيها الاعتقادات الخاطئة كالتشاؤم بالبشر، والمصائب والبلايا والطير والحيوان والأسماء، وغير ذلك، وكلها تعود إلى سبب الجهل والضلال.

رابعًا: مصاحبة المتفائلين:

للصحبة الصالحة مكانة عظيمة في الإسلام، لما لها من أثر واضح في حياة الإنسان، سواء في معتقده وسلوكه وأفعاله وتوجهاته، والإنسان ميال بفطرته إلى مخالطة الآخرين ومصاحبتهم، ومجالستهم والتأثر بهم.

ولعل المبتلى بالتشاؤم أولى من غيره بمصاحبة المتقين الأخيار؛ لأن مصاحبتهم وملازمتهم ستؤدي إلى اكتساب صفاتهم من تقوى وإيمان، ومكارم أخلاق، وتفاؤل وجد وإقدام، وحسن توكلٍ على الله تعالى في السراء والضراء.

لذلك أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتزام الصادقين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

وحث على صحبة العابدين بقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

ونهى الله تعالى عن صحبة الظالمين لما فيها من حسرة وندامة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨].

وجعل كل صحبة لا تبنى على محبة الله تعالى وتقواه مصيرها العداوة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

وضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثالًا على الصحبة الصالحة بقوله عليه الصلاة

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ٢/ ٤٤٠.

والسلام: (**مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك، أو ثوبك، أو تجد منه ريحًا خبيثة**)[(١)].

«وقوله: في تمثيل الجليس السوء والجليس الصالح بحامل المسك أو نافخ الكير: فيه تجنب خلطاء السوء ومجالسة الأشرار وأهل البدع والمغتابين للناس؛ لأن جميع هؤلاء ينفذ أثرهم إلى جليسهم، والحض على مجالسة أهل الخير وتلقي العلم والأدب، وحسن الهدى والأخلاق الحميدة»[(٢)].

وقال صلى الله عليه وسلم: (**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**)[(٣)].

«قال ابن العربي: أي عادة خليله، فمن كانت عادته في خلق الله ما عودهم الله من لطائف منته وأسبغ عليهم من جزيل نعمه، وعطف بعضهم على بعض، فلم يظهر في العالم غضبًا لا يشوبه رحمة، ولا عداوة لا يتخللها مودة فذلك الذي يستحق اسم الخلة؛ لقيامه بحقها، واستيفائه لشروطها»[(٤)].

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**)[(٥)].

وفي هذه الأحاديث المتقدمة حث على صحبة الصالحين والمتقين وتجنب جلساء السوء، وبما أن التشاؤم عادة سيئة فالأحرى بالمتشائم أن يصاحب المؤمنين الصالحين ليقتدي بإيمانهم وصلاحهم؛ فتنعكس أخلاقهم وأفعالهم وعاداتهم على سلوكه؛ فيجد نفسه قد تخلص من عاداته السيئة، ومنها التشاؤم.

خامسًا: الدعاء:

إن الدعـاء هو الصلة القوية بين الخالق والمخلوق، وهو وقوف العبد بين يدي الله تعالى وسؤاله على وجه الافتقار والعجز والانكسار.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، رقم ٢١٠١، ٣/ ٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم ٢٦٢٨، ٤/ ٢٠٢٦.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٨/ ١٠٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٨/ ١٣٠، رقم ٨٠١٤، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم ٤٨٣٣، ٤/ ٢٥٩، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب رقم ٤٥، رقم ٢٣٧٨، ٤/ ١٦٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٤) فيض القدير، المناوي، ٦/ ٢٦٦.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم ٤٨٣٢، ٤/ ٢٥٩، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في صحبة المؤمن، رقم ٢٣٩٥، ٤/ ٦٠٠.
قال الترمذي: « هذا حديث حسن».

قال الخطابي في معنى الدعاء: «استدعاء العبد ربه عز وجل العناية واستمداده إياه المعونة»[(١)]، وإلى نفس هذا المعنى ذهب الإمام الرازي[(٢)].

لذا فإن الإقبال على الله تعالى واللجوء إليه، وكثرة الإلحاح عليه بالدعاء هو من أفضل الأعمال، وعلاج لكل الآفات التي تصيب المسلم، ومنها: شعوره بالتشاؤم، فلا يمنعه ذلك من التضرع إلى الله تعالى أن يشرح صدره، وييسر أمره، ويتجاوز ما يصيبه من دوافع الشؤم بالإيمان وحسن التوكل على الله تعالى في السراء والضراء، ولا يكن كمن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

وعلى هذا: يجب على المسلم اللجوء إلى الله تعالى بالدعاء في اليسر والشدة، والاستعانة به في كل الأحوال، مع الاعتقاد بإجابة الدعاء كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ويؤكد هذا الأمر ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ)**[(٣)].

وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أمته دعاء الوقاية لمن وجد في نفسه ما يكره من الأشياء وما يبعث في نفسه من شؤم، وذلك بما روي عن عروة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **(أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)**[(٤)].

وفي هذا الدعاء علاج لمن يجد في نفسه كراهية حدوث بعض الأشياء، فالأولى به أن لا ترده عن حاجته ويذهب متوكلًا على الله تعالى، فإن الله تعالى يكفيه ما وجد في نفسه من ذلك.

سادسًا: الفأل الحسن:

حث الله تعالى عباده على التفاؤل والبعد عن التشاؤم في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا

(١) انظر: شأن الدعاء، الخطابي، ص٤.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/ ٧٧٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٦٦٥٥، ١١/ ٢٣٥، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب رقم ٦٦، رقم ٣٤٧٩، ٥/ ٥١٧.
قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».
(٤) سبق تخريجه.

﴿يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ [الشرح: ٥- ٦].

وجاء أيضًا في الحديث عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح: الكلمة الحسنة)**[١].

والفأل هو: الكلمة الصالحة والطيبة والحسنة؛ بدليل قوله صلى الله عليه وسلم عندما سئل ما الفأل؟ فقال: **(الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم)**[٢].

قال القرطبي رحمه الله: الفأل هو: الاستدلال بما يسمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسنًا، فإن سمع مكروهًا فهو تطير -تشاؤم-، وأمره الشرع بأن يفرح بالفأل ويمضي على أمره مسرورًا، وإذا سمع المكروه أعرض عنه ولم يرجع لأجله[٣].

يقول الإمام الطيبي: «معنى الترخص في الفأل والمنع من التشاؤم: فهو أن الشخص لو رأى شيئًا فظنه حسنًا محرضًا على طلب حاجته فليفعل ذلك، وإن رآه بضد ذلك فلا يقبله بل يمضي لسبيله، فلو قبل وانتهى عن المضي فهو الطيرة التي اختصت بأن تستعمل في الشؤم، والله أعلم»[٤].

وقال ابن بطال رحمه الله: «جعل الله تعالى في فطر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس بها، كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافي وإن كان لا يملكه ولا يشربه»[٥].

والفأل الحسن فيه تقوية للعزم، وباعث على الجد، ومعونة على الظفر، فقد تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه، فينبغي لمن تفاءل أن يتأول الفأل بأحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلًا[٦].

وعلى هذا: فالفأل الحسن هو حسن الظن بالله تعالى وبقضائه وقدره، حيث يجلب السعادة والطمأنينة إلى النفس والقلب، ويبعث فيهما السرور والجد، بخلاف التشاؤم الذي فيه سوء ظن بالله، فلا يتحقق معه إيمان المسلم بقضاء الله تعالى وقدره في كل الأحوال، لذا فالفرق بين الفأل والتشاؤم: أن الفأل من طريق حسن الظن بالله، والتشاؤم لا يكون إلا في السوء.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الفأل، رقم ٥٧٥٦، ٧/ ١٣٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الفأل، رقم ٥٧٥٥، ٧/ ١٣٥، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم، رقم ٢٢٢٣، ٤/ ١٧٤٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ١٨١.
(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٠/ ٢١٥.
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص٣١٦، ٣١٧.

ويضرب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المثل الأعلى في الفأل الحسن من خلال قصصهم الواردة في القرآن الكريم، منها: ما جاء في قصة موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

أي: فلما تناظر الجمعان: جمع موسى عليه السلام وهم بنو إسرائيل، وجمع فرعون وهم القبط ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾، أي: إنا لملحقون، الآن يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا، وذكر أنهم قالوا ذلك لموسى، تشاؤمًا بموسى عليه السلام، ولما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر، وقال ﴿كَلَّآ﴾ لن تدركوا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، أي سيهدين لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه[(١)].

ثم ذكر سبحانه كيف هداه ونجاه وأهلك أعداءه فقال: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشعراء: ٦٣].

وكذلك ما حصل مع النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضي الله عنه في الغار، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة: ٤٠].

وجاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: حدثني أبو بكر رضي الله عنه، قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: **(ما ظنك باثنين الله ثالثهما)**[(٢)].

وقوله عليه الصلاة والسلام: **(يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)** أي: «معناه ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد، وهو

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٣٥٥-٣٥٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ١٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، رقم ٤٦٦٣، ٦/ ٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم ٢٣٨١، ٤/ ١٨٥٤.

داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

وفيه: بيان عظيم توكل النبي صلى الله عليه وسلم حتى في هذا المقام. وفيه: فضيلة لأبي بكر رضي الله عنه وهي من أجل مناقبه، والفضيلة من أوجه: منها: هذا اللفظ، ومنها: بذله نفسه ومفارقته أهله وماله ورياسته في طاعة الله تعالى ورسوله، وملازمة النبي صلى الله عليه وسلم ومعاداة الناس فيه، ومنها: جعله نفسه وقاية عنه وغير ذلك»[1].

فأنزل الله طمأنيته وسكونه على رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد قيل: على أبي بكر رضي الله عنه، وقواه بجنودٍ من عنده من الملائكة، لم تروها أنتم، وجعل كلمة الذين كفروا وهي كلمة الشرك السفلى، لأنها قهرت وأذلت، وأبطلها الله تعالى، ومحق أهلها، وكل مقهور ومغلوب فهو أسفل من الغالب، والغالب هو الأعلى وكلمة الله هي العليا، أي: دين الله وتوحيده وقول لا إله إلا الله، وهي كلمته العليا، على الشرك وأهله[2].

وقد تفاءل النبي صلى الله عليه وسلم في وقائع كثيرة ومن ذلك: تفاؤله بالنصر في غزوة بدر، وإخباره بمصرع كبار صناديد قريش، ويوم الحديبية فإنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(لقد سهل لكم من أمركم)**[3].

وغير ذلك كثير من هذه الوقائع والقصص التي فيها الحث على التفاؤل وحسن الظن بالله تعالى، والتوكل عليه في الضراء والسراء، وأن التفاؤل من صفات المؤمنين والصالحين، خاصة أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، فالمؤمن يتوقع حصول الخير دائمًا، على عكس المتشائم فإنه يتوقع حدوث الشر ووقوعه في الحاضر والمستقبل.

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، الطير، القدر، اليأس

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٥/ ١٥٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٢٦١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم ٢٧٣١، ٣/ ١٩٣.





عناصر الموضوع



مفهوم التطوع

أولًا: المعنى اللغوي:

وردت مادة (ط و ع) في معاجم اللغة العربية لعدة معانٍ، من أشهرها وأكثرها تداولًا:

١. التنفل: هو التقرب إلى الله تعالى بما ليس بفرض من العبادات؛ فيقال: تنفل: لمن أدى العبادة طائعًا مختارًا دون أن تكون فرضًا عليه[١]، والتنفل والتطوع بمعنى واحد؛ فـــ«كل متنفل خير متطوع»[٢]، يقال: صلى نافلة، وصام تطوعًا، وتطوع في لجنة كفالة الأيتام، بيد أن التنفل يستعمل غالبًا مع التطوع التعبدي؛ أما التطوع فيستعمل فيه وفي غيره من التطوع الاجتماعي.

٢. التبرع: يقال: تطوع فلانٌ بالشيء إذا تبرع به[٣]، ويستعمل ذلك غالبًا مع التطوع الاجتماعي.

٣. الانقياد والخضوع: يقال: انطاع لك فلانٌ،أو فلانٌ طوع يديك، أو هو طوع أمرك، إذا انقاد لك وخضع[٤].

٤. الموافقة: فالمطاوعة: الموافقة، ويقال لمن وافق غيره«طاوعه»[٥].

٥. تكلف الطاعة: يقال: تطوع: أي تكلف الطاعة[٦].

٦. الليونة: يقال: « طاع وأطاع: لان وانقاد، وتطوع، أي: لان»[٧].

٧. الطوع: الذي هو نقيض الكره، يقال: «لتفعلن هذا الأمر طوعًا أو كرهًا، يعني طائعًا أو كارهًا»[٨].

٨. الطاعة: التي هي ضد المعصية، يقال: «إذا مضى في أمرك فقد أطاعك»، والطاعة اسم لأطاع، وفيها معنى الانقياد كذلك[٩].

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٥٧٠.
(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٩٦٢ مادة طاع.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري، ٣/ ١٢٥٥، لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٢٤٣
(٤) العين، الفراهيدي ٣/ ٦٦، الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٦، تاج العروس، الزبيدي، ١٦/ ٤٦٢.
(٥) العين، الفراهيدي ٣/ ٦٦، الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٦.
(٦) العين، الفراهيدي، ٣/ ٦٥، الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٥.
(٧) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٥٧٠.
(٨) انظر: كتاب العين، الفراهيدي، ٣/ ٦٥.
(٩) العين، الفراهيدي ٣/ ٦٦.

٩. الاستطاعة: بمعنى إطاقة فعل الشيء، يقال: تطاوع لهذا الأمر حتى تستطيعه، وتطوع له، أي: تكلف استطاعته، يعني: زاوله حتى يستطيعه[(١)].

وبتأمل المعاني اللغوية السابقة نلحظ: أن ثمة علاقة وثيقة بين مادة (ط و ع) والكلمات المشتقة منها، والمعاني التي تدل عليها تلك المشتقات؛ وأن ثمة تناسب واضح بينها وبين المعنى الأصلي للمادة الذي هو (الانقياد واللين)؛ كيفما قلبت حروفها.

فالطاعة مثلًا: فيها معنى الانقياد والخضوع، كما أنها تستلزم من المطيع تكلف الطاعة، ليتدرب على استطاعتها وإطاقتها؛ مع مجاهدة نفسه ليحملها عليها، وليكون هواه موافقًا لمرغوب ربه سبحانه؛ ليحصل له التلذذ بالطاعة بعد ذلك التكلف، وتصدر عنه الطاعة بسهولة ولين.

ومثل ذلك: ما يتطوع به العبد تنفلًا مما لم يجب عليه من عبادات، أو ما يتبرع به من وقت أو جهد أو مال مسارعة في الخيرات؛ فإن هذا أو ذاك إنما يصدر عنه طوعًا لا كرهًا، ولذا يجد نفسه منقادًا لفعل هذا الخير، فيفعله بسهولة طائعة به نفسه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لقد عرف العلماء السابقون التطوع بتعريفات متعددة تشمل نوعي التطوع (التعبدي والاجتماعي)، من هذه التعريفات:

ما قاله الخليل: «التطوع: ما تبرعت به مما لا يلزمك فرضه»[(٢)].

وقول الجرجاني: «التطوع اسم لما شرع زيادة على الفرض والواجبات»[(٣)].

وقول المناوي: «هو التبرع بما لا يلزم كالنفل»[(٤)].

لكننا لما وجدنا الذهن ينصرف إلى التطوع الاجتماعي خاصة عند إطلاق مصطلح (التطوع) سنخص (التطوع الاجتماعي) بمزيد بيان في السطور التالية:

وبتأمل المعاني اللغوية السابقة: نجد أن التطوع الاجتماعي يتطلب هذه المعاني اللغوية السابقة جميعها؛ فالمتطوع: متبرع بوقته أو بدنه أو ماله أو بهما جميعًا، وهو يقوم بعمل نافلةٍ لا فرضٍ، ثم هو في تطوعه هذا منقاد وخاضع لله سبحانه وتعالى، متكلف ومجاهد نفسه

(١) العين، الفراهيدي، ٣/ ٦٥، الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٥.
(٢) العين، الفراهيدي ٣/ ٦٥، تاج العروس، الزبيدي ١٦/ ٤٦٦
(٣) التعريفات، الجرجاني، ص٥٥.
(٤) التوقيف، المناوي، ص٣٥.

على العمل التطوعي، سهل لين في تعامله مع الفئات المستفيدة من تطوعه[1].

ولذا: عرف بعضهم التطوع الاجتماعي بأنه: «كل ما يقدمه الفرد من خدمات للآخرين بلا أجر مادي، سواء كان ما يبذل علمًا، أو مالًا، أو وقتًا، أو جهدًا بدنيًا، أو رأيًا، أو غيرها مما يملكه الفرد ويحتاجه الآخرون»[2].

وعلى الرغم من كثرة التعريفات للتطوع: إلا أن الباحث يستحسن تعريف الدكتور محمد القاضي له بأنه: «كل جهد بدني أو فكري أو عقلي أو قلبي يأتي به الإنسان أو يتركه تطوعًا دون أن يكون ملزمًا به لا من جهة الشرع ولا من غيره»[3].

لأن هذا التعريف يدخل فيه «التطوع بالترك» وأعني به الأعمال التطوعية التي يتركها الإنسان ابتغاء الأجر والثواب من الله تعالى دون أن يكون ملزمًا بتركها، كالتنازل عن الدية، ونصف المهر للمطلقة قبل الدخول، ونحو ذلك مما يترك تطوعًا، والتي سنأتي عليها بشيء من التفصيل في ثنايا هذا البحث بمشيئة الله تعالى.

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن بعض معانيه اللغوية.

(١) انظر: التربية على العمل التطوعي وعلاقته بالحاجات الإنسانية، عبداللطيف الرباح، ص٤-٥.
(٢) المصدر السابق، ص٥.
(٣) الأعمال التطوعية في الإسلام، محمد القاضي، ص٣.



التطوع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طوع) في القرآن بصيغتين، بلغت (٣) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة:١٥٨]
اسم الفاعل	١	﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة:٧٩]

الأصل في التطوع: تكلف الطاعة، ثم غلب استعماله على التنفل بما لا يلزم من العبادات، ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٣٠-٤٣١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٧٢٥-٧٢٦.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٤٢٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٥١٩-٥٢٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخير:

الخير لغة:

الخير: ضد الشر[١].

الخير اصطلاحًا:

الخير: ما يرغب فيه الكل، كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع[٢].

الصلة بين التطوع والخير:

يمكننا تلخيص الصلة بين (التطوع) و(الخير): بأن الخير يشمل الواجب وغيره من نفل ومندوب، أما التطوع؛ فإنه يقتصر على ما لم يجب؛ فهو: «اسم لما شرع زيادة على الفرض والواجب»، أو: «هو التبرع بما لا يلزم» كما صرح بذلك الخليل والمناوي[٣].

والعمل التطوعي يندرج تحت عموم فعل الخير المأمور به في الكتاب والسنة؛ فكل من فعل معروفًا أو خيرًا لا يلزمه، يبتغي بذلك الأجر من الله عز وجل عد عمله هذا عملًا تطوعيًا.

٢ الإحسان:

الإحسان لغة:

مصدر حسن، والحسن: ضد القبح ونقيضه، والإحسان: ضد الإساءة[٤].

الإحسان اصطلاحًا:

إتقان الأعمال، والتطوع بالزائد عن الفرائض، ومقابلة الخير بأفضل منه، والشر بأقل منه[٥].

الصلة بين التطوع والإحسان:

أن الإحسان قد يكون واجبًا وقد يكون غير واجب، أما التطوع فلا يكون واجبًا؛ إذ الإيجاب والإلزام يفقد التطوع معناه.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٢٣٨.
(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٣٤٨.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي، ٣/ ٦٦، التوقيف، المناوي، ص٣٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١١٧.
(٥) التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ٢١٢.



أنواع التطوع

إن مفهوم التطوع في القرآن الكريم يتسع ليشمل نوعي التطوع الرئيسين (التعبدي والاجتماعي)؛ إذ التطوع بمختلف ميادينه يندرج تحت عموم «فعل الخير» المأمور به في غير آية من القرآن الكريم؛ لعل أجمعها قوله سبحانه: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]؛ بل إنه يعد من أسمى صور التعاون على البر والتقوى، الذي حث عليه القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وفضلًا عن ذلك: فإنه يعد صورة من صور شكر المنعم سبحانه وتعالى على نعمه وآلائه؛ حيث قال حبيبنا صلى الله عليه وسلم: (كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة)[1].

والتطوع ينقسم إلى نوعين رئيسيين، هما:

الأول: التطوع التعبدي:

والذي يمكننا أن نعرفه -في ضوء التعريف اللغوي للتطوع المذكور سابقا - أنه: «عبادة زائدة عن الفرض يتقرب بها العبد لربه سبحانه وتعالى، رغبة في نيل رضاه سبحانه ومحبته».

يعني: ما يفعله العبد من الشعائر التعبدية المعروفة كالصلاة والصيام والحج، ونحوها، تطوعًا من غير فريضة.

وهذا النوع من التطوع يصدق فيه قول الله عز وجل في الحديث القدسي: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)[2].

ومما ينبغي ملاحظته هنا: أن ثمرة التطوع التعبدي وإن كانت تعود على المتطوع نفسه بالمقام الأول، إلا أن للمجتمع فيها نوع فائدة تتمثل في أثر هذه العبادات في نفس المتطوع وخلقه؛ ففي ذلك نفع للمجتمع لا يخفى.

وباستقراء آيات القرآن الكريم نجد: أن «التطوع»[3]، قد ورد فيها مرتين بصيغة الفعل المضارع «تطوع»:

الأولى: في قوله تعالى ﴿۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، رقم ٢٨٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم ٦١٦٤.

(٣) الذي هو فعل غير الواجب بلا مقابل.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨].

والثانية: في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ [البقرة: ١٨٤].

كما ورد مرة ثالثة بصيغة اسم الفاعل «المطوعين» في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩].

أما الآية الأولى: فقيل في المراد بالخير فيها: إنه الزيادة على الطواف شوطًا ثامنًا وتاسعًا، وقيل: المراد به الطواف بين الصفا والمروة في حجة تطوع أو عمرة تطوع.

وقيل: ليس المراد بالخير هنا خصوص السعي وإنما هو حكم كلي يعم كل أفعال الخير، فيشمل كل ما ليس بفرض من صلاة أو زكاة أو صيام، أو أي نوع من أنواع الطاعات؛ لأن ﴿خَيْرًا﴾ نكرة وردت في سياق الشرط فتفيد العموم، ولذلك عطفت بالواو دون الفاء؛ لئلا يكون الخير قاصرًا على الطواف بين الصفا والمروة، ولذا رجح كثير من المفسرين إفادة ﴿خَيْرًا﴾ لعموم فعل الخير من الطاعات والنوافل ولم يقصروها على خصوص السعي.

وعليه: فيكون معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: من فعل خيرًا -أيًا كان هذا الخير- فإن الله عز وجل يجزيه خيرًا منه؛ لأنه سبحانه ﴿شَاكِرٌ﴾ لا يضيع أجر المحسنين: ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء[1].

وأما الآية الثانية: فقيل في المراد بالخير الأول فيها في قوله تعالى ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: إنه خصوص الصوم، يعني: أن الصوم مع وجود الرخصة في الفطر أفضل من تركه، وقيل: المراد به أن الزيادة على إطعام مسكين أفضل من الاقتصار عليه[2].

وقد رجح ابن عاشور هذا القول الثاني قائلًا: «لا شك أن الخير هنا متطوعٌ به؛ وهو الزيادة من الأمر الذي الكلام بصدده وهو الإطعام لا محالة، وذلك إطعام غير واجب فيحتمل أن يكون المراد: فمن زاد على إطعام مسكينٍ واحد فهو خير، أو أن يكون: من أراد الإطعام مع الصيام فهو خير»[3].

وأما ﴿خَيْرٌ﴾ الثاني في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾؛ فيجوز أن يكون المراد به: خيرًا آخر أي خير الآخرة، ويجوز أن يكون المراد به التفضيل، أي: فالتطوع بالزيادة أفضل من تركها[4].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور٢/ ٦٤، في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ١٥٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ٢/ ٦٤.
(٣) المصدر السابق، ٢/ ١٦٧- ١٦٨.
(٤) المصدر السابق، ٢/ ١٦٨.

وأما الآية الثالثة: فقد نزلت بسبب حادث حدث في مدة نزول السورة، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وجاء عاصم بن عدي بأوسقٍ كثيرة من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر؛ فقال المنافقون: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياءً، وأحب أبو عقيل أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات؛ فأنزل الله فيهم هذه الآية[1].

الثاني: التطوع الاجتماعي:

وهذا النوع من التطوع هو المراد غالبًا عند إطلاق نحو مصطلح: العمل التطوعي، العمل الخيري، العمل الاجتماعي، وهي مصطلحات تدل على: «كل جهد بدني أو فكري أو عقلي أو قلبي يأتي به الإنسان أو يتركه تطوعًا دون أن يكون ملزمًا به لا من جهة الشرع ولا من غيره؛ ليحقق به نفعًا لغيره دون عوض مالي».

العلاقة بين التطوع الاجتماعي والتطوع التعبدي:

ثمة علاقة وثيقة بين التطوع التعبدي، والتطوع الاجتماعي؛ فالتطوع التعبدي وإن كان يخص (العبادات المحضة) من صلاة وصيام وحج، ونحوها، مما يتقرب به العبد لربه سبحانه ابتغاء مرضاته ومحبته، فكذلك التطوع الاجتماعي يتحول بالنية الصالحة إلى (عبادات غير محضة) ينال بها العبد رضا ربه سبحانه وتعالى ومحبته.

ومن ثم كان هذا النوع من التطوع خلق الأنبياء والمرسلين، وشعار الصالحين من عباد الله أجمعين:

فقد رغب نبينا صلى الله عليه وسلم في الأعمال التطوعية قولًا وعملًا؛ فشارك بنفسه تارة في بعض الأعمال التطوعية: كحلف الفضول[2]، وإعادة بناء الكعبة[3]، وبناء مسجد المدينة[4].

وتارة أخرى: رغب فيها قولًا في كثير من أحاديثه الشريفة: حتى أنه صلى الله عليه وسلم قد جمع لنا في حديث واحد أصنافًا من الأعمال التطوعية، كـ: الصلح بين المتخاصمين، ومساعدة المحتاج، والكلمة الطيبة، وإماطة الأذى عن الطريق، وإرشاد الضال، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإفشاء السلام، وغيرها[5] ترغيبًا لنا

---

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص١٠٣، الدر المنثور، السيوطي،٤/ ٢٤٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور،٢/ ١٦٧.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٨٧.

(٣) المصدر السابق، ١/ ١٢٤.

(٤) انظر القصة في: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد، رقم ٤٢٨.

(٥) كما أن سياق الحديث- المشار إليه- يدل على: أن هذه الأعمال إنما هي بمثابة الشكر للمنعم سبحانه وتعالى، الذي وهب الإنسان

في فعلها.

وتارة ثالثة: نجده صلى الله عليه وسلم يكرم أصحاب الأعمال التطوعية ويهتم بشأنهم، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رجلًا أسود، أو امرأةً سوداء،كان يقم المسجد؛ فمات، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عنه، فقالوا: مات، قال: أفلا كنتم آذنتموني به؟دلوني على قبره، أو قال: قبرها، فأتى قبرها فصلى عليها)[(١)].

بل بين لنا صلى الله عليه وسلم: أن هذه الأعمال لا يقتصر مجالها على الإنسان فحسب؛ وإنما تشمل الحيوان والطير كذلك؛ فقال صلى الله عليه وسلم: (في كل ذات كبد رطبة أجرٌ)[(٢)].

وموسى عليه السلام: سقى للفتاتين وهو الغريب الذي لا يعرف ولا يعرف[(٣)].

والخضر: أقام جدار الغلامين اليتيمين حفظًا لمالهما بدون أجر[(٤)].

وذو القرنين: بنى السد تطوعًا[(٥)].

ويوسف عليه السلام: تطوع بتفسير رؤيا الملك دون أن يشترط لنفسه شيئًا[(٦)].

والصديق رضي الله عنه: حلب لجواري الحي منائحهم[(٧)]، وتعهد سرًا امرأة عمياء يقضي لها أشغالها[(٨)].

وذو النورين رضي الله عنه: اشترى بئر رومة وأوقفها على المسلمين[(٩)].

وعلي رضي الله عنه: كان يكنس بيت مال المسلمين بنفسه[(١٠)].

وبذلك يكون قد تبين لنا بجلاء: أن التطوع الاجتماعي كان خلقًا أصيلًا عند الأنبياء والمرسلين والصالحين من عباد الله أجمعين.

نعمة الصحة والعافية، وأن كلها أعمال تطوعية، لا سيما وأن نافلة الضحى تجزيء عنها.

(١) انظر القصة في: صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر، رقم ١٦٥١.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم ٢٢٦٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٨٥-٢٦٨٨.

(٤) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٢٨٠-٢٢٨١.

(٥) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٢٩٢-٢٢٩٤

(٦) انظر: المصدر السابق ٤/ ١٩٩٢-١٩٩٥.

(٧) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، طبقات البدريين من الأنصار، ٣/ ١٨٦.

(٨) انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ١/ ٣٩٧.

(٩) انظر: سنن الترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب اثبت حراء فليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد، رقم ٣٧٩٠، وقال: حسن صحيح غريب.

(١٠) انظر: فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل، فضائل علي بن أبي طالب، رقم ٨٧٤،٩٠٥.

الحث على التطوع

لقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في الحث على التطوع، ما بين أمر بالمبادرة إليه، والثناء على فاعله، وبيان أنه أهل لمحبة الله تعالى ورضوانه، ووعده بالثواب العظيم، وما بين ذم لضد من هم على هذه الصفات من المثبطين للهمم الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، وسنزيد ذلك بيانًا فيما يلي:

أولًا: دعوة القرآن للتسابق في العمل التطوعي:

لقد تنوع الخطاب القرآني في الدعوة إلى التسابق في فعل الخير على سبيل العموم؛ فتارة: أمر سبحانه باغتنام الفرص عن طريق المنافسة والمسارعة إلى فعل الخير وإيقاعه على أكمل الأحوال قبل فوات الأوان.

وتارة أخرى: قص علينا نماذج عملية للتسابق في فعل الخير.

وفي ثالثة: مدح أقوامًا اغتنموا الفرص وسارعوا إلى فعل هذه الخيرات.

فمن الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]

فـ«الاستباق»: يعني التسابق، وهو يطلق مجازًا على المنافسة؛ لأن الفاعل للخير لا يمنع غيره من أن يفعل مثل فعله أو أكثر؛ فشابه التسابق، والمراد به هنا: المعنى المجازي وهو الحرص على فعل الخير والإكثار منه؛ فإن المبادرة إلى الخير محمودة، ومن ذلك: فضيلة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠].

ومن الثانية: قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

فهذه الآية الكريمة: تشير إلى أنهم تنافسوا - بل وتنازعوا- في شأن كفالة مريم حين ولدت، وأنهم استهموا لأجل الفوز بذلك الفضل؛ ولمعرفة أيهم ستكون مريم في كفالته وتحت كنفه ورعايته[1].

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٣٨-٤٠].

فهنا أيضًا: صورة من صور التنافس في فعل الخير؛ وكلا المتنافسين يعرض مهاراته

(١) روح المعاني، الألوسي، ٣/ ١٥٩.

ومقوماته الشخصية التي تؤهله للفوز بهذا الشرف.

ومن الثالثة: مدحه عز وجل لطائفة من أهل الكتاب بأنهم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٤].

ومدحه لزكريا عليه السلام وأهله بأنهم: ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فالقاسم المشترك بين المذكورين في الآيات السابقة والذي كان من جملة ما استحقوا لأجله هذا الثناء من رب الأرض والسماء هو أنهم ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يعملونها مبادرين غير متثاقلين، أو يجدون في طاعة الله ويتسابقون في فعل الطاعات وعمل الصالحات، أو يبادرون إلى أبواب الخير[(١)].

كما ذكر سبحانه: أن المسارعة لفعل الخير من أخص صفات عباده المؤمنين؛ فقال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦١].

أي: لأجلها فاعلون السبق، أو سابقون الناس إلى الطاعة[(٢)].

ثانيًا: وعد المتطوع بالثواب العظيم:

مما لا شك فيه: أن العمل التطوعي يندرج تحت عموم فعل الخير والعمل الصالح الموعود صاحبه بالثواب العظيم في آيات عديدة من القرآن الكريم، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧-٨].

يعني: أن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح هم خير الخليقة التي خلقها الله تعالى وبرأها، وأن جزاء ما قدموه من إيمان وعمل صالح ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ولهم زيادة على ذلك رضوان الله تعالى عليهم؛ فقد ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما قدموا في الدنيا من طاعات وأعمال صالحة، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أعطاهم من الخيرات والكرامات، ثم ذيلت الآية بقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ لبيان أن الحسنة هي ملاك الأمر والباعث على كل خير[(٣)].

كما بين الحق تبارك وتعالى: أن كل أعمال الإنسان ستكون عاقبتها الخسارة

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ١٤٠، صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ١٢٨، ٢/ ١٨٠.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٠٧، صفوة التفاسير، الصابوني، ٢/ ٢١٩.

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣١٣، البحر المديد، ابن عجيبة، ٨/ ٣٣٦، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٥٨٣.

والبوار إلا الأعمال الصالحة؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

ففي هذه السورة الكريمة: أقسم سبحانه بالعصر، وهو الدهر والزمان لأنه رأس عمر الإنسان، أو بصلاة العصر لفضلها وشرفها على أن الإنسان في خسران لتفضيله العاجلة على الآجلة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: إلا من جمعوا بين الإيمان والأعمال الصالحة، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ وهو الخير كله من الإيمان التصديق وعبادة الرحمن، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ على الطاعات والشدائد وترك المحرمات؛ فهؤلاء وحدهم هم الفائزون[1].

كما وعد سبحانه كل من يأتي بشيء من ذلك الخير الذي رغب فيه القرآن الكريم بالأجر العظيم؛ فقال عز وجل: ﴿۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١١٤﴾ [النساء: ١١٤].

يعني: لا خير في كثير من محاورات الناس وأحاديثهم التي يسرونها فيما بينهم، إلا ما اشتمل منها على دعوة إلى فعل خير كـ: (الصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس)؛ فالنجوى: هي المسارة في الحديث.

والمقصود من الآية: التربية الاجتماعية للمسلم، فإن شأن المحادثات، والمحاورات أن تكون جهرة، فلا يصار إلى المناجاة إلا في أحوال شاذة يناسبها إخفاء الحديث، ومعنى ﴿لَّا خَيۡرَ﴾ أنه شر، بناء على المتعارف في نفي الشيء أن يراد به إثبات نقيضه، كقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

وقد نفت الآية الخير عن كثير من نجواهم، فعلم من مفهوم الصفة أن قليلًا من نجواهم فيه خير، إذ لا يخلو حديث الناس من تناج فيما فيه نفع، كالتشاور في أمر نكاح ونحوه.

والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ على تقدير مضاف، أي: إلا نجوى من أمر بصدقة، أو معروف، أو إصلاح بين الناس.، وهذه الثلاثة المستثناة: لو لم تذكر لدخلت في القليل من نجواهم الثابت له الخير، فكان ذكرها للعناية والتنويه بشأنها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وعدٌ بالثواب على فعل المذكورات إذا كان لابتغاء مرضاة الله تعالى؛ فدل على أن كونها خيرًا وصف ثابت لها لما فيها من المنافع،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠/ ١٧٩، البحر المديد، ابن عجيبة، ٨/ ٣٤٩، صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٥٣.

ولأنها مأمور بها في الشرع، إلا أن الثواب لا يحصل إلا عن فعلها ابتغاء مرضاة الله تعالى؛ لحديث: (إنما الأعمال بالنيات)[1].

كما بين لنا القرآن الكريم: أن أي عمل من أعمال الخير والبر مهما دق في عين صاحبه فإنه يثاب عليه إذا كان خالصًا لوجه الكريم موافقًا للشرع الحكيم؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠].

فهاتان الآيتان الكريمتان تشيران إلى: أن الله تعالى لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة، ولا كبيرة، خيرًا كانت أم شرًا، من مسلم كانت أم من كافر، لاسيما إذا كانت الذرة لا وزن لها.

وعليه قال ابن عباس رضي الله عنه: «فمن يعمل من الكفار مثقال ذرة خيرًا يره في الدنيا، ولا يثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا عوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة ويتجاوز عنه، وإن عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه، ويضاعف له في الآخرة»[2].

ثالثًا: القائمون بالأعمال التطوعية أهل لمحبة الله تعالى ورضوانه:

قال سبحانه: ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

والعفو عن المسيء يعد من جملة التطوع بالترك، كما سيأتي لذلك مزيد بيان- بمشيئة الله تعالى-عند حديثنا عن مجالات التطوع الاجتماعي في القرآن الكريم.

رابعًا: ذم أولئك الذين يحول داعي الشح والبخل بينهم وبين التطوع:

لقد ذم الله تعالى البخل في غير آية من كتابه الكريم، وبين أنه قد يحمل صاحبه على الإمساك عن إخراج الواجب؛ فضلًا عن المستحب، وأن أولئك الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله على المحاويج من عباده، قد أضروا بدينهم ودنياهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم ١.
وانظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ١٩٨.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٢٠/ ٤٥٠.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

[آل عمران: ١٨٠].

فالآية هنا تبين لأولئك البخلاء حال البخل وشؤم عاقبته، وتخطئة أهله في توهم خيريته، كما أكدت أن البخل شرٌ لهم؛ إذ التنصيص على شريته هنا مع فهمها من نفى الخيرية إنما ورد للمبالغة[١].

وفي تذييل الآية بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تنبيه لأولئك الغافلين إلى أن ثمة شيء من رواسب الجاهلية قد ران على قلوبهم، وأن تلك الرواسب تتنافى مع نور الإيمان الذي يدرك معه المؤمن أن ما استخلفه الله عليه في هذه الدنيا إنما هو ملكية مجازية، وأن الملكية الحقيقية المطلقة لله الواحد القهار خالق القوى والقدر، فهو سبحانه له ميراث السموات والأرض؛ فتدفع تلك العقيدة المؤمن دفعًا لإنفاق المال تطوعًا في سبيل الله عن اطمئنان ورضا، «أما حين يقفر القلب من نور الإيمان الصحيح، فالشح الفطري يهيج في نفسه كلما دعي إلى نفقة أو صدقة، والخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل، فيبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا قرار[٢].

وفي ختام هذا المبحث أود أن أشير لأمرين:

أولهما: أن الأعمال التي قد تعد من قبيل المشترك الإنساني والتي لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات؛ كمساعدة الفقراء والمحتاجين ونحو ذلك، أضفى عليها الإسلام مفهومًا خاصًا ينبع من شموليته؛ ويؤكد على استقلال هوية من يدينون به؛ فمساعدة الفقراء والمحتاجين مثلًا، والتي قد تأخذ في بعض المجتمعات مسمى(المعونات) أو نحوه، سماها الإسلام (صدقة) وجعلها لا تقتصر على إعطاء الفقير والمحتاج فقط؛ وإنما تتسع لتشمل الكثير من أعمال الخير والبر كـ: العدل بين المتخاصمين، وإماطة الأذى عن الطريق، وغيرها من أفعال الخير التي لا تحصى.

ثانيهما: أن ديننا الإسلامي قد أعلى من شأن الأعمال التطوعية، عندما قرن حبيبنا صلى الله عليه وسلم بين بعض مجالاتها وبين الإيمان؛ كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (**الإيمان بضع وسبعون-أو بضع وستون-شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**)[٣].

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود: ٢/ ١٢٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٤٣٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم ٨٠.

دوافع التطوع في القرآن الكريم

لقد أسلفنا في فاتحة هذا البحث أن العمل التطوعي يدخل في عموم فعل الخير المأمور به في كثير من آيات القرآن الكريم: التي من أجمعها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧].

فـ ﴿ٱلْخَيْرَ﴾ هنا أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة؛ يعني: افعلوا كل ما يصح أن يطلق عليه لفظ «خير» من الصلة، والإحسان، وحسن المعاملة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر مكارم الأخلاق[1].

ومن ثم كانت هذه الدعوة القرآنية ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تصلح أن تكون بمفردها دافعًا رئيسًا يدفع المسلم دفعًا للمساهمة في الأعمال التطوعية ابتغاء الأجر من الله تعالى.

وفي ضوئها: يمكننا تلخيص الدافع الرئيس الذي يدفع المسلم للقيام بالأعمال التطوعية، ويميزه عن غيره ممن يقومون بمثل هذه الأعمال في: **نيل رضا الله تعالى ومحبته، وابتغاء الأجر والثواب منه سبحانه.**

ويعد العمل التطوعي:

أولًا: من أسمى صور التعاون على البر والتقوى المأمور بهما شرعًا.

في نحو قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

فالبر لغة: يعني التوسع في فعل الخير، كما أسلفنا، وهو في الآية يعني: الصلة والخير والاتساع في الإحسان والصدقة، وسائر أعمال الخير المقربة إلى الله تعالى[2].

ثانيًا: صورةٌ من صور شكر المنعم سبحانه وتعالى.

فالشكر الحقيقي يكون باللسان قولًا، وبالجوارح عملًا؛ فيبذل العبد جوارحه في طاعة المنعم سبحانه، ويكفها عن معصيته.

قال تعالى حكاية عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/١٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/٣٤٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٣٥.

﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٠-١٣].

فبعد أن عدد سبحانه نعمه على داود وسليمان عليهما السلام، عقب ذلك بقوله سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ أي: اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة واعملوا بطاعته شكرًا له سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ أي: وقليل من العباد من يقوم بهذا الشكر، ولعل حديث السلامى المشار إليه -سابقًا- يؤيد هذا المعنى ويؤكده.

ثالثًا: وسيلة مهمة لاستثمار الوقت.

الذي يستشعر المسلم قيمته وأهميته في حياته، عندما يتدبر القسم الوارد في القرآن الكريم في نحو قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: ١-٣].

وغيرها من الآيات الكريمة التي يقسم فيها ربنا سبحانه بالزمن أو أجزائه.

وعندما يتدبر إشارة القرآن الكريم إلى تعاقب الليل والنهار على الإنسان؛ ليعمل في النهار، ويستريح في الليل، وأن ذلك آية من آياته سبحانه؛ وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم: ٢٣].

فيفهم المسلم-من التنصيص على تلك القضية-ضرورة احترام الوقت، وأهميته في حياته.

وفضلًا عن هذا وذاك: فإن في كتاب الله تعالى ما يدفع المسلم دفعًا لاستثمار كل لحظة من لحظات عمره فيما يعود عليه بالنفع في دينه ودنياه، عندما يقرأ نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ٩-١١].

أقول: لو استشعر المسلم تلك اللحظة التي قد يتمنى فيها مهلة قصيرة يقدم فيها عملًا صالحًا، بعد أن ضيع عمرًا طويلًا هدرًا؛ لدفعه ذلك دفعًا لاستثمار كل لحظة من لحظات عمره فيما يعود عليه بالنفع في دينه ودنياه.

ثم إن مما ينبغي التأكيد عليه في معرض حديثنا عن دوافع التطوع: أنه إن كانت «الراحة النفسية التي يشعر بها المتطوع من جراء مساعدة الآخرين دون مقابل، أو الرغبة في زيادة احترام الذات، أو الرغبة في شغل أوقات الفراغ»[1] «أو اكتساب مهارات

(١) انظر: التربية على العمل التطوعي،

وخبرات جديدة قد يحتاجها المتطوع مستقبلًا في حياته العملية، والتي قد لا تتوفر له إلا من خلال مراكز التطوع»[1]، أو غيرها من الدوافع الأخرى هي التي تدفع المتطوعين للتطوع في مختلف المجالات والميادين؛ فإنا نجد المسلم: وإن شاركهم فيها أو في بعضها يتميز عنهم بدافع آخر اكتسبه من هويته الإسلامية؛ فتميز به على سائر المشتغلين بالعمل التطوعي، وهو الدافع الذي أشرنا إليه من قبل وهو: (نيل رضا الله تعالى ومحبته وابتغاء الأجر والثواب منه سبحانه). وهو الذي تشهد له نصوص القرآن الكريم.

فالمستقرئ لنماذج التطوع الاجتماعي المبسوطة في القصص القرآني يجد أن القاسم المشترك بين أبطال هذه الأعمال التطوعية والدافع الرئيس الذي دفعهم للقيام بها هو: ابتغاء الأجر من الله تعالى وحده سبحانه.

فموسى عليه السلام: سقى للفتاتين وهو الغريب الذي لا يعرف ولا يعرف ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤].

سقى لهما ولم ينتظر أجرًا على ما فعل، لم ينتظر منهما جزاء ولا شكورًا؛ وما دفعه إلى ذلك إلا ما أودعه الله تعالى في قلبه

وفطره عليه من حب الخير والمسارعة فيه ابتغاء رضا ربه ومولاه.

والخضر: لما أنكر عليه موسى بناء الجدار بدون أجر وقال له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧].

قال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]. أي: هذا وقت الفراق بيننا حسبما قلت أنت: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ [الكهف: ٧٦].

إن دافعه لبناء الجدار أكبر وأعظم من الأجر الدنيوي، إنه طاعة ربه سبحانه وابتغاء فضله ورحمته.

وذو القرنين: لما قالوا له ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي: نفرض لك جزءا من أموالنا ضريبة وخراجًا ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤].

أي: لتبني لنا سدًا يحمينا من شر يأجوج ومأجوج؛ رد عليهم ردًا ينبئ عن شهامة الرجال، ويبرز معدن أهل الصلاح؛ حيث رفض قبول المال وتطوع ببناء السد، واكتفى بمعونة الرجال له في البناء؛ فقال: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].

أقول: إن المستقرئ للآيات الكريمة التي تحكي لنا القصص المشار إليها آنفًا: يجد أن الدافع الرئيس الذي يجمع بين من قاموا بتلك الأعمال المشار إليها في الآيات

عبداللطيف رباح، ص ١٠.

(١) تفعيل العمل التطوعي، صالح التويجري، ص ٣.

السابقة هو: **نيل رضا الله تعالى ومحبته وابتغاء الأجر والثواب منه سبحانه.**

بل إن المستقرئ لآيات القرآن الكريم يجد هذا الدافع متأصلًا في كل دعوة خير وصلاح في القرآن الكريم؛ خذ مثلًا:

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝٢٠﴾ [الليل: ١٧-٢٠]. أي: لا يفعل ذلك مكافأة لأحد على نعمة أنعمها عليه، وإنما إنفاقه لوجه الله وابتغاء مرضاته[١].

وقوله تبارك اسمه: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٨-٩].

أي: ويطعمون الطعام مع حبهم وشهوتهم له وحاجتهم إليه، ولكنهم يؤثرون المحتاجين على أنفسهم، أو أن حبهم لله أنساهم حبهم للطعام فآثروا به غيرهم، وهم حين يفعلون ذلك فإنما يفعلونه ﴿لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ وابتغاء مرضاته وطلب ثوابه، فلا يبغون مكافأة الناس ولا حمدهم وثناءهم، وإنما حسبهم رضا ربهم سبحانه[٢].

نعم: إن الدافع الرئيس للعمل التطوعي عند المسلم هو (نيل رضا الله تعالى ومحبته وابتغاء الأجر والثواب منه سبحانه)؛ فذلكم هو المحرك الرئيس الذي يدفع المسلم لفعل الخير على سبيل العموم، ويجعله أكثر إقبالًا من غيره على العمل التطوعي؛ ففي دراسة ميدانية: «حصلت الأعمال الخيرية المرتبطة مباشرة بطلب الأجر والثواب من الله تعالى على تراتيب متقدمة ضمن قائمة المجالات التطوعية المرغوبة من وجهة نظر أفراد عينة الدراسة»[٣].

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٠٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ١٦٨، صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٥٦٦.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ١٩٩، صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٤٩٢.

(٣) دراسة استطلاعية لاتجاهات بعض أفراد المجتمع نحو مفهوم العمل التطوعي واتجاهاته من وجهة نظرهم، عبدالحكيم موسى، نقلا عن: التربية على العمل التطوعي، عبداللطيف رباح، ص ٢٥.

أسس التطوع

يبنى العمل التطوعي على أسس، منها:

أولًا: الإيمان.

فالإيمان بالله تعالى هو القاعدة الأساسية لقبول الأعمال؛ فمن تطوع بأي عمل دون إيمان كان تطوعه مردودًا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة: ١٧]؛ فكفرهم كان مانعًا من قبول نفقاتهم في الآية الاولى، وعمارتهم للمساجد في الآية الثانية[(١)].

ثانيًا: الإخلاص لله عز وجل.

لأنه إذا كان الدافع الرئيس للمسلم نحو العمل التطوعي هو (نيل الثواب من الله عز وجل) - كما أسلفنا- وإذا كانت الأمور بمقاصدها، ولا ثواب إلا بالنية، كما يفهم من قوله تعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وكما يفهم من حديث النبي صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات)[(٢)] فإنه يتأكد لنا أن الإخلاص هو روح أي عمل؛ «وأن العمل لا يكون صالحًا أو مقبولًا إلا بتوسط الإخلاص الذي هو عمل القلب»[(٣)]؛ فرب صائم لا حظ له من صيامه إلا العطش، ورب قائم لا حظ له من قيامه إلا السهر، إن دخل الرياء، وغاب الإخلاص.

ومن ثم: فإنه يجب على المتطوع أن يخلص عمله لله عز وجل وحده، لا يريد بذلك حمدًا من الناس ولا ثناءً، ولا سمعة ولا عجبًا ولا رياء، ولا جلب نفع، أو دفع ضر، وذلك أمر لا يقوى عليه إلا من وفقه الله تعالى له.

يضاف إلى ذلك: أن هذا الإخلاص - فضلًا عن أنه معيار قبول العمل- يحول التطوع الاجتماعي إلى عبادة، ينال بها العبد الثواب والأجر من الله تعالى؛ وبسببه يعظم الجزاء مع قلة العمل، وقصة بغي بني إسرائيل، التي سقت كلبًا؛ فغفر الله لها مشهورة معروفة[(٤)].

ثالثًا: مراعاة حال الناس وأعرافهم.

فرب متطوع بعمل أو شيء لفئة يستهدفها

(١) انظر: التطوع في القرآن الكريم، المثنى محمود، ص٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم ١.

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١١/ ٨١.

(٤) أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في إناء أحدكم، رقم ٣١٦٨، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بتطوعه وهو يظن أنه يوفر لهم شيئًا ضروريًا به قوام معاشهم، ولكن لجهله بعاداتهم وأعرافهم، تذهب ثمرة تطوعه سدى، ولا ينتفعون به؛ ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك: ما ذكره الشيخ عبدالرحمن السميط رحمه الله من أن أهل الصومال لا يأكلون الدجاج، وينظرون إلى من يأكل الدجاج منهم نظرة استصغار، بل إن بعضهم لا يزوجه ولا يتزوج منه، وأن أحد أهل الخير قد أخبر الشيخ أنه يريد التبرع بمليون دجاجة لمسلمي الصومال؛ فأخبره الشيخ بعادتهم تلك؛ وطلب منه أن يتبرع بشيء آخر.

رابعًا: الترجيح بين الأعمال التطوعية إذا تزاحمت.

وذلك الترجيح يتسق تمام الاتساق مع فقه الأولويات، أو الموازنة بين المصالح والمفاسد الذي أشار إليه القرآن الكريم في بعض آياته الكريمة، منها: قوله تعالى حكاية عن الرجل الصالح ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩].

فكما أن المفاسد تتفاوت، وبعضها أفسد من بعض؛ فكذلك المصالح بعضها أهم من بعض؛ فيوازن ويرجح بينها بتقديم الأهم على المهم؛ والمصلحة العامة على الخاصة، والدائمة على المنقطعة، والمتيقنة على المظنونة، والجوهرية على الشكلية - على التفصيل الذي قرره الفقهاء والأصوليون في بابه[(١)].

وعليه: فإن العمل التطوعي الذي يستهدف تحقيق الضروريات، يقدم بلا شك على غيره من الأعمال التطوعية التي تستهدف الحاجيات أو التحسينيات، وعمل تطوعي نفعه عام يقدم بلا شك على تطوع نفعه خاص؛ لاسيما وقد قرر الفقهاء «أن الحاجة العامة تنزل منزلة الضرورة»[(٢)].

(١) انظر: الأشباه والنظائر، السيوطي٨٨، فقه الأولويات،يوسف القرضاوي، ص١١.

(٢) انظر تفصيل ذلك في: أثر القواعد الأصولية في تأصيل العمل الخيري، عبد الجليل ضمرة، بحث مقدم إلى مؤتمر العمل الخيري الخليجي الثالث، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، بدبي، ٢٠٠٨م، ص ٣٠، وما بعدها.

عقبات التطوع

ثمة عقبات كثيرة قد تقف في طريق التطوع، كغياب ثقافة العمل التطوعي الذي يشجع الفرد على القيام به، أو سوء التنظيم والتنسيق بين الجهات ذات العلاقة في العمل التطوعي الواحد، أو شح الموارد المالية الذي يحول بين تنفيذ برامج العمل التطوعي أو التوسع فيها، وغيرها من العقبات التي يمكن مراجعتها فيما كتبه المتخصصون في هذا المجال[١].

غير أنه لما كان بحثنا لموضوع «التطوع» في ضوء القرآن الكريم،كان من المهم أن نلفت النظر هنا إلى أمرين رئيسين أشار إليهما القرآن الكريم قد يكونا عقبتين رئيستين في طريق التطوع، أولهما: نفسي أو داخلي وهو الشح والبخل، والثاني: يمكننا أن نعده عقبة خارجية، وهو لمز المطوعين، وبيان ذلك فيما يلي:

أولًا: الشح والبخل وهو عقبة نفسية تحول دون التطوع.

لقد ذم الله تعالى البخل في غير آية من كتابه الكريم، وبين أنه قد يحمل صاحبه على الإمساك عن إخراج الواجب؛ فضلًا عن المستحب.

كما بينت لنا آيات أخرى: أن نفس الإنسان مجبولة على الشح الذي هو: «عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له»[٢]، وذلك في نحو قوله تعالى ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

كما أنها مجبولة على حب المال والحرص عليه؛ وذلك في نحو قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ٢٠]. يعني حبًا كثيرًا.

غير أنه مما ينبغي الإشارة إليه هنا: أنه إذا كان حب المال، والحرص عليه أمرًا فطريًا؛ فإن القرآن الكريم قد حرص على اقتلاع هذا الحرص-إن تحول عن طوره الإيجابي الدافع لعمارة الأرض بالجد المثمر والعمل النافع إلى حرص(مرضي)-من نفوس المؤمنين، فذكرهم المرة بعد المرة لاسيما في ختام الآيات الآمرة بالبذل والإنفاق:

أن: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وأن: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

وأن: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨].

---

(١) انظر: العمل التطوعي أهميته، معوقاته، عوامل نجاحه، حميد الشايجي، مقالة منشورة إلكترونيًا على موقع أسبار للبحوث والدراسات والإعلام بتاريخ سبتمبر٢٠٠٧م.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٨٧.

وأن مثل الحياة الدنيا ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠].

ليربي النفس المؤمنة على البذل والعطاء، ويقتلع منها داء الحرص والشح؛ «فمن سلم من الشح أفلح وأنجح»[١]. وقد صدق الله العظيم حين قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ثانيًا: السخرية من المتطوعين.

لقد قص الله تعالى علينا لونًا من خبث المنافقين؛ ومحاولاتهم الخبيثة لتثبيط همم المؤمنين عن البذل والعطاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩].

فكما لم يسلم من تطوع بماله من أذاهم وعيبهم، لم يسلم من سخريتهم -كذلك- من تطوع بجهده وعمله؛ ففي سبب نزول الآية كما هو عند مسلم عن أبي مسعود قال: «أمرنا بالصدقة؛ قال: فكنا نحامل، قال: فتصدق أبو عقيل بنصف صاع، قال: وجاء إنسان بشيء أكثر منه؛ فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا؛ وما فعل هذا الآخر إلا رياء؛ فنزلت ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ...﴾»[٢]، فكما سخر المنافقون ممن تطوع بالمال، سخروا كذلك من أولئك الذين لا يجدون سبيلًا إلى إيجاد ما يتصدقون به إلا طاقتهم وجهد أبدانهم، فلم يسلم من عيبهم ولمزهم أحد في جميع الأحوال.

والذي نود التنبيه إليه هنا: ونحن في معرض الحديث عن الاستهزاء كعقبة خارجية في طريق التطوع، هو أنه إذا كان لمز المنافقين وعيبهم لم يفت في عضد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن حائلًا بينهم وبين التطوع بالخير؛ فإن الشيطان قد يجد في ذلك سبيلًا ومدخلًا إلى بعض ضعاف الإيمان؛ فيصرفهم عن فعل الخير، أو التطوع به؛ لئلا يكونوا وسيلة لاستهزاء المستهزئين، أو سخرية المنافقين.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٨٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحمل أجرة يتصدق بها والنهي الشديد عن تنقيص المتصدق، رقم ١٧٦٦.

مجالات التطوع الاجتماعي في القرآن

إن ميدان التطوع الاجتماعي في القرآن الكريم يتسع ليشمل كل خير يفعله المسلم ابتغاء فضل ربه سبحانه ورضوانه؛ بل إنه يتسع أكثر ليشمل ما لم يفعله الإنسان؛ وإنما يتركه ابتغاء الثواب من الله عز وجل.

وعليه: سيكون حديثنا عن مجالات التطوع الاجتماعي في القرآن الكريم، في ضوء التقسيم الرئيس التالي: (التطوع بالفعل، والتطوع بالترك).

وباستقراء آيات القرآن الكريم وقفنا على بعض مجالات للتطوع الاجتماعي التي رغب القرآن الكريم فيها وحث عليها، والتي سنلخصها في السطور التالية تحت النوعين المشار إليهما أعلاه:

أولًا: التطوع بالفعل.

وله صور، منها:

١ . الكفالة.

وهي لغة: بمعنى الالتزام؛ أو الضم، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: **(أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة..)**[١].

أي: ضام اليتيم إلى نفسه، ونعني بها هنا: معناها اللغوي الأعم من المعنى الذي اصطلح عليه الفقهاء[٢]؛ ليدخل فيها: كفالة ورعاية اليتيم والمعوز والمحتاج.

ودليلها من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾ [يوسف: ٧٢].

قال ابن عباس: الزعيم الكفيل[٣]، وقوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠﴾ [القلم: ٤٠].

يعني: سل يا محمد هؤلاء المكابرين تهكمًا بهم، أيهم كفيل وضامن لهذا الذي يزعمون[٤].

ثم ساق لنا القرآن الكريم نموذجًا للتسابق في هذا النوع من العمل التطوعي؛ فقال تعالى حكاية عن بني إسرائيل: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

فبينت الآية: اختصامهم وتنافسهم على كفالة مريم عليها السلام، حتى أنهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيمًا، ٥٦٨٢، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) الذي هو: ضم ذمة الكفيل إلى ذمة الأصيل في المطالبة.
انظر: الذخيرة، لشهاب الدين القرافي، ٩/ ١٨٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١٣٠.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٢٨، السراج المنير، الخطيب الشربيني ٤/ ٣٩٦، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٤٢٣.

استهموا لأجل ذلك[1]، كما سيأتي مفصلاً في موضعه من المبحث التالي بمشيئة الله تعالى

وعليه: فالكفالة تعد من مجالات التطوع الاجتماعي التي أشار إليها القرآن الكريم.

٢. الشفاعة الحسنة للضعفاء وأرباب الحاجات عند أصحاب الجاه والغنى.

دليلها: قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء: ٨٥].

والشفاعة: هي الوساطة في إيصال خير أو دفع شر، سواء كانت بطلب من المنتفع أم لا، وجملة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ تذييل لجملة ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ لإفادة أن الله يجازي على كل عمل بما يناسبه من حسن أو سوء، و« المقيت» هو: الحافظ، والرقيب، والشاهد، والمقتدر[2].

وعليه فيكون المقصود من الآية: الترغيب في التوسط في الخير والترهيب من ضده.

ويدخل في هذا النوع من الشفاعة: ما حكاه الله تعالى من مجادلة إبراهيم عليه السلام في شأن قوم لوط حيث قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٧٤-٧٥].

فإبراهيم عليه السلام جادل ربه سبحانه ﴿فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: في عقابهم، على تقدير مضاف. ومجادلته عليه السلام قيل إنها: كانت دعاء ومناجاة سأل بها إبراهيم ربه العفو عن قوم لوط خشية إهلاك المؤمنين منهم[3].

وقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم في هذا النوع من الشفاعة: فقال فيما رواه الشيخان في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (اشفعوا فلتؤجروا، وليقض الله على لسان نبيه ما شاء)[4]. ولكن يستثنى من ذلك الحدود إذا رفعت للسلطان فلا شفاعة فيها[5]؛ لمعاتبته صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد عندما شفع للمخزومية قائلًا: (..أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة)[6].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٨، روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٤٣، ١٤٤.

(٣) المصدر السابق ١٢/ ١٢٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا، رقم ٦٠٢٦، ٦٠٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٥.

(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٢/ ٦٦.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع للسلطان، رقم ٦٤٣٥.

٣. حفظ الوديعة.

والوديعة: ما يودع من مال وغيره لدى من يحفظه، وهي من أبواب التعاون على البر والتقوى، إن علم المستأمن من نفسه قدرة على حفظها وعدم إفسادها.

دليلها: قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وإنه: وإن كانت الآية الأولى قد نزلت في شأن الدين خاصة، فالخطاب في الآية الثانية يعم كل أحد وكل أمانة(١).

وعليه: فامتثال المسلم للأمر الوارد في هذه الآية الكريمة؛ وحفظه للمال، وتسليمه لصاحبه عند الطلب، دون أن يأخذ أجرًا على الحفظ؛ يعد من جملة الأعمال التطوعية.

٤ . القرض الحسن.

أطلق هذا المصطلح في القرآن الكريم وأريد به معنيان:

الأول: ما يدفع للفقراء والمحتاجين، وفي سائر وجوه الخير، دون نية استرجاع، طلبًا لثواب الآخرة.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٠٥.

الثاني: إقراض مال ونحوه بنية إرجاع مثله.

ومن جملة الآيات القرآنية التي ورد فيها هذا المصطلح قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١١].

فـ«يقرض» في هذه الآية يحتمل كلا المعنيين السابقين، إلا أنه يكون مجازًا على المعنى الأول: «على تقدير مضاف، أي: يقرض عباد الله المحاويج»(٢). لتعاليه تعالى عن ذلك، وعليه: يكون التعبير بـ«يقرض» هنا «على سبيل التأنيس والتقريب للناس بما يفهمونه، فالله تعالى هو الغني الحميد؛ لكنه تعالى شبه إنفاق المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض»(٣)، يعني: كما أن قضاء القرض واجب على المقترض؛ فكذلك الثواب الموعود للمنفق في سبيل الله تعالى واصل إليه لا محالة.

أو كما هي عبارة الجصاص رحمه الله: «إنما هو استدعاء إلى أعمال البر والإنفاق في سبيل الخير بألطف الكلام وأبلغه؛ وسماه قرضًا تأكيدًا لاستحقاق الثواب به؛ إذ لا يكون قرضًا إلا والعوض مستحق به»(٤).

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ٢٥٧.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٤٢.

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٥٤٧.



ويكون حقيقة على المعنى الثاني: وإنما علق باسم الجلالة؛ لأن الذي يسلف الناس طمعًا في الثواب، يكون كأنه أقرض الله تعالى؛ أو لأن القرض من الإحسان الذي أمر الله تعالى به، لما فيه من توسعة على المسلم وتفريج عنه[1].

ولقد رغب القرآن الكريم في هذا النوع من القروض الذي ما وصف بأنه «حسن» إلا لأنه لا تشوبه شائبة حرام، ولا منٍ ولا أذىً أو نفع دنيوي مشروط يعود على المقرض، وإنما ينفقه صاحبه محتسبًا طيبة به نفسه، وهذا لا يقوى عليه إلا من كمل إيمانه فآثر ما يبقى على ما يفنى.

وإنما كان ذلك من التطوع الاجتماعي: لأن المنفق تطوع بإنفاق ماله طمعًا في ثواب الآخرة، هذا لو استعملنا القرض في معناه المجازي، أما لو استعملناه في معناه الحقيقي الذي هو (إقراض مال ونحوه بنية إرجاع مثله)؛ فدخوله في باب التطوع لا يحتاج إلى مزيد إيضاح؛ لأن قضاء القرض وإن كان واجبًا على المقترض؛ إلا أن المقرض بإقراضه إياه يكون قد أعانه في وقت ضيق، وفرج عنه كربة من ناحية، ويكون كالمتطوع والمتبرع بفائدة ونتاج هذا المال في مدة القرض من ناحية أخرى.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٨١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٤٢.

٥. الإصلاح بين المتخاصمين.

وهذا المجال من أهم مجالات العمل التطوع الاجتماعي؛ فبذل الوقت والجهد والمال في سبيل الإصلاح بين المتخاصمين قربة عظيمة يحبها الله تعالى ووعد فاعلها بالأجر العظيم؛ فقال تعالى:

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء: ١١٤].

فأفادت الآية: أن من يفعل ما أمر به من البر والمعروف والإصلاح بين الناس طلبًا لرضا الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا؛ فإن الله تعالى سوف يعطيه ثوابًا جزيلًا وهو الجنة[2].

وبين لنا نبينا صلى الله عليه وسلم أن هذا العمل من أعظم القربات والطاعات؛ فقال صلى الله عليه وسلم: (**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة، قالوا: بلى، قال: صلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة**)[3].

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٦٤، صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ١٨٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند، رقم ٢٧٥٤٨، ٦/ ٤٤٤، وأبوداود في سننه، كتاب الأدب، باب إصلاح ذات البين، رقم ٤٩١٩، والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة، رقم ٢٥٠٦.

٦. إطعام الطعام.

وهو من الصفات الطيبة التي حرص الإسلام على تأصيلها في نفوس المسلمين، وترغيبهم فيها بما وعد عليها من الثواب العظيم، وبما حكاه لنا القرآن الكريم من مشاهد كرم أنبياء الله ورسله، والصالحين من عباده وإطعامهم للطعام، لا يريدون بذلك سوى الأجر العظيم من ربهم الغني الكريم.

فقال تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٧].

والآيتان الأخيرتان هما شاهدنا في تلك القصة: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي: مضى إليهم في سرعة وخفية عن ضيفه؛ لأن من أدب المضيف أن يبادر بإحضار الضيافة دون أن يشعر به الضيف لئلا يمنعه ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي: فجاءهم بعجل سمين مشوي، واختاره لهم سمينًا زيادة في إكرامهم ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا أيضًا من أدب الضيافة؛ فهو لم يضعه بعيدًا ويطلب منهم الاقتراب، وإنما وضعه قريبًا منهم، ثم قال لهم بتلطف ولين ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل: إن أردت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل[(١)].

كما حكى القرآن الكريم نموذجًا آخر لهذا النوع من الأعمال التطوعية الاجتماعية؛ فقال سبحانه: في شأن بعض خواص عباده الصالحين - الذين وصفهم في الآية السابقة على موضع الشاهد بأنهم «عباد الله»-: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨-٩].

أي: إنما نفعل ذلك ابتغاء مرضات ربنا سبحانه وطلب ثوابه، فلا نبغي مكافأة الناس ولا حمدهم وثناءهم.

ثم أكد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى المستفاد من الآية الكريمة؛ فقال صلى الله عليه وسلم لما سئل: أي الإسلام خير؟ قال: **(تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)**[(٢)].

٧. التطوع بالنصيحة.

وهذا باب من الدعم المعنوي للمنصوح، سواء أكان نصحه لإيصال خير إليه، أو

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٥٩٥.

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٦، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٢٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إطعام الطعام من الإسلام، رقم ١٢، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

لتحذيره من شر سينزل به، لاسيما إذا سكت المجموع؛ فالمتكلم حينئذ يكون كالمتطوع بالكلام، ولهذا النوع من التطوع الاجتماعي شواهده من القرآن الكريم، منها:

قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠﴾ [القصص: ٢٠].

فهذا الرجل أشفق على موسى عليه السلام؛ فجاء من أبعد أطراف المدينة يشتد ويسرع في مشيه حتى انتهى إلى موسى عليه السلام؛ فبذل له النصح بالخروج لئلا يقتله فرعون وجنوده؛ وهو لم يبتغ بتلك النصيحة سوى الأجر من الله تعالى[1].

ومن ذلك: ما قصه لنا القرآن الكريم من خبر النملة التي نصحت رفيقاتها بدخول بيوتهم ليسلموا من إيذاء سليمان عليه السلام وجنوده لهم بدون علم.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨﴾ [النمل: ١٨].

وكأن هذه الآية وهي تقص علينا تطوع هذه النملة بالنصيحة لرفيقاتها تحذرهم من شر محتمل، ترشدنا إلى أن هذا الأمر ينبغي أن يكون متأصلًا في نفس بني الإنسان من باب أولى.

ومما ينبغي الإشارة له هنا: أن للنصيحة جملة من الآداب، أهمها فيما يتعلق بالناصح: (الإخلاص) فينبغي على الناصح أن لا يبغي من نصحه إظهار رجاحة عقله، أو فضح المنصوح والتشهير به، وإنما يكون غرضه من النصح حب الخير للمنصوح له، وابتغاء مرضاة الله تعالى.

٨. التطوع بالإيثار.

لما كان الإيثار يعني: «تقديم الغير على النفس في النفع له، والدفع عنه»[2] كان درجة سامية لا يقوى عليها إلا من عظمت هممهم وخلصت سرائرهم، وهانت الدنيا في أعينهم؛ فباعوها بجنة عرضها السموات والأرض.

ولقد مدح الله تعالى الأنصار الذين اتخذوا المدينة منزلًا قبل المهاجرين بحبهم لإخوانهم المهاجرين ومواساتهم لهم بأموالهم؛ حيث أنزلوهم منازلهم وأشركوهم في أموالهم، وهم مع ذلك لم يجدوا في قلوبهم غيظًا ولا حسدًا، عندما قسم النبي صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير للمهاجرين دونهم؛ وإنما طابت أنفسهم بتلك القسمة.

فأثنى عليهم ربهم سبحانه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٥/ ١٦٩.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص ٥٩.

﴿مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩].

بل إنهم قد بلغوا منزلة فوق تلك المنزلة؛ وهي أنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] إنهم يؤثرون إخوانهم بالمال على أنفسهم، حتى ولو كانوا في غاية الفقر؛ فإيثارهم ليس عن غنى وإنما عن حاجة وفقر، وذلك غاية الإيثار[١].

التطوع بالدعاء: أعني دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب؛ وهو نوع من التطوع التلقائي؛ حين يذكر المسلم أن أخاه في ضيق أو كرب، فيلهج بالدعاء له أن يفرج الله كربه وييسر أمره؛ فيكون بذلك داعمًا لأخيه بدعائه.

ولقد مدح الله تعالى من جاء بعد المهاجرين والأنصار من المؤمنين التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين بدعائهم لإخوانهم بظهر الغيب قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ثانيًا: التطوع بالترك.

إن هذا النوع من التطوع «التطوع بالترك» يدل على سعة مفهوم التطوع في القرآن؛ فالمسلم الذي لا يستطيع أن يقدم عملًا نافعًا للآخرين؛ يمكنه أن يسهم بحظ ونصيب في نفعهم حين يكف شره عنهم؛ فهذا الكف يعد صدقة منه على نفسه وعلى الناس.

وإنما سمينا هذا النوع من التطوع «تطوعًا بالترك»؛ لأن المتطوع هنا لم يفعل شيئًا، وإنما ترك ما كان سيفعله من الشر؛ فصار متطوعًا بترك فعل هذا الشر.

ومثال ذلك: لو أن مجموعة من الشباب تطوعوا بالمساعدة في إزالة ما يتأذى منه الناس في الطريق؛ فهذا عمل تطوعي؛ فمن لم يساهم في هذا العمل بالفعل، ولكنه امتنع عن إلقاء المهملات والقاذورات في غير الأماكن المخصصة لها، فامتناعه هذا يعد عملًا تطوعيًا بالترك، لأن المجتمع أفاد من تركه لفعل هذا الشر.

ويستأنس لذلك بحديث أبي هريرة رضي الله عنه لما قال صلى الله عليه وسلم: **(إرشادك ابن السبيل صدقة، وإماطتك الأذى صدقة، قالوا: يا رسول الله فمن لم يستطع ذلك؟ قال: يكف شره عن الناس؛ فإنها صدقة يتصدق بها على نفسه)**[٢]. ومن صور التطوع بالترك في القرآن الكريم:

١. كف الأذى عن المسلمين.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/١٢٩، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/٣٤٥.

(٢) أخرجه أبونعيم في حلية الأولياء، ١٢٦٩٦، وقال: غريب من حديث الأعمش فلم يروه عنه إلا أبوبكر و أبوعوانة.

لقد توعد الله تعالى في كتابه الكريم كل من يؤذي المؤمنين والمؤمنات- ظلمًا بغير حق- فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

هذا الإيذاء الذي اختلف في كيفيته تبعًا للاختلاف في سبب نزول الآية؛ حيث قيل: نزلت في منافقين كانوا يؤذون عليًا كرم الله تعالى وجهه ويسمعونه مالا خير فيه، وقيل: نزلت في رماة عائشة رضي الله عنها، وقيل: نزلت في زناة كانوا يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن[١].

قلت: وتعدد الأقوال في سبب نزول الآية يفهم منه أن الوعيد الوارد فيها يلحق كل من يؤذي المؤمنين بأي نوع من الإيذاء. ويستأنس لذلك بقول الألوسي رحمه الله: «والظاهر عموم الآية لكل ما ذكر ولكل ما سيأتي من أراجيف المرجفين»[٢].

فإذا كانت: الآية السابقة قد توعدت كل من يؤذي المؤمنين- ظلمًا بغير حق- فيكون: كف الأذى عنهم يتضمن نفعهم بوجه من الوجوه، ويكون فاعله أهلًا لنيل رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه العظيم؛ لكف أذاه عن المسلمين ولتصدقه على نفسه بهذا الترك؛ لحديثه صلى الله عليه وسلم المشار إليه آنفا (**يكف شره عن الناس؛ فإنها صدقة يتصدق بها على نفسه**)[٣]، وفي رواية البخاري: (**فيمسك عن الشر فإنه له صدقة**)[٤].

وإذا كان: من يؤذي المؤمنين والمؤمنات يوجب لنفسه العذاب الأليم بما احتمله من الذنب العظيم المعبر عنه بالبهتان في قوله تعالى ﴿احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾ أي: ذنبًا شنيعًا، وكذبًا فظيعًا﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ أي: ظاهرًا بينًا واضحًا بسبب إيذائهم للمؤمنين.

فيكون: من يكف الأذى عن المسلمين أهلًا للثواب والأجر العظيم؛ ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (**لقد رأيت رجلًا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس**)[٥].

---

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٢٢/ ٨٨.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٢/ ٨٨، التفسير الواضح، محمود حجازي، ١/ ٢٠٦٧.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب كل معروف صدقة، رقم ٥٦٩٩.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، رقم ٤٨٧٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢. التنازل عن الحقوق المالية الواجبة.

مثل: دية القتل الخطأ، ونصف المهر للمطلقة قبل الدخول، والتجاوز عن المدين المعسر، ونحو ذلك:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء: ٩٢].

يعني: إلا أن يتصدق أهل المقتول على القاتل فيعفون عنه بلا دية؛ فالعفو عن الدية هنا: يعد تطوعًا بالترك؛ لأن صاحب الحق أسقط حقًا كان واجبًا له.

مع ملاحظة: أن الدية حق موروث لجميع ورثة المقتول كسائر الأموال، فيجري عليها ما يجري على التركة؛ وعليه: فلا يجوز لولي الصغير العفو عن الدية؛ لأنه لا يملك إسقاط حقه[(١)].

وفي العفو عن نصف المهر الواجب للمطلقة قبل الدخول يقول تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢٣٧].

فالمخاطب بـ ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ هي المطلقة، أو وليها، يعني: يعفون عن نصف المهر فيتركونه للزوج. ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ يعني: الزوج يعفو فيكمل لها الصداق ويعطيها المهر كله؛ كما روي أن جبير بن مطعم رضي الله عنه تزوج وطلق قبل الدخول؛ فأكمل الصداق، وقال: أنا أحق بالعفو[(٢)].

٣. العفو عن المسيء.

وهو خلق كريم يحتاج إلى همة عالية، ومزيد من مجاهدة الإنسان لنفسه؛ وإنما كان(تطوعًا بالترك) لأن صاحب الحق لما ترك حقه والانتصار لنفسه ابتغاء الأجر من الله تعالى، كان كالمتطوع بهذا الترك.

وعندما نستقرئ آيات القرآن الكريم نجده قد رغب في هذا الخلق الكريم في غير آية من آياته الكريمة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

فهذه الآية: نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف ألا ينفع ابن خالته مسطح بن أثاثة بنفع، بعدما خاض مع أهل الإفك في شأن عائشة رضي الله عنها؛ فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، شرع تبارك وتعالى

(١) المغني، ابن قدامة ٩/ ٤٧٦.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٢/ ٢٤٥

يعطف الصديق على قريبه مسطح؛ فلما نزلت هذه الآية وفيها ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال الصديق: بلى، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة[1].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

فـ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ هم الذين إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم؛ فلا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، وإنما يكظمون غيظهم، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم بإساءته ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ تشمل: العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم؛ لأن العفو ترك المؤاخذة مع مسامحة المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بمكارم الأخلاق، وتاجر مع الخلاق سبحانه، فعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحسانًا إليهم، ليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه، لا على العبد الفقير، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠][2].

وقوله تعالى في وصف عباده المؤمنين ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

يعني: أن خلقهم وطبعهم يقتضي الصفح والعفو عن الناس؛ فإذا غضبوا على أحد ممن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا[3].

بل رغب القرآن الكريم في العفو عن الجاني الذي استوجب الحد فقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥] يعني: من تصدق من أصحاب الحق وعفا فهو كفارة له أي: للمتصدق؛ لعفوه وإسقاطه حقه[4].

ولقوله سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى: ٤٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فإن الله يأجره على ذلك[5].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣١.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢١٠، صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ١٢٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٣٦٩، صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٢٤٤.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٤١.

وقال السعدي: ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم؛ فمرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، ومرتبة الفضل: العفو عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يجزيه أجرًا عظيمًا، وثوابًا كثيرًا، وأما مرتبة الظلم: فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم[1].

وقد زاد النبي صلى الله عليه وسلم هذا الخلق تأصيلًا في نفوس المسلمين فقال صلى الله عليه وسلم: **(ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)**[2].

فـ(عزًّا) في قوله: (ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا) تحتمل عز الدنيا وعز الآخرة.

أما عز الدنيا: فبأن يعظم شأنه في قلوب الناس ويزيد عزه، وأما عز الآخرة: فبأن يكون أجره على عفوه في الآخرة وعزته هناك[3].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٦٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم ٤٨١٧.

(٣) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، ٨/ ٥٩.

نماذج قرآنية للتطوع الاجتماعي

عندما نستقرئ آيات القصص القرآني نجدها تقدم لنا نماذج واضحة لبعض الأعمال التطوعية ما بين أعمال تطوعية جماعية، وأخرى فردية، والتي سنلخص الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: التطوع الفردي:

ويعرف كذلك بـ« التطوع التلقائي»؛ لأنه غالبًا ما يكون: فردي الأداء، عفوي التوجه، تلقائيًا -أي: وليد ساعته- يأتي استجابة لظرف طارئ، ويصدر بنازع النخوة والشهامة، والفطرة السليمة، كإنقاذ غريق، أو نحو ذلك[4].

ومن نماذج هذا النوع من التطوع في القرآن الكريم:

١. كفالة زكريا لمريم عليهما السلام.

سبق وأن بينا أننا نعني بالكفالة هنا المعنى اللغوي الأعم من معناها الذي اصطلح عليه الفقهاء[5]؛ ليدخل فيها: كفالة ورعاية اليتيم والمعوز والمحتاج.

(٤) انظر: مشكلة العمل التطوعي بين الانتهازية والوجاهة الاجتماعية، فايز الشهري، ص٣.

(٥) الذي هو: ضم ذمة الكفيل إلى ذمة الأصيل في المطالبة.

انظر: الذخيرة، لشهاب الدين القرافي، ٩/ ١٨٩.

وقد ساق لنا القرآن الكريم نموذجًا للتسابق في هذا النوع من التطوع الاجتماعي؛ فقال تعالى حكاية عن زكريا وقومه في شأن كفالة مريم وأيهم أولى بذلك؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

يعني: أنك لم تكن حاضرًا يا محمد حين اجتمع زكريا وقومه واقترعوا في شأن مريم؛ لينظروا أيهم يكفلها ويضمها إليه، واختصموا في أمرها؛ فالآية الكريمة وإن كانت قد سيقت - في المقام الأول: شاهدًا وبرهانًا على صدق ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أنها بينت كذلك: اختصامهم وتنافسهم على كفالة مريم عليها السلام، حتى أنهم استهموا لأجل ذلك، غير أن الله تعالى قد خص زكريا عليه السلام بتلك المهمة العظيمة؛ فجعله كافلًا لمريم، وقائمًا على شؤونها[١]، كما قال ربنا عز وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧].

٢. تطوع يوسف عليه السلام بتفسير رؤيا الملك دون أن يشترط لنفسه شيئًا.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٣-٤٩].

وسأكتفي هنا ببيان شاهد موضوعنا في الآيات السابقة[٢]؛ فأقول مستعينًا بالله تعالى: إن الإجابة السريعة من يوسف عليه السلام تشهد لكرم نفسه ونبل أخلاقه؛ فتأويله لرؤيا الملك دون أن يفكر في استغلال الموقف لصالحه، أو يعاتب الساقي على نسيانه ذكر قصته وصفته وأمانته عند الملك عسى أن يخلصه مما يعانيه؛ حيث قال له من قبل ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

أقول: لم يشتغل يوسف عليه السلام بهذا ولا بذاك؛ لما علم من الرؤيا أن البلاد

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٨، روح المعاني، الألوسي، ٣/ ١٥٨.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٩٩٢-١٩٩٥.

مقبلة على خطر عظيم ومجاعة محققة؛ إن لم يستعدوا لذلك بالعمل في الرخاء لأيام البلاء، ويستعينوا بسعتهم على ضيقهم، ولكن من ذا الذي سيفهمهم ذلك ويدلهم عليه، إنه الصديق الذي علمه ربه تأويل الأحاديث؛ فبادر بتأويل الرؤيا؛ تلك المبادرة التي تفهم من نظم الآيات وسياقها ﴿..لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٤٦ قَالَ تَزۡرَعُونَ...﴾ هكذا دون أن يفكر في جني منفعة لنفسه، وإنما فكر في الصالح العام؛ فلم يشترط الخروج أو مقابلة الملك لكي يعبر الرؤيا؛ بل إنه لكرم نفسه ومروءته ونخوته قرن لهم تعبير الرؤيا بفوائد ونصائح تفيدهم في محنتهم القادمة؛ وأرشدهم إلى كيفية التصرف السليم حيالها.

نعم: إنها أخلاق الأنبياء بشهامتهم ومروءتهم وكرم أنفسهم؛ فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٣. تطوع موسى عليه السلام بمساعدة الضعيف ونصرة المظلوم.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦﴾ [القصص: ١٥-١٦].

تقص علينا الآيات قصة دخول موسى عليه السلام مصر في وقت لم يعتد أهلها دخوله فيه؛ فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما من شيعته (بني إسرائيل) والآخر من قبط مصر المخالفين له في الدين؛ فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام وطلب منه أن يعينه على القبطي؛ الذي يظلمه؛-« فقد روي أنه كان خبازًا وأراد أن يجبر الإسرائيلي على حمل حطب له؛ فأبى الإسرائيلي فضربه»[(١)] -فضرب موسى القبطي بكفه فقتله؛ فقال موسى عليه السلام: هذا من عمل الشيطان؛ «لأنه أغضبه فبالغ في شدة الوكز، أو لأن حفظ النفس المعصومة من أصول الأديان كلها»[(٢)]، وسماه ظلمًا، واستغفر منه جريًا على سنن المقربين في استعظام ما فرط منهم ولو كان من محقرات الصغائر[(٣)].

٤. تطوع موسى عليه السلام بالسقيا للفتاتين.

قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ۝٢٣﴾

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ٥٩.
(٢) المصدر السابق،٩/ ٥٩.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٦.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٣- ٢٤].

لقد خرج موسى عليه السلام من مصر، فانتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين، وصل إليه وهو مجهود مكدود؛ فبينا هو على تلك الحالة إذا به يطلع على مشهد لم تسترح إليه نفسه ذات المروءة والفطرة السليمة؛ فماذا رأى؟ رأى جماعة من الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء، ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء، فأنكرت فطرته السليمة هذا الأمر؛ فالأولى عند ذوي المروءة أن تسقي المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولًا، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما.؛ فلم يقعد موسى ليستريح من تعبه وهو يشاهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف.

وتقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب قائلًا: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ فأطلعتاه على سبب انزوائهما وذودهما لغنمهما عن ورود الماء وأجابتا قائلتين ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

إنه الضعف، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال، وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال!، فثارت نخوة موسى- عليه السلام- وفطرته السليمة، وتقدم ليسقي للمرأتين - وهو غريب في أرض لا يعرف فيها أحدًا، ولا يعرفه أحد ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مما يشهد بشهامته ومروءته ونبل نفسه التي صنعت على عين الله. ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحر ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: يا رب إني فقير إلى فضلك وإحسانك[(١)].

وشاهدنا في هذه القصة: هو أنه عليه السلام تطوع فسقى للفتاتين بدون أجر، وهو الذي كان في أمس الحاجة إلى الأجر في ذلك الوقت؛ لما روي أنه مكث سبعة أيام لا يأكل إلا بقل الأرض[(٢)].

ولما دعاه الرجل الصالح ليطعمه جزاء سقايته لابنتيه[(٣)]، دخل موسى عليه السلام عليه فإذا هو بالعشاء؛ فقال له الرجل الصالح: كل؛ فقال موسى عليه السلام: أعوذ بالله! قال: ولم؟ ! ألست بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضًا لما سقيت لهما؛ وأنا من أهل بيت لا نبتغي شيئًا من عمل الآخرة بملء الأرض ذهبًا؛ فقال:

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٦٨٥- ٢٦٨٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٩/ ٢٩٦١، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٢٤٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٦٩.

(٣) ورد ذلك في رواية لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٩/ ٢٩٦٥ الرواية رقم ١٦٨٣٥.

لا والله ولكن عادتي وعادة آبائي أن نقري الضيف ونطعم الطعام؛ فجلس موسى عليه السلام فأكل[1].

نعم، إنهم صفوة خلق الله، صنعهم الله تعالى على عينه؛ فكانوا القدوة والمثل لمن يريد لنفسه المثل الأعلى في الشهامة والنخوة والمروءة، وكل الخصال الكريمة، والشمائل الحميدة.

ثانيًا: التطوع الجماعي:

ويعرف كذلك بالتطوع «المنظم»؛ لأنه لا يأتي استجابة لظرف طارئ؛ بل يأتي نتيجة الإيمان بفكرة أو قضية ما؛ ومن ثم الدعوة لهذه الفكرة وتلك القضية[2].

ومن أهم خصائص هذا النوع من التطوع: التنظيم، والقناعة، والإيمان المسبق برسالة أو فكرة أو قضية[3].

ومن أمثلته في القرآن الكريم:

١ . تطوع الخضر ببناء الجدار.

قال تعالى حكاية عن موسى والخضرعليهما السلام: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾ [الكهف: ٧٧].

فهذه الآية: تحكي طرفًا من قصة موسى مع الخضر عليهما السلام؛حيث كان الجوع قد بلغ منهما مبلغًا؛ فطلبا طعامًا من أهل قرية دخلوها؛ فلم يطعموهما؛ فقد كانوا بخلاء، لا يطعمون جائعًا، ولا يستضيفون ضيفًا، وبينا هما كذلك وجدا جدارًا مائلًا يكاد ينهدم؛ فاشتغل الخضر بإقامة الجدار دون مقابل!!!

وهنا تعجب موسى من موقف الرجل؛ ما الذي يدفعه لإقامة جدار يهم بالانقضاض في قرية لم يقدم لهما أهلها الطعام وهما جائعان؛ أفلا أقل من أن يصب عليه أجرًا يأكلان منه؟ فقال له: ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾[4].

وهذا الموضع من الآية الكريمة هو شاهدنا في هذه القصة: فالجدار الذي أقامه الخضر كان يغيب وراءه مالًا لغلامين يتيمين ضعيفين في المدينة؛ فلو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته المال ولم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه؛ فحفظ لهما بذلك مالهما، وهو في ذلك: لم يأخذ أجرًا على إقامته للجدار، ولم ينتظره؛ وإنما حسبه رضا ربه سبحانه؛ فهو وحده الذي ينتظر منه الأجر.

وإنما أدرجنا هذا النموذج تحت (العمل

---

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٤٠٧.
(٢) انظر: مشكلة العمل التطوعي بين الانتهازية والوجاهة الاجتماعية، فايز الشهري، ص٤.
(٣) التطوع، يوسف العثيمين، ص ٥، ورشة عمل: إدارة التطوع، مركز دراسات وبرامج التنمية البديلة، ص١٠.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٨٠، ٢٢٨١.

التطوعي الجماعي) مع أن الآية تسند بناء الجدار للخضر وحده؛ لأنه يبعد أن يشتغل الخضر بإقامة الجدار ويتركه موسى بلا عون أو مساعدة؛ فإن هذا أبعد ما يكون عن أخلاق ذوي المروءة والنخوة من عامة الناس فضلًا عن أنبياء الله ورسله؛ وإنما أسند الفعل إلى الخضر وحده في الآية؛ لأنه البادئ بالفعل أو الآمر به.

٢. تطوع ذي القرنين ببناء السد.

قال تعالى حكاية عن ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٣-٩٧].

وسأقصد هنا أيضًا إلى موضع الشاهد في القصة قصدًا: فأقول مستعينًا بالله تعالى: «إن كل ما يؤخذ من النص أن ذا القرنين وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين أو صناعيين، يفصلهما ممر؛ فوجد هنالك قومًا ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾؛ لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم، فلما وجدوه فاتحًا قويًا، وتوسموا فيه الصلاح؛ عرضوا عليه أن يبني لهم سدًا يقيهم شر يأجوج ومأجوج الذين يغيرون عليهم من ذلك الممر، وذلك في مقابل جزء من المال يجمعونه له من بينهم كخراج أو ضريبة؛ فقالوا له: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾»[1].

ولكن تبعًا لمنهج أهل الصلاح الذين تخلقوا بأخلاق الأنبياء، رد عليهم الملك الصالح الفاتح عرضهم الذي عرضوه من المال، وتطوع لهم بإقامة السد بلا مقابل؛ لأنه يعلم علم اليقين أن خراج ربه سبحانه خير من خراجهم؛ فربه وخالقه ومليكه خير الرازقين، بل قد رأى بعين اليقين أن ما آتاه الله في الدنيا خير مما آتاهم؛ فكان قوله كقول سليمان عليه السلام: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦].

ثم شرع في تنظيم العمل وتوزيع الأدوار: «فرأى أن أيسر طريقة لإقامة السد هي ردم الممر الذي بين الحاجزين؛ فطلب منهم أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ فجمعوا له قطع الحديد، وكوموها في الفتحة بين الحاجزين، فأصبحا كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم بينهما ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ وأصبح الركام بمساواة القمتين ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ على النار لتسخين

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ٢٤٤، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٩٢.

الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ كله لشدة توهجه واحمراره ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي نحاسًا مذابًا يتخلل الحديد، ويختلط به فيزيده صلابة.، وبذلك التحم الحاجزان، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ فيتسوروه ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ فينفذوا منه»[(١)].

وإنما أدرجنا هذا النموذج تحت (العمل الجماعي)؛ لما فيه من تنظيم وتوزيع للأدوار على فريق العمل، وتلك سمة من أهم سمات العمل الجماعي المنظم، كما أشرنا من قبل.

٣. تطوع الأنصار للمهاجرين بالمال والسكن، وإيثارهم لهم على أنفسهم.

ذلك النموذج المشرق الذي سطره لنا القرآن الكريم بحروف من نور في معرض مدحه سبحانه للأنصار بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

فالآية مستأنفة؛ لمدح الأنصار بخصال حميدة، من جملتها: محبتهم للمهاجرين، ورضاهم باختصاص في‏ء بني النضير بالمهاجرين وحدهم؛ فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قسمه على المهاجرين؛ إذ لم يكن لهم أموال، ولم يعط منه الأنصار إلا ثلاثة نفر لشدة حاجتهم، وهم: أبو دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة-وكل ذلك تصرف باجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله جعل تلك الأموال له - ولم يكن في نفوس الأنصار شيء من حسد أو غيظ لإخوانهم المهاجرين بسبب اختصاصهم بذلك الفيء؛ وليس ذلك فحسب؛ بل إنهم ضربوا أعظم الأمثلة للتضحية والإيثار، حين آثروا إخوانهم المهاجرين وقدموهم على أنفسهم وأبنائهم في كل شيء من أسباب المعاش[(٢)].

موضوعات ذات صلة:

الإحسان، البر، الخير، العطاء

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٩٣-٢٢٩٤.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/ ٢٢٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٨/ ٦٢.





عناصر الموضوع



مفهوم التغيير

المعنى اللغوي والاصطلاحي.

أولًا: المعنى اللغوي: مصدر غير، والمضارع منه يغير، وهو فعل متعدٍ. والتغير مصدر من تغير، وهو فعلٌ لازمٌ، والمضارع منه يتغير. جاء في اللسان: «وتغير الشيء عن حاله تحول، وغيره حوله وبدله كأنه جعله غير ما كان. وفي التنزيل العزيز ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]. قال ثعلب: معناه: حتى يبدلوا ما أمرهم الله».... «والغير: تغير الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد، والغير: الاسم من قولك: غيرت الشيء فتغير»[(١)]. وورد في السنة النبوية: عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).**[(٢)]

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن نطاق المعنى اللغوي بل يطابقه، قال أبو البقاء: والتغيير: عبارة عن تبديل صفة إلى صفة أخرى، مثل: تغيير الأحمر إلى الأبيض. والتغيير إما في ذات الشيء أو جزئه أو الخارج عنه. ومن الأول: تغيير الليل والنهار، ومن الثاني: تغيير العناصر بتبديل صورها، ومن الثالث: تغيير الأفلاك بتبديل أوضاعها. والتحويل يتعدى ويلزم، والتغيير لا يكون إلا متعديًا.[(٣)]

وقال الراغب: «والتغيير تبديل شيء بما يضاده، فقد يكون تبديل صورة جسم كما يقال: غيرت داري، ويكون تغيير حال وصفة، ومنه تغيير الشيب، أي: صباغه، وكأنه مشتق من الغير، وهو المخالف.[(٤)] وفرق الجرجاني بين التغيير والتغير، فقال: التغيير: هو إحداث شيء لم يكن قبله، والتغير: هو انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى.[(٥)]

(١) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ١/ ٥٠، رقم ٤٩.
(٣) الكليات، الكفوي ص ٤٥١.
(٤) المفردات ص٦١٩.
(٥) التعريفات ص٨٧.

التغيير في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غير) في القرآن الكريم (٦) مرات فقط[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٥	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١]
اسم فاعل	١٥	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ [الأنفال:٥٣]

وجاءت صيغ (غير) -المضعف- في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: التحويل والتبديل[2].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾[الأنفال:٥٣]. معناه: حتى يبدلوا ما أمرهم الله.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٥٠٧- ٥٠٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإصلاح:

الإصلاح لغة:

خلاف الإفساد[١].

الإصلاح اصطلاحًا:

التغيير إلى استقامة الحال[٢].

وقيل: هو «إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من الفساد»[٣].

الصلة بين التغيير والإصلاح

التغيير قد يكون للحسن وقد يكون للسيء، أما الإصلاح فلا يكون إلا من فسادٍ أو خلل فهو تغيير للخير وللأحسن. والإصلاح يشمل التغيير للأحسن بوجه عام أو الإصلاح بين متخاصمين.

٢ التبديل:

التبديل لغة:

تبديل الشيء تغييره وإن لم تأت ببدل. واستبدل الشيء بغيره وتبدله به إذا أخذه مكانه والمبادلة التبادل[٤].

والتبديل: التغيير والعين قائمةٌ. ويقال: بدلٌ وبدلٌ وبديل. والإبدال: أن تأتي بالبدل[٥].

التبديل اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، وهو: تغيير الشيء عن حاله.

الصلة بين التغيير والتبديل

قال أبو حيان: «التغيير قد يكون بإزالة الذات، وقد يكون بإزالة الصفات، فقد تكون النعمة أذهبت رأسًا، وقد تكون قللت وأضعفت»[٦].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٤٢.
(٢) انظر: التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص٥١.
(٣) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ١/ ٢١٥.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٤٨.
(٥) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد ٩/ ٣١٨.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٠٧.



قال الفراء: التبديل تغيير الشيء عن حاله، والإبدال جعل الشيء مكان الشيء [(١)].

وجاء في لسان العرب: «والأصل في التبديل تغيير الشيء عن حاله، والأصل في الإبدال جعل شيء مكان شيء آخر» [(٢)]، وقيل: هما بمعنى.

التغيير في الأشياء يقع مع بقاء أصلها، وفي الأحوال تقلبها وتبدلها إلى أحوال أخرى، ولكن تبديل الأشياء يستلزم تحويلها إلى غيرها.

٣ الإفساد:

الإفساد لغة:

هو ضد الإصلاح [(٣)].

الإفساد اصطلاحًا:

هو جعل الشيء فاسدًا خارجًا عما ينبغي أن يكون عليه وعن كونه منتفعًا به. وفي الحقيقة هو إخراج الشيء عن حالة محمودة لا لغرض صحيح [(٤)].

الصلة بين التغيير والإفساد:

الفساد من أسباب التغيير، فالتغيير قد يكون للأصلح، وقد يكون للفساد أو للأفسد.

(١) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ١١٣.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٤٨.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٣.
(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٥٤.

التغيير المسند لله تعالى

التغيير سنة من سنن الله في الكون، وسنة اجتماعية نلمسها في عالمنا، وكل تغيير يطرأ على هذا الكون إنما هو بإرادة الله تعالى وتدبيره.

أولا: التغيير سنة كونية:

التغيير سنة من سنن هذا الكون، كما أن الثبات من سننه، إذ تدل حركة الأجرام العلوية على ثبات ودقة وانتظام، فالشمس لا تتخلف عن موعدها طرفة عين، والقمر له دورته الثابتة لا يتخلف عنها، ومنازله فلا يبرح فلكه ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]، والنجوم تتراءى في مواقعها وكأنها ثابتة، ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة: ٧٥] سنة مطردة في هذا الكون كما أن الثبات سنة مطردة، تشرق الشمس في الصباح فتملأ الدنيا نورًا ودفئًا، ثم تغرب في المساء فيحل الظلام، والليل والنهار يتعاقبان، ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢]، وفصول السنة متتابعة، لا ينتهي فصلٌ إلا ويسلم لفصلٍ، فهذا فصلٌ باردٌ ممطرٌ وذاك معتدلٌ تهب فيه الرياح، فتثير الغبار وتلقح الأزهار، وتذوب الثلوج، وتنحدر من المرتفعات وتكسو الخضرة البراري والقفار وتجري الجداول في الحقول والبساتين، وهذا فصل الصيف حارٌ رطبٌ أو جاف، تورف فيه الظلال وتنضج الثمار، وذاك فصل الخريف يابس معتدل، تتساقط فيه الأوراق وتجفف الفواكه والحبوب، في تنوعٍ رائع، ولولا هذا التغيير لما استقامت الحياة ولما تحققت المنافع للإنسان.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧]

قال الشيخ رشيد رضا: «أيْ: إنك بحكْمتك في تدْبير الأرْض وتكْويرها وجعْل الشمْس بحسْبانٍ تزيد في أحد الْجديديْن ما يكون سببًا لنقْص الآخر، فلا ينْكر على قدْرتك وحكْمتك أنْ تؤْتي النبوة والْملْك منْ تشاء كمحمدٍ وأمته، وتنْزعهما ممنْ تشاء كبني إسْرائيل، فإنك تتصرف في شئون الناس كما تتصرف في الليْل والنهار»[1].

وفي عالم النبات نرى صورًا ومشاهد

(١) المنار، رشيد رضا ٣/ ٢٢٦.

للتغيير التدريجي، تبدأ النبتة ضعيفة لينة، ثم تشتد وتمتد أغصانها، ثم تزهر وتثمر، ويصفر النبات ويذبل ويجف في دورة عجيبة، قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف:٤٥] .

والتغير الكوني يقابله تغيرٌ في حياة البشر بتقلب الأحوال وتبدل الزمان وتداول الأمم، تأمل في قوله تعالى ﴿۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣﴾ [الحج: ٦٠-٦٣]، فنجد الترابط بين السنن الاجتماعية الإنسانية: سنة النصر والتمكين وبين السنن المادية الكونية سنة تعاقب الليل والنهار وتداخلهما يطول هذا ويقصر هذا في اختلاف عجيب.

قال صاحب التحرير والتنوير: «والمناسبة الرابطة بين نصر الله من بغي عليه فصبر، وإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، هي الإيماء إلى تقلب أحوال الزمان؛ فقد يصير المغلوب غالبًا، ويصير ذلك الغالب مغلوبًا، فإن النصر يقتضي تغليب أحد الضدين على ضده، وإقحام الجيش في الجيش الآخر في الملحمة، فضرب له مثلًا بتغليب مدة النهار على مدة الليل في بعض السنة، وتغليب مدة الليل على مدة النهار في بعضها، والحاصل أنه لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة المسلمين، فإن القادر على تغليب النهار على الليل حينًا بعد أن كان أمرها على العكس حينًا آخر قادر على تغليب الضعيف على القوي.

ويقول سيد قطب –رحمه الله– عن المناسبة بين الآيتين: والسياق يوجه النظر إلى تلك الظاهرة الكونية المكررة حتى لا يمر الناس عليها غافلين، ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة، وهي تطوي النهار من جانب وتسدل الليل من جانب، وهي تطوي الليل من جانب وتنشر النهار من جانب في دقة عجيبة لا تختل، وفي اطراد عجيب لا يتخلف، وكذلك نصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يدفع عن نفسه العدوان، إنه سنة مطردة كسنة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، فكذلك يزوي الله سلطان المتجبرين وينشر سلطان العادلين، فهي سنة كونية، تلك السنة يمر عليها الناس غافلين، كما يمرون على دلائل القدرة في

صفحة الكون وهم لا يشعرون[1].

إن كل شيء في حياتنا عرضةٌ للتغير المستمر وعلى الدوام، فكل يوم في حياتنا هو يوم جديد، وكل لحظة تمثل حدثًا مستجدًا في العمر، وعلى حد تعبير الفيلسوف اليوناني - قليطس - فإن المرء لا يستحم في النهر مرتين، لأن النهر يتغير بجريان الماء فيه، مثلما يتغير الشخص فور إحساسه أو ملامسته لماء النهر، ورغم دقة هذه الملاحظة وصدقها الواقعي فإننا نميل في العادة إلى إسباغ طابع الثبات والديمومة، ولو لفترات محددة على أنفسنا وعلى ما حولنا، ورغم ما يحدث من وجوه التغير سواء كانت طفيفة أو كبيرة، فإننا نظل نعتقد أن للنهر شكلا ثابتًا. وأن للإنسان ولشخصيته ملامح تبقى على حالها دون تغيير[2].

وتلك سمة الكون والإنسان: الجمع بين التغير والثبات.

ثانيًا: التغيير سنة اجتماعية:

١ . الإنذار بالتغيير.

قال تعالى ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾

لما ذكر تعالى استعجال كفار قريشٍ للعذاب وحلول النقم على ما هم عليه من إمهالٍ ونعم وخفض عيشٍ، بين تعالى أن من سنته العادلة أن لا يغير ما بقوم من عيش رغيدٍ وأمنٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم بالكفر والعصيان والتمرد والجحود، وفي هذا وعيدٌ لكفار قريش، وقد حل بهم أمر الله، كما في غزوة بدرٍ حيث قتل صناديدهم وأسر أكابرهم.

قال الرازي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ «كلام جميع المفسرين يدل أن المراد: لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام»[3].

ولكن يستفاد بمفهوم المخالفة أن الله لا يغير ما بقوم من سوء أو بلاء إلا إذا غيروا ما بأنفسهم فاستحقوا رفع البلاء وتبدل الحال السيئة إلى حالة حسنة.

٢ . التغيير حقيقة ماثلة.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٥٣﴾ [الأنفال:٥٣]،

فأسند التغيير لله تعالى بصيغة اسم الفاعل (مغير). وقد نزلت هذه الآية بعد غزوة بدر، حيث هزمت قريشٌ، وقتل سبعون أغلبهم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٤١
(٢) علم الاجتماع، أنطوني جيدنز، ترجمة فايز الصباغ ص ١٠٥.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٣١.

من رؤوس الكفر، فبدل الله حالهم من عزةٍ ومنعةٍ، إلى قتلٍ وأسرٍ وخزيٍ، فكان شأنهم كشأن آل فرعون الذين عاقبهم الله تعالى أشد العقاب بكفرهم وتكذيبهم، قال الطبري: «إن الله لا يغير ما بقوم من عافية، ونعمة، فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك، بظلم بعضهم بعضًا، واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره»[1].

وقد استحقت قريش العقوبة بتبدل حالهم وهزيمتهم ومقتل صناديدهم في غزوة بدر لما بدلوا نعمة الله كفرا، حيث اضطهدوا النبي ومن آمن معه وأخرجوهم من ديارهم فغير الله حالهم.

وقال أبو حيان: «وظاهر النعمة أنه يراد بها ما يكونون فيه من سعة الحال والرفاهية والعزة والأمن والخصب وكثرة الأولاد، والتغيير قد يكون بإزالة الذات، وقد يكون بإزالة الصفات، فقد تكون النعمة أذهبت رأسًا، وقد تكون قللتْ وأضعفت ... والظاهر من قوله: ﴿عَلَىٰ قَوۡمٍ﴾ العموم في كل من أنعم الله عليه من مسلم وكافر، وبرٍ وفاجر، وأنه تعالى متى أنعم على أحدٍ فلم يشكر، بدله عنها بالنقمة»[2].

وقال ابن كثير: يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١]، وقوله ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين[3].

مقارنة بين الآيتين:

- الآية الأولى من سورة الرعد مكية نزلت وقريشٌ في عنفوان غرورها وأوج قوتها، وهي تستعجل العذاب تهكما وسخريةً وعنادًا واستبعادًا، فكانت وعيدًا لهم، وإنذارًا مبكرًا لعلهم يرجعون عن مكابرتهم وجحودهم، بينما الآية الثانية من سورة الأنفال مدنية، نزلت إثر غزوة بدرٍ حيث تمرغت أنوف صناديد الكفر في رمال بدرٍ، وقصم الله رؤوس الشرك وجبابرة الطغيان، كأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهم من الجبابرة المكابرين، وقرن الله حالهم بحال قوم فرعون

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٨.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٠٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٨.

الذين طغوا وبغوا واتبعوا أمر فرعون، فساقهم إلى الهلاك والبوار . وتلك سنة الله تعالى في التغيير، تدل على عدله تعالى وحكمته .

- التغيير سنة من سنن الله تعالى، وقد اقترن في آية الرعد بسنن الله الكونية والإنسانية وآياته الملموسة، وفي سورة الأنفال ارتبط بآيةٍ إلهية: هزيمة قريش أمام المسلمين وربطها بهلاك آل فرعون.
- الآية الأولى مؤكدة بإن، وقد ارتبطت بآية واقعية هي حفظ الله للعبد في يقظته ونومه في سائر أحواله وأوقاته، وحفظ الله لنا أمرٌ مسلمٌ، وكم لله من ألطافٍ! وهنا ربطٌ بين حفظ الله لنا تلك الحقيقة المستيقنة، وبين سنة الله في التغيير، فالذي حفظ الخلق وثبتهم على حالٍ قادر على تغيير الأحوال وتبديل الأمور. والآية الثانية أيضًا جاءت مؤكدة بإن، والإشارة لما وقع لقريش يوم بدرٍ من عقوبةٍ وتبدل حالٍ، وأنه بعدل الله تعالى.
- في آية الرعد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ﴾، وفي الأنفال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ الأولى بالفعل المضارع المنفي، والثانية باسم الفاعل، ودلت الآيتان على أن التغيير سنة مطردة متكررة عبر العصور. الأولى: بيانٌ لكونها ثابتةً جارية، والثانية: بيان لكونها واقعة ماضية .
- في آية الرعد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾، وفي الأنفال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ فمفعول التغيير في الأولى ﴿مَا بِقَوْمٍ﴾ أي: الذي بهم، حالهم، والثاني النعمة، يعني: تبديلها لنقمة ومحنة .
- التغيير في الآيتين من الله تعالى فالذي يغير هو الله تعالى.
- سبب التغيير في الآيتين هو تغيير ما بالأنفس، فالتغيير من جهة الله تعالى مقرون بالتغيير من جهة الأنفس، لا من جهة خارجة عنها، فلن يحاسب الإنسان على أخطاء غيره ما لم يرتضها أو يسكت عنها، والتغيير الإيجابي لا بد أن ينبع من النفس لا من الغير.

أنواع التغيير

التغيير منه ما هو إيجابي، ومنه ما هو سلبي، فقد يكون التغيير للأفضل، وقد يكون للأسوأ، ولكل عوامله ونتائجه، وفي هذا المبحث يدور الحديث حول أنواع التغيير المحمود والمذموم.

أولًا: التغيير المحمود:

١. تغيير الأنفس.

تغيير الأنفس إلى الأحسن إنما يكون بتزكيتها، أي: تطهيرها والارتقاء بها وتنميتها، قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس:٧-٩].

قال مالك بن دينار: «رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم زمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل فكان لها قائدًا»[1].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «رحم الله امرءًا عرض نفسه وعمله على كتاب الله؛ فإن وافق كتاب الله حمد الله وسأله المزيد، وإن خالف أعتب نفسه ورجع من قريب»[2].

إن شأن من اختار لنفسه طريق التغيير للأحسن فسعى لتزكيتها، بتطهيرها من الآفات وتنميتها بالخيرات، كالفلاح يحرث الأرض وينقيها من الأعشاب الضارة بالنبات، ويسويها ويهيئها ثم يدفن البذور ويغرس الفسائل، ثم يروي الأرض ويتعهد النباتات فلا يغفل عن رعايتها وحفظها من الآفات، كذلك النفس البشرية تحتاج لتخلية ثم تحلية ثم تنقية ثم تنمية.

قال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾ [التوبة:١٠٨]، فإن حب التطهر نابعٌ من إرادة التغيير للأحسن والأصلح، وتزكية النفس طهرٌ ونماءٌ، وتخليةٌ وتحليةٌ وارتقاءٌ.

وتغيير الأنفس هو أساس كل تغيير، فالفرد لبنةٌ من لبنات المجتمع، بصلاحه واستقامته صلاح المجتمع ونهوضه، ولذا جاء التعبير القرآني ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فلن يتحقق تغيير المجتمعات بدون تغيير الأنفس، وتغيير ما بالأنفس يعني: إصلاحها وتهذيبها وتقويمها، إنها رحلةٌ في أعماق النفس وغوص في مكنونها من أجل إصلاحها وتقويم سلوكها، وسبر أغوارها لتصحيح مسارها؛ كالطبيب الذي يوغل بمبضعه في جسم الإنسان، فيعالج ما استعصى من مرضٍ وما عضل من داء.

قال الأستاذ جودت سعيد: «وكذلك من

(١) محاسبة النفس، ابن أبي الدنيا، ص ٢٦، إغاثة اللهفان، ابن القيم، ص٩٦.

(٢) أخلاق أهل القرآن، الآجري ص٣٩.

المفارقات أن نتطلع بشوق إلى تغيير الواقع دون أن يخطر في بالنا أن ذلك لن يتم إلا إذا حدث التغيير قبل ذلك بما في الأنفس، ونحن مطمئنون إلى ما بأنفسنا، ولا نشعر أن كثيرًا مما فيها هو الذي يعطي حق البقاء لهذا الواقع الذي نريد أن يزول. ونحن نشعر بثقل وطاته علينا، ولكن لا نشعر بمقدار ما يساهم ما في أنفسنا لدوامه واستمراره»[1].

قال الشوكاني: «ما بأنفسهم من الأحوال والأخلاق، بكفران نعم الله وغمط إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه»[2].

والدعوة لتغيير النفوس بتزكيتها هي محور دعوات الأنبياء قال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات:١٧-١٩]، فدعاه بترفق ولين إلى تزكية النفس؛ فهي أساس كل إصلاح وتغيير، دعاه إلى أن يتطهر من الشرك ويتخلى عن الرذائل ويتحلى بالفضائل.

قال ابن كثير: «هل لك أنْ تجيب إلى طريقة ومسْلك تزكى به وتسْلم وتطيع»[3].

وقال السعدي: «هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟»[4].

وجاءت دعوة الإسلام بالتغيير قائمةً على تزكية الأنفس استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩] وتلك نعمةٌ عظيمةٌ تستوجب شكر الله تعالى ومداومة ذكره.

قال تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥٠-١٥٢].

ومنة كبرى سيما حين نقارن حال العرب في الجاهلية بحالهم بعد الإسلام.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

---

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد ص١٥.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣١٨ .
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣١٥ .
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٠٩ .

﴿ ... ﴾ [الجمعة:٢].

ولقد كان القرآن الكريم هو منهج هذه التزكية ومصدرها وزادها ونبراسها، وكان لمدرسة الليل أثرٌ كبيرٌ في التزكية والارتقاء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل:١-٦].

وكان للصحابة رضوان الله عليهم منهجٌ فريدٌ في التربية بالقرآن إذ كانوا يتعلمون عشر آيات من القرآن، فلا يجاوزونها إلى غيرها حتى يتعلموا ما فيها من العمل، ويعملوا بما فيها، فتعلموا بذلك العلم والعمل جميعًا[1].

وبهذا حدث هذا التغيير العظيم لهذا الجيل القرآني الفريد الذي صنع الأمجاد وفتح الفتوحات، وأحدث تغييرًا كبيرًا، وحمل مشاعل النور إلى العالم.

لقد كان العالم يرزح تحت نير الجهل والظلم، ويعيش الناس في فوضى، العرب قبائل متمزقة، والعالم بين طغيان الفرس وفساد الروم، والجاهلية تضرب بأطنابها في جزيرة العرب بشتى مظاهرها، من الجهل والظلم والعادات المرذولة، كيف واجهت رسالة الإسلام هذا الركام الفاسد فأزالته، وهيئت التربة للإنبات مجددًا، فخرج ذلك الجيل الراشد، جيل الصحابة، نعم الغرس الطيب، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩].

لقد كان لمدرسة القرآن دورٌ عظيمٌ في صياغة هذا الجيل وإعداده، فالقرآن زادٌ ومنهاجٌ، شفاءٌ وعلاجٌ، طاقةٌ وسراجٌ.

قال رشيد رضا رحمه الله: «واعلم أن قوة الدين وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن واستماعه مع التدبر بنية الاهتداء به، والعمل بأمره ونهيه. فالإيمان الإذعاني الصحيح يزداد ويقوى وينمي وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره، وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه، ولا فتحوا الأقطار ومصروا الأمصار، واتسع عمرانهم، وعظم سلطانهم، إلا بتأثير هدايته»[2].

حين نتأمل ونقارن بين ما كان عليه الصحابي قبل أن يسْلم وما صنعه الإسلام

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ٤/ ٢٧١ من قول أبي عبدالرحمن السلمي.

(٢) المنار ٩/ ٤٦٣.

فيه من تغيير ندرك أثر القرآن العظيم في الإصلاح والتغيير، لقد غير القرآن من سلوكهم وأفكارهم، غير من نظرتهم للحياة ومن مفاهيمهم، غير هممهم وطموحاتهم، نقلهم من الجهل إلى العلم ومن الظلام إلى النور. وهل هناك تغييرٌ أعظم من هذا! ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]

﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①﴾ [إبراهيم:١].

قال عمر رضي الله عنه: «والله إنْ كنا في الْجاهلية ما نعد للنساء أمْرًا حتى أنْزل الله فيهن ما أنْزل، وقسم لهن ما قسم»[1].

جاء القرآن الكريم ونفر مما كان في الجاهلية من مفاسد وشرور، فنهى عن الظنون والأوهام والتصورات الفاسدة التي تعد من أمر الجاهلية، قال تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران:١٥٤]. كما نهى عن ظلم الجاهلية الذي تمثل في الأحكام المستبدة والأقضية الجائرة، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ⓞ﴾ [المائدة:٥٠]. ونهى عن تبرج الجاهلية ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]. وعن حمية الجاهلية وما فيها من طيش وحماقةٍ واندفاع وعصبية عمياء ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦]. جاء الإسلام بهذه الثورة العارمة على أوضاع الجاهلية الفاسدة وتقاليدها الراكدة. وفي حجة الوداع كان من خطبته صلى الله عليه وسلم إبطال كل ما كان عليه أهل الجاهلية من عادات وخصال ذميمة، كالأخذ بالثأر وأكل الربا وظلم النساء، وفي هذا يعلن نبينا صلى الله عليه وسلم في خطبته أمام الحجيج: (ألا كل شيْءٍ منْ أمر الْجاهلية تحْت قدمي موْضوعٌ، ودماء الْجاهلية موْضوعةٌ، وإن أول دمٍ أضع منْ دمائنا دم ابْن ربيعة بْن الْحارث، كان مسْترْضعًا في بني سعْدٍ فقتلتْه هذيْلٌ. وربا الْجاهلية موْضوعٌ، وأول ربًا أضع ربانا ربا عباس بْن عبْد المطلب، فإنه موْضوعٌ كله)[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الطلاق، رقم ٤٦٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء، رقم ١٤٧٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي، رقم ١٢١٨.

٢. تغيير المجتمعات.

أولا: تغيير المجتمعات نابع من تغيير الأنفس.

تغيير المجتمعات أو التغيير الاجتماعي يقوم على تغيير الأنفس أولًا ؛ فهي لبنات المجتمع وعماده، ثم التغيير العام للمجتمع، بالإصلاح والدعوة والتربية. لقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بتربية الرعيل الأول من الصحابة على القرآن، يثبت إيمانهم ويرسخ عقيدتهم ويعلمهم مكارم الأخلاق، ويبصرهم بسنن الله في الكون، ويقص عليهم قصص السابقين، ويربيهم على أصول التشريع من العبادات والمعاملات، حتى أعد هذا الجيل الذي هب لنصرة الحق وحمل لواء الدعوة ونشرها في الآفاق.

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩].

لقد نما هذا الجيل وترعرع، بدأ كالنبتة الضعيفة أطلت ببرعمها اللدن وأشرفت على سطح الأرض، تنمو وترتفع، وسرعان ما كبرت واشتد عودها، وامتدت جذورها تقوي صلتها بالأرض وتثبتها، وتفرعت أغصانها بما يبهج الناظرين ويعجب الزراع لحسنه ونضرته.

عن الضحاك قال: كان أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم قليلًا، ثم كثروا واستغلظوا[(١)].

وإنما مثلهم بالزرع المشطئ؛ لأنهم ابتدءوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمو[(٢)].

وللتغيير الاجتماعي أهميته فهو الهدف المنشود والأثر الفعال في الوجود، ولا يتحقق إلا بتغير الأنفس.

ونلاحظ هنا: قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾: حيث إسناد فعل التغيير إلى واو الجماعة، وجمع النفس لبيان كون التغيير أقرب إلى العمل الجماعي التعاوني، وليس لكل فرد حرية التغيير كيفما يشاء، بل هو منهج عامٌ شامل ومنظومة موحدة، فالمسئولية وإن كانت فرديةً في أصلها حيث يحاسب الفرد عن نفسه ويسأل.

قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٢/ ٢٦٩ .
(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢١، ٣٢٧ .

﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۝﴾ [مريم:٩٣-٩٥]، إلا أن ثمة مسئولية جماعية تقع على الجميع، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾ [الأنفال:٢٥].

ولا بد من ملاحظة التغييرات الجزئية، فهي نذير أو مؤشرٌ للتغيير الكلي، فما التغيير العظيم إلا نتاج تغييرات صغيرة متعاقبة، فالنبات ينمو كل يوم، وقد لا نشعر به حتى نفاجأ باستوائه ونضجه، كذلك التغيير الكبير مجموعة من التغييرات اليسيرة، فإذا تكاثر الخبث شيئًا فشيئًا أفضى للهلاك، لذا تأتي أهمية ملاحظة التغييرات الجزئية؛ لأنها مؤشر على التغيير الكلي.

عنْ زيْنب بنْت جحْشٍ رضي الله عنْها (أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليْها فزعًا يقول: لا إله إلا الله، ويْلٌ للْعرب منْ شرٍ قدْ اقْترب، فتح الْيوْم منْ ردْم يأْجوج ومأْجوج مثْل هذه، وحلق بإصْبعه الْإبْهام والتي تليها، قالتْ زيْنب بنْت جحْشٍ: فقلْت: يا رسول الله، أنهْلك وفينا الصالحون؟ قال: نعمْ، إذا كثر الْخبث)[1].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل الْقائم على حدود الله والْواقع فيها: كمثل قوْم اسْتهموا على سفينةٍ فأصاب بعْضهمْ أعْلاها وبعْضهمْ أسْفلها، فكان الذين في أسْفلها إذا اسْتقوْا منْ الْماء مروا على منْ فوْقهمْ، فقالوا: لوْ أنا خرقْنا في نصيبنا خرْقًا، ولمْ نؤْذ منْ فوْقنا؟ فإنْ يتْركوهمْ وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإنْ أخذوا على أيْديهمْ نجوْا ونجوْا جميعًا)[2].

وقوله ﴿مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: من طبائع وأخلاق ومن أفكار ومفاهيم، ومن ظروف وأحوال.

وإن تغيير ما بالنفس لا بد وأن يكون عن علم بطبيعة النفس وسنن التغيير، ولا سبيل لمعرفة كافية إلا بالاسترشاد بنور الوحي، فالله تعالى أعلم بنا.

قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٤] ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٢٥].

فتغيير ما بالأنفس يبدأ بمعرفتها والوقوف على علل وأدوائها، والتبصر بالمنهج الأمثل للتغيير.

يقول الأستاذ جودت سعيد: «فما لم نسيطر على خارطة تغيير ما بالأنفس وما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج، رقم ٣١٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم ٢٨٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، رقم ٢٣٦١

لم نتمكن بوضوح من سنة التغيير، وما ينبغي أن نغيره سنظل نسير في طريقنا بعفوية لا قصد فيها، ونحافظ على أفكار تعوق تقدمنا، وننبذ أفكارًا ونعاديها بينما لا غنى لنا عنها، مثال ذلك عدم مبالاتنا بعلم تغيير ما بالأنفس، هذا فضلًا عن إعراضنا عن عبر التاريخ التي توضح لنا ما ينبغي أن نغيره، فهنا نحتاج لعلمين، علم تغيير ما بالأنفس، وعلم آخر وهو ما نميز به ما ينبغي أن نغيره وما ينبغي أن نبقيه»[1].

ثانيًا: من عوامل التغيير.

أ - الاستقامة على المنهج، من عوامل التغيير الاستقامة على الطريق، كالمسافر حتى ينتقل من بلد إلى بلد لا بد أن يوجه شطره نحو البلد التي يريدها، ويأخذ طريقه إليها ؛ كذلك لن يتحقق التغيير بدون الاستقامة على الطريق الذي حدد القرآن معالمه، وبين حدوده ومراسمه، ودعا إليه، وحذر من النكوب عنه.

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن:١٦].

«قيل: المراد: الخلق كلهم، أي: لو استقاموا على طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين» لأسقيناهم ماءً غدقًا «أي: كثيرًا»[2]. «وضرب الماء الغدق مثلاً لأن الخير والرزق كله في المطر»[3].

ب - الإيمان والتقوى وإقامة ما أنزل الله

لا تغيير بدون إيمانٍ خالصٍ وتقوى صادقةٍ وإقامةٍ لما أنزل الله بتبينه والامتثال له والدعوة إليه، هنا يحدث التغيير للأفضل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦]

«فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، وكان معه الصلاح والأمن والرضا.. وكم من أمة غنية قوية، ولكنها تعيش في شقوة، مهددة في أمنها، مقطعة الأواصر بينها، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال . فهي قوة بلا أمن . وهو متاع بلا رضى . وهي وفرة بلا صلاح . وهو حاضر زاهٍ يترقبه مستقبل نكد . وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال..

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى، بركات في الأشياء، وبركات في النفوس، وبركات في المشاعر، وبركات في طيبات الحياة.. بركات تنمي الحياة وترفعها في آن. وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال»[4].

وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد ص ١٠٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩ / ١٨.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٥ / ١٦١ .
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣ / ٢٦٢ .

﴿ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٦٥ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ۝٦٦﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لأنزلت عليهم القطر، وأخرجت لهم من نبات الأرض(١).

وهذه دعوة لأهل الكتاب مع ما سلف منهم، دعوة لإصلاح ما فسد ووصل ما انقطع، والتخلي عن الجحود والنكران، والتحلي بالإيمان، والتزود بالتقوى، ليفتح الله لهم باب التوبة والرجاء، لو آمنوا حق الإيمان بجميع الرسل وسائر الكتب واتقوا محارم الله لغير الله من حالهم، وتلك بداية رحلة الإيمان، من أنقاض تلك الكتب وما بقي فيها من حقائق تسرج المشاعل التي تنير درب الحق، ففي تلك الكتب المرشد والدليل، ولو أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم من سائر الكتب التي بين أيديهم لو أقاموها نصب أعينهم حتى ينظروا ما انطوت عليه من بشاراتٍ تدل على النبي صلى الله عليه وسلم ، لآمنوا بخاتم النبيين. والآية تحمل لهم روح العتاب على أعمارٍ طويت وسنواتٍ تولت بعيدًا عن الحق، فاليهود لم يؤمنوا بعيسى، بل جحدوا ما بأيديهم من بشارات تشهد بنبوته، ثم زاد نكوبهم عن الصراط ونكولهم عن الحق بجحودهم نبوة خاتم النبيين، وتخاذلهم عن نصرته، بل ونقضهم العهود والمواثيق، والنصارى نكبوا عن الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام. فلو أقاموا التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة لعمهم الخير وأقبل من كل مكان.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [الأنفال: ٢٩].

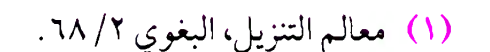
قال مجاهد: مخرجًا في الدنيا والآخرة. وقال مقاتل بن حيان: مخرجًا في الدين من الشبهات، وقال عكرمة: نجاة، أي: يفرق بينكم وبين ما تخافون. وقال الضحاك: بيانًا. وقال ابن إسحاق: فصلًا بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم، ويطفىء باطل من خالفكم(٢).

ولا شك أن حصول هذه الأمور تغييرٌ جذريٌ في حياة الإنسان؛ أن يمتلك الرؤية الثاقبة، والنظرة الواعية؛ فيستطيع التفريق بين الحق والباطل والخير والشر سيما عند التباس الأمور وتشابك المصالح.

ت - عبادة الله وحده وكثرة الاستغفار

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٦٨.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٨٦.



والتوبة الخالصة من الذنوب.

نهى القرآن عن عبادة غير الله ؛ ودعا إلى كثرة الاستغفار والتوبة النصوح ووعد بطيب العيش والعافية وطول العمر في طاعته ومرضاته، والارتقاء والتفوق على سائر الأمم، في القوة والعلم والمنعة والفضل.

قال تعالى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود:٢-٣].

وقد سجل القرآن الكريم دعوات الأنبياء لأقوامهم كيف بدأت بإخلاص العبادة لله جل وعلا فهي الركيزة الأساسية لأي إصلاح وتغيير، فالعبادة محور حياة المؤمن. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ [الأعراف:٥٩]

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥﴾

[الأعراف:٦٥]

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾

[الأعراف:٧٣]

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾

[الأعراف:٨٥]

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٦﴾ [العنكبوت:١٦]

وأخبر الله تعالى عن عيسى قوله لبني إسرائيل ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾ [آل عمران:٥١].

وهكذا جميع الأنبياء استهلوا دعوتهم بالدعوة إلى عبادة الله وحده، وانطلقوا من خلاله إلى إصلاح النفس والمجتمع.

ثانيًا: التغيير المذموم:

١ . تغيير في الأنفس.

خلق الله النفس البشرية وسواها على الفطرة وبين لها طريق الغواية وطريق الرشاد، وأوكل الاختيار إليها، إما أن تسلك طريق الفلاح بتهذيب النفس والنهوض بها، وإما طريق الخيبة والضياع بإهمالها ودفنها في حفرة الأهواء والملذات.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس:٧-١٠] .

طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ونماها وأعلاها بالباقيات الصالحات، وقد خاب من دساها: أهلكها وأضلها وأغواها[1].

٢ . تغيير في المجتمعات.

(١) الأنوار الساطعات لآيات جامعات، عبدالعزيز السلمان ٣ / ٤٥٧ .

قد يتغير المجتمع إلى الأسوأ وفي القرآن الكريم نماذج عديدة لهذا التغير ومظاهره وأسبابه، وحديث القرآن في هذا السياق تارة يكون عامًا لا يشمل مجتمعا بعينه بل يبين عموم هذه السنة واطرادها، وتارة يأتي الحديث عن قرى بعينها كمثالٍ واقعي.

أولًا: التغيير سنة عامة ومطردة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٢-٤٤].

يخبر تعالى عن سنته الجارية في الأمم الماضية الذين واجهوا دعوات الأنبياء بالتكذيب والإعراض، كيف حول الله حالهم من سعةٍ وخصبٍ إلى شدةٍ وبؤس، ومن منح وعطاء إلى محن وحرمان، وذلك امتحانٌ لهم هل يتضرعون لربهم ويلوذون ببابه، فيكشف عنهم البلاء ويغير من شدتهم وكربهم إلى فرجٍ ورخاء؟ لكن قسوة قلوبهم حرمتهم من التضرع لربهم ليغير مابهم، وزين لهم الشيطان سوء عملهم فلم يسعوا للتغيير ولم يفكروا فيه، وهنا يبتليهم الله بالسراء ويفتح لهم أبواب الرخاء فيفرحون بما أوتوا فرح المغرور المفتون، فيحق عليهم العذاب وتحل بهم النقم ويتبدل الحال إلى شقاءٍ لا نعيم بعده، فإذا هم نادمون آيسون .

قال السدي: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ «معناه: هالكون قد انقطعت حجتهم، نادمون على ما سلف منهم، متغير حالهم»[١] .

وقال ابن زيد: المبلس: الذي قد نزل به الشر الذي لا يدفعه[٢].

فالابتلاء الجماعي للأمم والشعوب بالحروب والمجاعات والأوبئة والأزمات؛ إنما يقع تمحيصًا لها وتصحيحًا لمسارها، وإصلاحًا لفسادها، وإزالةً لتراكمات السنين من آثار المعاصي والذنوب، وتجريدًا للقلوب وترقيقًا للمشاعر، وتوجها إلى الله تعالى، لترى الأكف ضارعةً والأعين دامعةً والقلوب خاشعةً، لكن أهل الجحود والهوى لا تزيدهم الشدائد إلا قسوةً وعنادًا، وصدودًا وإعراضًا، فتصب أنهار المحن في بحار الذنوب، فلا يخرجون من هذا الابتلاء إلا بالخيبة والخسران. ثم يستأنف الاختبار من جديدٍ، لكنه هذه المرة يكون أشد صعوبةً لأنه ابتلاء بالنعمة، إنها فتنة الاستدراج، وقد أقبلت الدنيا عليهم وفتحت لهم أبوابها ففرحوا بما أوتوا فرح العجب والاغترار

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٦١، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٣/ ٢٠٢٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٦١.

والخيلاء والاستكبار، فرحوا بالنعم وانشغلوا بها عن المنعم، أعلنوا عن فرحهم بالمعاصي والموبقات ؛ تفاخرًا بما أوتوا من ظلٍ زائلٍ وعاريةٍ مستردة، وزعموا أن تبدل الحال وقع اتفاقًا ومصادفة؛ غافلين عن الحكمة في ذلك، ومتجاهلين كونه امتحانًا لهم فهم في غفلة عن سنن الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨].

فكم من قرى كثيرة أهلكها الله حين تمردتْ على النعمة واغترت بها وضيعت حقها، وتلك مساكنهم أضحت مدائن دارسة وأطلالًا خربة ؛ عبرة صامتة وموعظة ناطقة، يمر عليها المسافر، ويعبرها العابر، فسبحان من يرث الأرض ومن عليها . قال ابن عباس: لم يسكنها إلا المسافرون، ومار الطريق يومًا أو ساعة . معناه: لم تسكن من بعدهم إلا سكونًا يسيرًا قليلًا، وقيل: لم يعمر منها إلا أقلها وأكثرها خراب[1] .

وقال أبو حيان: هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش، فعظموا النعمة، وقابلوها بالأشر والبطر، فدمرهم الله وخرب ديارهم[2] .

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق: ٨-٩]

وكم من أهل قرية طغوا عن أمر ربهم وخالفوه، وخرجوا عن أمر رسله وشاقوه، فتمادوا في طغيانهم وعتوهم، ولجوا في كفرهم، فبدل الله حالهم من لطف وإنعام وستر إلى شدة وبؤسٍ وعذابٍ وإرهاقٍ لا يطاق، فلم تنفعهم قوتهم ولم تغن عنهم كثرتهم .

قال ابن عباس: ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: أعرضت عنه. وقال مقاتل: خالفت أمر ربها، وخالفت رسله[3] .

ثانيًا: نماذج من التاريخ.

في القرآن الكريم أمثلة واقعية كثيرة لسنة التغيير، من ذلك ما وقع لقوم سبأ من تبدل الحال بعد نعمةٍ وخفض عيشٍ إلى شظفٍ ونقمةٍ حين كفروا بنعمة الله وأعرضوا عن

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٥/ ٢٧٦.
(٢) البحر المحيط ٧/ ١٢٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٦٥.

الحق.

✿ قوم سبأ.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

[سبأ: ١٥-١٩].

لم يشكروا ربهم بل أعرضوا عن المنعم جل وعلا، وقابلوا النعم بالجحود والنكران، فسلط الله عليهم السيل الجرار الذي خرب سدهم وأفسد زرعهم، وأتلف أشجارهم، فتبدلت تلك الحقول والبساتين المثمرة، بأشجارٍ رديئة الثمر، كالطرفاء والسدر وغيرها من الأشجار التي لا تغني من جوع. ذلك العقاب بسبب كفرهم وجحودهم، فلا نعاقب إلا من كفر بالنعم وأصر على ذلك وتمادى فيه، فيتبدل حاله من رغد العيش وطيب الحياة ووفرة الثمر إلى القحط والجدب وتلف الزروع وقلة الثمر.

فتبطروا على هذه النعم وطلبوا زوالها وتمنوا لو كان السفر طويلًا، وبلغ الترف ببعضهم والدعة أن اشتكى من بعد الأسفار جحودًا وإنكارًا لنعم الله تعالى، وظلموا أنفسهم بجحودهم وغفلتهم، وتململهم، فجعلناهم عبرةً يتحدث الناس بها ويتعجبون من أخبارهم وبؤسهم بعد عيشهم الرغيد، وتفرقهم بعد اجتماع شملهم وذلهم بعد عزهم، حتى صار تفريقهم مثلًا سائرًا فقالوا في الأمثال: ذهبوا أيدي سبا وتفرقوا أيدي سبا.(١)

✿ قوم فرعون.

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

[الأنفال: ٥٢-٥٤].

حين كذب قوم فرعون وعصوا رسول ربهم عاقبهم الله بعقوبات شتى عاجلة، كدرت عليهم صفو حياتهم، وضيقت معيشتهم فلم يغيروا من حالهم شيئًا، فكانت العقوبة الكبرى حين أهلكهم الله بالغرق.

(١) مجمع الأمثال، الميداني ١ / ٢٧٥ .

أسباب التغيير

للتغيير المحمود أسبابه وكذا للتغيير المذموم، وهذا دليل على عدل الله وحكمته ولطف تدبيره، فمن أسباب التغيير الإيجابي الإيمان وما ينبثق عنه من عمل صالح، وما يشع من أنوار تذكره بالماضي ليعتبر بمصير السابقين، وتضيء له حاضره ومستقبله.

أولًا: أسباب التغيير المحمود:

١. الإيمان.

إن الإيمان هو القاعدة لأي إصلاح، والركيزة لأي منطلق، والسبيل إلى كل خير.

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة:٢١٨]. فكل عمل صالح منبعه الإيمان، لا ينهض به إلا أهل الإيمان، فهم جديرون بنيل الهداية والرشاد وإحراز التوفيق والسداد.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء:١٧٥].

والخير كله في أهل الإيمان والعمل الصالح فهم صفوة الخلق وخيارهم، إيمانهم يرقى بهم ويهذب سلوكهم ويصلح من حالهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ﴾ [البينة:٧].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور:٥٥].

فالإيمان مع عمل الصالحات هو الركيزة الأساسية للاستخلاف والتمكين، والتغيير للأفضل، التمكين بعد الابتلاء والاستضعاف والتضييق، والخوف بعد الأمن والعزة بعد الهوان والقوة بعد الضعف.

والإيمان طريق الفلاح في الدارين.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المؤمنون:١].

وذكر الله من صفاتهم وأحوالهم ما نالوا به الفلاح، واستحقوا به التغيير إلى الأفضل بإيمانهم ولوازمه.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢-١٢٣].

فالإيمان أعظم عطاء؛ لأنه سبيل كل عطاء وأساس كل تغيير، فالإيمان حياة القلوب ونور البصائر وجلاء الأذهان، لا يستوي من عاش بنور الإيمان مع من يتخبط في ظلمات الكفر، ويتردى في دركاته، لا يسعى إلى الخروج منها ؛ فلا يتغير حاله إلى الخير.

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا، أي: في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لإتباع رسله»[1].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وأي تغيير أعظم وأي تحولٍ أكبر من الانتقال بالإيمان والاستجابة لداعي الحق من الموت والعدم إلى الوجود والحياة، حياة القلوب والأرواح! فالموت والحياة ضدان لا يجتمعان، والانتقال إلى الحياة والتحول من الظلام الدامس إلى النور الساطع تغيير شامل جذري في حياة الإنسان.

إن الإيمان نور؛ نور في القلب، ونور في الجوارح، ونور في الحواس، نور يكشف حقائق الأشياء، والقيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعادٍ، فالمؤمن ينظر بهذا النور نور الله فيرى الحقائق، ويتعامل معها، ولا يخبط في طريقه، ولا يتعثر في خطواته، والإيمان بصرٌ يمضي بصاحبه في الطريق على نور، وعلى ثقة، وفي اطمئنان. والإيمان ظلٌّ ظليلٌ، تستروحه النفس ويرتاح له القلب، ظلٌّ من هاجرة الشك والقلق، والحيرة في التيه المظلم بلا دليل. والإيمان حياة في القلوب والمشاعر، حياةٌ في القصد والاتجاه.. كما أنه حركةٌ بانيةٌ، مثمرة، لا خمود فيها، ولا همود، ولا عبث فيها ولا ضياع[2].

«إنه الإيمان الصادق الذي يقر في القلب تصديقًا ويقينًا، ويفيض على الجوارح سلوكًا وعملًا، إنه الإيمان الذي يضيء القلب، ويحرك الإرادة، ويوجه العقول، ويوظف الطاقات ليكون صورة عملية واقعية يتجلى فيها ليثبت وجوده، ويترجم عن حقيقته، إنه الإيمان الذي يصلح القلوب، ويهيئ النفوس، ويصنع العجائب وينشئ الإنسان خلقًا آخر، ويصبه في قالب جديد يغير هدفه ويهذب سلوكه وذوقه ونظرته للحياة»[3].

وبالإيمان حياة القلوب ونور البصائر وجلاء الأفهام، وبه تسمو الأرواح وتتآلف، وتتفتق الأذهان وتتوقد القرائح وتنشط الجوارح، وتعلو الهمم وتنهض الأمم،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٦٦.

(٣) خصائص المجتمع الإسلامي، محمد الخطيب ص ١٨ - ١٩.

فكلما ضعفت إرادة العبد، ووهنت قواه وكل جهده في السعي إلى المعالي، أمده هذا الإيمان الصادق بالزاد الروحي وأذكى في فؤاده روح المثابرة وأشعل في قلبه وقود الانطلاق، وكلما أحاطت به المخاوف كان هذا الإيمان ملاذًا آمنًا، وحصنًا حصينًا، يفيء إليه المؤمن، فيطمئن قلبه، وتسكن نفسه، والإيمان سر التفوق وإكسير النجاح، بالإيمان يرقى وينهض، فهو زاد القلوب وضياء العقول ونور البصائر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية واصفًا أهل الإيمان: «ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في القرون والأجيال»[1].

إنه الإيمان الذي يصنع المعجزات، ويقود إلى التغيير، فترتقي الأمم وتنهض، وتهبط عليها البركات.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦].

والإيمان الذي تنهض به الأمة ليس المقصود به مجرد معرفة ذهنية، وحواشٍ كلامية، أو إضاعة للأعمار في حوارات ومساجلات عقيمة، وإنما هو الإيمان الحي العملي الصادق المخلص، الذي ينير القلوب ويرهف الأحاسيس، ويرقق المشاعر ويهذب النفوس، ويحرك الوجدان، وينشط الجوارح، ويوجهها إلى العمل الصالح، الإيمان الذي يصنع البطولات والأمجاد ويغير النفوس ويقلب وجه التاريخ في سرعةٍ فائقةٍ وفي تحولٍ مذهلٍ.

«إن مفتاح شخصية هذه الأمة ومصدر طاقاتها هو الإيمان الذي جعل هذه الأمة من قبل خير أمة أخرجت للناس، وحقق لها النصر على أعظم الإمبراطوريات في الأرض على الرغم من قلة عددها وضعف عدتها، وبهذا الإيمان انتصرت بعد هجمات التتار الزاحفين من الشرق، والصليبيين الزاحفين من الغرب، وبه تستطيع اليوم الانتصار على ورثة هؤلاء وهؤلاء»[2].

فما أحوجنا إلى الإيمان بمفهومه الصحيح الشامل الذي ورد في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الإيمان الذي فهمه الصحابة الكرام والتابعون وتابعوهم بإحسان.

ما أحوجنا إلى إيمانٍ خالصٍ راسخٍ يعيد لنا مجدنا وعزنا .

(١) نقض المنطق، ابن تيمية ص ٨.

(٢) أين الخلل؟ د. يوسف القرضاوي ص٢١.

وصدق الشاعر هاشم الرفاعي[1]:

ملكْنا هذه الدنيا قرونًا
وأخْضعها جدودٌ خالدون
وسطرنا صحائف من ضياء
فما نسي الزمان وما نسينا
وما فتئ الزمان يدور حتى
مضى بالمجد قومٌ آخرون
وأصبح لا يرى بالمجد قومي
وقد عاشوا أئمتهم سنين
وآلمني وآلم كل حـــــرٍ
سؤال الدهر أين المسلمون
ترى هل يرجع الماضي فإني
أذوب لذلك الماضي حنينًا
فهاتوا لي من الإيمان نـورًا
وقووا بين جنبي اليقين
فمد يديك وانتزع الرواسي
لتبني المجد خفاقًا مبينًا

لقد جاء القرآن كله لتوثيق الصلة بين العقيدة والسلوك.

تأمل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة:٥٤].

ترى كيف يتجلى أثر العقيدة القوية في إصلاح النفوس واستقامتها وتساميها ورقيها وريادتها، محبة الله للعبد ومحبته لربه وأثرها في رشاده وثباته وتوازنه في معاملاته ورحمته ولينه لإخوانه وشدته وحزمه مع أعدائه وقوته في الحق فلا يجبن ولا يداهن.

وهكذا كلما تأملنا في القرآن وجدنا أثر الإيمان على سلوك الإنسان، فتوجيهات القرآن كلها موجهة للمؤمنين، ينادي عليهم ربهم في كتابه لخير يأمر به أو لشرٍ يحذر منه، أو لترهيبٍ أو لترغيبٍ. أو لتذكيرٍ أو لتبصيرٍ، وتربط آيات القرآن بين الإيمان والعمل الصالح، وتهيج مشاعر المؤمنين للأعمال الصالحة والأخلاق الطيبة.

تأمل على سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة:٢٧٨].

حيث بدأت الآية بالإيمان وختمتْ به، بدأت بنداء إيمانيٍ وتحذير وأمرٍ رباني، ثم ختمت بتهييج مشاعر الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

فأهل الإيمان هم أهل الثبات واليقين وأهل العزة والتسامي بإيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور:١٧].

والآية مما نزل في شأن قصة الإفك

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص١٩٦.

وفيها تحذير لمن وقع في الإفك، وأنه لا يليق بمؤمن أن يخوض في عرض العفائف، وهكذا نرى أثر الإيمان على النفوس وأنه مفتاح التغيير.

كذلك يقترن الإيمان بالعمل الصالح فهما متلازمان لا يفترقان، حيثما ذكر الإيمان عطف عليه العمل الصالح، فلا إيمان بدون عمل صالح يعبر عنه ويبرهن عليه، ولا قيمة للعمل الصالح بدون إيمان يقوم عليه ويركن إليه، فالإيمان بدون عمل كالشجر بلا ظل ولا ثمر. والعمل الصالح بدون إيمان كالجسد بلا روح، فلا إيمان بدون عمل ولا عمل بدون إيمان.

٢. الواقع السيء.

استشعار الداء هو أول الطريق إلى التغيير أن يدرك الإنسان أنه في حاجة للتغيير، وأن ينبري العقلاء إلى كشف الخلل وتشخيص العلل من أجل البحث عن علاج ناجع، وإن لم يستشعر العقلاء مواطن العلل ومواضع الخلل فلن يحدث التغيير، ولقد فرق القرآن الكريم بين نفسين: نفس لوامة تلوم صاحبها على تقصيره وتسعى لارتقائه، ونفس خبيثة أمارة بالسوء تبرر الأخطاء وتستعذب الذنوب.

قال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة:١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف:٥٣].

وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس عن الحسن ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي ما أردت بأكلتي ما أردت بحديثي نفسي ولا أراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قدمًا لا يعاتب نفسه[١].

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال: التي تلوم على الخير والشر تقول: لو فعلت كذا وكذا.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال: تندم على ما فات وتلوم عليه[٢].

قال ابن جزي: «النفس اللوامة هي التي تلوم نفسها على فعل الذنوب أو التقصير في الطاعات فإن النفوس على ثلاثة أنواع؛ فخيرها النفس المطمئنة، وشرها النفس الأمارة بالسوء، وبينهما النفس اللوامة.

وقيل: اللوامة هي المذمومة الفاجرة. وهذا بعيدٌ؛ لأن الله لا يقسم إلا بما يعظم من المخلوقات، ويستقيم إن كان ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ نفيًا للقسم»[٣].

قلت: على كونه نفيًا للقسم فهو تنويه بالمقسم عليه؛ لأن الآيات التي وردت بهذه

(١) الدر المنثور، السيوطي ١٥ / ٩٧ .
(٢) المصدر السابق ١٥ / ٩٦ .
(٣) التسهيل، ابن جزي ٣ / ٢٥٥ .

الصيغ كل ما ورد فيه من محل القسم ذو شأن عظيم.

كذلك لا شأن بالنسبة لأمراض المجتمع ومواطن الخلل فيه إن لم يتنبه لها العقلاء أودت بالمجتمع وجرته إلى المهالك، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال:٢٥]، وقد جاء في الحديث عنْ زيْنب ابْنة جحْشٍ رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليْها فزعًا يقول: لا إله إلا الله، ويْلٌ للْعرب منْ شرٍ قد اقْترب، فتح الْيوْم منْ ردْم يأْجوج ومأْجوج مثْل هذه، وحلق بإصْبعه الإبْهام والتي تليها، قالتْ زيْنب ابْنة جحْشٍ: فقلْت: يا رسول الله أنهْلك وفينا الصالحون؟ قال: نعمْ، إذا كثر الْخبث.[(١)]

وروى الإمام أحمد في المسند: عنْ ثوْبان رضي الله عنه موْلى رسول الله صلى الله عليْه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليْه وسلم: «يوشك أنْ تداعى عليْكم الْأمم منْ كل أفقٍ، كما تداعى الْأكلة على قصْعتها». قال: قلْنا: يا رسول الله، أمنْ قلةٍ بنا يوْمئذٍ؟ قال: «أنْتمْ يوْمئذٍ كثيرٌ، ولكنْ تكونون غثاءً كغثاء السيْل، تنْتزع الْمهابة منْ قلوب عدوكمْ، ويجْعل في قلوبكم الْوهْن». قال: قلْنا: وما الْوهْن؟ قال: «حب الْحياة وكراهية الْموْت»[(٢)].

٣. الخوف من سوء العاقبة.

لا شك أن الحذر من سوء العاقبة مما يحمل العبد على أن يغير من نفسه ويصلح من شأنه، حذرًا من أن يصيبه ما أصاب الظلمة والعصاة، ولقد حذر الله المؤمنين من سوء العواقب، ورد ذلك في آيات كثيرة.

تأمل قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

فقد نزلت الآية في بداية التعقيب على غزوة أحد تسلية للقلوب وتسرية عن النفوس، فالأمور بعواقبها، والأيام دولٌ، وأمر الله بالسير في الأرض للنظر في عواقب المكذبين للعظة والاعتبار والتسلي والثبات على الحق. سيروا في الأرض كيفما شئتم ونقبوا في البلاد فلن تجدوا من أفلت من حكمنا من المكذبين، بل عاقبتهم واحدة ونهايتهم محتومة مؤلمة.

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخاطبًا عباده الْمؤْمنين لما أصيبوا يوْم أحد وقتل منْهمْ سبْعون: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أيْ: قدْ جرى نحْو هذا على الْأمم الذين كانوا منْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم ٣١٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم ٢٨٨٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٨٢.

قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

وأمر الله تعالى بالسير في الأرض للنظر في عاقبة المكذبين نظر اعتبار وادكار، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام:١١].

والخطاب موجه للمشركين وكانوا يضربون في الأرض للتجارة، فأمرهم الله بالاتعاظ بغيرهم ممن كذب.

قال سيد قطب: «إن هذه اللفتة -بعد ذكر إعراضهم عنادًا وتعنتًا؛ وبعد بيان ما في اقتراحاتهم من عنت وجهالة؛ وما في عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة من الله وحلم- لترمي إلى غرضين ظاهرين:

الأول: تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسرية عنه، مما يلقاه من عناد المعرضين، وعنت المكذبين؛ وتطمين قلبه -صلى الله عليه وسلم- إلى سنة الله سبحانه في أخذ المكذبين المستهزئين بالرسل؛ وتأسيته كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعًا في تاريخ الدعوة إلى الحق. فقد لقي مثله الرسل قبله؛ وقد لقي المستهزئون جزاءهم الحق وحاق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب، ومن غلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف.

والثاني: لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين، وتذكيرهم بهذه المصارع التي تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء والسخرية والتكذيب. وقد أخذ الله -من قبلهم- قرونًا كانت أشد منهم قوةً وتمكينًا في الأرض؛ وأكثر منهم ثراء ورخاء، كما قال لهم في مطلع هذه الموجة؛ التي ترج القلوب رجًا بهذه اللفتات الواقعية المخيفة»[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل:٦٩]

والدعوة لمنكري البعث الهازئين به المشككين فيه، فلينظروا في عواقب من سبقهم من المجرمين الذين أنكروا الآخرة فلم يتورعوا عن أي إثم ولم يرعووا عن أي جرم، فكان عاقبتهم الهلاك والدمار.

وحذر الأنبياء أقوامهم من مصير الهالكين السابقين.

قال تعالى في قصة شعيب: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٩٩.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٨٠.

[هود:٨٩-٩٠].

وكثر في القرآن الكريم التحذير من مصارع الغابرين وسوء عواقب المكذبين بما فيه المزدجر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر:٤-٥].

فالاعتبار بالسابقين والاتعاظ بمصيرهم مما يزجر النفس عن المعاصي ويصرفها عن القبيح، ويقيمها على طريق الرشاد.

ثانيًا: أسباب التغيير المذموم:

١. اتباع الشيطان وأعوانه.

الشيطان داعي الهوى، يزين القبيح، ويقبح الحسن، كم من معصية هونها، وكم من طاعة سوفها، وكم من بدعة حسنها، وكم من سنة صرف الناس عنها، وأعوانه من الشياطين يسعون إلى غواية الناس وإضلالهم وإفساد دينهم ودنياهم، وكذلك أعوانه من شياطين الإنس.

قال تعالى عن قوم سبأ وقد تغير حالهم وتبدل من النعمة إلى النقمة ومن الرخاء إلى الشدة، بإعراضهم وكفرانهم وتبطرهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾

[سبأ:٢٠-٢١]

تبين الآية الكريمة كيف وقع قوم سبأ في مصائد الشيطان فصدق عليهم ظنه: لما أعرضوا عن شكر النعم ونسوا المنعم، وأخلدوا إلى الترف، وتنافسوا في المتع والملذات، فوقعوا في حبائل الشيطان وانقادوا لوساوسه، فصدق عليهم قوله كما أخبر رب العزة: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص:٨٢-٨٣].

فتركوا له الزمام وأذعنوا له وساروا في ركابه، إلا من عصمهم الله من وساوسه ونجاهم من إغوائه. وما تسلط عليهم بقوة وقهر بل بمكره وحيله التي تنطلي على أهل الأهواء والشكوك.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ۝١١٣﴾ [الأنعام:١١٢-١١٣].

عن مالك بن دينارٍ رحمه الله أنه قال: «شياطين الإنس أشد علي من شياطين الجن؛ وذلك أني إنْ تعوذتُ بالله من شياطين الجن ذهبتْ عني، وشياطين الإنس تجيئني فتجرني إلى المعاصي عيانًا»[1].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «إن

---

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٨٠.

للْجن شياطين يضلونهمْ مثْل شياطين الإنْس يضلونهمْ، قال: فيلْقى شيْطان الإنْس شيْطان الْجن، فيقول هذا لهذا: أضْلله بكذا، وأضْلله بكذا، قال: فهو قوْله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾».

قال ابن الجوزي: «وأما قوله ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ فهو ما زين منه، وحسن، وموه»[1]، «يزين بعضهم لبعض ما يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة،فيعتقدون الحق باطلا والباطل حقًا»[2].

وقال البقاعي: «والغرور: هو الذي يعْتقد فيه النفع وليس بنافع»[3].

ويقول الشيخ عبد الحميد طهماز: «ولا يخفى ما في الآية من تحذيرٍ للمؤمنين من الوقوع في شراك الضالين المضلين، فعليهم أن يتجنبوا استماع كلامهم المزوق المزخْرف الذي يخفون في طياته السم الناقع، فما أكثر ما يخلطون السم بالدسم، فالاستماع إلى أقوالهم قد يؤدي إلى الرضا بها، ثم الاستجابة الفعلية لما فيها من إثم وفجور. وكأني بالآية الكريمة قد نزلت لهذا العصر الذي أصبح فيه لوسائل الإعلام سلطانٌ كبير، وتأثيرٌ شديدٌ على الناس، لقد وجه شياطين الإنس من أعداء الإنسانية بوحيٍ من شياطين الجن كثيرًا من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة إلى الشعوب الإسلامية، ليفتنوا المسلمين عن دينهم وأخلاقهم، وقد ملؤوها بالبرامج المزخرفة المموهة التي تستهدف في حقيقتها تشكيك المسلمين بدينهم، وإشاعة الفواحش والفجور في مجتمعاتهم»[4].

وقال تعالى ناهيًا ومحذرًا من خطوات الشيطان التي يستدرج بها الإنسان حتى يوقعه في الحرام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة:١٦٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور:٢١]

«قال الضحاك: هي الخطايا التي يأمر بها، وقال أبو إسحاق: أي: لا تقفوا آثاره؛ لأن تركك شيئًا من شرائع الإسلام اتباع الشيطان»[5].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٩٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٦٩.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٣/ ١١٣.
(٤) بصائر الحق في سورة الأنعام، عبدالحميد طهماز ص ١٠٦-١٠٧.
(٥) معاني القرآن ١/ ١٥٤.

فلا يزال الشيطان بالإنسان حتى يدفعه إلى تعاطي الحرام، من المآكل والمشارب والمناكح، فالحذر الحذر من وساوسه وخطواته، وحبائله وخطراته التي يستدرج بها أهل الغفلة، فإذا تعاطى الناس الحرام فشا الظلم وخيم الضلال، وانتشر الخنا والفجور، وفسدت المجتمعات وتردت إلى الهاوية.

٢. اتباع الهوى.

واتباع الهوى: «السير وراء ما تهوى النفس وتشتهي أو النزول على حكم العاطفة من غير تحكيم العقل أو الرجوع إلى شرع أو تقدير لعاقبة»[(١)].

واتباع الهوى يفضي إلى الانسياق وراء الملذات والانغماس في الشهوات، والنفور من الحق، وكراهيته، وما ينبثق عن ذلك من ظلم وافتراء، وتردي الأخلاق، وانفراط عقد المجتمع، وفقدان نعمة الأمن وتلاشي العدالة الاجتماعية، وسقوط المجتمع في براثن الطغيان والاستبداد، وتسلط الظلمة، وتصدر الفسقة، وتمكن المنافقين ومرضى القلوب. ولقد حذرنا المولى عز وجل في كتابه الكريم من إتباع الهوى، وأنذر الذين ملك الهوى زمام قلوبهم، ودعا إلى تجنب أصحاب الأهواء، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

قال ابن عباس: ما ذكر الله عز وجل الهوى في موضع من كتابه إلا ذمه. وقال الشعبي: إنما سمى الهوى لأنه يهوي بصاحبه[(٢)].

فصاحب الهوى لا يرى إلا الهوى، والهوى طريق الهلكة والضياع: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(ثلاثٌ منْجياتٌ، وثلاثٌ مهْلكاتٌ: فأما الْمنْجيات: فالْعدْل في الْغضب والرضا، وخشْية الله في السر والْعلانية، والْقصْد في الْغنى والْفقْر، وأما الْمهْلكات: فشحٌ مطاعٌ، وهوًى متبعٌ، وإعْجاب الْمرْء بنفْسه)**[(٣)].

ولقد أورد ابن الجوزي في كتابه ذم الهوى آثارًا للسلف في ذلك منها ما رواه عن مالك بن دينار: أنه قال: بئس العبد عبدٌ همه هواه وبطنه، وقال ابن السماك: إن شئت أخبرتك بدائك وإن شئت أخبرتك بدوائك، داؤك هواك ودواؤك ترك هواك[(٤)].

واتباع الهوى من الأسباب الرئيسة في تردي المجتمعات وانتكاسها؛ فإن الإعراض

(١) آفات على الطريق، سيد نوح ٢/ ١٦.

(٢) ذم الهوى لابن الجوزي ص١٦.

(٣) أخرجه البزار في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، كما في كشف الأستار عن زوائد البزار، رقم ٨٠، ١/ ٥٩.
وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ٥١٢٢.

(٤) انظر: ذم الهوى، ابن الجوزي ص١٢.

عن الحق والنكوب عن الهدى، والميل إلى الهوى، مما يعمي القلوب والأبصار، ويفسد المجتمعات؛ لأنه يفضي إلى الظلم والفوضى والتخبط حين يترك العنان لكل نفسٍ وما تهوى.

والأهواء متباينة ومتنازعة، ولذا جاءت بصيغة الجمع.

من آثار اتباع الهوى على النفس والمجتمع:

١. التخبط والضلال والجور في الحكم.

فإن من أسباب التخبط والجور في الأحكام وما يعقبها من مظالم تهدم المجتمعات، فإما حكم بين الناس بالحق وإما اتباع للأهواء المضلة.

قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

والمتبع للهوى يحرم نفسه من نعمة الهداية، إذ لم ينتفع بعلمه وأغلق سمعه وبصره عن قوارع الحق وشواهده.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:٢٣].

٢. الانتكاس والسقوط.

ولا شك أن في اتباع أهل الأهواء مع وضوح الحق وقيام حجته مفسدة عظيمة سيما ممن نال حظا من العلم، وهو مع ذلك ينساق للجهال، فيضيع نفسه ويضيع غيره.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

قال الشيخ رشيد رضا: «وهذا الرجل صفته كصفة الْكَلْب في حالته هذه، وهي أخس أحْواله وأقْبحها، والْمراد -والله أعْلم- أنه كان منْ إخْلاده إلى الأرْض، واتباع هواه في أسْوأ حالٍ، خلافًا لما كان ينْبغي منْ نعْمة الْعيْش وراحة الْبال، فهو في هم دائم مما شأْنه أنْ يهْتم به، وما شأْنه ألا يهْتم به منْ صغائر الأمور وخسائس الشهوات، كدأْب عباد الأهْواء وصغار الْهمم تراهمْ كاللاهث من الإعْياء والتعب، وإنْ كان ما يعْنون به، ويحْملون همه حقيرًا لا يتْعب ولا يعْيي، ولا ترى أحدًا منْهمْ راضيًا بما أصابه منْ شهواته وأهْوائه، بلْ يزيد طمعًا وتعبًا كلما أصاب سعةً وقضى أربًا:

فما قضى منْها أحدٌ لبانته
ولا انْتهى أربٌ إلا إلى أرب»[1]

(١) المنار، رشيد رضا ٩/ ٣٤٢.
والبيت من ديوان المتنبي ٢/ ١٩٦، ومعنى البيت: لم يقض أحد حاجته من الليالي؛ لأن حاجات الإنسان لا تنقضي، ولا انتهى أربٌ إلا إلى أرب. واللبانة الحاجة والأرب

٣. الإفراط.

والإفراط يفضي إلى التقصير والعجز، وإضاعة الحقوق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨] .

أي: «ضياعًا وهلاكًا، وهو من التفريط والتضييع، أو من الإفراط والإسراف، فإن الغفلة عن ذكر الله تعالى تؤدي إلى اتباع الهوى المؤدي إلى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ تسفيةٌ لهؤلاء المشركين، وما هم فيه من عناد يسوقهم إلى الهلاك، ويخرجهم من الدنيا، وقد خسروا الدنيا والآخرة جميعًا[٢].

٤. الإعراض عن الحق مع جلائه.

قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص:٤٩-٥٠]. فلا أضل ممن ساقه الهوى، وبعد عن الهدى.

٥. الخذلان والحرمان من ولاية الله ونصرته.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد:٣٧].

فجزاء اتباع أهل الأهواء الخذلان والضياع. أخرج أبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في قوله: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ قال: من أحد يمنعك من عذاب الله تعالى[٣].

٦. العمى والصمم عن الحق.

فمتبع الهوى له عين لا يبصر بها وله أذن لا يسمع بها وله عقل لا يعقل به، فحياته كالبهائم بل أضل، إذ البهيمة لا تخرج عن دورها في الحياة، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤]. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قال: كلما هوى شيئًا ركبه وكلما اشتهى شيئًا أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى[٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا

الغرض.

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٢٢٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٥٠.

(٣) الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٤٦٥.

(٤) المصدر السابق ١١/ ١٨٢.

﴿قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد:١٦]. فقرنت الآية بين الطبع على قلوبهم وبين اتباع الأهواء، فداء القلب وعماه في اتباع الأهواء.

٣. الركون وترك العمل.

لا شك أن الخلود إلى الراحة والدعة وترك العمل والاشتغال بأسباب الترف أو الكلام والجدل مما يفسد النفس والمجتمع، فمن قل عمله كثرت شهواته، والترف مفسدةٌ عظيمة، ومهلكةٌ خطيرةٌ، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود:١١٦-١١٧].

فهلا كان فيمن قبلكم أولو معادن نفيسة، ونفوس زكية، وهمم عالية، ينهون الناس عن الفساد في البلاد، إلا قليلًا ممن أنجاهم الله تعالى بصلاحهم ونصحهم، واتبع الذين ظلموا سبيل الترف، فنافسوا على الرياسة والسلطان والثراء، لينعموا بالمال والجاه، وسلكوا لذلك كل سبيل، وكانوا مجرمين بفجورهم وفسادهم، ونكوبهم عن طريق الصلاح ومحاربتهم للحق، فاستحقوا الهلاك، فالترف من أسباب الفسوق والانحلال الموجب للنقمة والعقوبة التي لا تكون إلا للمفسدين.

قال صاحب الظلال: «لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الرياسة والسعي لها وجمع الثروة وطلب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك مما ينفعهم في الآخرة ونبذوه وراء ظهورهم. فالترف يغلظ القلوب ويفقدها الحساسية ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل ولا تتفتح للنور»[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء:١٦-١٧].

فالمترفون هم الذين يقودون عجلة الحضارة إلى الدمار بفسقهم ومجونهم، وقسرهم ضعفاء القلوب على الكفر والضلال، حتى يكون الهلاك الذي يعمهم جميعًا، بعد أن أمرهم الله بالطاعة فبادروا إلى التمرد والعصيان، قرئ (أمرنا)[2]: أي

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٨٥.
(٢) قال أبو حيان في البحر: «قرأ ابن عباس وأبو عثمان النهدي والسدي وزيد بن علي وأبو العالية: أمّرنا بتشديد الميم وروي ذلك عن علي والحسن والباقر وعاصم وأبي عمر

أكثرنا فصاروا هم الكثرة الفاسدة، الأغلبية الطاغية. والمترف عالة على مجتمع، لا يعمل ولا ينتج، بل هو نديم الشهوات قعيد الملذات، لا يفكر إلا في ملء بطنه وإفراغ شهوته، فالترف داعية السرف المفضي إلى الفسوق والعصيان والظلم والإجرام، يظهر هذا في الكبار والموسرين، ثم ينعكس على الفقراء المعوزين فتسوء حال الأمم وتتدهور أخلاقها.

قال الألوسي: «وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد»[1]، فالأمم إنما يهلكها بطرها واستكبارها وغفلتها عن الحق واستغراقها في شهواتها الدنيوية دون تدبر وترو، وإنما يصلحها تدبرها وبصيرتها واعتدالها وسلوكها طريق الحق وتفكيرها في العواقب وعدم إسرافها في متع الحياة وشهواتها.[2]

والصلة بين الانغماس في الترف والتشبث به وبين الإجرام وثيقة، فالمترف والباحث عن الترف قد لا يتورع عن سلوك أي طريق وركوب أي حيلة ليعيش حياة الترف، والترف من دواعي القعود عن عزائم الأمور والركون للدعة.

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة فكذبوا رسل الله وردوا دعوة الله أن يهلكهم ويذيقهم العذاب في الدنيا كما يذيقهم العذاب في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

تصور الآيات الكريمة مشهد العذاب الذي حل بالظلمة المترفين، فانطلقوا يركضون هربًا من ملاحقته، فيقال لهم على سبيل الاستهزاء: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة، «وارجعوا إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم، ارجعوا إلى ما أترفتم فيه من العيش والرفاهية والحال الناعمة»[3].

وتأمل في حال قوم سبأ حين تبطروا على هذه النعم وطلبوا زوالها وتمنوا لو كان

وعدي أمر بالتضعيف، والمعنى أيضًا كثرنا». البحر المحيط ٦/ ١٢.

(١) روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٤٢.

(٢) التفسير الحديث، محمد عزة دروزة ١/ ١٨٥٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٧٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٤٦.

السفر طويلًا، وبلغ الترف ببعضهم والدعة أن اشتكى بعضهم من بعد الأسفار جحودًا وإنكارًا لنعم الله تعالى، وظلموا أنفسهم بجحودهم وغفلتهم، وتمللهم، فجعلناهم عبرةً يتحدث الناس بها ويتعجبون من أخبارهم وبؤسهم بعد عيشهم الرغيد، وتفرقهم بعد اجتماع شملهم وذلهم بعد عزهم، حتى صار تفريقهم مثلًا سائرًا فقالوا في الأمثال: ذهبوا أيدي سبا وتفرقوا أيدي سبا[1]، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ:١٨-١٩].

٤ . الأمن من مكر الله.

من أسباب التغيير: الأمن من مكر الله تعالى، فيغتر العبد ويتمادى في الذنوب والعصيان، ويمسي ويصبح في غفلةٍ لا يلقي بالًا لما قدمته يداه.

قال الراغب رحمه الله: مكر الله: صفة حقيقة على ما يليق بجلال الله وكماله، ومن لوازمها إمهال العاصي وتمكينه من أعراض الدنيا، ولذلك قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: من وسع عليه في دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع في عقله[2].

والمراد: المسرف على نفسه، العاصي لربه، وقد يوسع على العبد الصالح تمكينًا له لصلاحه وإكرامًا.

وقال ابن حجر الهيتمي: «الأمن من مكر الله يتحقق بالاسترسال في المعاصي مع الاتكال على الرحمة»[3].

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

أفأمن أولئك الذين يكذبون بآيات الله ويجحدونها إمهال الله لهم واستدراجهم؛ بإمدادهم بالنعم في دنياهم من صحة البدن ورخاء العيش فيأخذهم على غرة بعذاب لا رجعة فيه ولا مهرب منه، وهم في نومٍ ورقادٍ، أو في لعبٍ ومرحٍ، أفأمن أولئك العصاة مكر الله بهم ونقمته عليهم فلا يأمن مكر الله إلا أهل الخسران.

قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسار. وما يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون هذا الخسار!

أفأمنوا مكر الله؛ وهم يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين، الذين هلكوا بذنوبهم، وجنت عليهم غفلتهم؟ أما كانت مصارع

(١) مجمع الأمثال، الميداني ١/ ٢٧٥.
(٢) المفردات، الراغب ص٤٧١.
(٣) انظر: الزواجر، ابن حجر الهيتمي ١/ ٨٧.

الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم؟»[1].

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤])[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، ومن تحول عافيتك، ومن فجأة نقمتك، ومن جميع سخطك وغضبك)[3].

وسياق آيات الأعراف وإن كانت في المكذبين الكافرين إلا أن الواجب على المؤمن الحذر من سوء العاقبة بإفراطه وتفريطه.

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل:٤٥-٤٧].

أنكر عليهم كيف يأمنون عقاب الله مع ما هم عليه من إدمان الذنوب، أفأمنوا أن يخسف الله بهم الأرض فتبتلعهم في بطنها، أو يأتيهم العذاب وهم في غفلة من نوم أو لهو، ومن حيث لا يحتسبون أو يتوقعونه فيعجزون عن دفعه، أو يأتيهم في أسفارهم وهم يتقلبون من بلد إلى بلد في البر أو البحر، فلا يستطيعون دفع العذاب أو التخلص منه، أو يأخذهم وهم في حذر ويقظةٍ فلا تغني عنهم شيئًا، إذ لا يخطئهم العذاب، أو يأخذهم بالتدرج دون أن يشعروا بهذا التنقص يومًا بعد يوم حتى يفاجئوا، فالتغيير الكبير قد يكون نتيجة تراكمية للتغييرات الصغيرة التي لا يشعر بها الإنسان غالبًا.

قال الشنقيطي: «أنكر الله جل وعلا على الذين يعملون السيئات من الكفر والمعاصي، ومع ذلك يأمنون عذاب الله ولا يخافون أخذه الأليم، وبطشه الشديد، وهو قادر على أن يخسف بهم الأرض، ويهلكهم بأنواع العذاب»[4].

فالآيات وإن كانت عن الكفرة العصاة لكن على المؤمن أن يحذر من سوء العاقبة بإدمان المعاصي والتفريط في الطاعات.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٢٦٣.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٥٤٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، ٤/ ٢٠٩٧، رقم ٢٧٣٩.
(٤) أضواء البيان ٢/ ٣٨٠.

مجالات التغيير

مجالات التغيير شاملة وميادينه متشعبة، فالتغيير منظومة متكاملة وعلاج شامل، لن يحقق الثمرة المرجوة ما لم يجمع بين التغيير في العقائد والأفكار والتغيير في الأخلاق والسلوك، كما سنبين في هذا المبحث:

أولًا: التغيير في العقائد:

جاءت دعوات الأنبياء بالتغيير ولا شك أن أول خطواته وأركانه إصلاح العقيدة، والتطهر من أدران الشرك والتحرر من الخرافات والأوهام، فبدأ كل نبي دعوته إلى التوحيد.

قال تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

كان النبي صلى الله عليه وسلم في بدء دعوته يطوف بالأسواق ويذهب إلى منازل الحجيج يدعوهم لقول لا إله إلا الله.

عن ربيعة بن عباد الديلي، وكان جاهليًا أسلم، فقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بصر عيني بسوق ذي المجاز، يقول: (يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا)[١].

فكلمة التوحيد هي الكلمة الطيبة التي ينبثق منها كل خيرٍ، هي النبتة الطيبة بأصولها الثابتة وفروعها المثمرة.

والتغيير في العقائد هو الأساس؛ لا نجاح لأي تغيير وإصلاح بدون إصلاح العقيدة، ولقد مكث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاث عشرة سنة يربي أصحابه على العقيدة الصحيحة وأصول الأحكام ومكارم الأخلاق، وركزت السور المكية على إصلاح العقيدة وإصلاح المجتمع من تقاليد الجاهلية وعاداتها السيئة، وإعداد الفرد المسلم وصياغة شخصيته. وبعد بيعة العقبة الأولى أرسل مصعب بن عمير رضي الله عنه ليعلم أهل يثرب، فما من بيت إلا ودخله الإسلام، فنشأ جيلٌ مباركٌ شارك في حمل رسالة الإسلام.

وتوحيد الله تعالى ومعرفته هو النور الذي يمحو كل ظلمة والحق الذي يفند كل شبهة، والحقيقة التي تبدد الأوهام والأساطير والخرافات التي تستبد بكثير من الناس وتستهويهم وتطاردهم، فتنكد عيشهم وتكدر صفوهم، أما عقيدة التوحيد فإنها تجمع القلوب وتشرح الصدور، وتؤلف النفوس وتنير العقول وتشحذ الهمم وتسمو بالأرواح وتنهض بالمجتمعات.

قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٥/ ٤٠٤.

[الطلاق: ١٠-١١].

من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، من ظلمات الجهل والأوهام إلى نور العلم، من ظلمات الشك والحيرة إلى نور اليقين. فأي تغيير أعظم من التغيير في العقائد فهو منبع كل تغيير.

ثانيًا: التغيير في الأخلاق:

جاء القرآن بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وتقويم السلوك؛ فاشتمل القرآن الكريم على جميع محاسن الأخلاق يدعو إليها ويرغب فيها، ونهى القرآن عن جميع مساوئ الأخلاق ونفر منها، وجعل لنا في حياة الأنبياء والصالحين المثل العليا لمكارم الأخلاق؛ فما من خلق كريم إلا وفي قصص القرآن نموذج يحتذى منه، وما من خلق رديء إلا وفي قصص الغابرين مثال له حتى ننفر منه ونحذره.

بل وجاء القرآن بآيات جامعة لمكارم الأخلاق من ذلك أجمع آية في كتاب الله.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٠].

قال ابن مسعود: أجمع آية في القرآن لخير وشر آية في النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية.

وقال قتادة: ليس من خلق حسن، كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عز وجل عنه[1].

ثالثًا: التغيير في المعاملات:

جاء القرآن الكريم بإصلاح المعاملات فدعا إلى حسن المعاملة والوفاء بالحقوق، وفي مقدمتها بر الوالدين وصلة الأرحام وحسن العشرة الزوجية، والإحسان إلى الجار والصاحب، وشرع كل معاملة حسنة، ونهى عن كل معاملة سيئة، فأحل البيع وحرم الربا، و نهى عن أكل أموال اليتامى ظلمًا، ودعا لحسن التعامل والصبر على مخالطة الناس، وتحمل أذاهم والعفو والإحسان.

وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٧].

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤٠٧٣.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٣].

وقال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) ﴾ [النساء:٣٦].

فاشتمل القرآن المكي وكذلك المدني على هذه الفضائل في المعاملات، التوحيد الذي هو أساس الشريعة والأخلاق، والدعوة إلى بر الوالدين، فهم السبب في وجودنا، ومهما بذلنا من إحسان، فلن نوفيهما حقوقهما، كما دعا إلى مراعاة حق القرابة والجوار، وحق الضعيف وحق الخادم وملك اليمين وحق اليتيم والمسكين وابن السبيل، ونهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ونهى عن الربا وأكل مال اليتيم وأكل أموال الناس بالباطل، وجاء الإسلام بالتشريعات التي تحفظ الحقوق وتصون الكرامات.

ولعل من أصدق التعبيرات عن مجيء الإسلام بالتغيير لما كان عليه العرب من الواقع المرير الذي أثقل كاهل المجتمعات قبل بزوغ فجر الإسلام، وكيف كان منهج التغيير: مقالة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بين يدي النجاشي ملك الحبشة؛ وذلك حينما هاجر المسلمون الأوائل إلى حمى ذلك الملك العادل؛ فرارًا بدينهم، فأبى الظالمون إلا متابعتهم ورصدهم فأرسلوا في طلبهم، فكان ذلك الحوار الذي دار بين يدي النجاشي.

وفيه: **(فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا**

نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قال: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك، قالت أم سلمة: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ الآيات... قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكم أبدًا)[1].

وهذا ربعي بن عامر رضي الله عنه لما سأله رستم قائد الفرس: فقال ما جاء بكم؟ قال: «الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»[2].

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١/ ٢٠١، رقم ١٦٤٩، عن أم سلمة رضي الله عنها.
(٢) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٢/ ٤٠١، البداية والنهاية، ابن كثير ٧/ ٣٩.

ثمرات التغيير وآثاره

للتغيير الإيجابي ثمراته المباركة، وللتغيير السلبي آثاره السلبية على الفرد والمجتمع، كما سنبين في هذا المبحث:

أولًا: ثمرة التغيير الممدوح:

من أعظم ثمرات التغيير: التمكين للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

والتمكين تحول في مسار الأمة من ضعف وفرقة إلى قوة ومنعة وعزة، فللتمكين مقدماته ومؤهلاته، والتي من أهمها الإيمان والعمل الصالح، وله عوامل تحفظه، وهو القيام بواجبات العبودية لله والإصلاح.

وللتغيير ثمراته الطيبة فهو سبيل النجاة وطريق الفلاح، وبه تلتمس البركات. وهو متاحٌ لكل من شرع فيه وأخذ بأسبابه مهما كان من فساد حاله وضلاله قبل التغيير.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠٣].

وقال عن المنافقين: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

وقال عن سائر المكذبين: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

فالتغيير متاح أمام جميع المخالفين، مهما سلف منهم، ومهما أوغلوا في طريق الضلال، فالفرصة لا تزال سانحة أن يغيروا من أحوالهم، بدءًا من إصلاح العقيدة بالإيمان إلى إصلاح السلوك بالتقوى، والتوبة الصادقة والاستجابة للمواعظ ففي ذلك خير الدنيا والآخرة وتحصيل بركات الدنيا وثواب الآخرة.

ثانيًا: آثار التغيير المذموم:

أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين هداة ومصلحين، فاستجاب لهم الصادقون وكفر وأعرض الجاحدون المنكرون، فابتلاهم الله تعالى بالشدائد والمحن لعلهم يرجعون ويتضرعون، لكن القلوب قاسية والأعين متحجرة، والعقول في غفلة وذهول، وهنا يبتليهم الله بالنعم والرخاء؛ استدراجًا لهم، فيزدادون بطرًا وعجبًا وغفلةً، ويمهلهم فيتمادون في الغي والطغيان، فتحل عليهم النقم ويغشاهم العذاب الذي لا كاشف له ولا عاصم منه.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٤-٩٦]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام:٤٢-٤٥].

ومن آثار التغيير المذموم:

١. ضيق العيش في الدنيا والعمى في الآخرة.

قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٤].

فالإعراض عن منهج الله من أسباب الشقاء والنكد والضيق وتبدل الحال.

٢. الغشاوة على القلوب.

قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤].

فمن أسباب التغيير إلى الأسوأ، غشاوة القلوب بإدمان الذنوب والمعاصي مما يحجب عنه نور الهداية.

٣. هلاك الأمم وخراب الديار.

قال تعالى عن الأمم الهالكة بذنوبها: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٤٠].

فتراكم الذنوب من أسباب الهلاك والدمار الذي يحل بالأمم المكذبة، فيتبدل حالها من خفض عيش ورغد وأمن إلى

هلاكٍ وخراب وتدميرٍ، فلا تبقى لهم باقية.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه)، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلًا: (كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق، فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، فأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها).

موضوعات ذات صلة:

الإصلاح، التدرج، التربية، الدعوة





عناصر الموضوع



مفهوم التفكر

أولًا: المعنى اللغوي:

يحدد ابن فارس الجذر الثلاثي لمصطلح التفكر بقوله: «الفاء والكاف والراء تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبرًا»[١].

أما عند ابن منظور: «الفكر والفكر: إعمال الخاطر في الشيء، قال سيبويه: ولا يجمع الفكر ولا العلم ولا النظر»[٢].

ويذكر صاحب القاموس: «الفكر -بالكسر ويفتح-: إعمال النظر في الشيء»[٣].

وفي المعجم الوسيط: «(فكر) في الأمر فكرًا: أعمل العقل فيه، ورتب بعض ما يعلم؛ ليصل به إلى مجهول... (التفكير): إعمال العقل في مشكلة؛ للتوصل إلى حلها... (الفكر): إعمال العقل في المعلوم؛ للوصول إلى معرفة مجهول»[٤].

هذه خلاصة ما جادت به كتب اللغة في هذا المصطلح، ومن خلال التمعن في هذه التعريفات يلاحظ أنها تشترك في المعاني التالية وهي أن التفكر:

يعتمد على إعمال القلب والعقل والنظر والخاطر، ويكون بالتردد والتكرار، ويكون في المعلوم طلبًا للمجهول.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

اعتمادًا على ما جاء في التعريفات اللغوية اختلفت تعاريف المفسرين والعلماء لمصطلح التفكر على أن أغلبها لم تخرج عن إطار المعاني اللغوية، وفيما يأتي عرض لبعض التعريفات:

يقول الراغب الأصفهاني: «الفكرة: قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر: جولان تلك القوة بحسب نظر العقل؛ وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب...، ورجل فكير كثير الفكرة، قال بعض الأدباء: الفكر مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلبًا للوصول إلى حقيقتها»[٥].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٤٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٤٣٥١.
(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٢/ ١١٥.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٩٨.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ٢٠٢.



ويقول الجرجاني: «التفكر تصرف القلب في معاني الأشياء؛ لدرك المطلوب»[1].

وخلاصة القول: أن هذه التعريفات اتفقت على ما يأتي:

- الفكر قوة أو ملكة، والتفكر إعمال لتلك الملكة، فليس كل من يملك تلك القوة هو متفكر، بل يمكنه ذلك بحسب إرادته.
- التفكر حالة خاصة بالإنسان دون الحيوان، كما أشار إلى ذلك الراغب.
- التفكر عملية يشترك فيها العقل مع القلب، فهي حالة ذهنية وجدانية.
- التفكر عملية هدفها استثمار المعارف للوصول إلى حقائق جديدة مطلوبة، ولا معنى للتفكر بدون تحقيق هذا الهدف.

ومن مجموع هذه التعاريف يمكن استخراج تعريف عام للتفكر بأنه:

عملية عقلية وجدانية، تعمل على استثمار المعارف والدلائل للتوصل إلى حقائق الأمور، بالنظر فيها، والاعتبار بنتائجها.

---

(١) التعريفات، الجرجاني ص٨٨.

التفكر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فكر) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت(٨) مرة[١] .

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾ [المدثر:١٨]
الفعل المضارع	١٧	﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية:١٣]

وجاء التفكر في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: إعمال الخاطر في الشيء[٢] .

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن، عبد الله جلغوم، ص٨٨٣-٨٨٤.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٦٥.



الألفاظ ذات الصلة

١ العقل:

العقل لغةً:

جاء في لسان العرب: العقل: الحجر والنهى ضد الحمق، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، وقيل: العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، وسمي العقل عقلًا؛ لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي: يحبسه[١]. إذًا فمعنى العقل في اللغة يدور حول المنع والإمساك والإحكام، كما يستخدم أيضًا في الفهم.

العقل اصطلاحًا:

قيل: هو «القوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة: عقل»[٢].

وقيل: «العقل: العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها»[٣].

ويمكن تعريفه بأنه هو: الإدراك المانع من الخطأ لحقيقة الأشياء والعلم بصفاتها عن طريق استعمال الحواس. فأساسه الاعتماد على المعنى اللغوي الذي يعود إلى المنع والحبس للإدراك.

الصلة بين التفكر والتعقل:

يظهر الفرق بينهما من خلال أن التعقل هو ربط المعلومات الناتجة عن الإدراك الحسي لها في صورة منظمة، وأن التفكر هو تعميق الفكر في هذه الصورة، فالتعقل من المراحل الأساسية في عملية التفكر.

٢ التدبر:

التدبر لغةً:

«هو آخر الشيء...، والتدبير: أن يدبر الإنسان أمره؛ وذلك أنه ينظر إلى ما تصير عاقبته وآخره، وهو دبره»[٤]. ويعرفه الفيومي بقوله: «دبرت الأمر تدبيرًا فعلته عن فكر وروية»[٥].

(١) انظر: المصدر السابق ٤/ ٣٠٦٤.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ١١٠.
(٣) الكليات، الكفوي ص٩٧٨.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٢٤.
(٥) المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٨٩.

التدبر اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني بقوله: «عبارة عن النظر في عواقب الأمور»[١].

الصلة بين التفكر والتدبر:

يظهر الفرق بينهما في أن «التدبر تصرف القلب بالنظر في العواقب، والتفكر تصرف القلب بالنظر في الدلائل»[٢].

٣ التذكر:

التذكر لغةً:

«ذكرت الشيء خلاف نسيته، ثم حمل عليه الذكر باللسان»[٣].

فالتذكر في اللغة يدور حول حفظ الشيء، والذي قد يكون بالقلب أو باللسان.

التذكر اصطلاحًا:

«وهو محاولة النفس استرجاع ما زال من المعلومات، ثم الذكر وهو رجوع الصورة المطلوبة إلى الذهن»[٤]، فهو يجعل من التذكر عملية للقيام بالذكر.

الصلة بين التفكر والتذكر:

١. يجعل الإمام ابن عاشور الفرق بينهما دقيقًا فهو يجعل التذكر من العمليات العقلية التي تستلزم وجود المعلومات المسبقة، حتى إذا أصاب العقل سهو، جاءت عملية التفكر؛ لتفتح لها الآفاق من جديد وتبقيها عالقة في الذهن[٥].

٢. التذكر في القرآن ليس فيه إعمالٌ للعقل بالتحليل والتركيب والاستنتاج، لكنه عبارة عن استحضار لما هو منسي، ومن ثم توظيفه لاستخراج الحكم والعبر أو طلب معاني أخرى منه، لذلك فمعنى التذكر دائمًا يرتبط بدلائل التوحيد والبراهين الواضحة من «الأشياء المبثوثة في الكون والنفس الإنسانية والتاريخ الإنساني وآيات القرآن الكريم»[٦].

(١) التعريفات ص٥٤.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص٧٥.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٥٨- ٣٥٩.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٨١.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٨٩.
(٦) العمليات العقلية في القرآن الكريم، عبدالرحمن صالح عبد الله، مجلة جامعة الملك سعود، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية، السعودية ١٩٩٥م، عدد ٧، ص ١١٦.

٤ التفقه:

التفقه لغةً:

أصل الفقه في اللغة: «العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين؛ لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم...، وفقه الشيء: علمه...، والفقه: الفطنة»[١]. فالفقه في اللغة هو الفهم والعلم بالشيء وحسن إدراكه.

التفقه اصطلاحًا:

يأتي بمعنى: «التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم»[٢]. ويرى البقاعي أنه «العلم بمفهوم الكلام ظاهره الجلي وغامضه الخفي بسرعة فطنة وجودة قريحة»[٣].

ويمكن تعريف الفقه بأنه: إعمال العقل للتوصل للمعاني الخفية، اعتمادًا على الفهم الدقيق للأمور والنظر في أعماق الأشياء.

الصلة بين التفكر والتفقه:

«التفقه هو خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير، فالتفقه هو الحصيلة التي تنتج عن عملية التفكير، وتجعل الإنسان أكثر وعيًا لما يحيط به، وأعمق إدراكًا لأبعاد وجوده وعلاقته في الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دومًا»[٤]. وهذا المعنى وارد إن كان المقصود به عملية التفكير التي تختلف في أصلها عن عملية التفكر التي قد تشير إلى مرحلة تعقل الأشياء فقط. بهذا يكون مصطلح الفقه يعبر عن مرحلة الفهم الدقيق والعميق لخفايا الأمور والمعاني.

٥ الاعتبار:

الاعتبار لغةً:

جاء عند ابن منظور «عبر الكتاب يعبره عبرًا: تدبره في نفسه...، العبر جمع عبرة، وهي كالموعظة مما يتعظ به الإنسان ويعمل به ويعتبر؛ ليستدل به على غيره»[٥]. فمعنى الاعتبار في اللغة هو النظر في الأمور المتساوية والانتقال فيها من حال إلى حال عن طريق الاستدلال على غيرها والاتعاظ بها.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٤٥٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ٢٠١.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٥٣١.
(٤) مدخل إلى موقف القرآن من العلم، عماد الدين خليل ص٩٤.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٧٨٣.

الاعتبار اصطلاحًا:

قال الرازي: «الاعتبار هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها»[1]. وجاء في التحرير والتنوير: «الاعتبار: النظر في دلالة الأشياء على لوازمها وعواقبها وأسبابها، وهو افتعال من العبرة، وهي الموعظة»[2]. فالاعتبار اصطلاحًا يعني: النظر في حقائق الأشياء المعلومة ودلالتها على أسبابها ونتائجها والاتعاظ بها.

الصلة بين التفكر والاعتبار:

إذا كان التفكر هو عملية عقلية وجدانية، تعمل على استثمار المعارف والدلائل؛ للتوصل إلى حقائق الأمور بالنظر فيها، فإن الاعتبار هو نتيجة هذه العملية العقلية، وما تم التوصل إليه من نتائج من خلال التفكر.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٧٢.



الحث على التفكر

تنوعت أساليب القرآن في الحث على التفكر، وسوف نتناول هذه الأساليب بالبيان فيما يأتي:

أولًا: سرد القصص والتعقيب عليها:

القصة هي أحد أساليب الهداية في القرآن الكريم؛ لما فيها من سحر يطغى على النفوس؛ ولأن الإنسان بطبعه مولع بتتبع الأخبار ومعرفة الأحوال، فهي تجعل الإنسان يعيش وقائعها وكأنه يحضرها، فيعيش بإحساسه وعقله الموقف القصصي، ما يرسخ نتائجه وعبره ويطبعها داخل النفس، فالاتعاظ والاعتبار هو الغرض الأساس الذي سيقت من أجله القصة في القرآن لا مجرد الاطلاع على قصص الأمم السابقة والشخصيات الماضية.

وتمتاز صياغة القصة في القرآن بإيصال المعنى في قالب سهل، يشد القارئ فيثير انتباهه ويرسخ المعنى في الذهن، كما تعمل على هز العقول ودغدغة المشاعر، وتغيير السلوك عن طريق تجديد الهمم، وزيادة خبرات الإنسان والانتفاع بخلاصة تجارب السابقين، فهي أسلوب رقيق دقيق يأخذ بالألباب يلخص المعنى في أسمى صورة وأبدع عبارة؛ لأنها تعتمد على أسلوب المشاركة الوجدانية للأحداث، واستعمال أسلوب الإقناع العقلي من خلال الدعوة للتفكر فيها، وأخذ العبرة منها وتذكر الدروس الإيمانية والحياتية، ما يجعل قارئها لا يمل منها، ويستشف في كل مرة معنى جديدًا؛ لأجل هذا كانت القصة القرآنية مدعاة للتفكر فيها، فالاعتبار لا يكون إلا بعد النظر في الدلائل.

ويلخص سيد قطب هدف القصة بقوله: «يتمثل في إثارة الفكر البشري ودفعه للبحث عن الحق، وتقديم خلاصات للتجارب البشرية، والخروج بالعبر والعظات والسنن التي تحكم حركة الإنسان ومصيره، وإزاحة ستار النسيان عنه، وإمداده بطاقات تضيء له الطريق، وتساعده على مقاومة الإغراءات؛ تجنبًا للمصير السيئ، فتساعده على الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة»[(١)].

ومن القصص التي وردت في موضوع التفكر قصة تابع الهوى الذي آتاه الله الآيات، لكنه انزوى عنها، ورضي بسفاسف الأمور، وقد وردت قصته في سورة الأعراف التي جاءت؛ لتبين أسباب الهداية والضلال، فوافق أن ترد فيها قصة المنسلخ من آيات الله.

قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ

(١) انظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ص١٢٥.

﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٥- ١٧٦].

جاء في التفاسير أن قصة هذا الرجل تخص عالمًا من العلماء آتاه الله آياته، وقد اختلفوا على تسميته، فقد أورد الطبري[(١)] عن ابن مسعود و ابن عباس رضي الله عنهما أنه بلعم بن باعوراء، وهو من بني إسرائيل، كما ذكر رواية عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنها نزلت في أمية بن أبي الصلت[(٢)].

وذكر ابن أبي حاتم في تفسيره[(٣)] رواية عن ابن عباس أنها في زوج البسوس، وهي من بني إسرائيل أعطي ثلاث دعوات مستجابات أذهبها على زوجته، وروايات أخرى ملئت بها كتب التفسير أغلبها من الإسرائيليات لا يمكن الاعتماد عليها؛ لعدم ثبات صحتها، والمختار أن هذه الآية عامة في كل من كانت هذه حاله وصفته، فالإبهام بصلة الموصول (الذي) يدل على أن لا حكمة في معرفة اسمه ونسبه، بل هي حال عام لكل من يسلك دربه ويتبع هواه.

بدأت القصة بالأمر الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقرأ على قريش قصة ذلك العالم الذي آتاه الله تعالى العلم وحججه فأصبح عالمًا ربانيًا، وهذا من فضله تعالى وحسن توفيقه له، ولم يكن بتحصيله لها وجهده كما ظن، ما جعله يكفر بها وينبذها وراء ظهره، وقد شبه الله هذا الإعراض عن آياته بالانسلاخ كانسلاخ الجلد من الشاة، «وحقيقة السلخ كشط الجلد وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكل شيء فارق شيئًا على أتم وجه: انسلخ منه، وفي التعبير به ما لا يخفى من المبالغة»[(٤)].

وإسناد فعل السلخ للعالم ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾[الأعراف: ١٧٥].

يدل على أنه كان باختيارٍ منه، ما سهل وصول الشيطان له بعد أن كان محجوبًا عنه ببركة آيات الله وعلمه، فأصبح من الغاوين، والغواية بمعنى الانهماك في الغي والضلال.

ويذكر الله في الآية التي بعدها أنه لو كان في هذا العالم خير لرفعه الله بتلك الآيات إلى المقام الأعلى، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف ١٧٦].

وأسند الرفعة له جل وعلا؛ لأنه هو الموفق لها والهادي إليها، قال تعالى:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٢٥٣.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٣/ ٢٥٥-٢٥٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٥/ ١٦١٧-١٦١٨.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٩/ ١١١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١].

لكن لسبق علمه تعالى بأنه سيختار الخلود والميل والنزول إلى الأرض انحطاطًا وهوانًا، وقد رضي بالدنيا لما تزينت له وسار وفق هواه فيها، فاجتمع عليه الشيطان والهوى، فضاع في الدنيا، وأضاع الآخرة.

هذه هي القصة التي تتكرر في كل زمان ومكان، ومع كل عالم لم ينفعه علمه؛ إذ لم يقده إلى العمل؛ وليبين الله عظم الظلم الذي ارتكبه هذا العالم الجاهل في نفسه، ويوضح صورته ومكانته، مثل له بحيوان هو الأكثر خسة في مجموع الحيوانات، وهو الكلب ومن يقبل أن يشبه به، ثم بين محل التشابه بينهما ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾ [الأعراف ١٧٦].

فهو حيوان دائم اللهاث في حال التعب أو الراحة، والعالم الجاهل دائم اللهفة على الدنيا والحرص على ما يطيب له هواه فتراه لا يشبع منها أبدًا، ثم ختم الآية بالتعميم وضربها مثلًا للمكذبين بآيات الله ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فمشركي مكة جاءهم نور الله، ودعاهم داعي الهدى، فأبوا واتبعوا أهواءهم، فكانوا بمنزلة الكلب، ويذكر أن حالة اللهاث طبيعية في الكلب؛ لضيق في مجاري تنفسه إلا أنها في المكذبين حالة مكتسبة تخالف ما فطروا عليه من العهد الذي واثقوا الله به، وفي فاصلة الآية «تذييل للقصة الممثل بها يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن، فإن في القصص تفكرًا وموعظة، فيرجى منه تفكرهم وموعظتهم؛ لأن للأمثال واستحضار النظائر شأنًا عظيمًا في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة؛ لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس»(١).

ومن جميل القصص التي سردها القرآن على الناس والتي تستحثهم معانيها على التفكر في ملكوت الله قصة سيدنا إبراهيم مع عبدة الكواكب الواردة في سورة الأنعام، رغم أنه لم يرد فيها التفكر كمصطلح إلا أن معانيها تشير إليه وتبرز دوره في هداية البشر.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١٧٩.

كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ لَمۡ يَهۡدِنِي فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[الأنعام: ٧٥-٧٩].

وهذا المنهج الحكيم الذي سار عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام في نقض دعوى قومه؛ من أن الكواكب آلهة تعبد هو من فيض التفكر في ملكوت الله؛ ليجعلها سنة باقية في قومه ومن بعدهم، لمن أراد السير في طريق البحث الجاد الموصل إلى الحقيقة، فأراه الله سبيل التفكر في الكون؛ ليقوى إيمانه ويصل إلى «درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى، وهذا لا يقتضي سبق الشك كما لا يخفى»[(١)].

والقصة تبدأ بانتظار إبراهيم الليل، ومسايرته لقومه في عبادة الكواكب، فلما تبدى له أحد الكواكب أظهر أمام قومه اعترافه له بالربوبية، لكن هذا الكوكب ما لبث أن اختفى، هنا سلك سيدنا إبراهيم طريق العقل؛ ليبين لقومه كيف يعقل أن يعبد إله يأفل ويختفي، وأين يذهب إذا أفل؟ ومن سيخلفه ويسير الكون في هذه الحال؟ ما يدل على ضعف هذا المعبود وعجزه، وهو ما أراد سيدنا إبراهيم أن يوصل قومه إليه بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ﴾ثم عاد يبحث عن كوكب آخر يصلح؛ لأن يعبد، فرأى القمر وضاءً بنوره باهي الجمال، فأظهر لقومه استحقاقه للربوبية، لكن وجد أنه كسابقه يختفي، هنا كان على عقول البشر بمبادئها البسيطة أن تعي خطأ عقيدتها ومنهجها، وتنقض منهج العبادة، ما أقام عليهم الحجة بضلالهم.

نقل الألوسي عن ابن المنير أنه قال: «وإنما ترقى عليه السلام إلى ذلك؛ لأن الخصوم قد أقامت عليهم بالاستدلال الأول حجة، فأنسوا بالقدح في معتقدهم، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون، ولا يصغون إلى الاستدلال، فما عرض لهم عليه السلام بأنهم على ضلالة إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود، واستماعهم له إلى آخره»[(٢)].

ومجاراةً لقومه، واستدراجًا لهم؛ ليكملوا بقية الاستدلال، وجه نظره إلى الشمس وقال: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[الأنعام: ٧٨].

فالنظر فيها يدل على أنها أكبر الكواكب وأعظمها نورًا، إذًا هو الرب الذي يجب أن

(١) روح المعاني، الألوسي ٧/ ١٩٨.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٢٠٠.

يعبد بلا شك، ومع أفولها ظهرت البراءة التامة من عبادة هذه الكواكب، وتحقق إعلان الخضوع التام لخالق هذه الكواكب والسموات والأرض دون إشراك لأي شيء في فرض العبودية له.

بهذا التدرج وهذه المرونة وباستعمال طريق التفكر اهتدى إبراهيم عليه السلام إلى محاجة قومه وإبطال دعاويهم ومعتقداتهم، مشيرًا أن الإله الأعظم يجب أن يتقبله العقل والحس معًا، وهذه الكواكب تخالف بديهيات العقل في تصور عظمة الإله، ولا تتوافق مع مقتضيات الإحساس بالربوبية، فكيف يليق بكم أن تعبدوه؛ لهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (نحن أحق بالشك من إبراهيم)[1].

إن التفكر في قصة المنسلخ من الآيات، وقصة إبراهيم عليه السلام، هما نموذجان من مجموع قصص القرآن، يوحي بهدف القرآن من الدعوة للتفكر في قصصه، واستخلاص العبر منه، كي يلامس الإيمان القلوب الضالة، ويزين اليقين القلوب المسترشدة، ولم يكن هدفها التثقيف فقط.

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ٤/ ١٤٧، رقم ٣٣٧٢.

ثانيًا: ضرب الأمثال والتعقيب عليها:

اعتمد القرآن أسلوب ضرب المثل كلون من ألوان الهداية الربانية، وأسلوب من أساليب البيان الإلهي، يعالج فيها قضايا التوحيد وأحكام الشريعة، وإقامة الحجة عليها، ويعرض الحقائق؛ ليقربها من الأفهام، ويوضح خفاياها، بما يحفل به من حكم ومواعظ مجملة ومختصرة ذات طابع عقلي وجداني؛ لأنه: «تمثيل المعاني المعقولة بالصور الحسية وعكسه»[2].

وأورد صاحب البرهان أنه سمي مثلًا؛ «لأنه ماثلٌ بخاطر الإنسان أبدًا، أي: شاخص، فيتأسى به ويتعظ ويخشى ويرجو»[3].

واهتم القرآن بهذا اللون البلاغي لما له من قوة على النفس البشرية تطغى على انفعالاتها، وتوجه فكرها وتحركه؛ ليستبين التشخيص الحسي للأمر المجرد عبر صور بيانية ذات طابع فني تحقق المقصود؛ من تصحيح للعقائد، وتهذيب للسلوك، واكتساب للأخلاق، والتزام بالنهج الصحيح، بأبلغ معنى، وأوجز عبارة، يتحرك خلالها الفكر لتجلية معانيها، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣].

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ١/ ١٤٠.
(٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٤٨٧.

فكان واجبًا على تالي كتاب الله أن يتمعن في أمثاله، ويفهمها، ويعرف المراد الله منها باستخراجه للحكم المقصودة منها، وارتبطت الأمثال بموضوع التفكر في خمس آيات كريمات؛ وذلك لدقة معانيها الخفية التي تتطب جهدًا وتركيزًا؛ لاستبيانها.

فالآية الأولى هي آية سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾[البقرة: ٢٦٦].

وهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن مجموعة أمثال ساقها الله في موضوع الإنفاق في سبيله، واختلفت أقوال المفسرين في مضرب هذا المثل، فمنهم من يعد أن هذا المثل ضرب للمنفق المرائي[(١)]، ومنهم من يقول: ضرب مثلًا للمرائي بأعماله[(٢)]، ومن المفسرين من يعده ضرب للذي عمل بالطاعة في حياته ثم ختمها بعمل سيئ أذهب ما كان يعمل[(٣)].

وأخرج البخاري في صحيحه عن عبيد بن عمير قال: قال عمر رضي الله عنه يومًا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾[البقرة: ٢٦٦].

قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضي الله عنه: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا أخي قل، ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلًا لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله»[(٤)].

وقد بدأ هذا المثل باستفهام إنكاري في قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ والود هو محبة الشيء الكاملة مع تمنيه، وجاء بصيغة أحدكم؛ ليدل أن الخطاب فردي لكل إنسان؛ لأن الإنسان أناني بطبعه، ولا يوجد من لا يحب لنفسه أن يمتلك مثل هذه الجنة، والتي وصفها الله سبحانه وتعالى بأعظم صفات الجنان؛ فقد حوت أكرم الشجر من نخيل وأعناب وأكثرهما نفعًا، مياهها تجري أنهارًا، وفيها من كل صنوف الثمار؛ ليأتي بعدها على وصف حال صاحبها بأشد

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٣٢٦.
وذكره الطبري عن السدي قال: هذا مثل آخر للمرائي، وهو المرجح عنده، وروى عن ابن زيد: هو مثل للمان في الصدقة، وقال مجاهد وقتادة والربيع: للمفرط في الطاعة.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٤١.
(٣) التفسير القيم، ابن القيم ص١٦٥.
(٤) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، ٤/ ١٦٥٠، رقم ٤٢٦٤.

صفات الحاجة والحرص؛ فقد أصابه الكبر، وكان له عيال صغار لا يقدرون على كسب قوتهم، وكانت هذه الجنة مورد رزقهم فعظم حرصه لجني ثمارها، فإذا هم كذلك حتى أصاب الجنة إعصار شديد، وفي جمع الإعصار مع النار معنى آخر: «فلو اقتصر على ذكر الإعصار لكان كافيًا، ولكن لما علم الله سبحانه أن مجرد الإعصار لا تحصل به سرعة الهلاك، كما يحصل إذا كان فيه نار، قال سبحانه: ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

ثم أخبرنا باحتراقها؛ لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا يقوم احراقها بإطفاء أنهارها، وتجفيف أوراقها وثمارها، فأخبر بإحراقها؛ احتراسًا من ذلك؛ وهذا أحسن استقصاء وأتمه، بحيث لم يبق في المعنى موضع استدراك»[1].

والتفكر في مورد المثل ومضربه يوحي لنا بالتشابه الكبير بين الحالتين من ناحية وجه الشبه، وهو حصول الخيبة في وقت انتظار الحصاد؛ ولهذا قال الحسن: «هذا مثل قل والله من يعقله من الناس شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا»[2].

(١) أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم، ملك حسن عبد الرزاق بخش ص١٤١، ١٤٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢٣٧.

وختم الله هذا المثل بالدعوة للتفكر فيما بينه الله من حكم وعبر فيه، ولكي يحسن الناس التفكر في عواقب الأعمال ونتائجها وأسبابها وغاياتها؛ ولهذا سأل عمر عنها من حضره من الصحابة؛ ليثير انتباههم للتفكر فيه.

والمثل الثاني الذي يدعو الله فيه عباده للتفكر في معانيه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وهو مثل خاص بموضوع النبوة، ورد في معرض الحديث عن الذين يكذبون بآيات الله المنزلة على نبيه، فأمر الله الرسول أن يقول لهم أن ما يطلبونه منه ليس في مقدوره، «ولأن أمر الرسالة في خيالهم ينافي البشرية التي حقرها في أنفسهم جهلهم وسوء حالهم وفساد أعمالهم»[3]. فنفى عن نفسه قدرة التصرف في خزائن العطاء والإحاطة بالعلم الغيب، وما خفي من أمورهم في المستقبل مما هي من خصائص الإله، ثم نفى خصائص الملك وقدرته على الخوارق مما ليس في إمكان البشر؛ ليبين لهم أن حقيقة الرسالة تكمن في كونه بشرًا أرسل إلى بشر؛ يعايش واقعهم، ويحس بهم، ويكون قدوة وأسوة لهم حتى يلتزموا ما جاءهم به، فهو رسول يتبع ما جاءه من

(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٣٥٢.

عند الإله العظيم، وإذا بدت هذه الحقيقة فمن أعرض عنها فهو مثل الأعمى، «وهذا تمثيل لحال المشركين في فساد الوضع لأدلتهم وعقم أقيستهم، ولحال المؤمنين الذين اهتدوا ووضعوا الأشياء مواضعها، أو تمثيل لحال المشركين التي هم متلبسون بها، والحال المطلوبة منهم التي نفروا منها؛ ليعلموا أي الحالين أولى بالتخلق»[(١)].

والمثل الثالث جاء في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وهو مثل ساقه الله بعدما ذكر بغي الناس في الأرض وإفسادهم فيها، وهوان الآخرة في قلوبهم مقابل عظم الدنيا وزينتها عندهم، واستعمل المثل؛ لأنه أبلغ في الوصف وأقرب لإصابة المعنى، وأكثر تأثيرًا في النفوس، فالحديث عن الدنيا والآخرة من الأمور المجردة التي لا يستطيع الإنسان استحضارها أو تصورها، لذلك فالكلام عنها لا يقنع كما يقنع تصويرها بالأرض التي هي بين ناظريهم يوميًا، وهي حقيقة يدركها الكبير والصغير.

واستهل المثل بقصر دورة هذه الحياة الدنيا على دورة حياة النبات بكلمة (إنما) وهي «هنا لتشير إلى أن قصر الحياة الدنيا على هذا المثل المصور لبدايتها ونهايتها، أمر واضح معلوم لا يجوز لذي عقل أن ينكره، فما أشد جهل أولئك الغافلين عن هذه الحقيقة، المطمئنين لهذه الحياة الدنيا»[(٢)].

وتم تشبيه الماء النازل من السماء بالخيرات والنعم النازلة من عند المولى، ووجه الشبه بين الصورتين أن الماء هو سبب حياة النبات، وكانت النعم التي أعطاها الله للناس من مال وجاه وعلم وصحة وشباب هي سبب افتتان الناس بالدنيا، قال ابن عاشور: «شبه به ابتداء أطوار الحياة من وقت الصبا؛ إذ ليس ثمة سوى الأمل في نعيم العيش ونضارته، فذلك الأمل يشبه حال نزول المطر من السماء في كونه سبب ما يؤمل منه من زخرف الأرض ونضارتها»[(٣)].

فاختلط هذا الأمل الناتج عن هذه النعم بحياة الناس، فازدهرت وطاب عيشهم بسرعة، وامتزجت هذه النعم بحياة الناس بحيث لم تعد منفصلة عن حقيقة الدنيا،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٤٣.

(٢) أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم، ملك بخش ص١٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٤٢.

وبدت مظاهر زينة لها، كاختلاط الماء بالنبات بحيث لم يعد يظهر أمام نضارة النبات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه وصف لنمو النبات ونضوجه وتكاثره وتنوعه «وذلك؛ لأن التزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء، فجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون»[(١)]. وتزينت؛ لتحلو في عين زوجها، وعظم رجاء أصحاب الأرض فيها، وظنوا أن خيراتها لهم ولن يمنعهم منها أحد، وفي هذا إشارة إلى زخرف الدنيا وملذاتها وبهجتها وتزينها في عين طلابها حتى ظنوا أنه لا حائل بينهم وبين التمتع الدائم بها، ونسوا العمل للدار الآخرة، فلما جاء أمر الله بالهلاك أصبحت كالأرض المحصودة؛ حتى إذا رأيتها كأنها لم تكن ذات بهجة، ما أصاب صاحبها بالحسرة والندامة، ومثلها الدنيا إذا جاء أمر الله بإهلاكها، وقيام القيامة وتغيرت حالها، وتقلبت شئونها، ولم يجد صاحب الدنيا حينئذٍ ما ينفعه، وجملة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ تشير إلى قصر مدة التمتع بها، ولو كانت في نظر الإنسان طويلة.

لمثل هذه الحكم والعبر ختم الله الآية بالدعوة للتفكر في هذا المثل بعد أن فصل الآيات؛ ببيان مراحل نمو النبات من بداية النشأة إلى عاقبته، فقوله: «﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يعني: نبين علامات غرور الدنيا وزوالها؛ لكيلا يغتروا، ونبين بقاء الآخرة؛ ليطلبوها، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بأمثال القرآن ويعتبرون بها»[(٢)].

والمثل الرابع الذي ورد بشأنه التفكر هو قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف ١٧٥- ١٧٦].

وهي قصة العالم الذي لم ينفعه علمه وهو مثل «من آتاه الله آياته فكان عالمًا بها حافظًا لقواعدها وأحكامها، قادرًا على بيانها والجدل بها، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم، بل كان عمله مخالفًا لعلمه تمام

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٣٨.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ١١١.

المخالفة فسلبها»[1].

وتشبيه هذا العالم بالكلب؛ لتشابههما في الحال، فالكلب دائم اللهاث في حال الإعياء أو الراحة عادة وطبيعة فيه، يقول الرازي: «وهو مواظب عليه كعادته الأصلية، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل حاجة وضرورة، فكذلك من آتاه الله العلم والدين أغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقي نفسه فيها، كانت حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس، والفعل القبيح، لمجرد نفسه الخبيثة وطبيعته الخسيسة، لا لأجل الحاجة والضرورة»[2].

واختيار الكلب للتشبيه؛ لأنه «من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه[3] في الأرض يتشمم»[4]، وبهذا يشبهه العالم الحريص على اتباع هواه واللاهف على الدنيا، وذيلت الآية بالدعوة للتفكر «رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم، وقبح مثلهم على التفكر والتأمل، فإذا هم تفكروا في ذلك تفكروا في المخرج منه، ونظروا في الآيات وما فيها من البينات بعين العقل والبصيرة، لا بعين الهوى والعداوة، ولا طريق لهدايتهم غير هذه»[5]؛ لأن هذا المثل هو أسوأ الأمثال المضروبة والتي لا يطيقها أي بشر.

أما المثل الخامس فجاء في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وهو مثل ضربه الله لإيقاظ القلوب الغافلة عن التدبر في معاني كتابه الجليل، يتمثل فيه عظم الجبل وصلابته مع قلة تأثره بما ينزل عليه، يتشقق ويتصدع لما في هذا القرآن من المواعظ وعلو شأنه مقابل إهمال الإنسان له، والغرض منه «توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن، وتدبر قوارعه وزواجره»[6].

فالجبل بشموخه وانتصابه يخشع لنزول القرآن عليه، فيذل ويستكين ويخشع، يقول ابن عاشور: «الخشوع: التطأطؤ والركوع، أي: لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض»[7]. كما فيه إشارة إلى أن الجبل لو تميز بمكرمة الإنسان في العقل، وأدرك ما في هذا القرآن لتصدع وانهار؛ لشدة عظمته، ما يوحي أن

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٣٤٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٠٦.
(٣) خطمه: أنفه.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٩٨.
(٤) التفسير القيم، ابن القيم ص٢٨٠، ٢٨١.
(٥) المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٣٤٢.
(٦) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٠٨.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١١٧.

الذي لا يلين قلبه لهذا الذكر هو غير عاقل أبدًا، ولا يختلف عن الأشياء التي لا تعقل، وقد استعمل الله تعالى ملمح الجبل؛ لتظل الصورة ثابتة في الأذهان على مر الزمن لجميع الأجيال، كونها صورة موجودة في كل عصر، وكون حقيقة الإعراض عما في القرآن موجودة في كل زمان.

ثالثًا: أسلوب الاستفهام:

الاستفهام في اللغة: «طلب الإفهام، والإفهام تحصيل الفهم... وقد يكون الاستفهام لفظًا وهو في المعنى توبيخ أو تقرير»[(١)].

والاستفهام في القرآن «إنما يقع في خطاب الله تعالى على معنى أن المخاطب عنده علم ذلك الإثبات، أو النفي حاصل فيستفهم عنه، ونفسه تخبره به؛ إذ قد وضعه الله عندها...، فإن الرب تعالى لا يستفهم خلقه عن شيء، وإنما يستفهمهم؛ ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء، فهذا أسلوب بديع انفرد به خطاب القرآن، وهو في كلام البشر مختلف»[(٢)].

فكل استفهام في القرآن لا يقصد الله به انتظار الإجابة من الناس، بل هو تقرير لما وقر في أنفسهم وعلموه.

وجاء أسلوب الاستفهام في القضايا التي فيها آيات وبراهين ظاهرة للعيان وبادية للعقل، «فلكي يبلغ تأثيرها مبلغه من قلب المخاطب، ويثير عواطفه ورغبته في التفكر والتأمل، جاءت على شكل أسئلة تتحدى فكره وتثير انفعالاته، وتفتح بصيرته أو تعينه على الاستبصار والتعلم بجهده الذاتي...؛ لذلك تركت النصوص القرآنية الشريفة مجالًا للمتأمل؛ ليجيب بنفسه عن أسئلة القرآن الكريم، ويكون جوابه مرة من المقدمات البرهانية...، وتارة يصل بجوابه إلى النتيجة المطلوبة في الاستدلال أو البرهان؛ ليجد لذة وقناعة»[(٣)].

لذلك استعمل أسلوب الاستفهام الإنكاري عادة كتقريع لأفعال المشركين، وتوبيخًا لهم على أعمالهم، وعدم استخدام عقولهم وتفكرهم في القضايا المطروحة بين أيديهم، وقد ورد مرتين بصيغة ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ في سورة الأعراف الآية (١٨٤)، وفي سورة الروم الآية (٨)، وورد بصيغة ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ مرة واحدة في سورة الأنعام الآية (٥٠)، وجاءت هذه الصيغة الاستفهامية موجهة للمشركين؛ للتفكر في أمور قد عاينوا حقيقتها بأنفسهم، وكانت مدركة لهم، وموصولة بحياتهم، وهي أمور

(١) اللباب في علل البناء والإعراب، العكبري ٢/ ١٢٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٢/ ٣٢٧.

(٣) من أساليب التربية بالقرآن التربية بالآيات، عبد الرحمن النحلاوي ص٥٢.

عظيمة بالنسبة لعدم تفكرهم فيها، فآيتا الأعراف والأنعام أثارتا استفهامًا حول قضية الوحي، وإنزاله على الرسول صلى الله عليه وسلم، واستنكرت معاداتهم له.

ففي آية الأنعام جاء الخطاب للرسول؛ ليبين لقومه ماهية رسالته وطبيعة بعثته، فأمره الله أن ينفي لهم ما طالبوه به من معجزات وخوارق، وقرنه بمثل ضربه لبعد الاستواء بين الأعمى والبصير؛ ليدلل على الفرق الشاسع بين من يسمع الحجج فيخضع، وبين من تأخذه العزة بالإثم فيعمى عن رؤية الحق؛ لذا ختم الآية بسؤال على وجه التبكيت والتقريع لعدم تفكرهم واستخدامهم عقولهم بالنظر في أمر النبوة، ولم يكن ينتظر منهم الجواب، فالجواب واضح وضوح الشمس لمن تأمل في صورة الاستواء بين الأعمى والبصير، «فإن قالوا: نعم، كابروا الحس، وإن قالوا: لا، قيل: فمن تبع هذه الآيات الجليات فهو البصير، ومن أعرض عنها فهو الأعمى، ومن سوى بين الخالق وبين شيء من خلقه فهو أعمى العمي؛ ثم أمره بعد الإنكار للتسوية بينهما بأن ينكر عليهم فساد نظرهم وعمى فكرهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]. أي: فيردكم فكركم عن هذه الضلالات»[١].

ومثلها آية الأعراف التي جاءت؛ لتوبيخ الكافرين على اتهام الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنون، قال الطبري: «أولم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أن رسولنا الذي أرسلناه إليهم لا جنة به ولا خبل، وأن الذي دعاهم إليه هو الرأي الصحيح، والدين القويم، والحق المبين»[٢].

وورود الاستفهام؛ تعجبًا للطريقة التي ينظرون بها إلى الأمور بها، فهذا الذي ولد منهم وعاش بينهم، وعرفوا حاله، وخبروا معدنه وصفاته ورزانته، ثم يصفونه بالجنون كبرًا وعنادًا: ﴿وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

وهو الذي بعث؛ لينذرهم يوم الحساب، ويبين لهم العقاب والعذاب المقدر لكفرهم، «وفي هذا استغباء أو تسفيهٌ لهم بأن حاله لا يلتبس بحال المجنون للبون الواضح بين حال النذارة البينة، وحال هذيان المجنون، فدعوى جنونه إما غباوة منهم بحيث التبست عليهم الحقائق المتمايزة، وإما مكابرة وعناد وافتراء على الرسول»[٣].

وفي آية الروم جاء الاستفهام بصيغة التعجب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي

(١) نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٦٤١.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٨٩.

(٣) التحرير والتنوير ٩/ ١٩٥-١٩٦.

﴿أَنفُسِهِمۡۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

وهذه الآية وردت في غفلة الناس عن يوم القيامة، والانشغال بالدنيا، قال ابن عاشور: «والاستفهام تعجيبي من غفلتهم وعدم تفكرهم، والتقدير: هم غافلون، وعجيب عدم تفكرهم، ومناسبة هذا الانتقال أن لإحالتهم رجوع الدالة إلى الروم بعد انكسارهم سببين: أحدهما: اعتيادهم قصر أفكارهم على الجولان في المألوفات دون دائرة الممكنات؛ وذلك من أسباب إنكارهم البعث، وهو أعظم ما أنكروه لهذا السبب، وثانيهما: تمردهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن شاهدوا معجزته، فانتقل الكلام إلى نقض آرائهم في هذين السببين»[(١)].

«وجاءت هذه الآية؛ للتدليل على قضية البعث، وهي من أهم قضايا العقيدة التي جاء القرآن يدعو للتفكر في مقدماتها الظاهرة في حياة الناس؛ وذلك بالتفكر في النفس البشرية وغاية وجودها ومحلها بعد نهاية أجلها، ومن بعدها النظر في السموات والأرض، أين سيدرك أن لكل شيء في هذا الوجود نهاية، ويتفطن بعدها إلى حقيقة اللقاء الأخروي والحساب والجزاء، هذه

(١) المصدر السابق ٢١/ ٥١.

الحقيقة التي يسعى الناس لإنكارها؛ لظنهم الخلود في دار الدنيا؛ لذا قال الألوسي: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ إنكار واستقباح لقصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة»[(٢)].

وبهذا يظهر هدف استخدام أسلوب الاستفهام الانكاري كمحرض على التفكر كونه شديدًا على أنفس الكافرين، ويحمل في طياته الإنذار بالوعيد، وبهذا يمنحهم فرصة للتفكر العميق، ثم الإجابة السليمة عن هذه الأسئلة الموجهة إليهم بعدها الاستجابة التلقائية لنداء الفطرة وداعي الحق.

رابعًا: الثناء على المتفكرين:

«اعتمد القرآن أسلوب المدح في إثارة عملية التفكر؛ لأنه أسلوب محبب للنفوس، فالإنسان بطبيعته يحب المدح والثناء والظهور في مظهر حسن خلقًا وخلقًا؛ ليثير إعجاب من حوله، كما أن الإنسان لا يميل إلى الأسلوب المباشر في النصح والإرشاد؛ لأنه يحب دائمًا أن يشعر أنه عندما يأتي فعلًا طيبًا، فإنما يفعل ذلك بدافع داخلي لا بناء على أوامر ونواهٍ»[(٣)]. والله تعالى يخاطب

(٢) روح المعاني، الألوسي ٢١/ ٢٢.
(٣) منهج القرآن الكريم في تربية الإنسان، مصطفى حوامدة، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، أكتوبر ٢٠٠٦م، المجلد ٣، العدد ٣ ص ٣٢.

النفس على ما جبلت عليه؛ فذلك أدعى للاستجابة؛ لهذا جاء الثناء على المتفكرين من أولي الألباب، هذه الفئة التي استحقت الثناء بجدارة؛ لأنها عملت بوصايا ربها، فوصلت إلى أعلى منازل السالكين إليه، فكانت بحق قدوة وجب التأسي بها.

وقد نالوا هذه المرتبة حين مدحهم الله سبحانه وتعالى في أواخر سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

و(أولو الألباب) هم أصحاب العقول الصافية، والقلوب النيرة، والألباب جمع (لب) ويذكر اللب في مقابل القشر، يقول ابن عاشور: «واللب في الأصل خلاصة الشيء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان؛ لأنه أنفع شيء فيه»[(١)].

وقد وردت لفظة (أولي الألباب) في القرآن ست عشرة مرة، كلها على سبيل المدح والثناء.

وحاز أولو الألباب هذه المكانة المرموقة في رحاب الله؛ لأنهم تمسكوا بحبلي الذكر والفكر، هذا الذكر الذي ملأ القلوب وفاض على الألسنة، وكان مرافقًا لهم في كل حركاتهم وسكناتهم، ما يدل على استحضارهم للمعية الربانية في كل وقت، وعلى كل حال.

فهم قيام في نهارهم يعملون ويجاهدون ويذكرون الله، وهم قعود وقت الراحة لا ينسون ذكره، بل حتى وهم نيام على جنوبهم يذكرونه.

هذه الحالة الربانية والخوف الشديد من الله جعلهم يرون كل شيء في هذا الكون دليلًا على وجود الله، وبديع خلقه، وعظيم حكمته.

فانطلقوا بأبصارهم يتفكرون ما بين السموات والأرض، فزادهم الانفتاح على كتاب الله المنظور معرفة لأسرار الوجود، وفقهًا لسننه ونظامه الدقيق، فامتلأت قلوبهم بنور الله، وفاضت خشوعًا وإنابة لرب الكون ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

لتتفجر ينابيع التسبيح والإقرار بتلك العظمة والقدرة من قلوبهم على ألسنتهم فتلهج بالدعاء، راجين النجاة من عذاب النار، فبعملية التفكر هذه يغذون القلب بالإيمان، ويزيدون فيه نفحة اليقين، كما يصبغونه بصبغة الجمال النابع من جمال الكون وسحره، فتنطبع أقوالهم وأفعالهم ذوقًا وإحسانًا مع الناس، وإبداعًا وإتقانًا في

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٦٤.

الحياة.

وقد جاء في صحيح ابن حبان عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة -رضي الله عنها- فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا، فقال: أقول يا أمه، كما قال الأول: (زر غبًا تزدد حبًا). قال: فقالت: دعونا من رطانتكم هذه، قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: (يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي) قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبك وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: (أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠])[1].

وفي وصف السيدة عائشة رضي الله عنها لحالة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية، بيانٌ لأسمى نموذج للمتفكرين في ملكوت الله سبحانه وتعالى، وفي هذه صورة لما ينتج عن التفكر من زيادة في العبادة، وسمو في الإيمان.

والظاهر أن الذكر الوارد في الآية على العموم، ويشمل الصلاة، وهو ذكر باللسان، وحضور القلب، فهم «الذين لا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم باطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته»[2].

ولما وصفهم تعالى بالذكر، ثنى بعدها بالفكر؛ لأن الذكر لا يكمل إلا مع الفكر.

وفي هذا يقول الألوسي: «قدم الذكر على الدوام على التفكر للتنبيه على أن العقل لا يفي بالهداية ما لم يتنور بنور ذكر الله تعالى وهدايته، فلا بد للمتفكر من الرجوع إلى الله تعالى ورعاية ما شرع له»[3].

يقول الرازي في تفسيره: «في هذه الآية جمع لأصناف العبودية الثلاث، وتحقيق لمعنى الإيمان الذي هو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

إشارة إلى عبودية اللسان، وقوله: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى عبودية الجوارح والأعضاء، وقوله:

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٢/٣٨٦، رقم ٦٢٠.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٦٨.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٥٨.
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٥٤.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى عبودية القلب والفكر والروح، والإنسان ليس إلا هذا المجموع»[1].

ولنا في قصص السلف الصالح عبرة ومثل، فقد قال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة، أو لي فيه عبرة[2]. وأخرج ابن المنذر[3] عن عون قال: سألت أم الدرداء: ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكر والاعتبار.

فـ(أولو الألباب) ناس ارتقوا بقلوبهم وعقولهم عن براثن الأرض، فلم تعد تلامسها، وحلقوا ما بين السموات والأرض في رحلة فكرية قلبية، وصلوا من خلالها إلى عمق الأشياء، وانقلبت عقولهم من حالها إلى حال اللب، وهو أكمل وأخلص الأحوال، رأوا من خلالها غاية الوجود وحكمه العجيبة، وأسراره العظيمة، فنادوا ربنا ما خلقت هذا باطلًا، فكانت نتيجة هذا التواصل اعترافًا بالربوبية وتنزيها عن العبثية، منبعها الذكر الكثير والفكر الرصين؛ لينتهوا من هذه الرحلة الإيمانية بإدراك عظم ذنوبهم وتقصيرهم أمام نعم الله فاختاروا الآخرة، وطمعوا في الوقاية من عذاب النار.

مجالات التفكر

تعددت مجالات التفكر في القرآن وسوف نتناولها فيما يأتي بالبيان:

أولًا: التفكر في الآفاق:

يعتبر الكون مجالًا واسعًا ورحبًا تدور فيه أنظار الناس، ويعملون فيه عقولهم، ما جعل ميدان الآفاق أوسع مجالات في موضوع التفكر حتى غلب عليه، وأصبح إذا أطلق مصطلح التفكر أريد به آيات الله المنظورة المنتشرة في الكون، فكان مجالًا تنوعت فيه الصور والمظاهر، وتعددت حوله الآيات والدلائل، وكثرت داخله الأسرار والحكم.

والتفكر في الكون يكون تفكرًا في خلق الله من جهة دلالته على خالقه؛ لهذا استعمل لفظ (خلق) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

فالتفكر ليس مقصودًا لذاته، بل الهدف منه بيان سر الإعجاز والقدرة، ومعرفة عظمة الخلق والخالق، والتفكر في خلق السموات يكون من جهة ارتفاعها بغير عمد ورحابة آفاقها، وإحكام صنعها، وشدة إتقانها، ودقة نظامها، وثبات نواميسها بما يوافق حياة الإنسان، وما حوته من كواكب كالشمس

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٥٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٤.
(٣) أخرجه ابن المنذر في تفسيره، ٢/ ٥٣٤.

والقمر وغيرها، ونجوم مسخرات، وفي كل ذلك آية على صنع القدير، فلو أن الشمس تبتعد عن الأرض لتجمد كل شيء، ولو أنها تقترب منها لاحترق كل شيء، فكل قوانين الكون مبنية على نسب كمية وكيفية تناسب وجود الإنسان وتسهيل مهمته على الأرض، ففي اختلاف الليل والنهار من جهة الظلام والنور مراعاة لتحقيق الراحة والهدوء في الليل، والحاجة للضوء في النهار سعيًا للعمل.

والتفكر في الأرض وما حوته من آيات وعجائب تعجز الألباب عن حصرها، من تنوع للكائنات إلى عظم الجبال وشق الأنهار واتساع البحار، وما تحويه من معادن، وفي كل منها عالم دقيق كبير المعاني كثير الغرائب تعجز العقول عن إدراكه؛ لذلك خصها الله سبحانه وتعالى بالتفصيل، وهي أقرب للإنسان من عالم السماء، فآفاق الكون لا يستطيع معرفة كنهها عوام الناس.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

فالأرض بسيطة للإنسان يسير فيها ويتقلب بين جنباتها، منها خلق، وفيها يعاد، وبها معاشه، جعلها الله قرارًا للإنسان، وسخر له ما فيها؛ ليقيم شئونه عليها، فمدها فيه تسهيل لعمل الإنسان من إقامة الزراعة على سطحها التي هي عماد أكله وحياته، وبسطها طولًا وعرضًا يسهل الانتقال في أجزائها شرقًا وغربًا شمالًا وجنوبًا، ومن عظيم آيات الله فيها تثبيت تربتها بالجبال الرواسي، وشق الأنهار فيها، وجعل فيها المياه الباطنية قريبة من سطح الأرض؛ ليسهل على الإنسان استغلالها، فلو كان على الإنسان إحضار المياه من البحار لما قامت زراعة ولا تجارة ولا حضارة، وذكر الأنهار بعد الجبال؛ لأن ماء النهر عادة ما يكون من ذوبان ثلج الجبل، فهذه آيات عظيمة على الإنسان الانتباه لها.

ولأن الإنسان بطبعه يكره البقاء على نمط واحد كان تنوع الثمار وكثرتها آية أخرى، وجعل من هذه الأنواع زوجين اثنين الحلو والحامض، الأبيض والأسود...، كما أن فيه إشارة إلى وجود الذكر والأنثى في كل نبات، فبهما يتحقق معنى الزوجية، ويتكاثر النبات.

«ومن هذا يتبين أن كلمة زوجين تتضمن التقابل الذي يعم التقابل بين الذكر والأنثى، والتقابل في الألوان، والتقابل في الطعم، والتقابل في الصغر والكبر، وهذا كله في أرض واحدة، وكان في اتحاد الأرض واتحاد الماء أن تكون شيئًا واحدًا في لونه أو طعمه...، ولكن تعددت وتخالفت، فدل

هذا على وحدة الصانع الحكيم العليم المريد الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»[1].

وأشار إلى سنة التسخير، وهي سنة لها ارتباط وثيق بموضوع التفكر؛ لأنها تدخل ضمن إطار مهمة الإنسان على الأرض، وجاء البيان الإلهي عامًا شاملًا في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]؛ ليطلب من الإنسان «أن يحلق في فضاء السموات وأن يغوص في أعماق الأرض بفكره ولما تفيده (ما) من الإبهام، فإنها تدفع الإنسان إلى التعمق في اكتشاف أسرار ما في السموات وما في الأرض، فهي شاملة للباطن المخفي، وللظاهر المشاهد من أسباب التسخير؛ لاستثماره في نفع الإنسان»[2].

فإبهام الآيات يشير إلى كثرتها وتنوعها «وذلك؛ لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية»[3].

كما أن في تنكيرها دلالة على الكثرة والتعظيم، فكل ذلك يتناسق مع العموم المدلول عليه بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

ولأن التسخير بعيد الإدراك والمشاهدة جيء بالتفكر الذي يغوص في معاني ودلائل الأشياء، وكل إنسان على قدر علمه وفهمه وتركيزه يصل إلى إدراك المطلوب.

وبالمقابل من ذكر التفكر في الأمور الكبيرة في الكون جاءت الإشارة إلى الأمور الصغيرة والتي قد يغفل عنها كثير من الناس، والتي تمثل في حد ذاتها معجزة من معجزات الخلق.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩].

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهام والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء، لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم[4].

فجاء لفت الانتباه في القرآن إلى عالم النحل، هذه المملكة الحصينة التي تحكمها قواعد وأركان يستحق أن يعي الإنسان نظامها ويحتذي به، والعجيب من أمرها أنها

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٨٩٥.
(٢) منهج القرآن في صياغة تفكير الإنسان، زياد خليل الدغامين، مجلة الفرقان، ص٢٠٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٠٢.

تسير بدقة متناهية لا ترى فيها عوجًا أبدًا، فتختار مكانًا آمنًا في الجبال، وعلى الشجر؛ لتبني فيه خليتها حتى لا تصلها الحيوانات، ولا تطالها الأيدي، وتهندسه في أشكال سداسية؛ لتضمن استغلالًا تامًا للمكان يساعدها على وضع البيض والاعتناء به، كما أن كل فرد في هذه الخلية مكلف بمهام يدركها منذ فقسه، إضافة إلى أن النحل مضرب المثل للتفاني في الجد والنشاط، ودليل ذلك الشراب المعجز الذي شهد له القرآن الحكيم بالنفع والشفاء.

يقول الألوسي: «إن من تفكر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة التي مرت الإشارة إليها، وخروج هذا الشراب الحلو المختلف الألوان، وتضمنه الشفاء جزم قطعًا أن لها ربًا حكيمًا قادرًا، ألهمها ما ألهم وأودع فيها ما أودع، ولما كان شأنها في ذلك عجيبًا يحتاج إلى مزيد تأمل ختم سبحانه الآية بالتفكر»[(١)].

ومن حكم المولى أنه بين أن التفاضل بين الخلق ليس من جهة الفضل والاستحقاق؛ إذ إنه لا ميزة للنحل في الطول أو العرض أو الجمال، لكن بعمله وجهده وإتقانه نال العسل، وفوقها اختصاصه بسورة تتلى إلى يوم القيامة، وفي هذا لفت لعقول الناس، ألا يحقروا خلق الله، أو يحقروا أنفسهم، فكل ميسر لما خلق له.

فنظرة القرآن للكون جاءت مناقضة لما شاع في فكر الإنسان القديم، من أن الكون والطبيعة مضادة تمامًا «للتصورات الكونية الميثولوجية القديمة التي جعلت الإنسان البدائي يستشعر الخوف من الكون، ويعتبره خارجًا تمامًا عن نطاق عمله وقدرته، ويفسر ظواهره المختلفة بعلل وهمية خيرة أو شريرة، أو آلهة يسترضيها بألوان الطقوس البدائية»[(٢)]. بل جعل منها دلائل على قضايا مصيرية؛ ليكون ذلك أزيد في إيمانه بالاعتماد على العلم واليقين، ويحسن التصرف في هذا الكون.

ثانيًا: التفكر في الأحكام الشريعة:

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

أي: كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيده، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: في زوال الدنيا وفنائها،

(١) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ١٨٧.

(٢) الإنسان والكون في الإسلام، التفتزاني ص٣٨.

وإقبال الآخرة وبقائها[١].

قال ابن عاشور رحمه الله: «ولا يخفى أن الذي يصلح للتفكر هو الحكم المنوط بالعلة، وهو حكم الخمر والميسر»[٢].

من أدب المؤمن مع ربه التفكير في أحكامه الشرعية، واليقين بأن المصالح متحققة يقينًا بالأخذ بأحكامه سبحانه وتعالى، وما أصاب الأمة من بؤس وانحطاط إلا بالبعد عن تطبيق الأحكام الشرعية.

ثالثًا: التفكر في النفس الإنسانية:

إن النفس البشرية مجال صغير من مجالات التفكر في الخلق، لكنه عظيم عظم ما يحويه من آيات ودلائل على قدرة المولى -جل وعلا-، ودعوة القرآن للتفكر في النفس تعمل على إثارة العقل للبحث في آفاقها، وتجلية كنهها واكتشاف أسرارها، وجاء الحديث عن النفس في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

وفيه توبيخ للكفار الذين قصرت مداركهم على الحياة الدنيا وشواغلها ونسوا العمل للآخرة، وفي خضم هذه الحياة تكون النفس البشرية مجالًا قريب التأمل، فلو تفكر الإنسان في أصله ونشأته[٣] ومراحل خلقه، أطوارًا في بطن أمه يتقلب ما بين النطفة والعلقة والمضغة؛ ليتشكل جنينًا، ويخرج من الرحم وليدًا، لا قدرة له على الإدراك أو التعقل ولا طاقة له بأي عمل، ثم يصير طفلًا فشابًا يافعًا، ثم شيخًا هرمًا، نفذت قوته، وساءت حاله؛ ليستقبله بعدها القبر، لأدرك قصر هذه الدنيا وفناء لذاتها، ما يبعث على إعادة النظر في حياته وتصرفاته؛ ليجعل منها دربًا موصلًا إلى الجنة.

وجاءت آيات كثيرة تنبئ الإنسان بحقيقة نشأته وتذكره بأصله، حتى لا تأخذه العزة بنفسه وقوتها وجمالها وينسى فضل الخالق عليه وما أمره به من تكاليف، وتفرقت آيات الخلقة في القرآن وتشعبت الدلائل في كل آية بما يخدم السياق القرآني في كل سورة، وليعظم الأثر في القلب، ويحصل الإدراك الواعي بالمعجزات البينات، فيعترف القلب والعقل بقدرة الخالق وإعجازه.

فشكل الإنسان وجمال صورته واستواء أعضائه ووظائفها على هذه الهيئة المعتدلة «أمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق، والأدب الجم، والحب لربه الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقة تفضلًا منه ورعاية ومنة...، وإن عجائب الإبداع في

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٣٥.
(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٣٥٣.
(٣) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ٤٣٥- ٤٤٠، مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٩٦.

خلقه لأضخم من إدراكه هو، وأعجب من كل ما يراه حوله»[1].

كما أن هناك من الحقائق التي تعيش في داخل الإنسان وهو غير قادر عن إدراكها كماهية العقل والروح، ولا يمكنه الاستغناء عنها «فهي وإن كانت من مكونات الإنسان التي بها صار إنسانًا إلا أنها ليست مادية، ولا يمكن حصرها بين فكي الزمان والمكان اللذين لا قدرة للعقل البشري على الإدراك خارج نطاقهما، فهذا في حد ذاته أكبر تحد يدعو الإنسان للتواضع والإذعان»[2]، وعدم قدرته للوصول إلى حقيقة الأشياء نابعة من كونه بعيدًا عن منهج الحق والإيمان.

والتفكر في النفس ينبه إلى التفكر في صفاتها وأعمالها، فالنفس كما يقول ابن القيم: «النفس دنيئة وطبيعتها أنها أمارة بالسوء»، وأمارة من صيغ المبالغة الدالة على الكثرة والاستمرار، فإذا عرف الإنسان طبيعة النفس حاول تغييرها ومجاهدتها وعدم الخضوع لطلباتها.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

لذا يبين ابن القيم أن أصل أفعال الإنسان نابع من أفكاره وخواطره التي تركها تجول في نفسه ولم يمحصها ويدافعها، وفي هذا يقول: «دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، ودافع الفكرة فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلًا، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها»[3].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

فيه دعوة للنظر في النفس من جانبين؛ جانب خلقها وعجائب صفاتها وسيرورة أجهزتها، وجانب النظر في أفعالها ومقاربتها للصواب، وصفاتها وكيفية تهذيبها.

وجعل أبو حامد الغزالي مجاري الفكر تصب كلها بما يزكي النفس ويهذبها، فهي أربعة عنده: الطاعات، المعاصي، الصفات المهلكات والصفات المنجيات، ثم يفصل في كيفية استشعار هذه المعاني الروحية بواسطة التفكر في كل نوع على حدة، نذكر مثالًا منها، يقول فيه: «فليتفكر كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم، وإن العلوم لا يثمرها إلا أفكار، فإذا أراد أن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٤٨.
(٢) التفكر من الشهود إلى المشاهدة، مالك البدري ص٦٩.
(٣) الفوائد، ابن قيم ص٣١.

يكتب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش في ذنوبه أولًا، وليتفكر فيها، وليجمعها على نفسه، وليعظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد الشديد الذي ورد في الشرع فيها، وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم»(1).

وقلما ينتبه الإنسان إلى فضل المولى عليه في منحه نعمة الزوجية، وكونها من نفسه؛ ليسهل التقارب والتوافق، وجعل في تلك العلاقة التي بين الجنسين «سكنًا للنفس والعصب، وراحة للجسم والقلب، واستقرارًا للحياة والمعاش، وأنسًا للأرواح والضمائر، واطمئنانًا للرجل والمرأة على السواء»(2).

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

فالسكينة والمودة والرحمة أسس بناء الأسرة السعيدة، وأركانها القويمة التي تقف بها سدًا منيعًا في وجه المشكلات التي تعصف بها، فوجود هذه الأسس لا يعني انعدام المشاكل الزوجية؛ لأن الاختلاف حاصل بين البشر خاصة بين الزوجين من جهة التركيب والوظيفة والتفكير.

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ٤٣٠.
(2) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٦٣.

«واختلفت أقوال العلماء في المراد بالمودة والرحمة، فعن ابن عباس ومجاهد المودة: الجماع، والرحمة: الولد؛ وقاله الحسن. وقيل: المودة والرحمة عطف قلوبهم بعضهم على بعض، وقال السدي: المودة: المحبة، والرحمة: الشفقة؛ وروي معناه عن ابن عباس قال: المودة حب الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها أن يصيبها بسوء»(3).

وكلها حالات يتجسد فيها معنى المودة والرحمة وليس بينها تعارض، «فتفسير المودة بالجماع هو بداية ومؤشر على السكن القلبي، والجماع غالبًا لا يحدث إلا بعد وجود طمأنينة وسكينة بين الزوجين، فهذا هو الاستقرار الجسدي المؤقت يتبعه استقرار دائم، هو وجود التراحم والرحمة بين الزوجين، فهذه المودة والرحمة مدعاة لحصول التناسل وإيجاد الولد»(4).

ونلاحظ أن هذه الأسس المتينة هي في حقيقتها أسس عاطفية لبناء اللبنة الأساسية في المجتمع والحضارة وهي الأسرة.

فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لم ير للمتحابين مثل النكاح)(5).

(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٧.
(4) البناء العقلي في ضوء القرآن الكريم، ميساء كمال قلعجة ص٦٧.
(5) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح،

وهذا يدل على أن الإسلام لم يهمل هذا الجانب المتأصل في الإنسان، وراعى فيه تكوينه النفسي والروحي، وجعلها آيات يتعمق فيها العقل بالتفكر؛ ليكتشف مدى دلالتها على مبدع هذه النفس البشرية.

فالمودة بين الزوجين تمحو آثار الأخطاء والزلات الواقعة في الحياة، وتنمي روح المشاركة بينهما في مصاعب الحياة بالتعاون والتكافل في الأفراح والأتراح، والرحمة بينهما تجعلهما يغضان الطرف عن التقصير الوارد منهما، وتحمل بعضهما في حال المرض أو الكبر.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «وأما الود فهو خالص الحب وألطفه، وأرقه وأصفاه، وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة»[(١)].

والمقصود من السكينة السكن القلبي؛ لأنها ارتبطت بحرف الجر (إلى)، والتي تأتي بمعنى الغاية، في حين تأتي (عند) بمعنى المكان؛ لأنه «يقال: سكن (إليه) للسكون القلبي، ويقال: سكن (عنده) للسكون الجسماني»[(٢)].

وهي من السكون، والذي يكون بعد الحركة والنشاط.

وتعلقت السكينة بالمرأة لحاجة الرجل لها وطلبه لها حتى إذا وجدها هدأت نفسه واستقرت حياته، واستطاع أن يحقق النجاح في حياته، وهذه السكينة هي خصيصة في المرأة ووظيفتها الأساسية، بما ركب الله فيها من العاطفة والحنان؛ لتكون ملاذ الرجل الآمن، ومحضن الأولاد الحصين، وفق فطرة الله التي فطرها عليها، وبالمقابل يعمل الرجل على مبادلة المرأة مشاعر المودة والرحمة؛ وذلك لحاجة المرأة لهما، فطبيعة المرأة العاطفية تجعلها تنظر للأمور بمقياس العواطف، ونقصها في العقل والدين يجعلها تحتاج دائمًا إلى الرحمة، وبمعنى أشمل، فالسكينة والمودة والرحمة مطلوبة في كل طرف.

ثم تأتي الرحمة في آخر هذه الأسس «لأن البشر عامة أبناء أغيار، وكثيرًا ما تتغير أحوالهم، فالقوي قد يصير إلى الضعف، والغني قد يصير إلى فقر، والمرأة الجميلة تغيرها الأيام أو يهدها المرض»[(٣)].

وبهذا الرباط المتين تتوثق عرى البيت النموذجي، ويلاحظ في الآية أن الله سبحانه وتعالى جعل السكينة هدفًا للتزاوج، ومقصدًا له، فهي هبة ربانية، في حين أن

باب ما جاء في فضل النكاح، ١/ ٥٩٣، رقم ١٨٤٧، والحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، ٢/ ١٧٤، رقم ٢٦٧٧.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٦٢٤.

(١) روضة المحبين، ابن القيم ص٤٦.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٩٣.

(٣) تفسير الشعراوي ١٨ / ١١٣٦٠.

المودة والرحمة ربطهما بفعل الجعل، والذي يقتضي إحداث الشيء بعد تكوينه فهما أمران يعمل الإنسان على إحداثهما؛ ذلك أن الرجل لا تربطه بالمرأة أية معرفة أو رابطة، لكن بفطرته يميل إليها ويسكن لها، حتى إذا تم الزواج يحدث الله بينهما المودة والرحمة بعد أن لم تكن.

من أجل هذه المعاني استدعي التفكر في آية الزوجية؛ لاحتوائها على عدة آيات، يفصلها الطاهر بن عاشور بقوله: «منها أن جعل للإنسان ناموس التناسل، وأن جعل تناسله بالتزاوج، ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه، وأن جعل أزواج الإنسان من صنفه، ولم يجعلها من صنف آخر؛ لأن التأنس لا يحصل بصنف مخالف، وأن جعل في ذلك التزاوج أنسًا بين الزوجين ولم يجعله تزاوجًا عنيفًا أو مهلكًا كتزاوج الضفادع، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة، فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة»(١).

فالذكورة والأنوثة ضرورتان متكاملتان كتكامل الليل والنهار...، لذلك تأمل دقة البيان القرآني حين جمع بين الليل والنهار، وبين الذكر والأنثى، وتدبر هذا المعنى الدقيق في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١-٤].

فهذا الاختلاف ناتج؛ لأن لكلٍ منهما مهمته، كما أن الليل للراحة، والسكون والنهار للسعي والعمل، وبتكاملهما تمضي الأيام، وفي هذا إشارة إلى التكامل بين الرجل والمرأة، فكما أن الليل لا يساوي النهار في العمل المؤدى في كل منهما، فلا مجال لمساواة وظيفة الرجل بوظيفة المرأة في الحياة، فلكل منهما خصائصه الجسدية والعقلية والنفسية التي تمنحه القدرة على أداء مهمته، ومن أجل ذلك كان المناسب لآية الزوجية لما تحتويه من آيات عدة وأسرار في خلق الله تعالى وحكمه أن يربط تحصيلها بالتفكر.

رابعًا: التفكر في آلاء الله ونعمه:

يعتبر عرض آلاء الله ونعمه المتفضل بها على البشر من أكثر الأساليب انتشارًا في القرآن الكريم، وذلك بهدف تنبيه الناس على آيات الله وبيان قدرته وعظمته وحكمته في الخلق، ودعوة لهم للتفكر فيها قصد زيادة الإيمان وشكرًا لخالقها، وإيقاظ الهمم النائمة للاستفادة مما مكن الله الإنسان منه، كما أن فيها لمسة من الجمال تريح الإنسان،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٧١.

هذا ما يؤثر على نفسية الناظر والمتفكر فيها بما يكسبه الراحة والتركيز، ويحدث تغييرًا في معتقداته وأفكاره. وهذه الآلاء تملأ السماء وتفيض بها الأرض، لكن قلوب الناس غافلة عنها، فتكريرها وإعادة التذكير بها يبعثها من جديد ويستثير العقل فيها.

ويهدف القرآن من عرض الآيات الكونية والمخلوقات وربطها بالعمليات العقلية تنبيه الإنسان إلى دور العقل في اكتشاف نعم الله عليه، وتسخيرها لإقامة الخلافة الخاضعة لله وإحداث التكامل والتوازن الكوني، وكل آلاء الله المرتبطة بموضوع التفكر تعتبر من أساسيات الوجود.

ويعرضها القرآن الكريم كنموذج يحتذى به، ولعقل الإنسان الحرية في استكشاف باقي الآيات بواسطة المنهج الذي علمه الله له في القرآن.

ونعم الله تعالى على الإنسان كثيرة، يقول تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

وهي دعوة لذوي العقول النيرة أن ينهضوا بأعباء النظر الدقيق في آلاء الله ونعمه، التي لا يحصيها حاصٍ، ولا يعدها عاد، ولو اجتمع كل البشر وأعملوا عقولهم لن ينتهوا أبدًا من القراءة، ولن يطووا هذه الصحف؛ إذ كلما نظروا إلى آيات الله جاءهم منها جديد، كما نبه سبحانه وتعالى إلى أن هذه النعم تحتاج إلى إعمال الملكات العقلية التي أمد الله بها الإنسان، وعلى رأسها التفكر؛ للقيام بأداء حق هذه النعم في الشكر.

ومن أعظم هذه النعم نعمة الهداية الربانية، فما كان إنزال القرآن عبثًا بل هو الحق، به تستبين حياة الناس، فلولا القرآن ما كان العقل وحده قادرًا على كشف نظم الحياة، وإدراك مغزاها، ولما كان القرآن معجزة تعجز عن فهم بعض آياته العقول، أرسل الله الرسل؛ لتبين للناس معاني الذكر الحكيم، وليكونوا قدوة لهم في التطبيق، وأيدهم بالمعجزات؛ لإقامة الدليل القاطع على منكري الرسالة.

كما ذكرهم تعالى بنعمة الماء التي بها يحيا من على الأرض، فهو شرابهم، وهو سقي زروعهم التي منها غذاؤهم وحيواناتهم، ونسب الإنزال إليه؛ لأنه لو تركه في أيدي البشر لاستقوى به القوي، وضاع حق الضعيف فيه؛ لذلك جعله آية يستحق الشكر عليها، وهذه النعمة في حد ذاتها قد تصبح نقمة إذا ابتعد الإنسان عن المنهج القويم، فتكون مطرًا شديدًا يدك عرش الظالمين.

والتذكير بالنعم يكون في جو مليء بصفات الرحمة والكرم والفضل، تجعل قلب الإنسان يستحي من خالقه وتستنهضه للتأمل فيها وفي غيرها، وترغبه في البحث

والاستكشاف؛ لأن هذه النعم من الممكن التفكر فيها وإعمال العقل من غير أدوات علمية أو أجهزة مخبرية أو وسائل تكنولوجية دقيقة، فمجرد النظر الدقيق والبحث في دلالتها وغايتها يجعلها موضوعًا قابلًا للتفكر.. إضافة إلى أنها موجودة على مر الزمن، ظاهرة للعيان ليلًا ونهارًا، تعاقب عليها جميع البشر، ثابتة لمن أراد تجديد النظر فيها.

وهي متعددة الأشكال، فمن السماء إلى الأرض، وما بينهما من كائنات، هذا التنوع يضفي عليها طابع التعدد والتجدد، فأين حلقت ببصرك تجد آية من آيات الله تأخذ بألباب العقول في حسنها وجمال إبداعها، ما ينفي عنها رتابة السأم والملل.

وما يميز هذه الآلاء أن كلها هدفها واحد، فهي لم ترد عبثًا في القرآن، بل هي دلائل لقضايا أكبر منها تتعلق بأصول الإيمان (الألوهية، النبوة والوحي، البعث)، تعتمد على مرتكزات مشتركة، وإن اختلفت مواضيعها، وتنوعت، فهي ليست غاية في نفسها، بقدر ما هي دليل للوصول إلى اليقين، وهو ضابط ينبغي التنبه له، والتقيد به لكي لا يجنح التفكر فيها إلى مجال التفلسف، ويخرج عن دائرة الإيمان؛ لذلك استعمل القرآن أسلوب التعميم والإجمال في عرض هذه النعم، حتى لا يبتعد عن الغاية الأصيلة من عرضها، مع دعوته إلى البحث في أعماقها، واستثارة الفكر والوجدان؛ لاستلهام الحكم والعبر منها.

وهو منهج قرآني فريد، يخرج القرآن من دائرة الكتب العلمية التفصيلية، ويبقي له دور الدافع المثير للعقل لكي يقوم بدوره المنوط به، وهو دور قد لا يبين للمستشرقين الذين ينفون عن القرآن دوره في الاهتمام بالعقل والعلم، ويطمسون أعينهم عن حقيقة موقع العقل كأداة ووسيلة كشف لنواميس الكون، لا كما يقدسونه هم ويجعلونه مصدر المعرفة الأساسي.

خامسًا: التفكر في المآل والمصير:

وهذا المجال هو أحد مجالات التفكر التي أمر الله عز وجل بها، فالدنيا دار ابتلاء وعمل، والآخرة دار راحة وقرار، وكان التفكر في الدنيا والآخرة أول دعوة قرآنية للتفكر، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠]؛ لأنها وردت في سورة البقرة، وفيها دعوة؛ لتحصيل الخير الكثير، وتحقيق لمصالح الدارين، ومعرفة فضل الآخرة على الدنيا، وجاءت هذه الآية بعد بيان حكم الشرع في أمور شديدة تميل إليها النفس هي الخمر والميسر والإنفاق. وختمت الآية بالتفكر؛

تحريضًا على استحضار العقل دائمًا، في كل ما يخص أحكام الحياة، ومعرفة الغاية منها.

وبيان حقيقة الدنيا وسرعة زوالها جاء في عدد كثير من الآيات والأحاديث، وكان هديه صلى الله عليه وسلم أن يحث الصحابة والمؤمنين على الزهد في الدنيا والعمل للآخرة، فقد أورد مسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء)[1].

وعند البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله، فقال: (إني مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها)[2].

ومن الآيات التي دعت للتفكر في الدنيا قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ففي هذه الآية يضرب تعالى مثلًا للحياة الدنيا التي يتنافس عليها الجاهلون، ويتكالب عليها الغافلون، حتى ينسون العمل للآخرة، وهي في حقيقتها كأرض أنبتت نباتًا فنما وازدهر وافتتن به الناس، وظنوا أنهم أحاطوا بثمره وجنيه، حتى جاء أمر الله بالإهلاك، وغدت الجنة حصيدًا خامدًا، وهذا لاغترار أهلها بها، ونسيانهم فضل الله عليهم.

وجاء تشبيه الحياة الدنيا بالنبات لعدة وجوه[3] ملخصها:

«أحدها: أن عاقبة هذه الحياة التي ينفقها المرء في هذه الدنيا، كعاقبة هذا النبات، الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه؛ لأن المتمسك بالدنيا إذا عظمت رغبته فيها يأتيه الموت.

وثانيها: أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها، لا يحصل له عاقبة تحمد.

وثالثها: لما صار سعي هذا الزرع باطلًا بسبب حدوث المهلك، فكذلك سعي المغتر بالدنيا.

ورابعها: أن مالك هذا البستان لما أتعب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، ٤/ ٢٠٩٨، رقم ٢٧٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، ٢/ ٥٣٢، رقم ١٣٩٦.

(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٣٠٣.

نفسه في عمارته، وعلق قلبه بالانتفاع به، فإذا حدث السبب المهلك صار العناء الشديد سببًا لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل، فكذلك حال من أحب الدنيا وأتعب نفسه في تحصيلها، فإذا مات صار العناء الذي تحمله في تحصيل الدنيا سببًا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة.

وخامسها: لعله تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد؛ لأنا نرى الزرع الذي انتهى إلى الغاية في الحسن، ثم إن ذلك الحسن يزول بالكلية، ثم تصير تلك الأرض موصوفة بتلك الزينة مرة أخرى، فذكر تعالى هذا المثال؛ ليدل على أن من قدر على ذلك كان قادرًا على إعادة الأحياء في الآخرة؛ ليجازيهم على أعمالهم».

والتعبير بالأكل عن التمتع بالحياة تعبير حسي غاية في البلاغة، فهو يوحي بالحركية في الوصف، كصورة الناس وهم يتهافتون في يومهم، وهمهم كسب القوت، وتحصيل لقمة العيش، كل ذلك والغفلة تغمرهم، والشهوات محيطة بهم يتسابقون نحوها، وعند تأمل المثل يلاحظ «أن المثل يحكي قصة مضت وانتهت، ويتحدث عن حياة قامت ثم بادت، ولكن هذه اللقطة ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [يونس: ٢٤]. تظل تنبض بالحركة ترى فيها الناس والأنعام لا يزالون يأكلون».

وفي تصوير زينة الأرض وزخرفتها كالعروس إبراز لحقيقة الدنيا في عيون الغافلين والمفتتنين بها، وفي ظن أهلها تصوير لجهالة الإنسان بتمكنه من نعيمها، لظنه أنه أصبح أقوى وأقدر، وأنه وصل إلى كل ما يتمنى من الدنيا، فكلما رأى لذة أو زينة أو منصبًا أو مالًا سعى ليكون صاحبها، لهذا ارتبط التفكر بحقيقة الدنيا؛ لينبئ على أن معرفة حقيقتها من الأمور العظيمة التي لا يجب أن يذهل العقل عنها، فهي دار بناء ومزرعة للآخرة، وعدم إدراك هذه الحقيقة يعني الخسران في الدارين.

ولكون هذه الحقيقة قد تغيب في لحظات النشوة الدنيوية، فينسى الإنسان حقيقة الموت ويغره أمل الحياة، فلا دوام لحال ولا لبشر أو لذة فيها؛ لهذا لا بد من تعميق الفكر فيها، والتبصر بأحوالها والاعتبار بأحوال السابقين فيها؛ ليزيد الإيمان، ويتنور القلب ويزهد فيها؛ لذا خص أهل التفكر بالنظر فيها، لأنهم «أهل التمييز بين الأمور، والفحص عن حقائق ما يعرض من الشبه في الصدور»[1].

وفي المقابل من بسط الأمثال للتزهيد في حال هذه الدنيا، جاء التفكر في موضوع عظيم فيه من الدلائل على قدرة الله وتفرده

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٥.

بالملك والحكمة، وهو الموت هذه الحقيقة الربانية التي وضعها الله سبحانه وتعالى فيصلًا بين الدنيا والآخرة؛ لتنتهي دار الفناء، وتبدأ دار البقاء، وتجازى كل نفس بما كسبت.

والموت هو أعظم المصائب في الدنيا، قال تعالى: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [المائدة: ١٠٦]؛ لأنه انقطاع عن الدنيا ونفاذ لأجل الإنسان المكتوب فيها، وأعظم منه الغفلة التي تنسي صاحبها فيه، كما أنه من أقوى الدلائل التي ضربها الله دعوة للناس للإيمان بيوم البعث، هذا اليوم الذي كفر به الناس منذ القدم، ما جعل الله يقيم عليهم الحجج والبراهين، كآية لهم لعلها تثير الإيمان فيهم، فجعله معجزة من معجزات الأنبياء؛ فقد ذكره إبراهيم عليه السلام دليلًا على وحدانية الخالق حين حاج به الملك الظالم ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وموافقة الحاكم له، وعدم منازعته أو اعتراضه دليل على أن الإنسان حتى الكافر منه يؤمن بأن الحياة والموت من خصائص قدرة الإله؛ ولذلك طلب سيدنا إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى لا عن شك، بل ليتنقل من مرحلة علم اليقين التي حاج بها الملك، إلى مرحلة عين اليقين التي يرى بها صورة البعث ماثلة أمام ناظريه من خلال إحياء الطير بعد موتها.

وجاءت معجزة إحياء الموتى بين يدي سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ودلل الله على إحياء الموتى في عدة قصص قرآنية منها: قصة أهل الكهف، وقصة الذي أماته الله مائة عام ثم أحياه، والقوم الذي خرجوا من بيوتهم خائفين من الموت حتى أماتهم الله ثم أحياهم، ومع بني إسرائيل حين أرادوا رؤية الله فأخذتهم الصاعقة، ثم بعثهم الله من بعد موتهم، فيلاحظ أنه في كل عصر يجعل الله سبحانه وتعالى الموت والإحياء دليلًا يسوقه للمكذبين من بني البشر بيوم البعث والحساب لعلهم يستفيقون من غفلتهم.

كما أن تذكير الله للناس بهذه الحقيقة التي هم عنها غافلون جاء بطريق التمثيل بظاهرة متكررة في حياة الناس يمرون عليها

كل يوم وهم عنها ساهون، ألا وهي النوم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

ففي هذه الظاهرة يقبض الله الأنفس كلها، فيتوفى التي انتهى أجلها، ويرسل الأخرى حتى يحين أجلها، وفي قبض الأرواح عند النوم منع للنفس عن التصرف أو الإدراك مع بقاء الجسد حيًا تسير عملياته البيولوجية بصفة عادية، ومن كان قادرًا على قبضها وإمساكها كل يوم ثم بعثها للحياة من جديد هو أقدر على قبضها إلى يوم القيامة، ومن ثم بعثها لتحاسب على أعمالها.

فقد جاء عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال: (باسمك اللهم أموت وأحيا)، وإذا قام قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)[1].

وفي هذا إشارة إلى ربط نعمة الاستيقاظ بوقت المعاد الأكبر، وحقيقة البعث، وفيه تأكيد على حقيقة القبض والإمساك، وتربية للمؤمن على تذكر الموت حال نومه.

فالنوم في أصله موت صغير، فيه تحضير الناس لموعد الموت الأكبر، فكما أنكم تنامون كل يوم ولا تفيقون إلا بإذن الله تعالى فكذلك الموت هو نوم بإذن الله لا عودة بعده إلى هذه الحياة إلا إلى يوم الحساب؛ لأنه نهاية الطريق في عالم الشهادة، ونقطة البداية في عوالم الآخرة؛ لذا وجب على كل نفس التزود له، فمن يدري في أي لحظة يحل أجله.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي استعمال لفظ (آيات) في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

دليل على ما تحويه آيتا النوم والموت من أسرار لا يفقهها إلا «من كان مكينًا في علمه ومعرفته، قديرًا على البحث والتمحيص، بصيرًا بخطى الفكر والأنحاء التي قد تفضي إليها نتائج البحث والتقصي»[2]، لهذا كانت الخاتمة بالتخصيص لقوم تتوفر فيهم هذه الصفات فيتفكرون فيها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، ٥/ ٢٢٦، رقم ٥٩٥٣.

(٢) القرآن ومنهج التفكير، محمد حجازي ص١٢٩.

«فمن تعرف على أسرار النوم، وما يتخلله من أحلام مرعبة ورؤى طيبة مبشرة استطاع أن يتصور الموت وما يصاحبه من أحوال القبر والبرزخ»[(١)].

وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم الحث على زيارة القبور بعد النهي عنها مخافة دخول الشرك للقلوب؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام، فقد قال: (زوروا القبور، فإنها تذكر الموت)[(٢)].

«هذه الزيارة هدفها الأول التذكير بالموت، وترقيق القلب بتذكر الذنوب، ما يجعل الإنسان يعتبر بمن قبله، وما كانوا فيه من نعيم وصحة، ثم صاروا إلى قبور تأويهم، ولم يغن عنهم مالهم ولا جاههم ويسارع بالتوبة، فالموت حقيقة لا يمكن الهروب منها.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

ولا حتى العودة بعدها لتصحيح الخطأ، وتصليح العمل، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠١].

ومع كل هذه المواعظ إلا أن كثيرًا من الناس على كفرهم بالبعث واللقاء».

ويلاحظ أن القرآن قد خاطب الناس في هذه القضية بأدلة عقلية وأمثله واقعية؛ لأنها من دلائل عالم الغيب الذي لا يستطيع الإنسان التكهن به، واستحضار التفكر كعملية عالية من عمليات العقل يشير إلى أهمية الموضوع وأثره في حياة الإنسان وآخرته؛ لتعلقه بدار الابتلاء ودار الجزاء.

سادسًا: التفكر في آيات القرآن الكريم:

إن القرآن العظيم هو معجزة الله الخالدة على الأرض، والمتحدى بها كل البشر، أنزله الله تعالى على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، نورًا وهداية للخلق، معجز بألفاظه ومعانيه، لا تنقضي عجائبه لمن يمعنون التفكر في رحاب آياته، ويجيلون العقول والقلوب في أسرار كلماته ونظمه، يقول الإمام السعدي: «ولعلهم يتفكرون فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه»[(٣)].

وارتبط التفكر في آيات الذكر بآيتين هما:

---

(١) التفكر من الشهود إلى المشاهدة، مالك البدري ص٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، ٢/ ٦٧١، رقم ٩٧٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤١.

قوله تعالى: ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

وقوله: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

فالآية الأولى وردت في معرض بيان وظيفة الرسل، وتأكيد على بشريتهم، ما فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بما كان يتهمه به المشركون، ورد واضح على افتراءاتهم وشبهاتهم التي كانوا يثيرونها حول الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكر لما تميزت به دعوات الرسل من الحجج الداحضة، والحقائق الدامغة؛ لتنتهي ببيان دور هذا القرآن في كونه ذكر للإنسان لما فطر عليه، وموعظة للغافلين، وأن الرسول الكريم موضح لما جاء فيه، مفصل لأحكامه.

وتحصيل هذه المعاني لا يكون إلا بالتفكر فيه والتدبر لمعانيه، فجاءت الغاية بالبيان وأسندت للرسول توضيحًا للمهمة الأساسية له كون الناس غير قادرين على فهم مقاصد الشرع وحكمه بأنفسهم؛ لقصور مداركهم عن ذلك، وتسهيلًا لهم بالأخذ به.

والآية الثانية جاءت تتحدث عن عظم تأثير القرآن في النفوس، وتمثيل أثره بصورة محسوسة لعل القلوب تثوب له فتخشع عند تلاوته، وتتدبر معانيه، وتعمل بأحكامه، وتتخذه دستور حياة، قال السعدي: «فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طريق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن، والتدبر لمعانيه»[(١)].

كما أن من التفكر في آيات القرآن التفكر في عاقبة من لا يتعظ بها أو يعمل بها، وفي هذا تنبيه لعظم الجرم المقترف، فالهدف من إنزال القرآن هو العمل به في ميادين الحياة، وإهمال هذا مخالفة للقرآن الكريم وللمقصد منه، وجاء الحث والترغيب على ذلك بتصوير حال المهمل لأحكام القرآن بحال خسيسة في آية سورة الأعراف؛ لينهض كل فرد ويغير حاله، والمطلوب التفكر العميق في هذه القصة؛ للاعتبار والاتعاظ بها.

ومن النظر في القرآن النظر في نظمه، وهذه خصيصة امتاز بها عن سائر المعجزات، فهو حسن التنسيق، محكم الترتيب، قوي الأثر، سهل الفهم، موسع التفسير، متلاحم النسيج، مترابط الأفكار، ودقيق المعاني، يجعل لقارئه ملكة تمكنه من «تقييم أقواله وأفعاله وحركاته وخطراته وأفكاره ونواياه وجل تصرفاته، ووزنها بذلك الفرقان... فالقرآن يكون بمثابة

(١) المصدر السابق ص٧٩٢.

النموذج المعرفي الكلي للإنسان»[1].

والتفكر في آياته باعث على الخشية الإلهية لما فيه من أوامر ومواعظ وزواجر، كما أن هذه الخشية تجعل الإنسان يتلذذ بمعانيه وتكسبه الإحساس بالأمان والطمأنينة القلبية، والسكون النفسي.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)**[2].

وفي هذا تنبيه للإنسان الغافل المعرض عنه؛ كي يتفطن لقسوة قلبه وغلظة طبعه، كما أن فيه إشارة إلى ثبات النبي صلى الله عليه وسلم، وقوته التي امتن الله بها عليه، وجلده في تحمل تبعات التنزيل والبيان.

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

فهو مدح للنبي؛ لتحمله ما لا تطيقه الجبال الرواسي ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

والتلاوة لها معنيان:

الأول: قراءة آياته بتحقيق حروفه وصفاتها والتمكن من أحكام تجويده.

والثاني: اتباع آياته بالاستجابة لأوامره، وتحليل حلاله، وتحريم حرامه، والعمل به في الحياة.

وذلك معنى أداء التلاوة بحقها، كما كان عمل الصحابة، وليس مجرد تحريك اللسان بالكلمات والقلب لاهٍ والعقل ساهٍ.

فقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان ابن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: «فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا».

لذا ينبه ابن تيمية قارئ القرآن على أن يظل «دائم التفكر والتدبر لألفاظه واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئًا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده»[3].

---

(١) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون، طه جابر العلواني ص٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ٤/ ٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٥٠.

لأن قراءة القرآن بالتفكر أصل صلاح القلب، ففيه حياة القلوب والأبدان، «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا، والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله...، فإذا قرأه بتفكر ومر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم»[(١)].

ويعد القرآن قائدًا للعقل، ودليلًا له في معترك الحياة، يأخذ بناصيته إلى النور المبين، والطريق المستقيم، فالعقل ذو رؤية محدودة لا تجاوز الواقع المرئي أمامه، والقرآن هو التفسير السليم الوحيد لحقائق الكون والكاشف للسنن الإلهية فيه، يخاطب العقل على حسب مستواه، ويوقظ الفطرة بأسلوبه السلس، فيحفز النفس على النهوض بتكاليف الأمانة الربانية.

«ولا يخرج كنوزه إلا المتفكرون الذين يكررون الفكرة فيه، ويعيدون النظر مرة بعد أخرى، ويتعاملون معه بالتدبر الطويل...؛ إذ إن المتفكر بما يتضمنه من عمق النظر وتكرار الفكر والتأمل هو الكفيل بإخراج شيء من كنوزه المخبوءة»[(٢)].

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٨٧.

(٢) مفهوم التفكر في القرآن الكريم، زيلعي هندي ص٧٧.

نتائج التفكر وثمراته

للتفكر ثمرات يجنيها العبد المتفكر منها:

أولًا: الاهتداء إلى وجود الخالق ووحدانيته:

لقد كانت دعوة القرآن الكريم للتفكر والتدبر في آفاق الكون ذات أهمية بالغة، كونها تهدف إلى ترسيخ معنى حقيقة خلق هذا الوجود ومعرفة خالقه، وإدراك عظمة جلاله، وبديع قدرته، والتمعن في عجيب خلقه، ولطيف حكمته؛ لذا فقد عني القرآن ببلورة العقيدة الإيمانية وزرعها في النفس بحيث تكون القاعدة التي ينطلق منها الإنسان في رحلته إلى الكون والحياة؛ قاعدة تحكم أهدافه وتصوراته وقراراته، وهي أول مبادئه في الحياة، فإذا حسنت علاقته بخالقه استطاع أن يحسن علاقاته بكل ما في الكون، وكلما عظم اكتشافه لما في الكون عظمت معرفته بخالق الكون؛ لذا يقول ابن رشد في حسن معرفة الكائنات: «وكلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم»[(١)].

هذا ما جعل منهج بناء العقيدة في القرآن يقوم على أساسين متينين:

أولهما: إبطال عبادة غير الله، ونقض الأوهام والخرافات التي تدعو إلى اتباع معتقدات الآباء، وترفع هالة التقديس عن الأفكار والمعتقدات المتوارثة، ببيان الآيات الدالة على ضعف تلك الآلهة.

وثانيهما: إثبات وحدانية الله عن طريق الدعوة إلى التفكر، والنظر الدقيق في آفاق الكون وعجائب النفس، والانطلاق من بديع صنعه، ودقة نظامه للوصول إلى وحدانية خالقه وفاطره.

وهذه الحقيقة تمثل أحد مقومات التصور الإسلامي عن هذا الكون والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة الإنسان، فقد كان القرآن يستعمل السموات والأرض كدليل وبرهان؛ ذلك أنها أجل وأعظم من دليل النفس.

كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

لذا يقول الكندي: «إن في نظم هذا العالم وترتيبه وفعل بعضه في بعض، وانقياد بعضه لبعض، وتسخير بعضه لبعض، وإتقان هيئته على الوجه الأصلح في كون كل كائن، وفساد وثبات كل ثابت، وزوال كل زائل؛ لأعظم دلالة على أتقن تدبير، ومع كل تدبير مدبر، وعلى أحكم حكمة، ومع كل حكمة حكيم»[(٢)].

(١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ابن رشد ص٢، ص٢٥.

(٢) رسائل الكندي الفلسفية، الكندي ص٢١٥.

والقرآن لا ينفك يوجه الأنظار والعقول والقلوب إلى كتاب الدنيا المفتوح، ويأمره بتفعيل وسائل إدراكه؛ لتتبدى له آفاق الجمال والجلال، وتريه الكون محرابًا كبيرًا للعبادة، ويتيقن بأن الدليل على وجود الله هو نفسه الدليل على وحدانيته سبحانه وتعالى؛ ذلك أن حقيقة وجود الرب الخالق المدبر لهذا الكون كامنة في نفوس البشر، ومرتكزة في أذهانهم، وتعود في أساسها إلى الميثاق الذي أخذه الله على البشر عند خلقه لهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

لكن الدعوة إلى التفكر في الكون والوحي ارتبطت بضابط مهم هو تجنب التفكر في ذات الله، هذا الضابط الذي جاء التحذير منه في السنة النبوية بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله عز وجل)**[١].

وفي هذا يقول أبو حامد الغزالي في كتابه الإحياء: «فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمرًا إمرًا، وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلمًا وجورًا، فقد انبهرت العقول دون مبادئ إشراقه، وانتكصت على أعقابها اضطرارًا وقهرًا»[٢].

ولقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن أناسًا سيتفكرون في الخلق حتى يؤدي بهم إلى الوقوع في ظلمات الكفر، فقد جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل: آمنت بالله)**[٣].

وهنا يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم كيفية معالجة الشكوك والوساوس عندما تعرض لنا، ويأمرنا بوجوب التوقف عن التفكر، وتشهير الإيمان خوف تتبع زلات العقل، والوصول إلى الضلال، فهذا الحديث وسابقه يبين لنا الحد المسموح به من التفكر، بسبب نقص الإدراك وقصور تحقيق المعرفة وسوء التقدير.

فكيف تختار العقول مبدأ التعطيل،

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/ ٢٥٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٨٤٢، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ١٣٦.
والحديث حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٣٩٥، رقم ١٧٨٨.

(٢) التفكر في خلق الله الإنسان، الأرض، السموات، الغزالي ص٢٢- ٢٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، ١/ ١١٩.

وتستحل الفهوم مبدأ التشبيه للخالق، واختلاف الكائنات وتنوعها سر إبداعه، فقدرته الغير محدودة، وعلمه ليس لهما نظير فهو الخالق العليم القدير، وقد حاولت بعض الفرق الإسلامية الولوج من هذا الباب لكن تاهت وخابت، ولم تبصر النور؛ لاحتجابه عن العقل.

والنظر العميق في الآيات التي تدعو إلى التفكر ترسم لنا صورة التوحيد الحقيقي، فسورة الرعد بآياتها الكونية تزرع في النفوس بذور التوحيد من خلال عرضها لبراهين الإيمان، بالنظر في الأرض، وما عليها من آيات، ثم خروج النبات والثمار وتنوعها واختلافها، وتأصيل الأشياء إلى زوجين اثنين، ثم الانتقال إلى ما به بقاء الحياة على هذه الأرض من تعاقب لليل والنهار، وختمها بالحث على التفكر.

كما جاءت الإشارة إلى عالم الحيوان، وما فيه من أدلة بسيطة تنبئ بوحدانيته تعالى، وإليه تمت الإشارة في القرآن بمملكة النحل، تلك المملكة التي تحويها خلية صغيرة، لكن فيها نظام يعجز البشر عن وضعه وعن اتباعه، نظام قائم على معرفة كل فرد لدوره في هذه الحياة، فيسارع للقيام به بجد وتفانٍ، نظام أساسه التعاون والعمل والإتقان، فمن علم النحل هذه القوانين ومن يسر لها طعامها وهي أضعف خلق الله، ومن يخرجها كل صباح تطوف في الحقول والبساتين، وتنتقل من زهرة لأخرى؛ لتعلم زميلاتها بوجود الرحيق، فتجمعه وتحفظه ثم تعود إلى خليتها من نفس طريق الذهاب ولو كان على بعد أميال، ثم تصنع منه شرابًا متنوعًا، شهد له القرآن بالشفائية، فهذا دليل على عناية الله بمخلوقاته وحسن تدبيره ودعوة للتمعن والتفكر فيها وفي عالم الحشرات أيضًا؛ ليزيد إيماننا بأن خالق النحلة، ومدبر شئونها هو نفسه خالق السموات والأرض وما بينهما.

ومن العوالم التي طالب الله سبحانه وتعالى الإنسان بالتفكر فيها هو النفس البشرية، فالتعمق في أسرارها يجعل الإنسان يؤمن إيمانًا جازمًا بالله؛ لعلمه أنه غير قادر على الإحاطة بكيفية عمل أجهزته الحيوية، ولا التحكم فيها أو تسيير عمليات الحياة فيها وفق هواه، بل هو عاجز حتى على شفاء نفسه في حال المرض، أو إمساك نفسه عن الموت، فيتأكد أنه كما لنفسه أجل محدد فلهذا الكون أجل آخر تنتهي به الحياة على هذه الأرض، ويجازى على أفعاله فيها، ما يقوده للإيمان بالبعث والجزاء، وبحسب هذه المعرفة الإلهية تعظم درجة المتفكر في الآخرة.

ومقدرة الإنسان على تطويع الطبيعة، والاستفادة من ثرواتها، والسيطرة على

قوتها بقانون التسخير الإلهي، تؤكد استحالة أن تكون هي مسيرة نفسها، وما اهتداء الإنسان إلى هذا القانون إلا بما أكسبه الله له من وسائل تعينه على ذلك بما فيها العقل وملكاته، وضعف الإنسان أمام قوة المخلوقات الأخرى، ثم سيطرته عليها بفضل الله تعالى لدليل أكيد على صفاته العلية -جلا وعلا-، كما أن قانون الزوجية الذي يحكم هذا الكون يبين التفرد الإلهي، فكل شيء في هذا الكون أصله من ذكر وأنثى إلا خالق الكون، والتفكر في هذا القانون، والبحث عنه في أرجاء هذا العالم يجعل القلب يصدق بوحدانيته تعالى.

كما أن التفكر يعزز في النفس الإيمان بالأسماء والصفات التي وصف الله بها نفسه في القرآن الكريم، أو وصفه بها نبيه عليه الصلاة والسلام، فتجزم العقول حينما ترى المخلوقات أن لها موجدًا، وأنها لم يخلقها العدم، كما تدرك العقول السليمة صفة الحكمة عندما ترى أثر الإحكام في المخلوقات، وصفة الخبرة عندما ترى الإتقان، وصفه الرزق عندما ترى عمليات تدبير الأرزاق، وصفة الرحمة عندما ترى آثار رحمة الله في مخلوقاته، وصفة الوحدانية عندما ترى التكامل في بناء الكون والثبات الذي لا يهدده الفساد، فتكون المخلوقات التي تملأ الأرض والسموات بذلك آثارًا مشاهدة تدل على صفات الله سبحانه وتعالى.

وبهذه النظرة الإجمالية للآيات، وبهذه الدعوة للتفكر نتبين أنها كلها مجالات تدل على أن خالقها ومدبرها واحد، إلا لمن عاند واستكبر وأبى، فإذا كان الكون بما فيه من «آفاق السماء وفجاج الأرض، تسبح بحمد ربها، فلماذا نشذ نحن ولا نصطبغ بما اصطبغ به الكون كله»[١].

ويمكن الاستفادة من التفكر في هذا العصر لمواجهة موجة الضلال المنتشرة في العالم اليوم، فبالرغم من كل التطور العلمي والتكنولوجي الحاصل، إلا أن الإنسان اليوم بات أكثر بعدًا عن الفطرة السليمة، وعن اكتشاف العلاقة بينه وبين خالقه وبين الكون، وقد يكون أقرب الناس إلى التوحيد هم العلماء، كونهم أكثر الناس إعمالًا للعقل، أو اكتشافًا للحقائق؛ لذا نسمع بين الفينة والأخرى عن دخول عالم من الغرب إلى الإسلام نتيجة ما أوصلته إليه بحوثه التي تلخص له مفهوم الخالق الواحد القادر المبدع.

وفي هذا يقول أحد العلماء: «إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه، ويدل على قدرته وعظمته، وعندما

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي ص٢٩.

نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته؛ ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكن نرى آياته في أنفسنا، وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته»[1].

كما يقول (لورد كيافي) وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالم هذه العبارة القيمة: «إذا فكرت تفكيرًا عميقًا فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله»[2].

بهذا يتبين أنه لا يوجد طريق يسير وآمن ومقنع مثل التفكر، للاهتداء إلى خالق الكون، والإيمان بوحدانيته، والعمل بمقتضى أوامره.

ثانيًا: تزكية النفس واستقامتها على هدى الوحي:

إن من أهداف التفكر السامية بعد وجوب الإيمان بالله خالقًا وربًا لهذا الكون هو ضرورة تعزيز القوة الإيمانية في القلب، وتحصينها من كل ما يمكن أن يؤثر فيها، بفضل التفكر فيما تحويه آيات الكون والوحي في طياتها، ترشد الضال إلى الإيمان بالله، وتزيد من قوة هذا الإيمان في القلب، فكما نعلم أن الإيمان أسس وأركان، دعامته الدليل والبرهان، فتفكر المؤمن في آلاء الله يوثق رابطته بالله تعالى، ويزيد من عزيمته وهمته لنشر هذا النور والطمأنينة وتعميمه على كل البشر.

وأثناء هذه العملية يدرك المؤمن وظيفته الدنيوية في إقامة شرع الله على هذه الأرض، عن طريق التفاعل الإيجابي مع مخلوقات الله، فيعمد إلى استغلالها، واستخراج منافعها، ومعرفة الحكمة منها ومن خلقها، ودلالتها على صانعها وخالقها، ومدى تحقق صفات الجمال فيها مما يعكس حكمة التقدير ودقة الإبداع، ويبرز كمال الصفات الإلهية، فالتفكر في خلق الله «هو العمود الفقري للإيمان الذي ينبثق عنه كل عمل خير»[3].

وتتجلى لنا الصياغة القرآنية للروح الإنسانية عبر مداخل التفكر في تكوين الصفات والأخلاق والرقائق التي تحيا بها الأرواح، واستثارتها إذا أسدل عليها غطاء الغفلة، فالإحساس الذي يشعر به المتفكر وهو يجول في ملكوت الله سبحانه وتعالى،

(١) الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض، حرره: جون كلوفر مونسيما، ترجمة: عبد المجيد سرحان الدمرداش ص٢١.

(٢) المصدر السابق ص٢٢.

(٣) التفكر من الشهود إلى المشاهدة، مالك البدري ص٣١.

مستحضرًا المعية الربانية، والتسبيح الكوني لمخلوقات الله، يجعله يعيش حالة من الصفاء الذهني والإشراق القلبي، تفيض عليه من المعارف والمواهب الربانية ما كتبه الله له، وتكون محصلة هذه الرحلة اكتسابًا لمفاهيم جديدة، ومعارف غير مسبوقة، تهيمن على روحه، وتصبغها بصبغة الإيمان، وتثمر أعمالًا صالحة، تملأ الأرض عدلًا وصلاحًا.

وأول ما يناله المؤمن من التفكر هو ذلك الجلال الذي يملك على القلب ويهيمن على الروح، فيلهج اللسان بالشكر والذكر لما يشاهده ويحسه من آثار قدرة الله في الكون وفي حياته؛ ليمتلئ القلب حياءً من الله سبحانه وتعالى.

فكلما تمعن المتفكر في نعم الله عليه وأحس بفضل الله عليه، وتقصيره بجانب ما منحه الله، وتعاظمت ذنوبه أمامه، أحس بمدى غفلته، هو إحساس يعرفه الجنيد رحمه الله بقوله: «الحياء رؤية الآلاء، ورؤية التقصير فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء»[1].

ويقول السعدي رحمه الله: «ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء لا محالة»[2].

كما أن من الصفات التي تنتج عن التفكر الخشية والخوف من الله تعالى، فإدراك الإنسان لعظمة الملك، وبديع الصنع وجلال القدرة تجعل القلب يهتز خوفًا وخشية لله تعالى، فهي ثمرة الإيمان وعلامة على لين القلب ونقاء السريرة، وغالبًا ما تكون هذه المعرفة متعلقة بجلال الله تعالى.

لهذا يقول تعالى في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

وفي هذه الآيات يربط الله تعالى بين الخشية وبين الإيمان بالآيات سواء الكونية أو القرآنية التي تجعل المؤمنين موحدين، يبيعون الدنيا في مقابل الآخرة والفوز في يوم المعاد، فتنقلب حياتهم سباقًا في ميدان الأعمال الصالحة، وهي الهبة التي منحها الله لقارئ القرآن وسامعه.

قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

يقول الألوسي: «وفي هذا تمثيل وتخييل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم ٢/ ٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٥٣.



من المواعظ والزواجر، والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن، وتدبر ما فيه من القوارع، وهو الذي لو أنزل على جبل وقد ركب فيه العقل لخشع وتصدع»[١].

والخشية لا تنبع إلا إذا أدرك الإنسان مكانة هذا القرآن وعظمة الخالق، حينها يمتلئ القلب بالتقوى، فتراه يحرص على العمل بطاعة الله، ما يجعله مستقيم الفكر، حسن السلوك.

وكل هذا يشع في النفس يقينًا بالله، واطمئنانًا بسلامة الطريق، وإحساسًا عاليًا بالمعية الإلهية، ما يبعث في المؤمن زهدًا لملذات الدنيا، ويستنبت في قلبه بذور الذل والتواضع والرحمة والانكسار بين يدي مولاه، ويحس حقارة نفسه بجانب خضوع مخلوقات الله له، فيعظم حب الله تعالى في القلب، وينطلق اللسان بالشكر والثناء، فتكثر الطاعات؛ تقربًا إليه، حتى لا يكون شيء أحب إليه في الوجود منه تعالى.

«فالأثر النوراني لهذا التفكر يعرقل عمل الشهوات في القلب، ويدفع أهواءها على حسب قوة الوارد من أنوار التفكر؛ فتسلب الشهوة من عاجل لذتها، فما يتبقى منها سوء عاقبتها»[٢].

لذا قال بشر الحافي: «لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه»[٣].

هذا التغير السلوكي والأخلاقي للنفس البشرية بتأثير التفكر يؤكده علماء النفس في العصر الحديث، فالتفكير التأملي لدى الأفراد «يساهم في تنمية: الإحساس بالمسؤولية، العقل المتفتح، والإخلاص، والفرد المتأمل أكثر قدرة على توجيه حياته، وأقل انسياقًا للآخرين، واستخدام التفكير التأملي لا يعني أن يكون لدينا فكر واضح، ولكن أيضًا امتلاك السلوك الذكي»[٤].

وهذا ما جعل الدكتور البدري يعتبر التفكر «العمود الفقري لتصور المسلم عن نفسه، واستعداده بعد ذلك لتغيير سلوكه وعاداته، فبدون التغيير لا يمكن تعديل السلوك والعادات»[٥].

وهذا يؤكد أن هناك رابطًا عجيبًا بين أفكار الإنسان وأخلاقه، وهو ما سبقه إليه الإمام ابن القيم حين بين أثر التفكر؛ «فالتفكر يوقع

---

(١) روح المعاني، الألوسي ٢٨/ ٦٨.
(٢) التفكر عبادة ربانية وضرورة دعوية، محمد عادل، مقال من مجلة البيان على الانترنيت، ١٤٣٠هـ.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٥.
(٤) فعالية استخدام بعض استراتيجيات ما وراء المعرفة في تحصيل الفيزياء وتنمية التفكير التأملي والاتجاه نحو استخدامها لدى طلاب الصف الثاني الثانوي الأزهري، فاطمة عبدالوهاب، مجلة التربية العلمية القاهرة مصر ديسمبر ٢٠٠٥م، المجلد الثامن، عدد ٤، ص١٧٧.
(٥) التفكر من الشهود إلى المشاهدة، مالك البدري ص٣١.

صاحبه من الإيمان على مالا يوقعه عليه العمل المجرد، فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له، وتميز مراتبها في الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها...، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة، فتجاوز فكره لذته، وفرح النفس به إلى سوء عاقبته، وما يترتب عليه من الألم والحزن الذي لا يقاوم تلك اللذة والفرحة، ومن فكر في ذلك فإنه لا يكاد يقدم عليه»[(١)].

ويزيدنا بيانًا الإمام الغزالي حين يوضح لنا بالمثال كيفية تغير أحوال القلوب والنفوس بمفاهيم الفكر: «فإن الفكر يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقينًا في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، وهذا ما عنيناه بالحال؛ إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها، والنفرة عن الآخرة، وقلة الرغبة فيها»[(٢)].

هذه الصفات النبيلة وغيرها تثمر في القلب حكمة تزين المتفكر، فلا تجده ذو فكر سقيم، أو رأي عديم، بل له من نفاذة البصر، وسداد الرأي ما يوجه به حياته إلى بر الأمان، كونه يتعمق في أسرار الأمور، ويدرك بدايتها وغايتها، ويميز بين النافع والضار، كما أن التفكر يعتبر سبيلًا للعمل، فلا معنى لإنسان يقضي ساعات يومه ينظر في ملكوت السموات والأرض، ويقلب بصره بين عوالم الخلق، دون أن يجعله هذا الأمر يشمر على ساعد الجد والاجتهاد للتقرب إلى الله بالطاعات، وبالقيام بمسئوليته تجاه هذا الكون قيادة وتسييرًا على منهج الرسل الكرام بما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة.

فالتفكر عمومًا فيه تهذيب للأخلاق، وتليين لقسوة القلب، وترويح عن النفس، وزاد للعقل، وحفظ للجوارح عن الحرام، وفي الخلوة يستشعر الإنسان مراقبة الله، ويتذكر ذنوبه فيها، فتحلو المناجاة، وتعظم محاسبة النفس ومعاتبتها، فتنفلت من ربقة الحياة الدنيا، وبهذا يتمكن المتفكر من تقوية إيمانه، وتحصين نفسه، وسمو أخلاقه، فتشرق أنوار المعرفة الإلهية في قلبه ويسير في مدارج السالكين إلى الله تعالى، ويصبح قادرًا على الانسجام في توليفة التسبيح الكونية التي تتجلى في أسمى معانيها في اليقين القلبي برسالته، وإلمامه بزمام العلم والمعرفة، وحسن تسخيره وتسييره لهذا الكون.

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٨٠.
(٢) التفكر في خلق الله، أبو حامد الغزالي ص٤٢.

ثالثًا: التعرف على سنن الله في الآفاق والأنفس:

من الأهداف الأساسية التي وضعها القرآن الكريم لموضوع التفكر هو معرفة السنن الإلهية الكونية والإنسانية التي تقوم عليها المنظومة الكونية بشقيها الخاص بمجال الآفاق، أو ما يخص النفس البشرية «ذلك أن حوادث الكون خاضعة لسنن وقوانين سنها الله تعالى وفق أقدار قدرها...؛ ليبحث الإنسان عن سنن الله في الأمم السابقة، مما يجعل تفكيره سليمًا مبنيًا على قانون ثابت»[(١)].

وقد جاء في القرآن آيات كثيرة تبحث في السنن، وتدعو الإنسان للوقوف عندها، والتأمل فيها ودراستها لاستبيانها أكثر، وهي دعوة إلى إدراك حقيقة هذه الحياة وروابطها على مدار الزمان، ووحدتها من حيث المنشأ والمصير، واكتشاف العلائق الحاكمة لها منذ خلق البشرية؛ «كي لا ينعزل جيل من الناس بنفسه وحياته، وقيمه وتصوراته، ويغفل عن الصلة الوثيقة بين أجيال البشر جميعًا، وعن وحدة السنة التي تحكم هذه الأجيال جميعًا، ووحدة القيم الثابتة في حياة الأجيال جميعًا»[(٢)].

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومعرفة هذه السنن يجعل الإنسان يفهم سر هذه الحياة، ويمسك بزمام الأمور فيها، ويفقه قوانينها، ويساعده على فهم ظواهرها، وتسخيرها لتلبية حاجاته، وتيسير حياته، كما يعرفه على نتاج أعماله إن خالف هذه السنن، وعمل على الاستبداد والظلم وإثارة الفساد، فستسري عليه سنة الله بالهلاك والعقاب في الدنيا والآخرة، وإن أحسن وعمل على الإصلاح والتعمير، كانت سنة النصر والتوفيق للتقدم مصيره، وكتب له النجاح في امتحاني الدنيا والآخرة.

وقد بين الله سبيل التعرف على هذه السنن بالاعتماد على التفكر العميق في عواقب الأمور، والتدبر في الآثار وما بقي من دلائل وآثار الأقوام السابقة، وهذا لا يتأتى إلا بالسير المعتمد على النظر العقلي. قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

والاستقراء العلمي والتاريخي لأسبابها وحقائقها، وربطها بالعقيدة؛ لتقريبه من خالقه، وبيان أهميتها في دنياه وأخراه؛ لأن النظر في الكون دليل لمعرفة سنن الله في الكون، والتي هي في حد ذاتها دليل على

(١) التربية بالآيات، النحلاوي ص٥٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٦٠.

معرفة الله الواحد، وفي هذا إقرار بوجود مثل هذه السنن، وحث على معرفتها والاعتبار بها وتوظيفها في البناء الحضاري.

والمؤمن مطالب بالتنقيب عن هذه السنن واكتشافها؛ ليتبين له النظام الدقيق الذي يحكم هذا الكون، ويستخلص الحكم والعبر من الوقائع والأحداث؛ لأن سنن الله مترابطة ومتماسكة برباط محكم تبرز فيه الحكمة والإبداع، كما أنها تتميز بالنظام والثبات، فهي المقوم لانحراف الإنسان في سيره إلى الدار الآخرة، وسنن الله في خلقه كثيرة، ربط الله منها عدة سنن بموضوع التفكر، وجعله أساسًا للوصول إلى معرفتها، وبيان حقيقتها، من هذه السنن ما يأتي:

١ . السنن الطبيعية في الكون.

يعرض الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة من القرآن الظواهر الكونية، وكيفية عملها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ففي هذه الآية يشبه الله الحياة الدنيا بالنبات؛ وذلك في دورة حياته وسنة الله في حياته، وفي سورة الرعد ذكر الله سبحانه وتعالى دلائل إنعامه على الإنسان فقد خلق له الأرض ممدودة مبسوطة؛ ليسهل عليه السير فيها والزراعة فيها، فالمد والبسط سنة الله في الأرض، وإن كان هذا لا ينفي كرويتها في الشكل العام، هذه الكروية في حد ذاتها هي سبب في دورانها حول نفسها ما يحدث تعاقب الليل والنهار، وسبب في دورانها حول الشمس ما يحدث اختلاف الفصول، وفي كل هذا منافع للناس، ثم ثبتها بالجبال الرواسي، وجعلها كالأوتاد لها، وشق خلالها الأنهار، ومن الأرض والأنهار يكون النبات والثمار.

وهي سنة جارية في الكون ذكرت وتكررت في القرآن كثيرًا؛ للتنبيه عليها، ومعرفة التعامل معها والاستفادة منها في طلب الرزق، وجعل سبحانه وتعالى النباتات ثابتة في الأرض؛ لأن الإنسان لا يستطيع الاستغناء عنها فهي غذاء أساسي، ولو جعلها متحركة كالحيوان لشق عليه الحصول إليها، لكن جعل غذاءه جزءان أحدهما نبات ثابت سهل المنال، وجزء متحرك يتمثل في الحيوان، وسخر له الوسائل المساعدة للتمكن منه.

وفي آية النحل بين الله هدايته لعالم الحيوان وسنته فيه، وكيف تسعى هذه الحشرات الصغيرة في الأرض بهداية الله

وتحصل على رزقها فتستفيد وتفيد معها البشر، وهي سنة الله في الأرض فكل مخلوق مقدر له في هذه الأرض أن يأخذ منها ويعيد لها، في دورة لحياة الكائنات سنها الله تعالى، وهي قوانين دقيقة تحكم النظام الكوني لا يمكن أن تنفصم أو أن تختلف حتى لو مرت عليها ملايين السنين.

٢. سنة الزوجية.

يبين الله سبحانه وتعالى هذه السنة في كثير من الآيات.

يقول جل جلاله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فالتناسل والتوالد والنمو بين الكائنات لا يكون إلا بزوجين متكاملين، وعادة ما يكونان من نفس الجنس؛ ليحدث التآلف والانسجام بينهما، وتستقر الحياة، وهي سنة تحكم الكون بكل ما فيه من جمادات وكائنات.

ففي عالم النبات يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

يقول الرازي: «المراد بزوجين اثنين: صنفين اثنين، والاختلاف إما من حيث الطعم كالحلو والحامض، أو الطبيعة كالحار والبارد، أو اللون كالأبيض والأسود»[١].

والعلم الحديث اكتشف أن النباتات هي أيضًا تتزاوج، ففي كل نبتة أوجد الله سبحانه وتعالى أعضاء التكاثر الذكرية والأنثوية، وبفعل قوة الريح أو انتقال الحشرات على النبتة أو على النباتات التي تحمل بذور الطلع يحدث هذا التزاوج.

وفي عالم الحيوان يقول تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ويختار ابن عاشور أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الرعد: ٣].

يتوقف فيها عند الثمرات، وتستأنف معنى آخر يشير إلى سنة الزوجية في الحيوان حيث يقول: «والظاهر أن جملة ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾ مستأنفة؛ للاهتمام بهذا الجنس من المخلوقات، وهو جنس الحيوان المخلوق صنفين ذكرًا وأنثى أحدهما زوج مع الآخر»[٢]. وهو معلوم وظاهر في حياة هذه الكائنات.

وفي عالم البشر يجعلها الله سبحانه وتعالى من أعظم الآيات، بحيث ربطها بآية الخلق والوجود.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٨٣.

﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢٠ - ٢١].

وفي هذا امتنان من الله على الإنسان بهذه النعمة، فهذه الزوجية تمنح الإنسان سواء الذكر أو الأنثى السكن والمودة والرحمة، وهي عناصر الاستقرار والاستمرار على الأرض.

كما أن هذه السنة هي أساس عالم الجماد، فالذرة أصغر ما في هذا الكون، وتتكون من زوجين بروتون ونيترون، حتى الكهرباء الغير مرئية تتكون من شحنتين موجبة وأخرى سالبة، ومن بديع حكمة المولى أنه جعل أزواج الأشياء من نفس جنسها، ومتقاربة الخصائص، وركب ذلك في المخلوقات، فترى كل نوع يميل ويسكن إلى بني جنسه ومثيله.

٣. سنة الحياة والموت.

وهي سنة تأسر النفس البشرية، وتجعلها تحاط بإطار زمني مغلق، يبدأ في لحظة معينة، وينتهي إلى أجل مسمى، تنحصر فيه أعمال الإنسان وأقواله وتصرفاته، وهي دليل على حكمة التدبير، وحسن التنظيم والقدرة العظيمة لخالقه، لا ترتبط بالحياة البشرية، فقط بل يخضع لها الكون بأسره بكل ما فيه، فكل يسير إلى أجله المقدر له، وارتبط التفكر بهذه السنة في آية يونس (٢٤) ليعبر عن حقيقة الوجود الإنساني على هذه الأرض بأبلغ تشبيه، وأوجز عبارة، فمدة الحياة على هذه الأرض مذ بدء الخليقة لا تتجاوز في حقيقتها مدة نمو النبات وحصاده، فما بالك بحياة الفرد الواحد عليها، وهو مثل يحفل بالتوجيه والتنبيه؛ لعدم الركون إلى هذه الدنيا، ويحذر من الانحدار إلى شهواتها حتى تأتي لحظة النهاية ولا ينفع حينها الندم.

فالتفكر في هذه المثل يقودنا إلى الإيمان بحقيقة فناء الكون، من خلال تحقق سنة الحياة والموت في مستويين يقودان إلى مستوى ثالث «فالمستوى الأول يتمثل في إحياء الأرض بعد موتها، أو موتها بعد حياتها، فتكون الأرض مخضرة في الربيع، ثم يأتي الخريف فتكون حصيدًا، والمستوى الثاني تحقق في أهل القرى، فكم من قرية كانت عامرة بأهلها، تزدهر فيها الحياة بكل مظاهر الزينة من أنهار وزروع وثمار...

ثم أصبحت بعد ذلك خرابًا بما كسبت أيديهم...

فالمستوى الأول يشير إلى نهاية الحياة الدنيا، والمستوى الثاني يشير إلى نهاية الأمم والمجتمعات، ويكون المستوى الثالث هلاك كل شيء، فعلم أن لا خلود في هذه الحياة، وهذا مدعاة إلى التفكير الجدي

بمصير الإنسان، ومصير الحياة»[1].

كما جاء الحث على التفكر في سنة الموت في سورة الزمر، حين ربطت بالموازاة مع ظاهرة النوم في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]؛ ليتمكن المتفكر أن يوازن بين هاتين الظاهرتين من حيث كونهما دليلًا على توقف الحياة والانتقال إلى عالم آخر غير هذه الحياة، فالنوم يشبه الموت في انقطاع الإدراك والإحساس والتصرف، وإن كان حالة مؤقتة، لكنها تنبئ عن حالة النوم الأبدي هي الموت.

إذن سنة الحياة والموت هي سنة كتبت على كل من في الأرض فما من شيء حي إلا وله نهاية.

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

٤ . سنة التسخير.

وهي من السنن التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، يعلم بها البشر طرق التعامل مع الكون والاستفادة منه، فكل هذه العوالم التي هي أكبر من الإنسان حجمًا هي مذللة لهذا المخلوق الضعيف، قصد تسهيل خلافته على الأرض، رحمة وفضلًا من عند الخالق.

وهذه السنة تحكم النظام الكوني بطريقة منظمة وثابتة لا انفلات فيها، ما يسمح بالتفاعل الإيجابي للإنسان مع الكون، وهذا التسخير لا يكون إلا بالتعرف على خواص الأشياء وحقائقها باستعمال وسائل الإدراك والحس، والاستعانة بهدي القرآن الذي «يضبط صيغ التعامل بين الطرفين بقيم ومبادئ وأعراف، تحقق أقصى درجات التكشف والإبداع...، وتنشئ أكثر الصيغ الحضارية ملائمة لطموح الإنسان وأخلاقيته ومكانته في الكون»[2]؛ لأن التسخير هو قهر للمخلوقات وإرغامها على القوانين الكونية التي ركبها فيها الله؛ لذا حث القرآن على البحث في دقائق المخلوقات وخصائصها، واستكشاف مكامن الخير والنفع فيها؛ وذلك بالتعمق الدقيق في تفاصيلها وحقائقها التي لا تتبدى إلا بعد التفكر فيها.

كما حاول القرآن أن يضع الإنسان على هذه الطريق من خلال فتح بصره على بعض طرق الانتفاع بهذه الكائنات، فهو يضرب لنا مثلًا للتفكر في كائن صغير لا يكاد الإنسان يولي له شأنًا، لكن فائدته كبيرة بالنسبة له،

(١) منهج القرآن في صياغة تفكير الإنسان، زياد الدغامين ص٢٠٦.

(٢) الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، عبد الحميد أبو سليمان ص٢١.

وهو آية النحل، فقد خصها الله بسورة كاملة في محكم تنزيله، مبينًا لنا طريقة عيشها وعملها وفائدتها.

وفي هذا يقول الإمام السعدي: «في خلق هذه النحلة الصغيرة التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة، فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعي سواه»[(١)].

فسنة التسخير قانون إلهي وضعه في يد الإنسان؛ ليسهل به مهمته على الأرض، فيجب على الإنسان أن يعرف كيف يستغله ويصل به إلى إرضاء مولاه.

٥. سنة الهداية والضلال.

هي سنة جارية على الإنسان منذ أن خلقه الله وقدر عليه الحياة والعمل، فأهل الجنة هم أهل الهداية العاملون المجدون المخلصون، وأهل النار هم أهل الضلال والغواية والكفر، والهداية سنة بيد الله تعالى، يقول -جل في علاه-: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقد ارتبطت سنة الهداية والضلال بموضوع التفكر في آية الأعراف التي جاءت في معرض الذم للذين كفروا وكذبوا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، بالرغم من الحجج الدامغة والدلائل الباهرة التي جاءهم بها، وضرب لهم مثل العارف بآيات الله الذي آتاه الله علمًا واسعًا كان سبيل النجاة لو أراد ذلك العارف، لكن نفسه أبت إلا الركون إلى دار الفناء، وكان عمله مخالفًا تمامًا لعلمه، فسلبه الله ذلك العلم، وكتب عليه الضلال في الدنيا والآخرة.

يقول الألوسي: «وما ألطف نسبة إتيان الآيات والرفع إليه تعالى، ونسبة الانسلاخ والإخلاد إلى العبد، مع أن الكل من الله تعالى؛ إذ فيه من تعليم العباد حسن الأدب ما فيه»[(٢)].

وفي هذه الآيات ترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، وفيه ترهيب من إلقاء الآيات وراء الظهر، ما يدعوه لاتباع الهوى، والإخلاد إلى الشهوات، ونزولًا إلى أسفل سافلين.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٤.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٩/ ١١٤.

٦. سنة الابتلاء.

ومن سنن الله على البشر سنة الابتلاء، وهي سنة كتبها الله؛ ليتميز بها الصالح عن الطالح، ويتباين منهج الحق عن مناهج الباطل، فتكون الدنيا هي دار الابتلاء، بما تحمله من مغريات وشهوات وملذات تغري بها الطامعين؛ لتكون حجة لمن انحط وغفل عن الغاية الكبرى وتقوم الحجة على من اتبع النهج السوي، وأمسك نفسه عن الهوى.

والتفكر في سنة الابتلاء وارد في قصة المثل الذي ضربه الله تعالى للمنفق المرائي الذي ابتلاه الله في جنته التي كانت عامرة وذات زينة وبهجة، وله ذرية ضعيفة يعولها، لكنه اغتر واستكبر، ونسي حق الله، فما كان إلا أن جرت عليه سنة الله بالابتلاء؛ ليتنبه من نوم الغفلة، ويعود إلى الصراط المستقيم.

كما أنه سنة الله على رسله عند تبليغ دعوتهم، فمن ابتلاء النبي صلى الله عليه وسلم وصمه بالجنون والكذب.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وفي هذا تسلية للدعاة على طريق دعوتهم وحث لهم على الصبر والاحتساب، فالابتلاء في الدنيا هو محبة من الله لعباده قصد تنبيههم إلى غفلتهم وتقصيرهم، وكثرة أخطائهم، وزيادة في حسناتهم، ورفعًا لدرجاتهم في الجنة.

وهذه بعض من السنن التي تحكم الحياة والكون، وهناك نواميس أخرى، حري بالعقل أن يبحث عنها ويفهمها ويوظفها؛ لتسهيل الحياة وخدمة الرسالة الربانية، وأن يتفكر فيها وفي معانيها قصد إدراك حقيقة وجوده على الأرض.

٧. سنة الله في الظالمين.

ويكون معنى ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أنهم يرون آيات صدقه في أحوال تصيب أنفسهم، أي: ذواتهم مثل الجوع الذي دعا عليهم به النبيء صلى الله عليه وسلم، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠].

ومثل ما شاهدوه من مصارع كبرائهم يوم بدر وقد توعدهم به القرآن بقوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

وأية عبرة أعظم من مقتل أبي جهل يوم بدر، رماه غلامان من الأنصار وتولى عبد الله بن مسعود ذبحه وثلاثتهم من ضعفاء المسلمين وهو ذلك الجبار العنيد. وقد قال عند موته: لو غير أكار قتلني، ومن مقتل أبي بن خلف يومئذ بيد النبيء صلى الله عليه وسلم وقد كان قال له بمكة: **(أنا أقتلك)** وقد أيقن بذلك فقال لزوجه ليلة خروجه إلى بدر: والله لو بصق علي لقتلني.

رابعًا: إدراك مقاصد الحياة والوحي:

إن من أهداف التفكر العامة والتي جاءت في رحاب آياته بيان مقاصد الحياة لكثير من الناس الذين يجهلونها؛ وذلك عن طريق إنزال الوحي وهداية البشر، ودعوة القرآن لاستكشاف هذه المقاصد بغرض تسهيل فهم الحياة لهم وإدراك سر خلقهم ووجودهم، وبيان مهمتهم والطريق المستقيم الذي يجب أن يسيروا عليه.

وبما أن التفكر من العمليات الراقية في العقل البشري، كان لابد أن تتصل مواضيعه بإدراك حكمة الحياة، وكشف مقاصد الشرع؛ لذا جاءت آياته واضحة في هذا المعنى مؤيدة له، عن طريق عرض مشاهد الكون والاستدلال بها عن عدم عبثية الخلق، ومن ثم هي تنبيه للإنسان إلى أنه الراعي المستخلف لشئون الكون بهدف القيام بأمور الرسالة الموكلة إليه.

فبعد تحقق الأهداف السابقة لموضوع التفكر من معرفة الإنسان لخالق الكون والإيمان به، ثم طاعة أوامره واجتناب نواهيه، مرورًا بتزكية نفسه وتهذيبها، ثم إحاطته بالسنن والنواميس الكونية، يبدأ عمله على هذه الأرض من خلال القيام بالمهمة التي من أجلها أرسل إلى الأرض، وهي تحقيق العبودية لله تعالى عن طريق حسن الاستخلاف في الأرض، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

هذه الأمانة الاستخلافية التي قبلها الإنسان بالرغم من الضعف الكائن فيه، بعد إباء من هو أعظم منه في ميزان الوجود من سموات وأرض وجبال على حملها، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وللقيام بأعباء هذه الأمانة كرمه الله تعالى بأن جعل حواسه المختلفة نوافذه على عالمه الخارجي، وميزه بالعقل عن سائر المخلوقات، وجعل لعقله سلطانًا على قوى نفسه، وركب فيه المشاعر؛ ليطل بها على نفسه الداخلية، وهداه بنور الوحي الرباني، وبعث إليه الرسل، كل هذه الوسائل؛ لينهض بهذه المسئولية الثقيلة، ويقوم بها على أكمل وجه، فيتحقق معنى العبودية التامة لله تعالى، وإن كان جل وعلا غنيًا عن هذه العبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

هي رسالة ألم بها أرباب العقول ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

فسمت أرواحهم بعبير الذكر، وتغذت عقولهم برحيق الفكر، فأدركوا حكمة الخلق ورسالة الوجود، واعترفوا بالحق، وفهموا أن هذه الحياة ما هي إلا دار اختبار لطاقة الإنسان على حمل الأمانة والقيام بتبعاتها، وأن كل ما في الكون شاهد على هذه الحقيقة، ثم يكون اللقاء يوم القيامة؛ ليحاسبوا على أداء الرسالة، ويجازوا إما إلى الجنة أو إلى النار.

ومن إدراك هذه الحقيقة ينطلق المسلم بهذه المعرفة اليقينية، ويقابل عوالم الكون ويتعامل معها مراعيًا مبادئ وسنن النظام الكوني؛ لتحقيق مصالحه العليا على الصعيد الإنساني والحضاري وفق سياسة التوافق والانسجام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهي علاقة تكريم تتجسد فيها سيادة الإنسان ومحوريته، وتظهر مسئوليته الواعية تجاه نفسه وتجاه ما يحيط به عن طريق التفاعل الإيجابي معه، هذه المكانة ناتجة عن امتلاكه مفاتيح معرفة الكون، والوسائل والأدوات التي تجعله يحسن التحكم به.

هذه النظرة للكون والحياة هي جوهر التصور الإسلامي المخالف للنظريات الغربية التي تدفع بالإنسان للدخول في صراع مع الطبيعة للسيطرة على قواها، ومن ثم تسخيرها لخدمة أهدافه وتحقيق مصالحه، أما قمة العلاقة في الإسلام فتنشأ عن طريق الرحمة بالمخلوقات، والإحساس بدورها ومكانتها في المنظومة الكونية، والاستثمار الإيجابي لها، ما يكسب الإنسان فيها وحدة مع هذا الوجود وتناغما مع تسبيحاته؛ لأنهما خلقا من أجل هدف واحد هو تحقيق العبودية الكاملة للخالق الواحد.

ومن فهم هذه الرسالة استطاع أن يجمع بين مرتكزات الحضارة الإنسانية التي تقوم على الإيمان بالله، والعلم النافع، والعمل الصالح، وهي منظومة لا يمكن الفصل بين ركائزها وإلا حدث اختلال في التوازن الحضاري، وانتشر الضلال والفساد وكثر الشر، حينها لا بد أن يحدث الركود الحضاري، وتتوقف عجلة الرقي والتطور، ما ينبئ عن سقوط الحضارة، ولنا في حضارات الأمم السابقة عبرة، أين تزعزعت ركيزة الإيمان بالله، ما عجل بسقوط أمم كانت قد عمرت الأرض وآثارها شاهدة

عليها إلى يومنا هذا، لكننا نجد في المقابل أن الحضارة الإسلامية لم تسقط ذلك السقوط المريع لباقي الحضارات، كونها ما تزال تحمل بذور قيامها في جنباتها، وإن فصلنا أكثر نجد أن القاعدة الصلبة التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية هي الإيمان بالله، وهي قاعدة ما زالت صلبة عند المسلمين إلى يومنا هذا، لكن تخاذلهم عن اكتساب العلم النافع، وتضييع أسباب العمل الصالح هو ما أدى إلى أفول نجمهم، وتأخر ركبهم.

ولأن حل الأزمة وزمام الأمر في إيقاظ العقل ودعوته للتفكر، لم يهمل القرآن دور الفكر في هذه التربية، فقد اعتنى بمواءمة فكر الإنسان مع دوره المنوط به، من خلال فتح باب التفكر والتأمل على الكون على مصرعيه، فكانت آياته دعوة لاستثمار طاقة العقل فيما يفيد بني البشر بضوابط محددة، تغاير في أهدافها ووسائلها السياحة العقلية التي يدعو اليها الفكر الغربي اليوم، أو ما يسمى التأمل الارتقائي الذي لا تجاوز نتائجه حدود النفس البشرية -هذا إذا تحقق ذلك- دون أن ينعكس على الواقع والمجتمع.

وما الوضع المتردي الذي تمر بها الأمة الإسلامية في هذا العصر إلا وجه من وجوه التأزم الفكري وعدم وجود منهجية لتقويم مفاهيم الحضارة وتصحيح النظر إلى دور الإنسان في هذه الحياة، كل هذا ناتج عن عدم فقه التكامل الوحيي الفكري لرسالة الإسلام، ما أدى إلى اختلال الموازنة بين جانب الروح وجانب الفكر؛ لذا تبدو حاجة الإنسان الملحة إلى توفر تربية شمولية منظومية «تربط بين الإيمان والأخلاق الفاضلة، والعلم الصحيح والعمل الصالح وإن هذه العناصر الأربعة للتربية ينبغي أن تصبح متلازمة متماسكة إذا شئنا سعادة البشر أفرادًا وجماعات، ونجاة الإنسانية مما يحيط بها من شرور وأخطار»[1].

وهي التربية التي غرسها القرآن في نفوس الجيل الأول فأثمرت.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وستثمر في أي وقت متى وجدت تربة النفوس مهيأة؛ لتنهل من معينه.

وركز القرآن على الارتباط الوثيق بين العقل والوحي وتكاملهما في البناء الحضاري، فأمر العقل بالبحث في أرجاء الكون مسترشدًا بهدي الوحي، كاشفًا عن سر الخلق والخالق، فالوحي يتبدى في كتاب الله وسنة رسوله، وهما باب النجاة، ومفتاح هذا الباب نور الفكر الصحيح، هذه

(١) نحو تربية مؤمنة، محمد الحمالي ص٥.

الثنائية تجعل البناء الحضاري بناءً حصينًا ومتينًا، وهذا التكامل هو الذي كان الدعامة القوية لتحفيز المسلمين للبحث في أسرار هذا النظام الكوني، وتفعيل هذا البحث في إرساء سفينة الاستخلاف؛ لتبنى حضارة استمرت عدة قرون.

لذا وجب على المتفكر وهو يجول في رحاب الكون أن يستأنس بنور الوحي الذي يمده بحقيقة الأشياء، ويكشف الغطاء عنها، فيقوم عقله بسبر أغوارها والتأمل فيها، كما أن الوحي يبصر العقل بأمور الغيب التي لا طاقة له بها، وتوجيهه للسير في هذه الحياة وتوضيح مهمته فيها، ومن ثم تزويده بطاقة إيمانية ومعرفية يحتاجها في الطريق، فآيات الله المنصوصة في الكتاب هي المدخل الصحيح للعلم بطبيعة الكون وسنته ونظامه الخاص، وبالتالي اكتناه أسراره وخفاياه، فآيات الله في الكون وآياته في الكتاب تبدوان في الوحي القرآني متساوقتان، بل ومتناسبتان تمام التناسب»[1].

كما أن من مقاصد الوحي بيان وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم فما هو إلا تابع لما يوحى له، فبالتفكر الصادق يتبين أن الرسول لا يملك صفات الإله، ولا خصائص الملائكة، فهو بشر يتبع ما يأتيه به أمين الوحي جبريل عليه السلام ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

وليس لديه أي قدرة في تغيير شيء أو آية إلا بإذن الله تعالى، كما أن مهمته إنذار الكفار لما ينتظرهم من عقاب شديد نتيجة عدم اتباعهم للحق، وعملهم به، وارتباط الإنذار بآيات التفكر؛ ليثير في القلب الخوف والرهبة ومحاسبة النفس على أعمالها والاستعداد ليوم الجزاء.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، التدبر، العبرة، العقل، الغفلة، القرآن

(١) أصول المنهج العلمي في القرآن، محمد مجذوب ص١٣١.





عناصر الموضوع



مفهوم التقليد

أولًا: المعنى اللغوي:

التقليد مصدر للفعل الرباعي «قلد» بتضعيف اللام المفتوحة. ويأتي في اللغة على معان كثيرة، منها:

١. الإحاطة: أي ما يحيط بالشيء. ومنه القلادة، وهي «اسم لما يشتمل على الشيء ويحيط به كاللفافة والعمامة»[(١)]. فكأن المقلد يجعل ما اكتسبه ممن قلده، قلادة في عنقه، تحيط به، كما تحيط القلادة بالعنق.

٢. الإلزام: يقال: «قلده الأمر ألزمه إياه»[(٢)] فالمقلد ألزم المقلد فكرته وحمله إياها.

٣. التناوب: قال الزمخشري: «وهم يتقالدون الماء: يتناوبونه»[(٣)]. فالعادات والأفكار التي هي محل التقليد، تتناوب بين الأجيال، وتنتقل من جيل إلى جيل.

٤. المحاكاة والاتباع من غير تفكير[(٤)]. فالمقلد يحاكي من يقلده، ويفعل مثل فعله من غير تفكير ولا نظر ولا تأمل.

٥. السبق: «المقلد من الخيل السابق يقلد شيئًا ليعرف أنه قد سبق»[(٥)]، فيكون المقلد قد سبق بفكرته وعمله من يقلده، فالمقلد سابقٌ، والمقلد مسبوق.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

التقليد يتناوله أهل الفقه وأهل الاجتماع والذي يهمنا في هذه الدراسة، ما تناوله أهل الاجتماع من عادات وتقاليد وسلوكات سلبية توارثها الناس فرادى وجماعات. وقد ورد لكلمة التقليد في الاصطلاح عدة تعريفات، منها:

قال الجرجاني: «التقليد عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل، معتقدًا للحقيقة فيه من غير نظر وتأمل في الدليل، كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه، وعبارة عن قبول قول الغير بلا حجة ولا دليل»[(٦)].

---

(١) تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٦٧.
(٢) العين للفراهيدي ٥/ ١١٧، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣٦٧.
(٣) أساس البلاغة، الزمخشري، ٣٧٥.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥٢٦.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣٦٧.
(٦) التعريفات، الجرجاني ص٩٠.



«والمقصود بالتقليد الأعمى بالنسبة للمسلم: ما سلكه بعض المسلمين -من غير إدراك ولا وعي ولا تمحيص- من اتباع الكفار، والأخذ منهم، والتشبه بهم، في شتى ألوان الحياة وأنماط السلوك والأخلاق، وأشكال الإنتاج، في الاعتقاد والتصور والفكر والفلسفة والسياسة والاقتصاد والأدب والفن والثقافة والنظم والتشريع، من غير اعتبار للعقيدة والشريعة الإسلامية والأخلاق الفاضلة، ومن غير إلزام للمنهج الإسلامي الأصيل»[(١)].

ومن هذه التعريفات، يمكن بيان الآتي:

١. المقلد أقل علمًا من المقلد في المسألة التي اعتمد المقلد فيها على رأي من قلده.

٢. الواجب قبول قول صاحب الاختصاص، فخرج من ذلك القبول بقول من ليس من أهل الاختصاص.

٣. إن التقليد هو الأخذ بقول الغير، أما الأخذ بالكتاب والسنة والإجماع وأصحاب العلم والمذاهب فلا يسمى تقليدًا وإنما هو اتباع، فيكون المراد من قول الغير: رأيه واجتهاده.

٤. التقليد لا يكون إلا مع عدم معرفة الدليل، وهذا إنما يتأتى من العامي المقلد الذي لا نظر له في الأدلة.

٥. التقليد يجب أن يكون لمن يتصف بالعلم والعدالة، فتقليد من لا يوصف بعلم ولا عدالة، فيه تضييع للشخصية وإذابة لها في شخص من يقلده من الناحية السلبية.

فالمعنى الاصطلاحي للتقليد لا يخرج عن معنى الإحاطة والمحاكاة، وهما من المعاني اللغوية للكلمة.

(١) التقليد والتبعية وأثرهما في كيان الأمة الإسلامية، ناصر العقل ص٥٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاتباع:

الاتباع لغة:

التاء والباء والعين: أصل واحدٌ لا يشذ عنه من الباب شيء، وهو التلو والقفو، يقال: تبعت فلانًا، إذا تلوته واتبعته، وأتبعته إذا لحقته[(١)].

والمعنى اللغوي يدور حول الاقتفاء والاقتداء، واللحاق بشيء أو شخص والسير خلفه.

الاتباع اصطلاحًا:

قال الشرباصي: «والمعنى الأخلاقي للاتباع هو: أن يميز الإنسان الخبيث من الطيب، وأن يتبين طريقه على بصيرة، وأن يعرف من تقدمه على طريق الحق والصدق، فيتخذه أسوة وقدوة، فيمضي اللاحق على سنن السابق، فتوجد عند الإنسان روح الاتباع، وينأى بنفسه عن ضلال الابتداع... وخير اتباع ينبغي أن يتحلى به المرء ويلتزمه ويحرص عليه، اتباع هدي الله، والتزام صراطه المستقيم؛ لأن ذلك طريق الأمان والاطمئنان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]»[(٢)].

الصلة بين الاتباع والتقليد:

في الاتباع يميز الإنسان الخبيث من الطيب، ويتبين طريقه على بصيرة، بخلاف التقليد الذي يحصل من غير إدراك ولا وعي ولا تمحيص، وينبه إلى أنه ورد في نصوص القرآن الكريم الاتباع بمعنى التقليد في مجموعة من الآيات.

٢ التشبه:

التشبه لغة:

ترد هذه الكلمة بمعنى: «المماثلة والمحاكاة والتقليد»[(٣)]. قال ابن منظور: «وأشبه الشيء الشيء: ماثله... وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كل واحد منهما صاحبه»[(٤)]. يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: «تشاكل علينا في أسنانها وألوانها»[(٥)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٦٢.
(٢) موسوعة أخلاق القرآن، الشرباصي ٥/ ١٣٨.
(٣) من تشبه بقوم فهو منهم، ناصر العقل، ص٧.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٥٠٣.
(٥) تفسير السمرقندي، ١/ ٦٣.



والتشبه اصطلاحًا:

هو عبارة عن محاولة الإنسان أن يكون شبه المتشبه به وعلى هيئته وحليته ونعته وصفته، أو هو عبارة عن تكلف ذلك وتقصده وتعلمه، وقد يعبر عن التشبه بالتشكل والتمثل والتزيي والتحلي والتخلق[1].

الصلة بين التشبه والتقليد:

التقليد صفة نقص لا تقع إلا من الجانب الضعيف، وفيه معاني الانقياد، والتفويض، والاستسلام، والطاعة العمياء من غير نظر وتمييز بين ما يضر وما ينفع، وأما التشبه فقريب من التقليد إلا أن فيه تكلفًا وتعلمًا وتقصدًا.

وغلب استعمال التقليد في الأقوال، وأما التشبه فقد غلب استعماله في الأفعال.

(١) انظر: التدابير الواقية من التشبه بالكفار، عثمان أحمد دوكلي ص٣٤.

أسباب التقليد

أسباب التقليد يمكن إجمالها في مطالب أربعة، على النحو الآتي:

أولًا: الجهل:

عندما ينتشر الجهل، ينتشر التقليد؛ فيستقبل الجاهل ما يلقى إليه من عقائد فاسدة، وتشريعات ضالة. وقد حدثنا القرآن الكريم بأمور يكون الجهل فيها سببًا للتقليد، وهي:

١. الجهل بحقيقة التوحيد.

تحدث القرآن الكريم عن أناس جهلوا حقيقة الألوهية والربوبية، وحقيقة المنعم عليهم؛ فعبدوا غيره. فهاهم بنو إسرائيل يطلبون من موسى عليه السلام -وهم حديثو عهد بمعجزة فلق البحر، وإغراق فرعون وقومه على مرأى من أبصارهم- أن يجعل لهم إلهًا صنمًا، تقليدًا لعبدة الأصنام. فقال الله سبحانه مبينًا سبب تقليدهم الذي هو الجهل: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨] فوصفهم الله بالجهل على أتم وجه، لأنهم جهلوا حقيقة التوحيد[1].

وشبيهٌ بذلك ما طلبه جهال الأعراب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط كما للكفار. فقد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي أنهم خرجوا عن مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين. قال: (وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط. قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة. قال: فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ إنها لسننٌ، لتركبن سنن من كان قبلكم سنة سنة)[2].

كذلك وجدنا كفار مكة يطلبون من نبي الله صلى الله عليه وسلم أن يعبد آلهتهم، التي هرعوا في عبادتها مستنين بآبائهم دون علم، فكان الأمر الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يرد على المشركين ردًا فيه الشدة والوصف بالجهل.

فقال الله سبحانه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٦٤].

فكان جهلهم بالله تعالى، وفساد جهلهم بعبادة الأصنام يضاهي جهل بني إسرائيل.

---

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٩/ ٤١، المنار، محمد رشيد رضا، ٩/ ١١٠-١١١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٢٢٥، رقم ٢١٨٩٧.
وصححه الألباني في ظلال الجنة، ١/ ٣١، رقم ٧٦.

وها نحن نرى اليوم عبادة المادة من دون الله تعالى من قبل بعض أبناء الأمة استجابة لطلب الغرب الذي صارت المادة في حياة غالبية أهله كل شيء.

ووجد في البشرية من صفته الجهل بحقيقة العبادة ومدلولها ومستحقها، فافتتن بالقبور والأضرحة فعبدها تقليدًا لآبائه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت»[1].

فهي لم تعبد إلا بعد هلاك الصالحين ونسخ العلم وانتشار الجهل.

والأمم والشعوب عندما يغشاها الجهل ويندس بين صفوفها المشعوذون والمبطلون؛ فإن التقاليد الباطلة والأخلاق الفاحشة تتسلل اليهم، ويبتعدون عن ضياء الحق[2]. واليوم نرى من سرى إليه تقليد السابقين في التمسح بالقبور وتقديسها من جهلة الأمة.

وبلغ من جهل الكفار أن اختلقوا لله تعالى بنين وبنات بغير علم منهم، فنسبوا إليه الولد، فكان من جهلهم أن نسبت اليهود عزيزًا إلى الله، وكان مثلهم النصارى في قولهم المسيح ابن الله، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠].

ويشبههم الكفار في قولهم: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فقال الله فيهم وفي أمثالهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ولقد وجد في البشرية قديمًا وحديثًا من علية القوم من يستخف بعقول الدهماء، طالبًا منهم عبادته من دون الله، وهذا من جهله بحقيقة ربه عز وجل، بل ومن جهله بحقيقة نفسه.

فقد قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝٥٤﴾ [الزخرف: ٥٤].

فالطغاة يعزلون الجماهير عن كل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، ٦/ ٧٣، رقم ٤٩٢٠.

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية، البوطي، ٤٧-٤٨.

سبل المعرفة، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة؛ وبهذا يسهل استخفافهم، ويلين قيادهم، فيقودونهم ذات اليمين وذات الشمال وهم مطمئنون [(١)].

إن الذي لا يستقيم على طريق، ولا يمسك بحبل الله، ولا يزن بميزان الله، هو الجاهل بهذا الطريق، فجهله كان سببًا في سهولة انقياده لمن استجهله. والناظر في زماننا اليوم، يرى الأمر جليًا في سلوك الكثيرين. فلقد جهلت الأمة حقائق كثيرة عن الله عز وجل، منها حقيقة أن الرزق بيد الله وحده، فصاروا طوعًا في يد المستكبرين؛ فذلوا أنفسهم بطاعة من أقرضهم من الغرب الذي في غالبيته كفر، وأذلوا شعوبهم بأن مارسوا عليهم عقيدة غير المسلمين وثقافتهم، ظنًا منهم أنه من خلالهم يكون الرزق، وأنهم لو تركوا طاعتهم ما طعموا وما شربوا!!.

٢. الجهل بحقيقة النبوة.

إن الأقوام الكافرة جهلت رسالة النبي المبعوث بها، وأنه مكلف بالبلاغ وليس الإتيان بالعذاب، فأخذت الأقوام تطلب من أنبيائها أن تأتيها بالعذاب والمعجزات، ولم يكن هذا من أجل الاهتداء، بل عنادًا. وهذا الأمر تكرر على مر القرون، بسبب جهل الأقوام بحقيقة النبوة فوصف الله جهلهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة: ١١٨].

فبنو إسرائيل اشترطوا -لجهلهم- على موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة كي يؤمنوا، فقال سبحانه عنهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

ومثلهم كان مشركو مكة في الجهل وطلب الخوارق، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

ولما جهلت علية الأقوام ميزان الله تعالى في التفاضل بين الناس وهو التقوى؛ أنفت أنفسهم الجلوس مع ضعفاء المؤمنين كبرًا، فطلبوا من الأنبياء عليهم السلام الانفصال في المجلس عنهم. فقال الله سبحانه عن قوم نوح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هود: ٢٩].

وتبع قوم نوح صناديد مكة حينما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٣١٩٤.

يجعل لهم مجلسًا سوى مجلس الضعفاء الداعين ربهم غدوًا وعشيًا. فجاء التوجيه الرباني للرسول صلى الله عليه وسلم في رفض الطلب: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

٣. الجهل بحقيقة التشريع.

والقرآن الكريم لا يصم المقلد بالجهل فقط، بل ويصم المتبوع كذلك. فمن حيث التشريع وجدنا القرآن الكريم ينعى على المقلد الذي يتبع آباءه الذين شرعوا له مالم يأذن به الله، هؤلاء الآباء الذين لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.

فقال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

وهذه الآية سبقتها آيتان تتحدثان عن حق الله في التشريع الذي يجب أن يطبق لا أن ينازع.

إن الله تعالى هو الخالق المالك الرازق؛ ومن حقه وهو يعلم من خلق، ويعلم ما يصلح الخلق ويفسده أن يضع التشريع الذي يصلح خلقه ولا يفسدهم. ولما جهل الكفار حقيقة علم الله، وجهلوا حقيقة أنفسهم وقلة علمهم وجهلوا حقيقة الكون، ذهبوا ينازعون الله هذا الحق وأخذوا يشرعون مالم يأذن به الله. فالنزاع بين الرسل والدعاة من جهة، وأقوامهم من جهة أخرى، لم يكن -في الأغلب الأعم- حول قضية الربوبية، فأهل الكفر يعترفون لله بالربوبية.

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩].

ولكنه كان حول من تكون له السلطة والحاكمية. فوجدنا حكم الطاغوت وتشريعاته، ينازع حكم الله تعالى دائمًا.

وأراد بعض الصحابة رضي الله عنه أن يحرموا على أنفسهم بعض ما أحل الله من نساء وطعام ونوم[1]، تقليدًا لرهبانية النصارى، ظنًا منهم أن ذلك فيه زيادة قربى إلى الله تعالى، فكان قول الله تعالى ناهيًا إياهم عن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: ٨٧].

فسمى الله تعالى تحريم ما أحل اعتداء، فهو اعتداء من حيث جعل النفس هي المشرعة من دون الله، وتحرم ما يصلحها، وتحل ما يفسدها، وهذا لا يكون إلا من جاهل.

واليوم جهل كثير من المسلمين من له

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص٢٠٦.

الحق في التشريع؛ فقصروا فهمهم للإسلام على عبادات تقام، ويستفتونه في لباس أو شراب أو نكاح، أما النظم العامة، فلم يعد الاستفتاء فيها للإسلام، بل للدساتير الوضعية.

والجهل من أسباب الارتماء في أحضان الحضارة الغربية، فمن فسد تصوره عن الإسلام وأحكامه، وتاريخه ومدنيته وحضارته، لا بد أن يتأثر بكل غزو فكري، وينقاد لكل فكرة لا أخلاقية لأنه فارغ العقيدة والعلم[1].

وهذا ماثل في حياة المسلمين اليوم، ففي تقليد الحياة الاجتماعية حينما سفهت المرأة أمر دينها خرجت عارية متبرجة تبرج الجاهلية الأولى، الذي ينهى الله عنه بقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وفي جاهلية المجال الاقتصادي، نجد الكثير من المسلمين يتعاملون بالربا، والاستغلال تقليدًا للفكر الرأسمالي الغربي. وفي مجال الحكم، قلد من بيده مقاليد المسلمين الغرب في تطبيق التشريع العلماني، متخذين تشريع الله وراءهم ظهريًا. وهذا كله لجهلهم بحقيقة تشريع الله النافع الصالح، ولجهلهم بحقيقة التشريع الوضعي الضار.

ثانيًا: اتباع الهوى:

اتباع الهوى مذموم في كتاب الله تعالى، ويكون في أمور أهمها:

١ . اتباع الهوى في الشبهات.

اتباع الهوى يكون في شبهات كثيرة منها: شبهة الغلو والشرك، والحكم بغير ما أنزل الله، واستبدال التشريع الرباني بالتشريع الوضعي.

أما اتباع الهوى في شبهة الغلو، فقد نهى الله تعالى أهل الكتاب عن اتباع أسلافهم في الغلو في عيسى عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٧٧﴾ [المائدة: ٧٧].

وجاءت الشبهة من أن الذين عبدوا مع الله غيره، كانوا يرون أن الحق في اتخاذ آلهة مع الله تعالى[2].

وقريب من غلو النصارى في عيسى عليه السلام تبعًا لأهواء من ضل قبلهم وأضل، وجدنا كذلك متبعي الأهواء من كفار مكة قلدوا آباءهم في عبادة الأصنام.

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ

(١) انظر: الشباب المسلم في مواجهة التحديات، عبد الله علوان، ص١٩٥، التقليد والتبعية، ناصر العقل، ص١١١-١١٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي. ٢٣/ ٩٧.

﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

وصاحب الهوى متقلب في عبادته، واختيار معبوده، فيتنقل بين معبوداته حسب هواه. يروي الطبري عن سعيد قال: «كانت قريش تعبد العزى، وهو حجر أبيض، حينًا من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر، فأنزل الله ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية: ٢٣]»[(١)].

واتباع الهوى سبب في الصد عن اتباع الحق، فالله عز وجل خاطب موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٥-١٦].

وخاطب نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم مبينًا تشابه كفار مكة مع قوم موسى عليه السلام في ترك الحق اتباعًا لأهوائهم فقال الله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [القصص: ٥٠].

يقول صاحب التفسير الوسيط: «ما يتبع هؤلاء الجاهلون في عبادتهم لتلك الآلهة الباطلة، إلا الظنون الكاذبة، وإلا ما تشتهيه أنفسهم الأمارة بالسوء، وتقليد للآباء بدون تفكر أو تدبر»[(٢)].

ووجد في المسلمين فرق غالت في الرجال والعقائد اتباعًا لهواها -مضاهاة لليهود والنصارى- ومنها بعض الشيعة الذين غلوا في آل البيت والحسن والحسين والأئمة، حتى رفعوهم إلى درجة النبوة، بل ومنهم من رفع الأئمة فوق مرتبة النبوة.

وكما كان اتباع الهوى في شبهة العقائد، كذلك كان في شبهة التشريع.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام: ١١٩].

وشبهة الكفار في تحليل الميتة أن ما ذبح الإنسان فحلال، وما قتل الله فحرام، فهل الإنسان أحسن من الله؟! فلا بد من تحليل ما قتل الله (الميتة) بزعمهم[(٣)].

وكان من تشريع كفار مكة تلاعبهم في الأشهر الحرم، كما أخبرنا الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا

---

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٧٦.

(٢) الوسيط، طنطاوي، ١٤/ ٧٠.

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٨٠.

﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧][1] .

وكانت العرب تمتنع من الغارات في هذه الأشهر. فلما كان ترك القتال يطول هذه المدة- ثلاثة أشهر متتالية- أخذوا يحلون هذه الأشهر ويحرمون بدلًا منها غيرها. وهذا التحليل والتحريم كان تبعًا لأهوائهم. وهذا الفعل لكفار مكة، وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم، يشابه فعل اليهود من قبل في التبديل والتحريف.

فقد قال الله عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٤١].

فقد غيروا حكم الزاني المحصن من الرجم إلى الجلد والتحميم، وهذا تبعًا لهوى أنفسهم التي كبر عليها رجم علية القوم إذا زنوا.

ولقد خاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم محذرًا إياه من اتباع أهواء اليهود وأن يحكم لأشرافهم على خصومهم بغير حق: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

والتحذير الرباني للنبي صلى الله عليه وسلم، تحذير لأمته. واليوم نرى تبديل حكم الله تعالى في عالمنا الإسلامي، فتشابه حكام المسلمين باليهود والغرب العلماني في تعطيل حكم الله تعالى، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ كي لا يتهموا بالرجعية. فالحدود معطلة، إذ السارق من ضعفاء القوم له السجن بدل قطع اليد. والزانيان بالرضا لا عقوبة عليهما. وشارب الخمر لا جلد عليه. والقصاص معطل، فالقاتل عمدًا يسجن، ويقتل غيره من أقربائه ثأرًا، كما هو الحال في الجاهلية الأولى. والقانون يحكم به على الضعيف دون الشريف.

٢. اتباع الهوى في الشهوات.

بين الله تعالى في كتابه العزيز حب الناس للشهوات، فقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ومن الناس من يحبها حبًا جمًا، ويتبع هواه في حبها لدرجة هلاكه من حيث لا يشعر، فيعميه حبها عن اتباع الحق، وتكون له إلهًا يعبد.

يقول ابن تيمية: « فهذا الاتباع والتقليد الذي ذمه الله هو اتباع الهوى إما للعادة والنسب كاتباع الآباء، وإما للرئاسة كاتباع الأكابر والسادة والمتكبرين، فهذا مثل تقليد

(١) والأشهر الحرم التي حرمها الله تعالى أربعة: ثلاث سرد، وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، وواحد فرد؛ وهو رجب.

الرجل لأبيه أو سيده أو ذي سلطانه»[1].

ووجدنا آيات كثيرة تتحدث عن اتباع الهوى في كثير من الشهوات منها:

* اتباع الهوى بسبب الكبرياء.

إن خلق الكبرياء، خلق يعمي عن اتباع الصراط المستقيم ومن اتبع هواه في هذا الخلق واستكبر، وجد نفسه معاندًا للحق، صادًا عن سبيل الله تعالى. ولقد وجد هذا الأمر في الأمم والأفراد، فقال الله سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧].

فبنوا إسرائيل استكبروا عن سماع الحق واتباع الرسل، فقتلوا فريقًا منهم وكذبوا فريقًا. وفعلهم هذا مثل فعل فرعون وقومه حينما أنكروا الحق ظلمًا وعلوًا.

إذ قال الله تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فأنفسهم أيقنت الحق، ولكنهم رفضوه تكبرًا، ففرعون استكبر عن الحق تبعًا لهوى نفسه في جعلها إلهًا من دون الله، وقومه اتبعوه عبادة له من دون الله تعالى.

فصدق قول الله عز وجل فيهم: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩].

فكانت صفة الاستكبار ماثلة في بني إسرائيل وفي فرعون وجنوده. والأمر ذاته نجده ماثلا في أبي جهل، الذي نزل فيه قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدث في شأن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لصادق! فقال له: مه! وما دلك على ذلك؟ قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين؛ فلما تم عقله وكمل رشده، نسميه الكاذب الخائن!! والله إني لأعلم أنه لصادق! قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به! قال: تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزى إن اتبعته أبدًا. فنزلت ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾[2].

فأبو جهل أيقن أن محمدًا صلى الله عليه وسلم على الحق، إلا أنه كذبه اتباعًا لهواه، وصدًا عن سبيل الله تعالى كبرياء من نفسه، وبقي بهذا مقلدًا لدين آبائه. واليوم نرى هذا الأمر ماثلًا في كثير من أهل الكبرياء استنكافًا عن الحق، واتباعًا لما سبق.

* اتباع الهوى في العمل بخلاف ما يعلم.

علم الله تعالى الإنسان مالم يعلم، والأصل في الإنسان أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة بأن يؤدي حق الله فيها، إلا

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٢٠/ ١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١١٣.

أن هناك ممن تعلم حتى إذا صار عالمًا اتبع هواه، فعندها قال أو عمل خلاف ما يعلم.

ولقد ذكر الله تعالى هذا الصنف في كتابه العزيز فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

وهذه الآية كانت في يهودي آتاه الله علمًا، فذهب إلى من أغدق عليه العطاء فتبعه وترك دين موسى عليه السلام[1].

وعلماء السلاطين موجودون في كل حين، تتعاقب وتتشابه فعالهم في إرضاء سلاطينهم تبعًا لأهوائهم.

يقول سيد قطب: «وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله، ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعًا»[2].

والآية تبين أن هذا الصنف من العلماء: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: اطمأن إليها وسكن حيث ملذاته وشهواته واتبع الهوى في حبها، والأصل أن يرفعه علمه إذا عمل به، إلا أنه آثر الحياة الدنيا، فنزل من العلو إلى السفل، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وكان من الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء: ٤٤].

وابتلي بعض علماء أمة الإسلام بمثل ذلك، فباعوا آيات الله تعالى بمنصب رخيص، ورضى حاكم جائر، تثبيتًا لعرشه، واتباعًا للهوى، فبئس ما يشترون. وهذا الصنف من العلماء أخطر على الأمة من ملأ الحاكم الجائر وجنده؛ لأن الحاكم الظالم يستند في شريعة أفعاله إليهم، ويعد نفسه على الحق؛ وبهذا يزداد السلطان عتوًا وإفسادًا.

- اتباع الهوى في قلب الحقائق.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦].

ففرعون ينظر إلى موسى على أنه المفسد ويرى نفسه مصلحًا، فأصبح المعتدي على الألوهية الحقة -طمعًا في إبقاء ألوهيته الزائفة المتبعة للهوى- هو الحق، ومن أراد

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٣١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٣٩٨.

إرشاد العباد لخالقهم هو المفسد! بل وعد نفسه أنه الهادي قومه إلى الرشاد، الآتي لهم بشرع رشيد.

قال الله سبحانه عنه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وتكرر الأمر من قوم لوط، حينما نظروا إلى من ترفع عن الفاحشة وتنزه عنها، بأنه لا يستحق مجاورة ولا مساكنة، فهم الجديرون للأرض والوطن، وغيرهم ممن لا يفعل فعلهم ليس له إلا الطرد والنفي!

فقال سبحانه عنهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ [النمل: ٥٦].

كذلك نجده هذا الأمر من أهل مكة الذين شاركوا فرعون وقوم لوط في قلب الحقائق تلبية لرغباتهم وشهواتهم، حينما حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم لأنه عاب آلهتهم، وسفه أحلامهم، واتهموه بالسحر والكذب والكهانة، وأنه أفسد بين الولد ووالده، وفرق بين المرء وزوجه، فلا بد من سجنه أو قتله أو طرده، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠].

وتتوالى السنون والأيام، وتمشي معها الحالة المكرورة من قلب للحقيقة، فيصبح: الأمين خائنًا، والخائن أمينًا، والمصلح مفسدًا، والمفسد مصلحًا، والمجاهد إرهابيًا لا يستحق الحياة، ولا بد من محاصرته ومطاردته ونفيه من الأرض. فتصنف الناس حسب الأهواء والأمزجة. تشابهت القلوب، فحاكت الأفعال بعضها بعضًا.

ثالثًا: الخوف والاستضعاف:

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه بالعقل والإرادة. وحينما يتنازل عن هذا التكريم الإلهي، فإنه يصبح موبوءًا بوباء التبعية، ويسلم قياد نفسه لغيره، ويعطل عقله، ويسيطر الخوف والضعف عليه. ومن هنا نجده يمتثل أمر سيده، ويجتنب نهيه، تاركًا كتاب ربه وراءه ظهريًا، ومعرضًا عن سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، حجته في ذلك: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾، أو ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ومن خلال ذلك سيكون تحت هذا المطلب أمران هما:

١. الخوف.

يعرف الخوف بأنه «توقع حلول مكروه، أو فوات محبوب»[1].

والخوف جبلي -وهو ماكان مفطورًا عليه المرء- لا مؤاخذة فيه، وأما النفعي،

(١) التعريفات، الجرجاني، ص١٣٧.

فهو الذي يجلبه المرء لنفسه نتيجة ضعفها. والخوف النفعي قد يكون خوفًا من قوة متوقعة، وخوفًا على المال أو المنصب. وهذا كان سببًا في تقليد الكافرين ومتابعتهم، والإعراض عن سبيل المؤمنين.

يقول الله عز وجل: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

نزلت هذه الآية في المنافقين - وعلى رأسهم ابن سلول - الذين والوا اليهود[1]، وعملوا بأعمالهم مقلدين إياهم في الصد عن دين الله. ويحملهم على ذلك؛ خوفهم أن يهزم المسلمون، فتكون لهم يد عند من يوالونهم، يحفظون بها أنفسهم «ولكن حجة ابن سلول، هي حجة كل ابن سلول على مدار الزمان؛ وتصوره هو تصور كل منافق مريض القلب لا يدرك حقيقة الإيمان»[2].

وتتكرر صورة ابن سلول وأعوانه اليوم في خشيتهم من اليهود، ومسارعتهم في المحافظة على كيانهم وأمنهم، قائلين: ﴿نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ فالمسارعة في خدمة يهود، والبحث عن رضاهم، ديدن المنافقين في هذه الأمة قديمًا وحديثًا، محتسبين أن كل صيحة عليهم.

وتعدية المسارعة بكلمة (في) وليس بكلمة إلى كما في قوله الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

دليل على أنهم غارقون في التقليد والتبعية، وهذا ينم عن نفسية مريضة، فهم يهرعون في نصرة العدو ونقل أخبار المسلمين إليه. وفي هذا دليل على عميق مرض أنفسهم، وعدم ثقتهم بوعد الله بالنصر. فلما كانت النفس بهذا السوء والهزيمة؛ سهل انقيادها لليهود والنصارى وأشياعهم، وعملت -وهي راضية- ما تطلبه يهود في مطاردة الإسلام وأهله، ونشر الفساد والإلحاد، وحمايته بالأموال والأنفس؛ فالأمر ماثل للعيان في هذا الزمان مشابهة لابن سلول. وحيثما وجدت نفس بهذا المرض، كانت مقلدة ذائبة في غيرها. وهذا في كل زمان.

والمخاطب بالرؤية معروف وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، أو من يصلح للخطاب من أمته. والفعل (ترى) مضارع يدل على الاستمرارية، وهذا يعني أن المسألة تتكرر في كل زمان، ولم يكن الحديث مع غائب، ولعل ذلك -والله أعلم- من باب أهمية المؤمن المخاطب، وحظه عند الله تعالى، وتحذيره من أن يصيبه ما أصاب المسارعين فيهم.

وكما أن الخوف من الدائرة، سبب

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ١٩٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب. ٢/ ٩١٦.

تقليد، كان الخوف على المصالح المادية أيضًا، فقال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧]. وهذا كان من أهل مكة للرسول صلى الله عليه وسلم، رغم أن الله جعل لهم حرمًا آمنًا يجبى إليه ثمرات كل شيء. وشابه ذلك أهل زماننا، فكم من دولة عربية وإسلامية تتبع أوروبا وأمريكا، خوفًا على مصالحها الاقتصادية، أو حبًا في تخفيف الديون المتراكمة عليها، أو خوفًا من ضربة عسكرية، رغم ما أنعم الله عليهم ما لم ينعم به على غيرهم من طاقات بشرية وإمكانات اقتصادية.

ولئن كان الخوف من التخطف -إن اتبع الدين- هو شأن علية القوم، فقد وجدنا العامة من الناس، تلوك ألسنتهم الفكرة نفسها، فلكم تشنفت الآذان من ثقافة المجتمع المستضعف الخائف من البغي السلطاني، أو عدم الحصول على وظيفة، إن عمل لدينه حق العمل بشموله، أو جاهد نصرة له، محاربًا الظلم وأهله، ذابًا عن شرع الله تعالى، ومطالبًا بتحكيمه كاملًا غير منقوص. فسبحانك ربي، ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

فالحالة ذاتها على مر الأجيال.

ولئن سألتهم عن قناعتهم بهذه الفعال لقالوا: لسنا على قناعة بذلك ولكنها الوظيفة!! سبحان الله العظيم تشابهت القلوب مع قلوب قريش، ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ﴾ فاعترف الفريقان بأن ما يدعو إليه النبي صلى الله عليه وسلم والدعاة في كل زمان هو الهدى، لكنهم أعرضوا عن اتباعه، وبقوا على دين كبرائهم خوفًا، فحالهم كحال فرعون وجنده: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ولقد برر القوم عدم تبعيتهم لشرع الله بكلمة ﴿نُتَخَطَّفْ﴾ الدالة على الأخذ بسرعة[1]. دلالة على شدة الهلع والخوف من الناس، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠].

والإهراع: «إسراع فيه شبه بالرعدة»[2]. فالإسراع الشديد في التقليد والتبعية ثمرة الخوف الشديد. وهذه الحالة النفسية التي يصفها القرآن العظيم للمقلدين، تدل على ذوبان شخصية صاحبها في المتبوعين، وخوفها منهم.

٢. الاستضعاف.

وصف الله سبحانه وتعالى حالة الضعف كحالة تعتري النفس البشرية، تؤدي إلى الانقياد والتبعية للآخر المستكبر، فقال: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ١١٨.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٤٧.

لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

والضعفاء هم الذين تنازلوا عن كرامتهم وحريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد، وجعلوا أنفسهم تبعًا للمستكبرين الطغاة. والقوة المادية -مهما كانت- لا تملك إلا تعذيب الجسد، أما العقل والروح فلا يملك أحد حبسها إلا إذا أسلمها صاحبها للحبس والإذلال، فحينما ضعفت الأرواح والعقول سقطت همتهم، واتبعوا المستكبرين[1].

والضعاف هم الذين فقدوا صناعة القرار الذاتي، فأصبحوا مصنوعين لا صانعين، مقودين لا قادة. وهم الذين ذابت شخصياتهم فذاب قرارها الخاص بها في غيرها، ومن هان على نفسه، هان على الناس. فالضعفاء يقولون للمستكبرين: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، «أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا»[2]، بل هم سادة في التطبيق والامتثال من فرط ضعفهم وذلهم وعبوديتهم، فهم: «لشدة تبعيتهم كأنهم عين التبعية»[3].

لقد قلد الضعفاء الكبراء في أنواع الضلالات المختلفة، فلما كذب المستكبرون الأنبياء، كذلك كان الضعفاء، ولما كان المستكبرون معذبين للرسل عليهم السلام كان الضعفاء جلادين لديهم، منقادين للأمر دون تفكير.

والله تعالى لم يقبل عذر المستضعف، إذا كان قادرًا على الانتفاضة على ضعفه وذله، تاركًا تبعية كبيره، بل وحتى تكثير سواده -إذا لم يكن في الانتفاضة منكر أكبر من منكر الضعف والذلة-. يقول المولى عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

ولقد عبر القرآن الكريم عن المستضعفين بصيغة الفعل المبني للمجهول (استضعفوا)، لهوانهم على الله كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

وفي التعبير بصيغة المبني للمجهول دلالة على شدة مهانتهم لأنفسهم وعدم تقديرهم لكرامتها، فأذلوها مقلدين الذين استكبروا. وفي المقابل كان التعبير عن المستكبرين بصيغة المبني للمعلوم، لإظهار تفننهم في قيادة المستضعفين بالليل والنهار. فهم وجدوا قطيعًا ينفذ، فلماذا لا يأمرون؟! ووجدوا ضعفًا سهل انقياده، فلماذا لا يتكبرون! والكبر شعارهم، «والسين والتاء

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٤٥٤.
(٣) روح المعاني، الألوسي، ٢٤/ ٧٤.

للمبالغة في الكبر»[1]. وذلك أن المتكبر سعى في طلب الكبر.

ويبين يوسف العظم أن أعمق معاني الهزيمة تلك التي تنبع من داخل الإنسان، ولا يشعر بها، لأنه مخدر الذهن يحيا أجواء الغرور، ولا يفسح لغيره حوارًا[2].

وهذا ماثل تمامًا في حاضر أمة الإسلام اليوم، فقد انهزمت من داخلها، ولم تعد تعرف سر قوتها، وسر ضعف غيرها، فانبهرت بحضارة غيرها واتبعتها.

وقريب من هذا -الهزيمة النفسية التي كانت سببًا في التقليد- قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فبمجرد دعاء الشيطان استجابوا، وهذا دليل الخواء الروحي، والضعف العقلي، والفراغ الذاتي، أن لبوا نداء الشيطان في الضلال والإغواء، بمجرد الدعوة، كما هو شأن كل متبعي الشيطان في كل زمان.

والمغلوب مولع دائمًا بالاقتداء بمن غلبه، لاعتقاد الكمال في الغالب، فتجده يتشبه بالغالب في زيه ومركبه وسلاحه.[3]

والمتأمل في المجموعات الإنسانية، يرى أن نسبةً عظمى منها تضعف إرادتها وتنحني أمام إرادة ذوي السلطة السياسية أو الاجتماعية أو الروحية، وحينها تتعطل ملكاتهم فيكونوا إمعة. ويستغل القادة صفة الطاعة العمياء هذه لبث أفكارهم وعقائدهم التي فيها تمكين نفوذهم، وتسخيرهم لتحقيق ما تشتهي أنفسهم الآثمة من سلطان أو مال.[4]

رابعًا: تعظيم الأنبياء والأولياء:

يخرج في كل أمة أشخاص بارزون لهم بصمات في تاريخها، فمنهم من يبرز في ميدان العبادة، ومنهم من يبرز في ميدان المعارك، ومنهم من يبرز في ميدان العلم، ومنهم من يبرز في ميدان القيادة. وهذه الفئة من كل أمة يكون لها وزنها في أنفس الجماهير. ولما كان قول أهل النباهة له مكانة في الأنفس، فإن العامة تقول بقولهم، وتعمل عملهم. يقول القرطبي: «وأقوال النبهاء أبدًا مشهورة في الناس يحتج بها، فمن هنا صح أن تقول الجماعة قول نبيها»[5].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣/ ٢١٦.
(٢) انظر: المنهزمون دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة، يوسف العظم، ص١٩.
(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون، ص ١٤٧.
(٤) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، الميداني، ص٦٩٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٨٥.

فالنبيه تتبعه العامة، ويقلدونه في القول والعمل. ويكون الناس معهم أصناف ثلاثة:

الصنف الأول: الغالي فيهم، المعظم لهم لدرجة العبادة.

الصنف الثاني: الجافي عنهم، إما جاهلًا بهم، أو حاسدًا لهم.

الصنف الثالث: الوسط بين الصنفين السابقين، ويتعامل مع هذه الفئة البارزة دون إفراط ولا تفريط.

وهذا المطلب سيدور حول الصنف الأول دون الثاني الذي لا يكون فيه تقليد، بسبب جهلهم الذي لا يدفعه إلى التقليد، أو حسده الذي يسبب معاداتهم والتي تمنع التقليد من الناس، وذلك في أمرين:

١ . المبالغة في تعظيم الأنبياء عليهم السلام.

لقد بين الله تعالى أن اليهود زعموا أن عزيرًا ابن الله، وكذلك بالنسبة للنصارى في عيسى عليه السلام، فقال سبحانه عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠].

فعزير، مختلف فيه أنبي هو أم عالم من علماء بني اسرائيل؟ وأيًا كان الأمر، فالذي يهم هنا أنه قدس، بزعمهم أنه ابن الله زورًا وكذبًا.

يقول محمد سيد الطنطاوي: «وقد قدسه اليهود من أجل نشره لكثير من علوم الشريعة، وأطلقوا عليه لقب(ابن الله)»[(١)].

فعزير عظم عند اليهود، لما له من شأن في حفظ التوراة، في الوقت العصيب الذي ذهبت منهم هذه التوراة.

أما بالنسبة لعيسى عليه السلام، فقد أخبر الله تعالى عن فرية النصارى حين قالوا عنه بأنه ابن الله، وذلك لأنهم رأوا على يديه من المعجزات التي لا تصدر إلا عن إله، أو لأنه ولد لغير أب. فمن هنا، كان تعظيمهم له.

ولقد غالت النصارى في المسيح عليه السلام، وأطروه إطراءً تجاوزوا به الحد، فقال الله سبحانه وتعالى ناهيًا إياهم عن الغلو فيه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

والآية تنهى عن رفع عيسى عليه السلام من مقام النبوة إلى مقام الألوهية، فسلفهم ضل في هذه الفرية وأضل من بعده.

وبين الله تعالى كفر النصارى في عقيدة التأليه والتثليث لعيسى عليه السلام فقال

(١) الوسيط، طنطاوي، ٦/ ٢٥٧.

سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٣].

فهاتان الآيتان تظهران كفر من اعتقد هذه العقيدة. وفيهما تحذير لأهل مكة التي ضاهى مشركوها اليهود والنصارى، حين خرقوا لله بنين وبنات بغير علم، وجعلوا الملائكة -الذين هم عباد الرحمن- بنات الله، وكذلك فيهما تحذير للمسلمين من أن يغلو في نبيهم صلى الله عليه وسلم، مشابهة لليهود والنصارى في العزير وعيسى، والذي حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا حينما قال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله)[1].

ومع هذا التحذير والإرشاد، إلا أنه وجد في الأمة من أعطى النبي صلى الله عليه وسلم بعض صفات الألوهية، كالتضرع إليه في قضاء الحاجات وتفريج الكربات ومغفرة الذنوب[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾، ٤/ ١٦٧، رقم ٣٤٤٥.

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالله، ص ٢٧٣، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، الفوزان، ١/ ٦٢.

فمن أهل التصوف من أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس له وما هو بريء منه، فاعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الله المستوي على العرش، وأن السماوات والأرض والعرش والكرسي وكل الكائنات خلقت من نوره وإنه أول موجود؛ وهذه عقيدة ابن عربي[3].

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا رضي الله عنه حينما أراد السجود له، تقليدًا لنصارى الشام في السجود لأساقفتهم، وبين أن هذا لا ينبغي إلا لله وحده[4].

خامسًا: تعظيم الأولياء:

بشر الله تعالى أولياءه الصالحين بألا يخافوا ولا يحزنوا فقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

و«أولياء الله هم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة»[5]، وهم الأقرب إلى الله تعالى، والأكثر طاعة له، وخشية منه.

(٣) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ٢/ ١١٥٧.

(٤) انظر: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة، ١/ ٥٩٥، رقم ١٨٥٣.

(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٤٤.

والأولياء الصالحون وجدوا عبر التاريخ، فهم يتبعون الأنبياء والرسل عليهم السلام، وكانوا من الطاعة والعبادة لله ما ميزهم عن غيرهم، فأخذت الدهماء تنظر إليهم نظرة تقدير وإجلال وإكبار، فمنهم من ظن فيهم الشفاعة عند الله تعالى، ومنهم من أوصلهم إلى مرتبة الألوهية، فتوجهوا إليهم من أجل قضاء الحاجات، وتلبية الرغبات.

والناظر إلى آيات القرآن الكريم يجد ما يدل على ذلك. فقوم نوح قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

هؤلاء رجال صالحون كان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا جعل أتباعهم لهم صورًا ليتذكروهم، فينشطوا في العبادة والطاعة كلما رأوها. واستمر الحال حتى نسخ العلم وانتشر الجهل، وزين لهم الشيطان، أن هؤلاء الرجال الصالحين كان يستمطر ويستنصر بهم، فزاد تعظيمهم في الأنفس حتى وصلوا إلى عبادتهم.

وظاهرة تقديس الصالحين عادة سرت إلى أمة الإسلام ممن قبلنا وموجودة حتى يومنا هذا، فزمن ابن تيمية يقول عنهم: «وهؤلاء الذين يحجون إلى القبور يقصدون ما يقصده المشركون الذين يقصدون بعبادة المخلوق، ما يقصده العابدون لله منهم من قصده قضاء حاجته وإجابة سؤاله يقول هؤلاء أقرب إلى الله مني فأنا أتوسل بهم وهم يتوسطون لي في قضاء حاجتي... ومنهم من يجعل لصاحب القبر نصيبًا من ماله أو بعض ماله، أو يجعل ولده له كما كان المشركون يفعلون بآلهتهم، ومنهم من يسيب لهم السوائب، فلا يذبح ولا يركب، وما يسيب لهم من بقر وغيرها كما كان المشركون يسيبون لطواغيتهم»[1].

والناظر اليوم لعباد القبور، يرى الأعاجيب من سجود لأصحاب المقامات، واستشفاء بهم، وطلب رزق منهم، وغير ذلك مما لا ينبغي إلا لله وحده سبحانه.

وها هم قوم إبراهيم عليه السلام يعكفون على أصنام لهم، تعظيمًا لها، وتقليدًا لآبائهم. فقد دار الحوار بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه كما أخبرنا الله سبحانه عنهم في سورة الشعراء.

فإبراهيم عليه السلام يسأل قومه عن معبوداتهم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾، فيجيبون بأنها أصنام يظلون لها عاكفون: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾. فأخبرهم بصيغة السؤال الاستنكاري أنها لا تضر ولا تنفع ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾. فكان ردهم الذي يكشف خبايا

(١) الرد على الأخنائي، ابن تيمية، ص ٥٩.

أنفسهم في التقليد: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾. وكلمة ﴿بَلْ﴾ تظهر إضرابهم عن كلام إبراهيم عليه السلام، وعدم سماعهم له؛ لأن قضية تقليد الآباء أهم وأعظم عندهم. وهذا ينم عن تصميم، وقوة إرادة في أنفسهم لمسألة التقليد. فقوله: ﴿كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فيه دلالة واضحة على تقليدهم آباءهم في الفعل، فالكاف للتشبيه. فهم يفعلون كما فعل آباؤهم، ومن تعظيمهم لهذه الأصنام أنهم ظلوا لها عاكفين.

وعاكفون من «عكف على الشيء يعكف ويعكف عكفًا عكوفًا: أقبل عليه مواظبًا لا يصرف عنه وجهه... لزم المكان[1]، فالعكوف من ملازمة الشيء.

وهذا من تعظيم الملازم للملازم. فهم عاكفون على عبادة الأصنام، منكبون على تعظيم من لا يستحق التعظيم، إظهارًا لما في أنفسهم من الابتهاج بهذه العبادة.

وكما عكف قوم إبراهيم عليه السلام على أصنام وتماثيل؛ تقليدًا لأسلافهم واقتفاءً لآثارهم، فقد وجدنا هذا العكوف عند قوم موسى عليه السلام، لكن مع معبود آخر هو العجل، صنعه لهم السامري، وتكررت كلمة (العكوف)، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩٠-٩١].

فكان الرد الذي فيه الغلظة وينم عن شدة التقليد: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩١].

وكلمة (لن) نفي فيه الشدة والتأبيد، وفيه دلالة على أنهم أشربوا حب العجل حتى أعماهم عن التأدب مع نبي الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

وكلمة ﴿فِي﴾ الدالة على الظرفية، تبين مدى الحب لعبادة العجل، وتعمقه في قلوبهم.

---
(١) لسان العرب، ابن منظور، ٩/ ٢٥٥.

مجالات التقليد

أولًا: التقليد في العقيدة:

العقائد مسائل ثابتة، يجب الإيمان بها، ولا مجال للتلاعب فيها. إلا أن الأقوام حينما جاءتهم رسلهم بالبينات، مبشرين ومنذرين، جابهوا أنبياءهم بالكفر والنكران، وحجتهم في ذلك: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢].

والتقليد في العقيدة تكرر من الأمم في موقفها من رسلها، وإنكار البعث، والاحتجاج بالقدر. وولوج هذا الجانب من التقليد العقائدي سيكون في مسائل ثلاث:

١. التقليد في موقف الأمم من الرسل والدعاة.

أرسل الله تعالى الرسل تترا إلى الناس مبشرين ومنذرين، فمنهم من آمن، ومنهم من صد عن سبيله. والذين صدوا عن سبيله هم الأكثرية، وكانت لهم مواقف تجاه الرسل متكررة على مر الأجيال، ومن هذه المواقف: شبهة بشرية الرسل، وموقف التكذيب والاستهزاء بهم وبالدعاة. وسيكون الحديث عن هذين الموقفين.

الموقف الأول: شبهة بشرية الرسل.

تكررت هذه الشبهة على لسان الأقوام المكذبة للرسل عليهم السلام، ظنًا منهم أن الرسالة لا تنبغي إلا لملك مقرب، والبشر أدنى من هذا المستوى، ولئن كانت هذه لبشر، فتنبغي أن تكون لرجل عظيم في المال والجاه.

وجاءت هذه الشبهة على لسان الأقوام في أكثر من آية، منها قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [التغابن: ٦].

فهذه الآية ذكرت اتهام الأقوام للرسل عليهم السلام بأنهم بشر، وهذا الكلام لمجموع الرسل (رسلهم)، وفيه بيان أن الأقوام توارثت هذه الشبهة، وتفوه بها اللاحقون تقليدًا للسابقين.

فقد كانت حكاية هذه الشبهة على لسان الملأ من قوم نوح عليه السلام حين دعاهم: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٦].

فكان ردهم كما قال الله سبحانه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٤].

والأمر نفسه يتبعه قوم عاد وثمود، فقال الله سبحانه مقولتهم: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ

﴿كَفِرُونَ ١٤﴾ [فصلت: ١٤].

وتتوالى الأمم في إنكارها لبشرية الرسل عليهم السلام، حتى يصل الأمر لقوم فرعون فيخبر الله تعالى عنهم استنكارهم لبشرية موسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧﴾ [المؤمنون: ٤٧].

كذلك قوم شعيب عليه السلام يتابعون غيرهم في هذه الشبهة، فيقول الله عنهم: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٨٦].

وكذلك يقولها أهل أنطاكية لرسلهم الثلاثة الذين أرسلهم إليهم عيسى عليه السلام: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [يس: ١٥].

وتستمر البشرية في التواصي على هذه الشبهة، حتى يأتي أهل مكة فيكرروها لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾ [يونس: ٢].

وهذا العجب الذي حصل من أهل مكة في بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم سبقهم إليه قوم نوح إذ قال الله تعالى عن ذلك: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ﴾ [الأعراف: ٦٣].

وكذلك جاء هذا العجب من قوم عاد وبنص الآية السابقة نفسها[1]، «فإنكار رسالة البشر عام في كل الأمم»[2].

الموقف الثاني: التكذيب والاستهزاء والطرد.

المجتمعات البشرية تكون على نمط معين من الحياة، فيها كبراء يقودون رعية هي لهم تبع، فإذا كانت هذه المجتمعات ظالمة منحرفة عن عقيدة التوحيد، أرسل الله إليها الرسل مبشرين ومنذرين، وتكون هذه الرسالة تحريرًا للضعفاء من التبعية العمياء للكبراء، وهداية الجميع لله وحده. وهذه الرسالة الجديدة تجد الاستجابة من الضعفاء، والصد والعنت -عادة- من الكبراء، وحجتهم أن الرسل وأتباعهم ليسوا من علية القوم وملئهم، بل هم من الضعفاء.

وعند توالي تبعية المستضعفين للرسل والدعاة، يستشعر الكبراء الخطر في ضياع نفوذهم، وذهاب طاعة المستضعفين لهم، فيبدأ هؤلاء الكبراء بإثارة الشبهات حول الرسالة الجديدة لهدمها، فيكذبونها ويستهزؤون بها. وحينما لا تفلح حجتهم أمام حجة دين الله تعالى يلجئون إلى القوة والبطش وطرد الرسل والدعاة. وهذا الأمر

---

(١) الأعراف: ٦٩.

(٢) أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٤٠.

ديدن الكافرين قديمًا وحديثًا، كما أخبرنا القرآن العظيم.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: ١٠-١١].

يقول ابن عاشور: «﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يدل على تكرر ذلك منهم، وأنه سنته، (فكان) دلت على أنه سجية لهم، والمضارع دل على تكرره منهم»[(١)].

وكذلك بين الله تعالى أن اتهام الرسل عليهم السلام بالسحر أو الجنون ديدن الأقوام الكافرة، فقال الله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

والآية تتحدث عن عموم الأقوام الذين جاءتهم رسلهم بالبينات، فما كان قولهم لرسلهم إلا أن قالوا: ساحر أو مجنون. وهذا ما قالته قريش لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوم نوح عليه السلام يتهمونه بالجنون: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

والتهمة نفسها وجهت إلى سيدنا موسى عليه السلام من فرعون، حيث قال الله تعالى مقولته: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧].

وكذلك فعل كفار مكة مع محمد صلى الله عليه وسلم فوصفوه بالكذب والجنون في أكثر من موطن، فقال الله سبحانه عنهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٨].

وكما كانت الأقوام تتوالى في الاستهزاء بالرسل عليهم السلام، كذلك كان الحال بأتباع الرسل المؤمنين.

فقوم نوح عليه السلام اتهموا من آمن به بأنهم ليسوا من أهل العقل، وليس لهم رأي سديد، فقال الله سبحانه: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧].

وشابه ملأ قريش ملأ قوم نوح في ازدراء المؤمنين أتباع الرسل، فكان أغنياء مكة وكبراؤها، إذا مروا على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ورأوا ضعفاء المسلمين كعمار وخباب وصهيب رضي الله عنهم، استهزؤوا بهم وقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى، لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقونا إليه، وما خصهم الله به دوننا[(٢)].

ومن مسلمي اليوم من يستهزىء بالملتزمين بشرع الله تعالى في أفلام فضائيات هابطة وجوالات محمولة. وهؤلاء

(١) التحرير والتنوير. ابن عاشور ١٤/ ٢٣.
وانظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٩٥.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ٢٣٧.

يشبهون المنافقين في أخلاقهم وصفاتهم الذين قالوا في غزوة تبوك عن الصحابة: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء»، يعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأنزل الله فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦][1].

ولما لم يجد التكذيب والاستهزاء نفعًا أمام المستمسكين بدينهم، الثابتين عليه، رفع أهل الكفر سقف المحاربة إلى التهديد والوعيد لرسل الله وأتباعهم بالإخراج من أوطانهم.

فقال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

فهذه الآية جاءت بعد الحديث عن أقوام موسى ونوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله[2]، والآية تكلمت بلسان الجمع ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾، وهذا يعني أن النفي والطرد من سنة الكافرين، فقلد اللاحقون السابقين.

وهذا النفي والإخراج كان تهديدًا من قوم شعيب لشعيب عليه السلام ومن آمن معه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وكذلك من قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النمل: ٥٦] إلى أن جاء زمن النبي صلى الله عليه وسلم فكانت المؤامرة التي أخبر الله تعالى عنها: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وتستمر المؤامرة ضد أتباع الرسل عليهم السلام، وضد الدعاة الصادقين المنادين بتطبيق شرع الله تعالى، والواقفين في وجه الظلم والاحتلال والاستعباد. فترى السجون في طول البلاد وعرضها للدعاة المخلصين الذين نادوا بتطبيق دستور الإسلام، حتى إنه من شدة البطش والتنكيل كانت الهجرة القصرية إلى بلاد الكفر، هروبًا من بطش الظلمة في ديار المسلمين، إذ إنهم وجدوا بلاد الكفر أكثر أمنًا من بلادهم.

٢ . التقليد في إنكار البعث.

اليوم الآخر يوم أخبرت به الرسل جميعًا وهو يدرك عقلًا، إن أحسن العقل التفكير. إلا أن من الناس من عطل عقله وأسلمه لغيره انقيادًا له وتبعية؛ وبات يتذرع بأن ما جاءت به الرسل، إن هو إلا أساطير الأولين.

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص١٦٩ .
(٢) انظر: سورة ابراهيم: ٩ .

فقال الله تعالى عنهم: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون: ٨١-٨٣].

فأهل مكة قالوا مثل ما قال أسلافهم: أنه لا بعث بعد رميم العظام.

ومتكأ القوم في تكذيبهم للبعث، أنه وعد متكرر لآبائهم الأقدمين، فهم قالوا مثل ما قال أسلافهم، وكذبوا مثل ما كذب الأولون. والملاحظ أن(سورة المؤمنون) ذكرت قوم نوح، فقوم ثمود، فقرونًا آخرين، فقوم موسى ثم ذكرت حكاية أهل مكة في إنكار البعث كما في الآيات السابقة.

ويبين الله تعالى أن قوم عاد ردوا على هود عليه السلام دعوته بالإيمان بالبعث، منكرين التعذيب لهم بعد الموت، عذرهم كما وصفهم الله تعالى بأن هذا خلق الأولين، فقال الله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣].

إلى أن يقول عنهم: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: ١٣٦-١٣٨].

فقوم عاد يقتدون بمن سبقهم في إنكار البعث. وأشار القرآن الكريم إلى إنكار قوم موسى عليه السلام للآخرة، حين نهاه الله عن اتباع من صد عنها كفرًا بها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٥-١٦].

ويستبعد الكافر البعث؛ لأنه بزعمه مخالف للمعهود عنده. ويعبر عن ذلك بسؤال استنكاري، كما أخبر الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم: ٦٦].

وكذلك يستعظمه؛ لأن الله في ظنه المزعوم غير قادر عليه.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٩].

وهم يتعجبون منه، إذ يقول الله تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٥].

ولك أن تتصور شدة العناد في إنكار البعث من أهل الكفر، حينما تعلم أن القرآن الكريم أورد آيات كثيرة إثباتًا لهذه العقيدة، أمام صلف الكفار، بل إن سورًا كسورة الكهف ومريم وسبأ يكاد يكون موضوعها الأساس إثبات البعث[1].

(١) انظر: في ظلال القرآن. سيد قطب. ٤/ ٢٢٩٩، و٥/ ٢٨٨٨.

وفي العصر الحديث أطل علينا مكر شيوعي إلحادي لا يؤمن إلا بالمادة. فكل ما هو محسوس ومشاهد فهو موجود، أما غير ذلك من غيب غير مشاهد فلا إيمان به ألبتة. وبناءً على ذلك فليس للكون نهاية ولا حدود، ولا يوم آخر!

وهؤلاء القوم امتداد للماديين قديمًا أعداء الرسل الذين تطاولوا بالمادة وأنكروا البعث.

والذي يتولى كبر إنكار البعث هم المترفون، كما يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥﴾ [سبأ: ٣٤-٣٥].

فذكرت أنه ما من قرية أرسل الله إليها رسولًا، إلا كان من ضمن ما أنكره مترفوها: البعث﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. وهذا يتابع فيه المترفون اللاحقون إخوانهم المترفين السابقين أيضًا، ويحاكونهم في ذلك. وقد ذكر الله سبحانه إنكار عموم المترفين للبعث حينما تحدث عن أصحاب الشمال، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧﴾ [الواقعة: ٤٥-٤٧].

ومن غرور المنكرين للبعث ظنهم أن الله أعطاهم في الدنيا أموالًا وأولادًا، اعتقادًا منهم أن ذلك كرامة لهم من الله، فلئن رجعوا إلى يوم القيامة- على تقدير حصوله عندهم حسب اعتقادهم الفاسد- فسوف يكون لهم الحسنى، فهم يعتقدون أن الله سيؤتيهم يوم القيامة خيرًا مما آتاهم في الدنيا- إن وجد حسب ظنهم-. وتكرر هذا الغرور في سورتي الكهف ومريم المتتاليتين في المصحف ترتيبًا.

فقال الله سبحانه عن رجل من بني اسرائيل[1]: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف: ٣٦].

وتحدثت سورة مريم عن العاص بن وائل[2]: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم: ٧٧].

فكلاهما أنكر اليوم الآخر، وزعم أنه لو جاء يوم القيامة ليكونن لكل منهما خير مما أوتي في الدنيا. وانظر للتوكيدات في الآيتين: ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ و﴿لَأُوتَيَنَّ﴾، وهذا يدل على شدة الغرور والجهل.

٣. التقليد في الاحتجاج بالقدر.

الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، وهذا من الأركان التي يساء فهمها، ويحمل

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ٥٤٠.

(٢) انظر: صحيح مسلم، لمسلم، كتاب التوبة، باب في نزول ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، رقم ٧١٦٤، ٨/ ١٢٩.

من التفسيرات ما لا يحتمل. وإساءة الفهم هذه قديمة جديدة، عايشها القدماء، وسايرها المحدثون. ولقد بين الله عز وجل في كتابه الكريم فهم الأقوام الخاطئ لهذا الركن حينما كانوا يتعذرون بالقدر على فعل المنكر، بعبادة غير الله تعالى، وتحريم ما أحل الله من الحرث والأنعام، وكذلك التلاعب في كيفية اللباس عند الطواف.

فقال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٣٥].

يقول المشركون: ما نعبد هذه الأصنام، ولا نحرم ما حرمنا من السوائب والبحائر، إلا بمشيئة الله ورضاه، ولولا ذلك لعاقبنا على ذلك. وهذا كما فعلت الأمم المشركة الذين استن هؤلاء سنتهم، فقالوا مثل قولهم، وسلكوا سبيلهم في تكذيب رسل الله، واتباع أفعال آبائهم الضلال.

وهذا طريق متعين لكل الكفار المتقدمين والمتأخرين في تكذيب الأنبياء وفي دفع دعوتهم عن أنفسهم[(١)].

كذلك بين الله تعالى احتجاج الأقوام المتعاقبة على فعل المعاصي بالقدر في سورة الأنعام حيث قال الله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

يقول ابن عاشور: «﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: كذب الذين من قبلهم أنبياءهم مثل ما كذبك هؤلاء. وهذا يدل على أن الذين أشركوا قصدوا بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ تكذيب النبي -صلى الله عليه وسلم إذ دعاهم إلى الإقلاع عما يعتقدون، بحجة أن الله رضيه لهم وشاءه منهم مشيئة رضى، فكذلك الأمم قبلهم كذبوا رسلهم مستندين إلى هذه الشبهة»[(٢)].

فهم حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم كما فعل آباؤهم، وأرادوا بذلك أنهم على الحق المشروع المرضي من عند الله!.

وكانت قبيلة من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة، فإذا عذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم وعوتبوا عليه، قالوا: وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نقتدي بهم ونستن بستنهم، والله أمرنا به[(٣)]، فأنكر الله عليهم ذلك وقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٠٠، مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٨٤-١٨٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١٤٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧٨-٣٧٩.

فهم يحتجون على فعل الفواحش بأنهم وجدوا آباءهم عليها، وأنها طاعات أمر الله بها، فنحن نستن بسنة الآباء، ونتبع أوامر الله بزعمهم.

وقدوة هؤلاء الكفرة إبليس حينما احتج بالقدر على معصيته في عدم السجود لآدم متوعدًا بني آدم بالإغواء والإضلال؛ لأن الله أراد له الغواية -بزعمه-، فقال الله سبحانه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الأعراف: ١٦].

والباء سببية، كما يقول الزمخشري[١].

ومن الفرق التي احتجت بالقدر على المعاصي: فرقة المباحية[٢] التي أسقطت الشريعة مطلقًا، وأسقطوا الأوامر والنواهي الربانية، واحتجوا على ذلك بالقدر قائلين: إن الحبيب رفع عنه التكليف[٣].

ومن الفرق كذلك الجبرية[٤] الذين سلبوا العبد قدرته واختياره، وجعلوا حركاته بمنزلة حركات الجماد لا قدرة له عليها، ولا اختيار، وكل ما خلقه الله فقد رضيه وأحبه، وهؤلاء أعرضوا عن الأمر والنهي والوعد والوعيد، وتركوا الأعمال الصالحة والأخذ بالأسباب المنجية من عذاب الله تعالى، فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا ما ذكره الله عنهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨][٥].

ومن المسلمين من شاكل هؤلاء المحتجين بالقدر على المعاصي وترك الفرائض، فإن قلت لمسلم تارك لفريضة الصلاة: لم لا تصلي؟ رد مجيبًا: الله قدر لي ذلك، وعندما يهديني سأصلي، فيا سبحان الله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ [مريم: ٧٨].

فعلم ما كتب الله له، أم هو مكلف بمعرفة ذلك!! أم إنه لا يدري الفرق بين علم الله تعالى بكل شيء قبل حصوله، ووقوعه كما قدر وعلم، وبين أنه مكلف بالعمل والترك كما أمر الله تعالى ونهى!

وكذلك احتج بالقدر ذرية من ذرية آدم في تبريرهم شركهم أنهم وجدوا آباءهم مشركين فتبعوهم على شركهم، فقال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ

---

(١) انظر: الكشاف، ٢/ ٨٧.

(٢) هم قوم يحفظون طاعات لا أصل لها، وتلبيسات في الحقيقة، وهم يدعون محبة الله، ويخالفون الشريعة، ويقولون: إن الحبيب رفع عنه التكليف.
انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي، ص٧٤.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ٨/ ١٧٩.

(٤) الجبرية: يزعمون أن العبد ليس قادرًا على فعله. ومن ضلالاتهم: أن الجنة والنار تفنيان.
انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي ص٦٨.

(٥) انظر: أقسام الناس في الايمان بالقضاء والقدر، عبدالله الغفيلي، مجلة البحوث الإسلامية، عدد ٧٩، ص٩٠٣.

بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾. [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

ومن وراء الاحتجاج الخاطئ بالقدر، تضيع الحقوق. ففي حالات القتل مثلًا، يأتي أهل الإصلاح لأولياء المقتول من باب القدر، وأن هذا الأمر مكتوب على قتيلكم، وذلك من أجل التخفيف عن المجرم أو العفو عنه. وبهذا تضيع الحقوق، فيزداد أهل الحق يأسًا، ويزداد المجرم إجرامًا.

ثانيًا: التقليد في الأحكام الشرعية:

خلق الله الكون، وهو يعلم ما يصلحه وما يفسده، ومن حقه وحده أن يضع له التشريع الذي يناسبه؛ فهو الأعلم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

فالحلال ما أحل والحرام ما حرم. إلا أن من الناس من يأبى إلا أن يأتي بتشريع من لدن نفسه، فمنهم من يتلاعب في العبادات والشعائر، فيغير فيها زيادةً أو نقصًا، ومنهم من يرى لنفسه حق التشريع، فيأتي بشرع غير شرع الله تعالى.

١ . التقليد في الشعائر.

الله تعالى خلقنا لعبادته، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وحتى تكون العبادة صحيحة ومقبولة فلا بد لها من شرطين: أن تكون خالصة لوجهه الكريم، وموافقة للشرع، يقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

إلا أن من الناس من يزين له الشيطان أن يعبد الله وفق هواه، فيأتي بعبادة لم يأذن بها الله. وهذا الصنف أمرنا الله تعالى بمخالفته في عبادات منها:

أولًا: الصلاة.

بالنسبة لشعيرة الصلاة، فقد ورد في السنة المطهرة ما فيه الأمر بمخالفة المشركين، فقد روى مسلم عن جابر: (اشتكى رسول الله صلى الله عيله وسلم فصلينا وراءه، وهو قاعد، وأبو بكر يسمع الناس تكبيره، فالتفت إلينا فرآنا قيامًا، فأشار إلينا فقعدنا فصلينا بصلاته قعودًا، فلما سلم قال: إن كدتم آنفًا لتفعلون فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود. فلا تفعلوا، ائتموا بأئمتكم إن صلى قائمًا فصلوا قيامًا، وإن صلى قاعدًا فصلوا قعودًا)[1].

ففي هذا الحديث نهى عن التشبه بفارس والروم حتى في مجرد الصورة، وإن كانت نيتنا غير نيتهم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام، رقم ٩٥٥، ١٩/٢.

ثانيًا: الحج.

وبالنسبة لبعض مناسك الحج، فقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ما فيه مخالفة للمشركين في الوقوف بعرفة والمزدلفة والدفع منهما، امتثالًا لقول الله عز وجل: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

فقد ورد أنها نزلت في قريش، وكانوا يسمون أنفسهم بالحمس[1].

كانوا لا يقفون في عرفات، بحجة أنهم لا يخرجون من الحرم وقت الطاعة، وكان غيرهم يقفون بعرفات. ومن وقف بعرفة أفاض قبل غروب الشمس، ومن وقف بالمزدلفة أفاض إذا طلعت الشمس. فأمر الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم بمخالفة القوم في الدفعتين. وذلك بأن يفيض من عرفات بعد المغرب، ومن مزدلفة قبل طلوع الشمس، فبينت السنة المراد من الآية الكريمة[2].

والحديث قصد فيه مخالفة المشركين[3].

وقد دفع القرآن الكريم حرج الصحابة في السعي بين الصفا والمروة حينما ظنوا أن السعي بينهما من فعل الجاهلية.

روى البخاري عن هاشم بن عروة أنه قال: قلت لعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأنا يومئذ حديث السن: أرأيت قول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]. فما أرى على أحد شيئًا أن لا يطوف بهما.

فقالت عائشة: (كلا، لو كانت كما تقول، كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾)[4].

فمن باب حرص الصحابة رضي الله

---

(١) الحمس: جمع أحمس وهو المشدد على نفسه في الدين.
انظر: عمدة القاري، العيني، ١٠/ ٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٢٨٣، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣/ ٤٢٢.

(٣) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٢/ ٣٦٧، واقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ص١١٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾، رقم ٤٤٩٥، ٥/ ١٥٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به، رقم ٣١٤٠، ٤/ ٦٩.

عنهم على مخالفة أفعال المشركين في الجاهلية، وألا يتشبهوا بهم في عباداتهم، تحرج بعضهم من السعي بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى ما يدفع هذا الحرج. وكان بالصفا والمروة صنمان إساف ونائلة، وقيل: إنهما رجل وامرأة زانيان، مسخهما الله تعالى فنصبا على الصفا والمروة ليتعظ بهما الناس، ثم نحر قصي بن كلاب عندهما وأمر بعبادتهما، فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة كسرهما كراهية لذينك الصنمين، والسعي بينهما، وكان ذلك سنة في آبائهم[1].

ثالثًا: الصيام.

وفي باب الصيام، وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضح لنا مخالفة اليهود والنصارى في صيامهم. ففي مجال الترغيب في تعجيل الفطر، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **(لا يزال الدين ظاهرًا ما عجل الناس الفطر، إن اليهود والنصارى يؤخرون)**[2]. قال الطيبي: «في هذا التعليل دليل على أن قوام الدين الحنيفي على مخالفة الأعداء من أهل الكتاب وأن في موافقتهم تلفًا للدين»[3].

وفي مجال مخالفة اليهود والنصارى في كيفية صيام يوم عاشوراء: روى مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول حين صام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى. فقال: **(فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع)**[4].

فحينما أخبر صلى الله عليه وسلم بتعظيم أهل الكتاب ليوم عاشوراء، أضاف لصيامه التاسع؛ وذلك تركًا لمشابهتهم، وأمرًا بمخالفتهم.

٢. التقليد في الشرائع.

أمر الله تعالى كل رسول بتشريع يناسب قومه وحالهم، موصيًا إياهم بإقامته، فقال الله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

إلا أن المشركين ردوا شرع الله تعالى، زاعمين أنهم أهل للتشريع والتحليل والتحريم؛ فضلوا وأضلوا.

---

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي، ١/ ٤٦-٤٧، تحفة الأحوذي، المباركفوري، ٨/ ٢٤٢.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»، رقم٩٨١٠، ١٥/ ٥٠٣، وأبو داود في سننه، كتاب الصوم، باب ما يستحب من تعجيل الفطر، ٢/ ٣٠٥، رقم ٢٣٥٣، والحاكم في المستدرك، رقم ١٥٧٣، ١/ ٥٩٦.. وصححه الحاكم على شرط مسلم.

(٣) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي، ٦/ ٣٤٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ٢٦٣٦، ٣/ ١٥١.

قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ولقد ذكر الله تعالى قضية التحليل والتحريم في سور كثيرة -كانت الأنعام المكية والمائدة المدنية في مقدمتها- وربطها بالعقيدة، ليبين لنا أنه لا يمكن أن تكتمل دائرة الإيمان إلا بالعقيدة والشريعة معًا.

فأهل الجاهلية إن قيل لهم: اتبعوا شرع الله في الأنعام، قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه الآباء.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠] نزلت في قبائل عربية حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة[١] والسائبة[٢] والوصيلة[٣] والحام[٤] [٥].

والآية السابقة جاءت بعد نداء الله للناس بأكل الحلال الطيب من الأرض والنهي عن اتباع خطوات الشيطان[٦].

وجاء السياق بعدها يأمر المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم الله، ويبين لهم المحرمات الأربعة من المأكولات[٧].

ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

فهذه الآية جاءت بعد آية[٨] تنفي تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة التي كانت الجاهلية تصنع منها جزءًا من تشريعها.

فإذا دعي الكفار لاتباع ما أحل الله، واجتناب ما حرم قالوا مستكبرين: بل نتبع شرع آبائنا، فنحل ما أحلوا، ونحرم ما حرموا، فهم لنا سلف في التشريع، ونحن لهم خلف في التقليد. وهذا يظهر تغلغل

(١) البحيرة: ما كان العرب يجعلونه بالناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقوا أذنها، فيسيبوها فلا تركب ولا يحمل عليها.
انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٧

(٢) السائبة: التي كانت العرب تسيبها في المرعى فلا ترد عن حوض ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن.
انظر: المصدر السابق. ٢٤٦

(٣) الوصيلة: هي الشاة إذا ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يذبحون أخاها من أجلها.
انظر: المصدر السابق. ٥٢٥.

(٤) الحام: الفحل إذا ركب ولد ولده، ويقال: إذا أنتج من صلبه عشرة أبطن، قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء.
انظر: غريب القرآن، السجستاني، ص١٢٠.

(٥) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص٤٨.

(٦) انظر: سورة البقرة: ١٦٨-١٦٩.

(٧) انظر: سورة البقرة: ١٧٢-١٧٣. والمحرمات الأربعة هي: الدم، ولحم الخنزير، والميتة، وما أهل لغير الله به.

(٨) انظر: سورة المائدة: ١٠٣.

التبعية للآباء في صدور المدعوين للإسلام، فحتى لو لم يكن الآباء يعقلون من أمر التحليل والتحريم شيئًا، وليس عندهم علم بما أحلوا وما حرموا، ولا عندهم كتاب اهتدوا من خلاله للتحريم والتحليل، فهم يتبعونهم في ذلك. وهذا عناد شديد وغلظة وجفوة وشدة في الصد عن دين الله تعالى.

وأراد قوم من الصحابة رضي الله عنهم أن يوجدوا تشريعًا لهم من عند أنفسهم، تشبهًا بالنصارى وذلك بتحريم بعض الطيبات من النساء والطعام كما يفعل القسيسون والرهبان، واتفقوا على صيام النهار، وقيام الليل، ولا يأكلوا اللحم ولا الودك ولا يقربوا النساء والطيب، وأن يلبسوا المسوح، ويترهبوا، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنهاهم عن ذلك، ونهاهم عن التشبه بالقسيسين والرهبان. وبين أن تشددهم كان سببًا لهلاكهم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: ٨٧][1].

فالصحابة أرادوا تحريم طيبات أحلت لهم؛ فكان النهي عن ذلك، وسماه الله اعتداءً، فهذا ليس لهم ولا للبشر. وقد عد الله تعالى طاعة الجاهليات التي تتواصى بمجادلتنا في شرع ربنا شركًا، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١].

والاعتداء على التشريع، لا يقتصر على تحريم طيبات أحلت، وتحليل خبائث حرمت. فالقضية قضية مبدأ، ولمن يكون التشريع في الأمور كلها، هل يكون لله وحده سبحانه؟ أم يكون للبشر؟ وبناءً عليه وجدنا الأحبار والرهبان نصبوا من أنفسهم آلهة لها الحق في التشريع بما تهوى أنفسهم، فكان لهم أتباع اتخذوهم أربابًا من دون الله.

يقول الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

روى الترمذي عن عدي ابن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: (يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه)[2].

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص٢٠٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، سورة التوبة، رقم ٣٠٩٥. وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن

وكان على شاكلة هؤلاء، العرب الذين جاءهم عمرو بن لحي بتشريع جديد، غير فيه دين إبراهيم عليه السلام، فاتبعه جهلة العرب يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب)[1].

فهناك المشرعون في الأرض من دون الله، ولهم أتباع يأخذون بتشريعهم. فحق الحاكمية المطلقة-كما يبين سيد قطب- لله وحده، والبشر مجردون من مزاولة هذا المبدأ في أي صورة من الصور. وحينها تكون الصغيرة كالكبيرة، ولا يهم أن يكون الأمر أمر ذبيحة، أو أمر دولة، فهذه كتلك من ناحية المبدأ[2].

ولقد أخبرنا القرآن العظيم عن تشريعات أهل الكتاب وأهل الجاهلية المخالفة لشريعة الله تعالى، من رفض لحكم الله تعالى سواءٌ في النظام الاجتماعي، أم النظام الاقتصادي، أم نظام العقوبات، أم غيرها من النظم. وتوالت الجاهليات في ذلك مستبدلة تشريع الله تعالى بتشريعها، تاركة كتاب ربها وراءها ظهريًا، وشرعت ما لم يأذن به الله.

فقد روى مسلم عن البراء بن عازب قال: (مر على النبي صلى الله عليه وسلم بيهودي محممًا مجلودًا، فدعاهم صلى الله عليه وسلم فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم. فدعا رجلًا من علمائهم فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك. نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، وكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد. قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه. فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ الى قوله ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١].

يقول: ائتوا محمدًا صلى الله عليه وسلم فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا)[3].

فاليهود شرعوا التحميم والجلد على

الترمذي، ٣/ ٢٤٧.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قصة خزاعة، ٤/ ١٦٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١١٩٢-١١٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب يقول الله تعالى: (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم)، رقم ٣٦٣٥، ٤/ ١٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، رقم ٤٥٣٦، ٥/ ١٢٢.

الزاني المحصن بدل الرجم مخالفين بذلك تعاليم التوراة. والحديث يبين لنا أن اليهود كثر في أشرافهم الزنا، وعز عليهم أن يقيموا عليهم الحد، فغير الأحبار شرع الله تعالى من الرجم إلى الجلد والفضيحة والتحميم. ولقد حاول بعض الصحابة رضي الله عنهم أن يفعلوا فعل اليهود بتغيير حد السرقة في المرأة المخزومية التي سرقت، لأنها من قبيلة لها اعتبارها وشأنها، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم، مبينًا لهم أن عدم إقامة الحد على الشرفاء وعلية القوم، وإقامته على الضعفاء فقط، ديدن الأمم السابقة، وكان هذا سببًا في هلاكهم.

فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: **أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة ابن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلمه أسامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتشفع في حد من حدود الله). ثم قام فاختطب، ثم قال: (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)**[1].

وهذا التحاكم المذموم حسب الأهواء صفة المنافقين إخوة اليهود في الأخلاق، فقد أخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النور: ٤٧-٤٨].

وهذا ينطبق على ساسة الأمة اليوم في عدم قبول حكم الله تعالى واستبدالهم إياه بحكم الطاغوت. فقانون البشر الوضعي هو المطبق في حياة الأمة الإسلامية، بدل الشريعة الإسلامية. ففي الناحية الاجتماعية، تجد خروج المرأة كاشفة عن مفاتن جسمها، أمر يحفظه القانون! واتخاذ الخليلات حرية شخصية لا يجوز التعرض لها، فالقانون يكفله! ولم نر حالة رجم أو جلد لزانٍ- وما أكثرهم- بل هي حرية شخصية لا يعاقب عليها القانون، بل يحميها!. وفي المجال الاقتصادي تجد التعامل بالربا عنوان غالبية البنوك في طول بلاد المسلمين وعرضها. وفي مجال العقوبات لم نر أي قطع يد للسارق- وما أكثرهم-، بل يسجنون شهورًا أو قليلًا من السنين، ثم يخرجون محترفين أكثر، هذا إن كان من العامة، أما علية القوم، فمعفو عنهم، مبرر لهم. ولم تكن هناك حالة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، رقم ٦٧٨٨، ٤/ ١٥٠.

قصاص لقاتل عمدًا، بل يقتل من لا ناقة له ولا جملًا من أقربائه. وهكذا نجد أن حياتنا يحكمها الحكم الذي قلد الطاغوت العلماني الغربي، لا بحكم الله تعالى. ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠].

ثالثًا: التقليد في الأخلاق:

بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق، ووصف الله عز وجل خلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

ومكارم الأخلاق جاءت الأنبياء عليهم السلام لتبثها في الناس، ناهية في الوقت ذاته عن سيئها. وجاء القرآن الكريم ليحذر المؤمنين من التشبه بأخلاق أهل الكتاب والمنافقين والمشركين. ومن هنا سيكون تحت هذا المسألة العناوين الآتية:

١ . تقليد أخلاق أهل الكتاب.

تحدث القرآن الكريم كثيرًا عن أهل الكتاب، مبينًا للمسلمين صفاتهم وأخلاقهم السيئة، ليكونوا على بينة من دينهم، وليحذروا هذه الصفات؛ حتى لا يصيبهم ما أصابهم. ومن صفات أهل الكتاب التي حذر القرآن المؤمنين منها: قسوة القلب، وقلة الأدب مع الرسل عليهم السلام، وإيذاء الأنبياء عليهم السلام، والتفرق والاختلاف.

فقسوة القلب نتيجة طبيعية لاقتراف المعاصي، والقلوب القاسية توعدها الله تعالى بالويل، فقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولقد اتصف أهل الكتاب بهذه الصفة- وخاصة اليهود- حينما طال عليهم الأمد؛ فلما كان الأمر كذلك نهى الله تعالى المؤمنين عن مشابهتهم في هذه الصفة الذميمة، وأمرهم بطاعته والخشوع لذكره، فقال الله سبحانه: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝١٦﴾ [الحديد: ١٦].

وسبب نزولها: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا قد أصابوا من العيش ما أصابوا بعد ما كان بهم القحط والجهد، ففتروا عن بعض ما كانوا عليهم من الطاعة. أو أنهم أخذوا رضي الله عنهم في المزاح فنزلت[١].

والآية تنهى المؤمنين أن يسلكوا طريق أهل الكتاب في الانغماس في الشهوات ومتابعة الملذات؛ فتكون النتيجة قسوة قلوبهم، كما قست قلوب أهل الكتاب. والناظر اليوم لأمة الإسلام يجد هذه الصفة الذميمة موجودة في كثير من أبناء الأمة، لكثرة الذنوب، لا يعرفون معروفًا ولا

(١) انظر: لباب النقول، السيوطي، ص٢٠٤

ينكرون منكرًا. فشابهنا اليهود في حب الدنيا فكثرت الذنوب، فكانت النتيجة تشابهًا في قسوة القوب.

ومن أخلاق اليهود التي نهانا الله تعالى عن التخلق بها، قلة الأدب مع الأنبياء وإيذاؤهم. فنهى الله تعالى المؤمنين عن التشبه باليهود في قلة التأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾ [البقرة: ١٠٤].

وسبب نزولها- كما ذكر السيوطي- أنه: كان رجلان من اليهود: مالك بن الصيف، ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبي صلى الله عليه وسلم قالا وهم يكلمانه: راعنا سمعك واسمع غير مسمع، فظن المسلمون أن هذا الشيء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْ﴾[1].

وكلمة راعنا سب بلغة اليهود يورون عنها بالرعونة، وكان المسلمون يقولونها ظنًا منهم أن الأنبياء تفخم بها، فكره الله تعالى للمؤمنين أن يقولوه لنبيهم ذلك؛ سدًا للذريعة، ونهيًا عن تقليد اليهود في قصدهم.

(١) المصدر السابق ص ٢٠.

فالله تعالى نهى المؤمنين عن التشبه باليهود في أقوالهم وكيفية مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت اليهود لهم كلمة عبرانية يتسابون بها تشبه كلمة (راعنا) وهي (راعينا) ومعناها: اسمع لا سمعت، أو أنت راعي غنمنا، وكان المؤمنون يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم إذا حدثهم بحديث: راعنا يا رسول الله، أي: راقبنا وانظرنا حتى نفهم كلامك ونحفظه، فتلقفها اليهود لموافقتها الكلمة السيئة عندهم، وأخذوا يلوون بها ألستهم، إساءة للنبي صلى الله عليه وسلم موهمين أنهم يريدون الانتظار، فنهى الله عز وجل المؤمنين عن هذه الكلمة، حتى لا يتخذها اليهود وسيلة الى إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، وكرهها لهم[2].

ولقد حاكى اليهود الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم، أسلافهم في إيذاء الأنبياء عليهم السلام. فقد آذوا الأنبياء بالقتل والتعنت والصلف، وعدم طاعتهم، وعلى رأس هؤلاء الأنبياء الذين تعرضوا لإيذاء اليهود سيدنا موسى عليه السلام، فقال الله سبحانه مخبرًا عن هذا الإيذاء: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾

[الصف: ٥].

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٤٦٠، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣/ ٢٥٣.

ومن إيذاء اليهود لموسى عليه السلام ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله عليه وسلم: (إن موسى كان رجلًا حييًا ستيرًا لا يرى من جلده شيء؛ استحياء منه. فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أدرة[1] وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني اسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون... فذلك قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾)[2].

فجاء القرآن الكريم ناهيًا المؤمنين أن يفعلوا فعل اليهود بإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].

فالله تعالى ينهى كل مؤمن أن يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم بقول يكرهه، أو بفعل لا يحبه، ونهاهم أن يكونوا أشباه الذين آذوا موسى عليه السلام.

وقد وقع الخلاف فيما أوذي به النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت هذه الآية، فبين النقاش: أن إيذاءهم للنبي صلى الله عليه وسلم بقولهم: زيد بن محمد. وقيل: نزلت في شأن زيد بن حارثة وزينب بنت جحش، وما سمع فيه من قالة بعض الناس، أو إيذاءه في اتهام زوجته الطاهرة عائشة رضي الله عنها بالفاحشة من قبل أصحاب الإفك، وقول بعضهم وقد قسم مالًا: اعدل فينا يا رسول الله. فقال له: ويحك إذا لم أعدل أنا فمن يعدل؟ وكان يقول: يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر[3].

فالله تعالى ينادي مؤمني هذه الأمة ناهيًا إياهم عن إيذاء نبيهم بأدنى أذى، ولا يكونوا كبني إسرائيل الذين آذوا موسى في غير موطن.

ومن الذين حاكى اليهود في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم، المنافقون إذ طعنوا في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فاتهموها بالفاحشة.

حيث أنزل الله تعالى في رأس النفاق

---

(١) أي: نفخة في الخصية.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣٤٠٠، ٤/ ١٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم، رقم ٦٢٩٦، ٧/ ٩٩.

(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٢٩٨.

عبد الله بن أبي بن سلول وأناس معه قذفوا عائشة، قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧][1].

فنحن نرى أن سورة الأحزاب، تتحدث عن إيذاء المنافقين للنبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك عن إيذاء اليهود لموسى عليه السلام، ونهينا عن التأسي بالفريقين. ومعلوم أن المنافقين إخوان اليهود في أخلاق السوء، بنص القرآن: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

وتتوالى الأنفس المريضة الكافرة في إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، متبعًا اللاحق منها السابق، سواء بالاعتداء على شخصه أو أتباعه المؤمنين، أم بالافتراء والكذب عليه بوضع الحديث. ويتداول خلق الإيذاء هذا أناس، منهم المشركون ومنهم اليهود ومنهم المنافقون، حتى العصر الحديث. ففي العهد المكي: كان من أوائل من آذوه عمه أبو لهب وزوجته حمالة الحطب. وألقى الشقي عقبة بن أبي معيط سلا الجزور على ظهره صلى الله عليه وسلم. وفي العهد المدني آذاه اليهود بالقول والفعل، فقد كان اليهودي كعب بن الأشرف يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم بشعره، وحاول يهود بني النضير إيذاءه بالقتل. ويتوالى الإيذاء في العهد الأموي، حيث وصف النصراني الحاقد يوحنا الدمشقي الرسول صلى الله عليه وسلم باستغلاله الدين لمصالحه الشخصية. ويتبع مرضى العصر الحديث أسلافهم المرضى في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم، ويشابه هذا الإيذاء، ما كان من صحيفة بلاند بوستن. وكذلك ما كان من فيلم الإساءة للنبي صلى الله عليه وسلم والذي عرض في أمريكا.

إن الإيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم ولدينه، تتشابه فيه فئات من الناس على اختلاف ألوان مللهم، وعلى توالي الزمان، ونسمع من المسلمين- وللأسف- شتمه للنبي صلى الله عليه وسلم. ومنهم من لا يتأدب عند رواية أحاديثه، ولا عند مناقشتها، ولا عند رؤية من يلتزم بسنته صلى الله عليه وسلم، وهذا كله من الإيذاء.

ومن أخلاق السوء التي نهانا الله عن امتثالها، وعن فعلها كما فعلها أهل الكتاب: التفرق والاختلاف والتشرذم.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

أي: لا تكونوا يا معشر المؤمنين كأهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا في

(١) لباب النقول، السيوطي، ص١٧١.

دين الله تعالى، وخالفوا أمره، من بعد ما جاءهم البينات. فلا تفعلوا فعلهم، وتستنوا سنتهم[1].

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم تفرق اليهود والنصارى وتفرق أمة الإسلام في حديث واحد، حيث قال: **(تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)**[2].

وفي هذا دلالة على وقوع التفرق والاختلاف في الأمة كما وقع في أهل الكتاب.

ويحذرنا الله عز وجل في آيات أخرى من مشابهة أهل الكتاب في التفرق، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

وأوحى الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، أن يتبرأ من الذين تفرقوا في دينهم، وأصبحوا شيعًا وأحزابًا. والتبرؤ يقتضي المخالفة، وترك المشابهة بأفعالهم وتفرقهم. فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ومن كرامة هذه الأمة على الله تعالى، أن يأمرهم بما أمر به أولي العزم من الرسل، وينهاها عما نهاهم عنه، فقال الله سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وهذا فيه حث لهذه الأمة أن تسلك سبيل صفوة الصفوة من الخلق وهم أولوا العزم وتلتزم بصفاتها، وألا يسلكوا سبيل من اتبع غير سبيل المؤمنين.

والناظر لحال أمة الإسلام يرى التفرق والتشرذم والتناحر والتباغض، سواء على مستوى الأفراد، أم الجماعات، أم المؤسسات، أم الدويلات الإسلامية. كل مستوى يخطئ الآخر، ويرى نفسه الحق، وما عداه باطل، وسرى هذا الداء إلى أنفس العاملين للإسلام. وقليل من أبناء الأمة من ينظر بعين الحاذق إلى حقيقة الاختلاف، وأنه لا يجوز -ولا بأي حال- أن يؤدي إلى تناكر القلوب وتباغضها. وتعددت الأفكار

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٩٢

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم ٤٥٩٦، ٤/ ١٩٧، والترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، رقم ٢٦٤٠، ٥/ ٢٥، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، رقم ٣٩٩١، ٢/ ١٣٢١.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
ووافقه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، ٣/ ٥٣.

والرؤى التي ينتمي إليها أبناء المسلمين، فأصبحنا شيعًا وأحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون. وانتشرت البغضاء فيما بين هذه الأحزاب، حتى ضرب بعضها رقاب بعض، ولا أدل على ذلك مما حصل في فلسطين، حينما كانت الاستجابة لأوامر يهود.

٢ . تقليد أخلاق المنافقين.

النفاق صفة ذميمة يلجأ إليها بعض البشر حينما لا يستطيعون الوصول الى أهدافهم بسهولة، فيلجأون الى النفاق. وهذه الفئة البشرية تتصف بصفات بذيئة، ويتخلقون بأخلاق مسمومة ذميمة، حذرنا الله تعالى منها، والتشبه بها، أو سلوك سبيلهم في مثل هذه الأخلاق. ومن صفاتهم الذميمة التي نهينا عن تقليدهم فيها: الظن السيء، والإعراض عن الحق، والخوض في آيات الله بالباطل.

لقد جاء القرآن الكريم ينهانا عن التأسي بالمنافقين في صفتهم الظن السيء الذي ينص على أن خروج المؤمنين غزاة طائعين لله تعالى سبب في قتلهم وموتهم.

فقال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وهذه في عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه المنافقين[١]. وصيغة ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟﴾ صيغة استقبال في معنى الاستمرار[٢].

وهذا الظن السيء، يتكرر ويتجدد، مشابهة للمنافقين السابقين. فترى ضعاف الإيمان يثبطون عن الجهاد والاستشهاد، قائلين لإخوانهم المجاهدين: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا! ولو لم يجاهدوا ما غيبوا في غياهب السجون! ولو لم يخالطوا المجاهدين ما أبعدوا عن أوطانهم ولا توقفت عطاياهم!

ولقد شابه المنافقين في الظن السيء، ظن أهل الجاهلية، الذين ظنوا أن الله تعالى لا ينصر رسوله والمؤمنين، فقال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

يقول ابن القيم: «وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله، بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يسلمه للقتل، وقد فسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه»[٣].

(١) انظر: جامع البيان. الطبري، ٧/ ٣٣٠.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٧/ ٣٣٠.
(٣) زاد المعاد، ابن القيم، ٣/ ٢٢٨.

وتتجدد واقعية الآية، وتتكرر أخلاق النفاق في زماننا اليوم، إذ التثبيط عن الجهاد، والتخويف من شأنه وشأن المجاهدين وسلاحهم، مقابل تهويل المنافقين لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب. ويظنون بالله ظن السوء، وأن الله تعالى لن ينصر العاملين لدينه المستمسكين بحبله المتين، فهم لا قبل لهم بأعدائهم، فعدتهم أضعف من عدة عدوهم. كذلك ينتظر هؤلاء المنافقون، عثرات المجاهدين والإصابة منهم.

فصدق قول الله فيهم: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: ٥٠].

ومن أخلاق النفاق، التي كان الزجر عن التشبه بها: خلق الإعراض عن الحق، حيث يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: ٢٠-٢١].

فصفة المنافقين أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، يقولون: نسمع كلام الله، لكنهم لا ينتفعون بما سمعوا، ويتولوا وهم معرضون.

يقول القرطبي: «فدلت الآية على أن قول المؤمن: سمعت وأطعت، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله»[(١)].

واليوم ترى الذين في قلوبهم مرض يتولون عن أمر الله تعالى، فهم يقولون: سمعنا، وهم لا يسمعون. فكم من سامع لآيات الله تتلى عليه سماع أذن لا عمل فيه. فمثلًا تنهى عن التشبه بالكفار في التحاكم إلى الطاغوت فلا استجابة، وتنهى عن التشبه بالكفار في الزي والمظهر فلا سمع ولا طاعة، وتؤمر الفتاة المقلدة لفاجرات الكفر، بموارة السوءة فلا تلبي، وتنهى عن نصرة الظالم بالباطل -كما هي جاهلية مكة الأولى- فلا تلبية ولا استجابة، وتنهى عن أكل أموال الناس بالباطل فلا يستجيبون.

ومن صفات المنافقين التي ذكرها القرآن الكريم: الخوض في آيات الله بالباطل والاستهزاء بها، ومن شدة خطورة هذه الصفة، لم ينهنا الله تعالى فقط عن فعلها، بل وعن الجلوس مع الخائضين والمستهزئين بها، فقال الله سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

وأمر الله المؤمنين بالإعراض عمن هذه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٢٤٦.

صفته، نراه في قول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وهذه «نزلت في قوم من المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن، ويكذبون به ويحرفونه، فنهى المسلمين عن مجالستهم.

قال ابن عباس: ودخل في هذه الآية كل محدث في الدين ومبتدع إلى يوم القيامة»[1].

والأمر بالإعراض عن الخائضين من المنافقين، وعن مجالستهم، أبلغ في الزجر من النهي عن مشابهتهم في هذا الخلق الذميم.

يقول أبو السعود: «المراد بالإعراض: إظهار المخالفة بالقيام عن مجالستهم، لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط»[2].

ومن الجلوس مع المستهزئين بآيات الله، الجلوس أمام شاشات بعض الفضائيات التي تستهزىء بالعاملين لدين الله تعالى، وتصورهم بصور تنفر العامة من الدين، كأن تصورهم بأنهم قاطعوا طريق، أو أصحاب قوة يستخدمونها في سفك الدماء والاعتداء على حقوق الناس، وأنهم إرهابيون. كل ذلك وأمثاله من باب الطعن والنيل من المعتصمين بدين الله تعالى، وتنفير الناس منهم.

فصدق قول الله فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

٣. تقليد أخلاق المشركين.

المشرك له من الأخلاق الذميمة الكثير، فهمه الأكبر نفسه، ينظر إليها على أنها غايته، فيحقق لها ما يستطيع من متاع الدنيا، وكلما ازداد في البحث عن شهواته ورغباته، ازداد تأصل الأخلاق السيئة في نفسه. وذكر الله أخلاقًا للمشركين لنكون- نحن المؤمنين- أبعد الناس عنها تشبهًا وتقليدًا وفعلًا. ومن أخلاق المشركين التي نهينا عن التخلق بها، خلق البطر والرياء، والعصبية القبلية النتنة، والتبرج المذموم.

فعن خلق البطر والرياء، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

لما رأى أبو سفيان أن عيره نجت، أرسل إلى أبي جهل يخبره بذلك، طالبًا منه العودة، إلا أن أبا جهل ركب رأسه وقال: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم عليها ثلاثًا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام،

(١) البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ١٦٥.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٢٤٥.

ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا[(١)].

فالكبر والبطر يملآن قلب أبي جهل. فكان النهي الرباني للمؤمنين عن أن يزاولوا مثل هذه الأخلاق، وزجرهم أن يكونوا مثلهم في أفعالهم.

وهكذا يتكرر فعل أبي جهل، من قبل أحفاده، نظروا إلى الدنيا، ظانين أن النصر من خلال الخمر والسهر والقيان، فشربوا الخمر حتى ثملوا، وعزفت لهم القيان، فضاعت العباد والبلاد. ولو أنهم كانوا ممن عرف الله، لأقاموا الليل بالقرآن، بدل عزف القيان، ولسمعوا قول الله تعالى وهو يناديهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

سماع المجيب، ولكان قدوتهم جند صلاح الدين الذين كان وصفهم: رهبان بالليل، فرسان بالنهار. فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فكانت الذلة والمسكنة، كما كان حال أبي جهل الذي شرب كأس المنايا بدل كأس الخمر، وناحت عليه النوائح بدل زغاريد القيان، وذكرتهم العرب بالصغار بدل الفخار. وما زالت الأمة تتجرع كأس الهوان من وراء أفعال أتباع أبي جهل البطر الأشر.

ومن أخلاق المشركين التي نزل فيها القرآن يحذر المسلمين من مزاولتها: دعوى الجاهلية، فقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١].

وسبب نزولها أن شاس بن قيس اليهودي -وكان شديد الضغن على المسلمين- مر على نفر من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ألفتهم بالإسلام من بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من عداوة، فقال: والله مالنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شابًا من اليهود أن يعمد إليهم، ويذكرهم بعاثًا[(٢)]، وما كان فيه من قتل بينهم، ففعل، فتنازع الفريقان، مناديًا كلًا منهما قبيلته فخرًا، كما كانوا عليه في الجاهلية. فبلغ ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: يا معشر المسلمين، أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم. عندها عرفوا أنها نزعة الشيطان، فتعانقوا،

---

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/ ١٦٦.

(٢) بعاث موضع بالمدينة، كانت فيه وقعة عظيمة بين الأوس والخزرج، قتل فيها خلق من أشرافهم وكبرائهم.
انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ١١٧.

فأنزل الله الآيات السابقة[١].

ففي هذه الآية يحذر الله تعالى المؤمنين من إثارة الجاهلية والنعرات العصبية، التي أثارها اليهود بينهم، مبينًا أن طاعة اليهود توصل إلى الكفر والردة بعد الإسلام والإيمان.

ويعيد التاريخ نفسه، ويحسد الكفار المسلمين على تجمعهم ووحدتهم وتآلفهم، ويقف التآلف هذا عقبة في وجه الاستعمار في العصر الحديث، ففكر أحفاد شاس بن قيس، كما فكر في الإيقاع بين المسلمين، ونشر دعوى الجاهلية؛ لتسهل السيطرة وليهون الاستيلاء. فقد أقيمت الجامعة الإسلامية في أواخر الدولة العثمانية على أساس إعادة الوحدة للأمة، ونشر ثقافة المقاومة للمستعمر، فما كان من دول الاستكبار يرأسهم يهود، إلا أن أثاروا النعرات الإقليمية في أوساط الشعب الإسلامي الواحد، وكان في الأمة أمثال أبي رغال[٢] الذين يصنعون من أنفسهم جسرًا لعبور الأجنبي الدخيل إلى حصن الأمة، فنعقوا بما نعقت به السياسة البريطانية (فرق تسد)، وسبحوا بحمد النعرات القبلية، التي أثارها المستعمر في البلاد الإسلامية. فأثار في المصريين الفرعونية، وفي العراق الآشورية، وفي فلسطين الكنعانية، وكان هذا في البداية على مستوى الدولة الإسلامية الأم، ثم لما كان ذلك للمستعمر من خلال الأبواق الناعقة بلغته وفكره، مقلدة له في هذه النعرات، راح ينشر فكر العصبية والقبلية النتنة على مستوى الدويلة نفسها، فأخذ ينشر ثقافة مدني وفلاح، وقروي وحضري، وفي بلادنا ثقافة لاجئ وغير لاجئ. وهكذا كان للقبيلة وتعظمها بالآباء مكان في أنفس المقلدين الناعقين بما نعقت به الصهيونية والصليبية.

وكذلك نشر الاستعمار، العصبية القبلية، والعنصرية البغيضة، باسم القومية العربية، وذلك من أجل فصل العرب عن جسمهم الأم دولة الإسلام التي كانت متمثلة في الدولة العثمانية. والقومية العربية فكرة صليبية حاقدة، تهدف إلى ما هدف إليه شاس بن قيس من تفتيت الأمة وضياعها وتفرقها.

وهكذا نجد الثمار الخبيثة التي حذرت منها آيات آل عمران السابقة من تفرق الأمة، وضرب بعضهم رقاب بعض، والخلافات الحدودية والسياسية وغيرها، موجودة اليوم.

---

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ٧٦-٧٧.

(٢) أبو رغال: رجل من نجد كان دليلاً لأبرهة الحبشي على البيت الحرام لهدمه، فلما وصل مع أبرهة إلى موضع يسمى المغمس مات أبو رغال، فصارت العرب ترجم قبره.
انظر: تاريخ الأمم والرسل والملوك، الطبري، ١/ ٤٤١.

ومن بلاغة الآية وإعجازها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۝١٠٠﴾ [آل عمران: ١٠٠].

أنها حذرت من طاعة أهل الكتاب اليهود والنصارى-جميعًا، ولم تذكر اليهود فقط الذين كانوا سببًا في نزول الآية؛ وذلك لعلم الله تعالى أن أمر الدس والتفريق سيتكرر، لكن على يد النصارى هذه المرة، وإن كانت اليد اليهودية الأثيمة لها شأن في ذلك.

ومن الأخلاق التي انتشرت في الجاهلية ونهى القرآن عن التشبه بها أو مقارفتها، خلق التبرج، حيث يقول المولى عز وجل: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وتبرج الجاهلية: كان بخروج المرأة تمشي بين يدي الرجال، مع تكسر وتبختر وتغنج، أو أنها تلقي الخمار على رأسها، ولا تشده، فيواري قلائدها وقرطها[١] وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، مما يستدعي به شهوة الرجل[٢].

فجاء القرآن الكريم ناشرًا العفة والطهر في المجتمع، بنهيه عن التشبه بالكافرات الفاجرات، وألا يتبرجن مثل تبرجهن. ولئن كان النهي في الآية لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن، إلا أنه يعم المسلمات جميعًا.

يقول الشوكاني: «ولا تبرجن أيها المسلمات بعد إسلامكن تبرجًا مثل تبرج أهل الجاهلية التي كنتن عليها، وكان عليها من قبلكن، أي: لا تحدثن بأفعالكن وأقوالكن جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل»[٣]، ولئن نهت الآية عن تبرج مثل تبرج الجاهلية الأولى، إلا أن الجاهلية تتكرر، ولا تختص بفترة زمنية معينة، بل هي حالة اجتماعية معينة، لها تصورات معينة للحياة، ويمكن أن توجد هذه الجاهلية في أي مكان وفي أي زمان[٤].

لقد حرر الكفر اليوم المرأة على طريقته الشيطانية حينما تعرت على عينه من لباس الباطن لباس التقوى أولًا، ثم من لباس الظاهر لباس الحشمة والوقار ثانيًا، فنشره الغربي في شارعه ومتجره وجامعته، بل وأنشأ دورًا خاصة للعري والبغاء، وعز عليه حسدًا أن يرى المسلمات محتشمات عفيفات فصنع على عينه من شراذم الأمة، من يتطبع بطبعه، ويصنع رذيلته، وينقل فكرته إلى ديار المسلمين، تقليدًا للكافرات الفاجرات.

فانتشرت فكرة تبرج الجاهلية الأولى في

(١) القرط: نوع من حلي الأذن.
انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٧/ ٣٧٤.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٤٦، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٣٧٣.

(٣) المصدر السابق، ٤/ ٢٧٨.

(٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ص٧٦.

ديارنا، حتى غدا في جامعاتنا، ومدارسنا، وقرانا ومدننا، وفي السفر والحضر، وفي الحل والترحال، وهذا مصاحب بالزينة، والجلسات المشبوهة، خاصة في الجامعات، فأصبح هذا الجانب من التبرج لا تختلف فيه بشيء كثير عن جاهلية الغرب الذي صدر لنا هذا التهتك والعري، فاستقبله كثير من جاهلات الأمة ظنًا منهن أنه الرقي والفخار. فكانت جاهلية اليوم أشد من جاهلية الأمس في تبرجها هذا.

آثار التقليد والتبعية

لما كان لكل عمل نتيجة، ولما كانت الأسباب مرتبطة بالمسببات، كان لما يصدر عن الإنسان المكلف من أعمال، نتائج وآثار، والمرء حينما يقوم بأعمال متشبهًا فيها بغيره، فإنه ينجم عن ذلك نتائج وآثار، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وذلك حسب المتبوع وأعماله المقلدة.

والإنسان المكلف يتحمل تبعة تقليده للآخرين، والآثار الناتجة عن ذلك، سواءً أكان ذلك في الدنيا أم في الآخرة، ومن هنا سيكون هذا المبحث ضامًا للمطلبين الآتيين:

أولًا: آثار التقليد في الدنيا:

الصاحب مع صاحبه مؤثر أو متأثر، وكذلك الجماعات والدول، ترى فيها التابع والمتبوع. والأعمال المتبعة منها خير ومنها شر، والخير ينتج عنه الخير، والشر لا ينتج عنه إلا الشر. والتقليد لأعمال السوء لا ينتج عنه إلا السوء. ففي الدنيا تنتشر التفرقة، ويتخلى الله تعالى عن هذا الصنف من الناس فيخذلهم ولا ينصرهم، وتكون الموالاة السيئة لأعداء الله تعالى، حيث الفساد والردة. ومن هنا يندرج تحت هذا المطلب الأمور الآتية:

١. التفرق والميل عن سبيل الله تعالى.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

جعل الله تعالى البشر فريقين: فريقًا يدعو إلى الجنة، وفريقًا يدعو إلى السعير. والذي يدعو إلى الجنة له طريق واحد لا ثاني له يتلقاه من ربه عز وجل، فيلتزم به ويدعو إليه، أما الذين يدعون إلى النار فإنهم كثيرون، يتلقون الأوامر والنواهي من جهات شتى، فيدعو كل منهم حسب هواه إلى بدعته، ولهذا كانت لهم سبل شتى يدعون إليها أتباعهم، فتكون نتيجتها التفرق والاختلاف والشتات والزيغ والضلال.

وآية الأنعام السابقة كانت خاتمة للوصايا العشر[1] التي وردت في آيتين سابقتين لهذه الآية. والذي وصى به ربنا، في هاتين الآيتين هو صراطه ودينه الذي ارتضاه لعباده، وهو طريق قويم لا اعوجاج فيه، أمرنا بالعمل به، وأن نجعله لأنفسنا منهاجًا نسلكه، وألا نسلك منهاج غيرنا، من اليهودية والنصرانية والمجوسية والعلمانية والإلحادية وغيرها من سبل الكفر، ولئن سلكنا هذه السبل فمصيرنا التشتت بنا عن طريقه ودينه الذي ارتضاه وهو الإسلام وهذا ما هو حاصل للأمة اليوم.

فسبيل الحق واحد لا تشعب فيه، وسبل الباطل كثيرة كالبدع والخوض في الباطل، والأهواء ومبادئ الضلال، وهذا كله تضاد يسبب التفرق والتشرذم.

يقول ابن كثير: «إنما وحد سبيله لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها»[2].

والذي يأتي بما يخالف شرع الله تعالى فإنه مبتدع، والبدعة تتضمن تفريق الأمة الإسلامية؛ إذ إن صاحب البدعة، يدعي أنه على الحق وغيره ضال، وبهذا يتفرقون ويصبحون شيعًا وأحزابًا.

وهذا حاصل اليوم، فعلى مستوى الأفكار والرؤى، يوجد في الأمة من ابتدع فكرة العلمانية متبعًا فيها الغرب العلماني، وفي الأمة من اتبع بدعة الشيوعية الملحدة، وكل منهم ينظر لنفسه أنه على الحق والقادر على إعادة حقوق الأمة المسلوبة، وتحرير مقدساتها، ويذم الآخرين؛ فتفرقوا.

والفرق بين الفريقين أن أهل الحق وإن اختلفوا في أمر اجتهادي فسرعان ما

(١) وهي: عدم الإشراك بالله شيئًا، والإحسان إلى الوالدين، وتحريم قتل الأولاد خشية الفقر، والابتعاد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحريم قتل النفس إلا بالحق، والنهي عن تناول مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، والوفاء بالكيل والميزان، والعدل، والوفاء بالعهد، واتباع الصراط المستقيم.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٧٠.

يحتكمون للكتاب والسنة فيلتزمون، وكل يخضع للحق، فتبقى صفة الوحدة والألفة شعارهم، بينما أهل الضلال كل واحد منهم يركب رأسه، ويريد تعظيم نفسه، وتصغير الآخرين، ولا يريد الحق، فتجدهم دائمًا في اختلاف وصراع، لتشعب مناهجهم وتنوعها، وكل حين يخرج منهم مذهب جديد[1].

ومنهج الله تعالى واحد، وكتابه واحد، والذين يتبعونه من الأمة يكونون موحدين، أما غير منهج الله فإنها مناهج مفرقة مشتتة وفيها الاختلاف الكثير، وما دام الأمر كذلك فإن نتيجة متبعيها التفرق والتشتت والميل عن سواء السبيل.

يقول الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم)[2].

فاختلاف القلوب مسبب لتباغض القلوب وتناحرها وتفرقها.

٢. الخذلان وفقدان النصير.

بين الله سبحانه للبشر طريق الخير وأمرهم بها، وبين لهم طريق الشر وحذرهم منها. ومن خالف ذلك متبعًا مخالفي أوامر الله تعالى، كان خصمًا لله تعالى يخذله ولا ينصره.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

فالله تعالى بين للمؤمنين حقيقة اليهود والنصارى، وأنهم لا يرضون منا إلا اتباع ملتهم، فجاء التحذير الإلهي: بأن اتباع ملتهم فيه فقدان ولاية الله ونصرته.

ولقد تحدثت سورة الجاثية عن بني إسرائيل[3] وأنهم اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات.

ثم حذرت النبي صلى الله عليه وسلم من اتباع أهواء الذين لا يعلمون من كفار مكة وغيرهم؛ فالظالمون بعضهم أولياء بعض، والله ولي المتقين.

فقال المولى عز وجل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ

(١) انظر: إعانة المستفيد، الفوزان ص٤١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب من يستحب أن يلي الإمام في الصف والكراهية التأخر، رقم ٦٧٥، ٢/ ٢٥٣. وصححه لألباني في صحيح سنن أبي داود رقم ٦٧٩، ٣/ ٢.

(٣) الجاثية: ١٦-١٧.

﴿وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٩﴾ [الجاثية: ١٨-١٩].

ولئن كان اتباعٌ من النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الأهواء من أهل الكتاب والكفار، من بعد ما جاءه من الحق -وحاشاه-؛ فليس له من نصير ينصره من عذاب الله، وليس له منهم من أحد عنه حاجزين.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۝٣٧﴾ [الرعد: ٣٧].

والملاحظ أن الخطاب في آيات البقرة: ١٢٠، والرعد: ٣٧، والجاثية: ١٨ السابقة موجه للرسول صلى الله عليه وسلم، بأنك إن اتبعت أهواء الذين لا يعلمون، وأهواء أهل الكتاب- وحاشاه أن يفعل ذلك- فإن لك عذابًا، لا يدفعه عنك أحد. والخطاب هذا خطاب لأمته. فإذا كان الأمر كذلك مع سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن دونه من الناس، وفي هذا تحذير شديد، ووعيد كبير لمن اتبع غير سبيل الله بأنه سيفقد الولي والنصير.

ورفع الله ولايته ونصرته عن الذين يركنون إلى الذين ظلموا، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣﴾ [هود: ١١٣].

والركون إلى الذين ظلموا يعني: محبتهم والميل بالقلب إليهم، ومداهنتهم والرضى بأعمالهم، والدنو منهم، وطاعتهم، والاعتماد عليهم في قضاء المصالح[(١)].

والذي يركن إلى الذين ظلموا بشيء من ذلك؛ فإنه يفقد الولاية والنصرة من دون الله تعالى. والأمة اليوم فقدت نصرة الله تعالى، وذلك لأنها رضيت أعمال الذين ظلموا، بل شابهت أعمالهم وفعلت فعلهم، فكانت جديرة بأن يتخلى ربها عنها ويتركها من ولايته ونصرته.

وإذا كان الميل اليسير إلى الذين ظلموا، يفقد النصرة والمعونة والولاية من الله تعالى، فكيف بالميل كل الميل إلى الظالمين! بل كيف بالظالمين أنفسهم! وإذا كان بمجرد الميل القلبي ترتفع النصرة ويكون الخذلان، فكيف -والحال اليوم- المخالطة والمشاورة، والمشاركة في مطاردة الإيمان وأهله ومحبة الظالمين وتبجيلهم وتقديرهم، بل وتعظيمهم، ونقل أسرار المسلمين إليهم! فهل يبقى بعد ذلك لنا من ولي من الله أو نصير!

ولقد ذكر الله تعالى في أكثر من آية أن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٥/ ٥٠٠، النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٥٠٨، الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٤٠٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ٧٢.

الظالمين ليس لهم نصير[(١)].

وركون الذين ظلموا أنفسهم إلى الظالمين، وخضوعهم لجورهم، من أهم أسباب تفشي الظلم في الأرض، وانتفاش الظالمين، وزيادة بطشهم، فيكون الذين ركنوا أدوات في أيدي الظلمة يحركونهم لتوسيع نفوذهم، وتنفيذ أوامرهم في ضرب الناس، ويبلغ العجز والهوان بالذين ظلموا أنفسهم إلى التسابق من أجل إرضاء الظلمة، فيتبعونهم في استجابة أمرهم، عندها تكون العقوبات الثلاث: فقد ولاية الله تعالى، وتخلف نصره، والنار.

٣. ضرر موالاة الكافرين.

المؤمن ولي للمؤمن، يحبه، ويأمره بالخير، وينهاه عن الشر، ويعادي من عاداه، ويوالي من والاه، وينصره، فالذين آمنوا بعضهم أولياء بعض. وعندما يكون الأمر كذلك؛ فإن الخير يعم، والصلاح ينتشر، والفساد يضمحل. وهكذا أمرنا من الله تعالى أن نكون، إلا أن ضعاف الإيمان من المسلمين حينما يوالون أعداء الله، وينصرونهم ويعينونهم، ويطلعونهم على أسرار المسلمين؛ فإنك تجد ضرر ذلك بالفساد والردة.

فالفساد الناتج عن موالاة الكافرين، حذرنا الله منه، بعد أن أمرنا بموالاة المؤمنين حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٣].

فالآيتان فيهما المفاصلة بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، والكافرون بعضهم أولياء بعض. و«الولاية هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوبين ظاهرًا وباطنًا»[(٢)].

والمؤمنون إذا لم يوال بعضهم بعضًا نصرة ومحبة وولاءً، ويعادوا الكافرين بغضًا وخذلانًا لهم وحربًا عليهم؛ تكن فتنة عظيمة وهي الشرك وقوة الكفر، وفساد كبير بانتشار المعاصي وضعف الإسلام وأهله، ويختلط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وتعدم كثير من العبادات الهامة، كالجهاد والحكم بما أنزل الله[(٣)].

(١) انظر: البقرة: ٢٧٠، وآل عمران: ١٩٢، والحج: ٧١، والشورى: ٨.

(٢) الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني، ص٩٠.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٣٨٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٢٧.

والمرء إذا أحب آخر، أحب عمله، وقلده فيه واتبعه، وانتقل ذلك إلى إكرام محبوبه، وتقديره واحترامه، فيخالطهم، وينتقل معهم، وحينها يكثر سوادهم وأعمالهم. فإذا كان مثل هذه الأعمال من مسلم لكافر، فهذا يعني الفتنة وانتشار الفساد، فالمسلم الموالي للكافر يقلده في أعماله وأقواله، وينشر فكرته، ويسيء لدينه وأمته ووطنه، بجلب فساد الكافرين إلى ديار المسلمين.

وهذا الفساد متنوع:

فعقيدة: كان التشكيك في المسلمات.

وسياسة: لسنا إلا ذيلًا للغرب الكافر.

وأخلاقًا: فسدت الشباب، وطغت النساء، وحميت الرذيلة، وحوربت الفضيلة، وأصبح المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، وسفلة الأمة ورويبضتها تتكلم في أمر العامة.

وبهذا نشر الإعلام الضال المضلل أنواع الفساد هذه وأضعافها.

وكلمتا (فتنة وفساد) في الآية السابقة نكرة، وذلك لتعم كل فتنة وكل فساد، ووصف هذا الفساد بالكبير يظهر ضخامته. ومن الفتنة تخويف العامة من المساجد وطريقها وأهلها، وتحذيرهم بالسجن والمساءلة وعدم الحصول على وظيفة، وفي المقابل فتح الطريق أمام الجيل للذهاب إلى السوء وأهله، فطريقه آمن، لا مساءلة فيه ولا محاكمة.

ومن ضرر موالاة الكافرين أيضًا: الردة؛ فمن والاهم فهو منهم، ويتبرأ الله منه. يقول المولى عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وسبب نزولها: أن عبادة بن الصامت قال: «لما حاربت بنو قينقاع تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سلول وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وكان أحد بني عوف بن الخزرج وله من حلفهم مثل الذي له من عبدالله بن أبي، فحالفهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ من حلف الكفار وولايتهم. قال: ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت القصة في المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية[(١)].

والآية تعني: لا تعتمدوا على الاستنصار باليهود والنصارى، ولا تتودوا لهم، ولا تصافوهم مصافاة الأحباب، ومن يتولهم من المؤمنين؛ فإنه من جملتهم، وحكمه حكمهم، ويكون مثلهم[(٢)].

ولقد تبرأ الله تعالى من كل من يتخذ

(١) لباب النقول، السيوطي، ص١٠٩.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ١٥، روح المعاني، الألوسي، ٦/ ١٥٦.

الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فقال الله سبحانه: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

فمن اتخذ الكافرين أنصارًا يواليهم ويظاهرهم على المسلمين؛ فقد برئت منه ذمة الله، وارتد عن دينه. ونادى رب العزة المؤمنين، محذرًا إياهم طاعة أهل الكتاب وطاعة الكافرين، وفي السورة نفسها، لما يؤدي ذلك إلى الردة بعد الإيمان[1].

ولقد زين الشيطان لأتباعه من أهل الكتاب وإخوانهم المنافقين الردة بعد ما تبين لهم الهدى، وكان ذلك نتيجة لطاعة بعض أوامر الكارهين لما أنزل الله.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ [محمد: ٢٥-٢٦].

فاليهود والمنافقون قالوا للمشركين -الكارهين ما أنزل الله- سرًا: سنطيعكم في عداوة محمد والمظاهرة عليه، والقعود عن الجهاد[2].

والمنافقون اتبعوا ما أسخط الله، وكرهوا ما يرضيه عنهم من قتال الكافرين، فقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٨].

فاتباع نواهي الله، وعدم امتثال أمره، ينتج عن ذلك إحباط العمل وبطلانه. وإحباط العمل كان ثمرة سيئة للعمل السيء في موالاة المنافقين والكافرين، فقال الله سبحانه في معرض الحديث عن الولاء: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة: ٥٣].

ولما كان الجزاء من جنس العمل، كان العقاب مناسبًا لسببه، فاليهود اتبعوا ما أسخط الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨].

فكانت النتيجة سخط الله عليهم: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٨٠].

ثانيًا: آثار التقليد في الآخرة:

الحياة لا تنتهي بالموت، ولو أنها كذلك لاستراح الكثير من الكبراء وضعفائهم، إذ يقول الله عن المتحسرين النادمين يوم القيامة: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: ٢٤].

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٠، ١٤٩.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٧/ ٢٨٧، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ١٢٣.

فهناك الحياة الآخرة، التي ليس بعدها حياة، ولا دار، إلا الجنة أو النار. وفي هذه الدار تبلى السرائر، وتتكشف الحقائق، ويذهب الزيف والخداع، وإذا بالمقلد المتبوع يظهر على حقيقته، فهالته التي كانت في الدنيا زالت اليوم، وقوته التي صارع بها الحق في الدنيا ضعفت، وأتباعه المقلدون انكشف لهم العوار، وزال عنهم القناع الزائف، والكذب الخادع، فأخذتهم الحمية أمام هذا الموقف الرهيب، وانتفضوا على ذلتهم وصغارهم الذي كان في الدنيا، فجابهوا أسيادهم وواجهوهم - حيث لا تنفع المجابهة ولا المواجهة - بالشتائم والتلاعن والتباغض والتلاوم والتبرؤ والدعاء عليهم بمضاعفة العذاب.

وهذه الآثار السيئة نتيجة للتقليد الأعمى، والاتباع المذموم، والتي يمتد أثرهما إلى يوم القيامة. وسيتناول الباحث هذه الآثار على النحو الآتي:

١ . التلاعن بين الأتباع والمتبوعين.

فقد قال الله تعالى عن السبب الذي أوصل التابع والمتبوع إلى التلاعن يوم القيامة: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

فالسبب إضلال المتبوع للتابع.

وكل أمة تلعن أختها في الدين والملة. فيلعن اليهود اليهود، والنصارى النصارى، والمشركون المشركين، والأتباع القادة، قائلين لهم: أنتم ألقيتمونا هذا الملقى حين أطعناكم، وحينما أضللتمونا في الدنيا فاتبعناكم[1].

ويبين الله تعالى التلاعن بين المتوادين على عبادة الأصنام، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فهم تحابوا على عبادة الأوثان، وتوادوا على خدمتها في الدنيا، ولأجلها عادوا دين الحق وهذا الأمر يحصل لهم مودة في دار الدنيا فقط، ثم هي منقطعة عنهم يوم القيامة، وإذا بهم يلعن كل غوي صاحبه الذي أغواه، وتنقلب المودة بغضًا ولعنًا.

٢ . التبرؤ والحسرة.

ومن الثمار الخبيثة للتقليد والتبعية الهوجاء: التبرؤ، حيث يتبرأ المتبوعون من الأتباع، والحسرة على ما فرطوا في جنب الله تعالى. فعن تبرؤ المتبوعين من أتباعهم،

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٩٤، نظم الدرر، البقاعي، ٣/ ٣٢، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٢٨٩-١٢٩٠.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

فهاهم -الأتباع والمتبوعون- وجهًا لوجه أمام العذاب الشديد، وحينها لم يعد نفع من التابعين لأسيادهم، وتنقطع أسباب المودة التي كانت في الدنيا، فحينها يتبرأ الكبراء من الضعفاء، علهم يخفف عنهم من عذاب التبعية ووزرها، ويتمنى التابع الكرة إلى الدنيا -ولكن هيهات- فالتابع والمتبوع في النار، كلما رأوا أعمالهم السيئة ومعاصيهم التي اتبعوا أسيادهم في فعلها، كلما ازدادوا حسرة وندامة وتقليبًا للكفين على ما أنفقوا من أعمارهم وأموالهم في مرضاة المجرمين.

ويتجلى التبرؤ الأكبر، من قائد الغواية والضلالة الأكبر: الشيطان، حينما يقف خطيبًا على منبر من نار في أهلها.

فأخبر الله سبحانه عن التبرؤ هذا فقال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فالشيطان يجحد أن يكون شريكًا لله فيما أشركه أتباعه فيه من العبادة في الدنيا، ولم يكن له من سلطان وقوة على إجبارهم على الشرك، وما كان منه إلا أن دعاهم فقط للغواية فاستجابوا وتابعوه. فهو يتبرأ من جعل أتباعه له في الدنيا شريكًا لله، ومن طاعتهم إياه. وهذه الخطبة تزيدهم حزنًا إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم.

والشيطان يزين للإنسان المعصية، حتى إذا وقع فيها تركه وتبرأ منه، فبين الله تعالى أن اتباع الشيطان في المعصية أثمر التبرؤ والخلود في النار، فقال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦].

فالشيطان يخذل الإنسان في كل حين، فهل من معتبر!.

ولك أن تتصور شدة الحسرة والندم، حينما تعلم أن القرآن العظيم صور الحسرة والندم بالعض على اليدين، فقال الله

سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

يقول الطبري: «ويوم يعض الظالم نفسه، المشرك بربه، على يديه ندمًا وأسفًا على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه، يقول: يا ليتني اتخذت في الدنيا مع الرسول سبيلًا يعني: طريقًا إلى النجاة من عذاب الله»[1].

ويظهر تبرؤ المتبوعين من أتباعهم يوم القيامة، حينما يناديهم الله عز وجل بقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص: ٦٢-٦٣].

فالآيات توضح إغواء المعبودين لمن أشركهم بالله وجعلهم له ندًا، في الدنيا كما غووا هم، وعند مواجهة استحقاق العذاب، اعترفوا بهذه الغواية، وتبرؤوا من عبادتهم، لما رأوا العذاب وندموا أشد الندم، وتمنوا أن لو كانوا مهتدين.

٣. العذاب المهين والاستقبال المشين في جهنم.

عادة الحبيب أن يستقبل حبيبه بالترحاب والابتسامة والكلمة الطيبة التي تدخل السرور إلى القلب، إشعارًا بمدى محبته عنده. إلا أن الأمر يختلف يوم القيامة عند الذين رحب بعضهم ببعض على السوء في الدنيا، وفرحوا بلقاء بعضهم بعضًا على موائد المؤامرات، صادين عن سبيل الله، ماكرين برسله ودعاته، ومكذبين بآياته، ففي جهنم يكون حميم وغساق.

واستقبال المتبوعين أتباعهم بعدم الترحاب، وبالدعاء عليهم، والتذمر منهم، جزاءً بما كانوا في الدنيا يكسبون، ولكبرائهم يتبعون.

فيقول الله تعالى واصفًا حالتهم هذه: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ [ص: ٥٥-٦١].

تقول خزنة جهنم لرؤساء الطغيان والكفر: هذا فوج من أتباعكم الذين أضللتموهم، اقتحموا معكم النار، كما اقتحموا معكم الجهل والعصيان، فعندها

(١) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٢٦٢.

تقول رؤوس الكفر: لا مرحبًا بهم أي: لا رحبت بكم الأرض ولا وسعت، وضاقت عليكم أماكنكم. فترد الأتباع الدعاء عليهم بأن لا مرحبًا بكم أنتم، معللين هذا الرد بأنكم أيها الرؤساء قدمتم لنا هذا العذاب؛ إذ بدأتم بالكفر قبلنا وشرعتموه لنا، ودعوتمونا إليه، وإلى العمل الذي يوجب لنا هذه النار. والدعاء بالضيق وعدم الكرامة، تبعه دعاء آخر، وهو من قدم لنا هذا العذاب أي: سنه وشرعه فزده عذابًا ضعفًا في النار[1].

إنها صورة بائسة، معكوسة لما كان في الدنيا، التي كان فيها الترحاب والقبلات، والفرح الشديد عند الإساءة للرسل والدعاة وإصابة الهدف بدقة للخطة الماكرة، مع زيادة الرتبة والراتب من المتبوع للتابع المنفذ. فأين اليوم التصفيق للخطابات! وأين الحراسات! وأين اليوم الفداء بالأرواح والمهج والأنفس!

٤ . التخاصم والتلاوم.

أمام الموقف الرهيب، الذي يقترن فيه كل مع شاكلته في المعاصي والآثام، وترتفع الأصوات المتلاومة كل يلقي بالتبعة والمسؤولية على غيره في السبب الذي أوصلهم إلى هذا العذاب الأليم. هذا التخاصم والتلاوم يذكره الله تعالى في مواطن من كتابه الكريم، منها: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الصافات: ٢٧-٣٤].

أي: أقبل الأتباع على المتبوعين يتساءلون لائمين إياهم بقولهم: كنتم تزينون لنا الباطل، وتحولون بيننا وبين الخير؛ فأطعناكم في ذلك. فرد المتبوعون عليهم بأنكم ما كنتم صالحين فأفسدناكم، ولا مؤمنين فكفرناكم، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للعصيان. وكذلك لم يكن لنا عليكم من حجج قوية ألزمناكم بها بأن تتبعونا على الكفر، فحق العذاب علينا جميعًا بسبب أنا كنا غاوين، فدعوناكم إلى الغواية دون قهر ولا سلطان فاستجبتم لها فنحن في العذاب مشتركون، كما اشتركنا في الصد عن سبيل الله في الدنيا، والكفر والضلال[2].

والتخاصم وتراجع الكلام بين المستضعفين والمستكبرين، تذكره آيات أخرى.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٧/ ١٥٢، اجتماع الجيوش الإسلامية، ابن القيم، ص٢٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٣١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٧.

يقول الله فيها: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

[سبأ: ٣١-٣٣].

ولو رأينا، لرأينا موقفًا يحول دونه الوصف ويعجز عنه التصور، حيث المضللون من المستضعفين والمضللون من المستكبرين، والمحاجة بين الخصمين على أشدها في التلاوم وإرجاع الكلام، إذ يقول التابع المستضعف -وقد أخذته بعض شجاعة-: لولا أنتم لكنا مؤمنين، فقد كنتم شديدي الحرص على كفرنا لنقلدكم فيه، ولولاكم أيها الرؤساء في الدنيا لكنا مؤمنين بالله وآياته. فكان رد المستكبرين: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ .

والاستفهام استنكاري، إنكارًا للتهمة، وردًا على الأتباع بأنكم كنتم مجرمين، فإجرامكم هو الذي صدكم عن الإيمان. فكانت مجابهة المستضعفين على رد المستكبرين: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ بل مكركم الذي لم يفتر ليلًا ولا نهارًا للصد عن الهدى، ولتمكين الباطل، ولتلبيس الحق، ولاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء.

وقول الله سبحانه: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ كناية عن دوام الإلحاح عليهم في التمسك بالشرك.

عندها خاف الخصمان من الفضيحة في الموقف فأسروا الندامة في قلوبهم وصدورهم كمدًا، وهذا من الذلة بمكان. ومن ثم كانت الأغلال التي تنتظرهم؛ لتغل بها الأيدي إلى الأعناق، ويلقى بهم إلى جهنم جزاءً لأعمالهم الخبيثة التي كثروا بها سواد المستكبرين من القادة والمتبوعين في الدنيا، فما أغنى تقليدهم عنهم شيئًا.

وذكرت الآية الليل والنهار، لبيان كثرة المكر وتواصله وعدم يأس أصحابه المجرمين، لنعلم نحن المسلمين في هذا الزمان، مدى ما يمكر بنا، ويحاك ضدنا من مؤامرات، مؤامرات عسكرية وإعلامية واجتماعية وثقافية وفكرية واقتصادية، لكل منها مختصون وأهلون. ونتيجة هذا المكر الخبيث يوم الحسرة: التخاصم والتلاوم والأغلال والعذاب الشديد جزاءً وفاقًا.

مواجهة التقليد والتبعية

الأمم تصح وتمرض، تبتلى وتعافى، ومن أراد السلامة فلا بد له من وقاية نفسه من المرض، ولئن أصابه؛ فإنه يحرص على الاستشفاء. والأمراض التي تصيب الأمم كثيرة، منها -كما أخبر القرآن الكريم- مرض التقليد والتبعية العمياء الذي يوهن العقول، ويذيب الشخصية، ويضعف الإرادة؛ فتتبع سبل سابقيها وكبرائها، وتنحرف عن منهج الله الذي ارتضاه لعباده. ولقد وقع في هذا الأمر كثير من القرون، فأصاب القرون اللاحقة المقلدة، ما أصاب القرون السابقة المقلدة في المعاصي والذنوب، حينما لم يعتبروا ولم يتعظوا بالهالكين قبلهم.

وجاء القرآن الكريم يقص علينا أمراض الأمم التي أصيبت بها وعوقبت عليها؛ لتكون آية وموعظة للمتقين. فكان ذلك دواء من الأدوية التي وصفها لنا القرآن الكريم لنتعافى مما ابتلي به كثير من الخلق. وحتى يثبت الشفاء ويزداد، كان لا بد من وجه مضاد لوجه أئمة السوء والشر، وهم أئمة الهدى، ولا بد من إظهار الصورة المنفرة للمقلدين أيضًا؛ زجرًا لهم، وردعًا لغيرهم. وكذلك لا بد من بيان المسؤولية الفردية التي يتحملها كل فرد عن عمله. ومن هنا فقد جاء هذا المبحث في أربعة مطالب:

أولًا: الاعتبار بمصارع القرون الأولى:

قص علينا القرآن الكريم قصصًا للغابرين، أظهر فيها عللهم، التي كانت سببًا في دمارهم واستحقاقهم العقوبة من الله تعالى. وقصصهم هذه، فيها الإرشاد والتوجيه للخلق ألا يقعوا فيما وقع فيه هؤلاء السابقون من العلل؛ حتى لا يصيبهم ما أصابهم.

ولقد عذب الله تعالى الأقوام بأنواع مختلفة من العذاب، كل بما يناسب ذنبه حيث يذكر الله سبحانه ذلك بقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فقوم عاد أهلكوا بريح صرصر عاتية، وقوم ثمود أهلكوا بالصيحة، وقوم نوح بالطوفان، وقوم فرعون بالغرق، وجعل ديار قوم لوط عاليها سافلها. وهذه الألوان من العذاب، ليست من الظالمين ببعيد.

وسبب هذا العذاب: كفرهم، وعتوهم عن أمر ربهم، وعصيان رسله، وتكذيبهم بآياته، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

وكل هذا لم يكن ليقصه الله عبثًا -وحاشاه-، بل كان ذلك للموعظة ولتكون آية، آية للمؤمن ليصبر على ما يلقاه في

سبيل الله من أذى، إذ إنه مطمئن لوعد ربه أن العاقبة للمتقين، ويقتدي بمن سبقه من المؤمنين الصابرين، وليزداد خشية وإيمانًا، وآية لغير المؤمن لعله يزدجر عما يقترف من آثام وسيئات.

ومن أسباب الهلاك الظلم والكفر، فقد قال الله سبحانه عن قوم لوط: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

يخبر الله تعالى أن الحجارة التي أصابت قوم لوط حاضرة لكل ظالم طغى وتجبر، وهي بانتظار كل من حاكى فعالهم. فالله سبحانه لا يحابي أحدًا من الخلق، وليس بينه وبين أحد نسبًا.

والظلم ذنب عظيم يعذب الله تعالى بسببه الظالمين، ويعجل لهم العقوبة في الدنيا قبل الآخرة: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ [الكهف: ٥٩].

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **(إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)**[١].

واليوم لا نرى ردعًا للظالم، ولا أخذًا على يديه لزجره عن ظلمه، وليت الأمر بقي على ذلك، بل وصل الأمر إلى التزلف والتملق للظلمة، والمداهنة لهم، ورفع قدرهم، واعتبار زيارتهم، والجلوس معهم مفخرة، فكان حري أن يعم العقاب، حيث التشريد والشتات، وأن يحل العذاب، حيث التشرذم والتفرق، والتقاطع والتدابر. ولا يدفع ذلك كله إلا الإنابة إلى العزيز الغفار، وترك التشبه بمن ظلم نفسه من الأمم السابقة.

وخاطب الله تعالى المنافقين بأن يعتبروا بما حل بالأمم من قبلهم، حيث قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٧٠﴾ [التوبة: ٧٠].

فأهل النفاق مطالبون بالاتعاظ مما أصاب الذين ذكرتهم الآية وأتتهم الرسل بالبينات، فردوها كفرًا وظلمًا؛ فكان الغضب الإلهي، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. وسياق الآية وإن كان يتحدث عن المنافقين، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالمنافقون وغيرهم في كل زمان عليهم الاعتبار.

ولم يكن الظلم وحده سببًا في الهلاك، بل والتكذيب بآيات الله ورسله أيضًا والذي حذر منه القرآن الكريم. وأمر الله تعالى

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم ٤٣٤٠، ٤/ ٢١٤. وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، ٣/ ١١٥.

بالسير في الأرض للاعتبار بمن أصابهم سخط الله وغضبه بسبب تكذيبهم الرسل، فقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١].

وكل موضع أمر فيه بالسير في الأرض، فإنه يدل على الاعتبار والحذر، أن يحل بالمخاطبين من أفعال الله مثل ما حل بالسابقين[(١)] وسمى القرطبي السير في الأرض: «سفر العبرة»[(٢)].

وسورة الشعراء جاءت آيتها السادسة تهديدًا لمن كذب الرسول صلى الله عليه وسلم قريش، ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾ [الشعراء: ٦].

ومن ثم ذكرت تكذيب الأقوام لرسلها فيما بعد[(٣)]، فأهلكهم الله بهذا التكذيب.

ويقول الله عز وجل عن عادة آل فرعون والذين من قبلهم في التكذيب بآيات الله وإهلاكهم بسبب ذلك: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: ٥٤].

ولما تشابه حال قريش، بحال آل فرعون والذين من قبلهم في التكذيب والكفر، كان تغيير حالهم جميعًا بالعذاب؛ فهم غيروا أوامر الله وشرعه، فغير الله حالهم؛ جزاءً وفاقًا لجنس عملهم. فعلى كل من يريد النجاة مما حصل للقرون السالفة عليه أن يتقي الله تعالى ويكون مع الصادقين، وألا يكون كآل فرعون والذين من قبلهم في التكذيب.

ومن أسباب الهلاك التي حذرنا القرآن منها: الترف والبطر، يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

أي: أمرنا المترفين بطاعة الله وتوحيده، وتصديق رسله واتباعهم، فخرجوا عن طاعة ربهم وعصوا أمره، فوجب عليهم عذاب الاستئصال. وأكد فعل التدمير بمصدره للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم[(٤)].

وجاءت الآية التي تلي السابقة محذرة مما أصاب القرون الأولى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧].

والله تعالى لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من عقيدة صحيحة، وعبادة مشروعة، وأخلاق حسنة، إلى ضدها؛ فإن فعلوا عاقبهم الله تعالى، بتغيير حالهم.

---

(١) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم، ١/ ١٤٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٢٢٥.
(٣) انظر: سورة الشعراء: ١٠٥، ١٢٣، ١٤١، ١٦٠، ١٧٦.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ١٨/ ١٤١.

يقول المولى عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣﴾ [الأنفال: ٥٣].

جاءت هذه الآية بين آيتين تبدأ كل منهما بقول الله سبحانه: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾عاقبهم الله بكفرهم وتكذيبهم بآيات الله، وغيروا أحوالهم من الصلاح إلى الفساد، فغير الله ما بهم من النعم إلى النقم.

وجاء الزجر الشديد لأولئك المغترين بأموالهم وأولادهم، بأنه كان من قبلكم من هو أشد منكم قوة، وأكثر أموالًا، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمرتموها أنتم، فلما عصوا رسل ربهم، وجحدوا آياته عاقبهم الله تعالى، ولم يكن لهم من دونه ولي ولا واق، ولم تغن عنهم أموالهم ولا قوتهم من الله شيئًا.

فطلب الله تعالى من هؤلاء المغترين أن يسيروا في الأرض ويعتبروا بمن سبقهم، ممن هو أكثر منهم أموالا وأشد منهم قوة.

فقال الله سبحانه: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٢١﴾ [غافر: ٢١]

ولقد أهلك الله تعالى قرى كثيرة تشابهت في جريمة بطر النعمة و كفرانها، فيقول عز من قائل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۝٥٨﴾ [القصص: ٥٨].

وأرسل الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم لأهل مكة التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان[1]، فكذبوا به، وجحدوه رغم معرفتهم بصدقه وأمانته، فأبدل الله رغدهم جوعًا، وأمنهم خوفًا.

وفي المقابل انقلب حال من اتبعوه من المؤمنين من خوف إلى أمن، ومن ضعف إلى قوة، و من قلة إلى كثرة، ومن هزيمة إلى نصر: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦].

وختم الآية بالشكر، وهذا الذي يناسب ذكر النعم وزيادتها.

ومن المنكرات الخطيرة المعلنة: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولقد قص الله علينا نبأ بني إسرائيل حينما تركوا هذا الواجب، فانتشر الفساد بينهم، فلعنهم الله، وضرب قلوب بعضهم ببعض.

فقال الله سبحانه مخبرًا عن ذلك: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ

(١) وانظر: سورة النحل: ١١٢.

﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وحذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)[(١)].

فعلى الأمة في هذا الزمان أن تحسب لنقم الله وغضبه الحساب الذي يليق، ولا تبقى شاردة في غيها وضلالها، وألا تتبع الذين ظلموا أنفسهم، بل تتبع سبيل من أناب إلى الله. وعلى تاركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اعتقادًا منهم النجاة من أذى الظلمة، أن يعلموا أن الفساد الخلقي سيصيبهم؛ والفساد الخلقي أشد وأخطر من الأذى الجسدي، فالأول يربي على الركون إلى الظلمة، والثاني يربي على التحدي والاستعلاء بالإيمان.

والمستقرئ لكتاب الله تعالى، يرى التعقيب على قصص الغابرين يدعوه إلى الصبر وأخذ العبرة. فبعد إغراق قوم نوح، يقول سبحانه: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾ [هود: ٤٩].

وتعقيبًا على هلاك ثمود، قال الله سبحانه: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥٢﴾ [النمل: ٥٢].

وكذلك الأمر بعد هلاك فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النازعات: ٢٥-٢٦].

وتعقيبًا على هلاك قوم لوط: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر: ٧٥].

وعن بدر، وبعد هلاك صناديد قريش، قال سبحانه: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝١٣﴾ [آل عمران: ١٣].

وبعد هزيمة يهود في خيبر: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢].

وطريق الأنبياء عليهم السلام محفوف بالأذى الجسدي، أما الإيمان فمقره القلب،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم ٢١٦٩، ٤/ ٤٦٨.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن». ٤/ ٤٦٨.

ولا سلطان لأحد عليه إلا الله، يقول الله سبحانه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]؛ فعلى المؤمن أن يتأسى بطريقهم عليهم السلام؛ فهو الطريق الأسلم والأقرب للنصر في الدنيا، والنجاة في الآخرة.

ثانيًا: القدوة الحسنة:

السنة أن يكون للناس إمام يؤمهم، يحاكون فعله وقوله، ويتبعون أمره، وينصرون فكره. والإمام هذا أحد نوعين -كما سماهم القرآن الكريم- أئمة يدعون إلى النار، وأئمة يهدون بأمر الله.

وأئمة الهدى حتى يستطيعوا تغيير ما أفسده الناس، ويحيلوا طريقهم المعوج إلى استقامة؛ لا بد أن يكون معهم المنهج الواضح البين، الذي يقنع الناس المضللين بأن ما هم فيه ضلال. ويبقى المنهاج جافًا حتى يتحول إلى بشر تمشي على الأرض. فكان هذا الأمر مع أنبياء الله عليهم السلام ومع الذين ربوا على أيديهم من أتباعهم المؤمنين؛ ليكونوا قدوة حسنة للناس من بعدهم في كل جيل.

والأنبياء أحسن الناس خلقًا وإيمانًا، وأعلاهم منزلة، والواجب أن يتأسى بهم الناس، وأن يتبعوهم في فعلهم وقولهم، ويتركوا الاقتداء بأئمة الكفر. وحتى يكونوا قدوة، جعل الله تعالى لهم صفات، وآتاهم بينات من الهدى، فقال سبحانه مخاطبًا النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن ذكر ثمانية عشر نبيًا ممن سبقوه[1]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

يقول الطبري: «هؤلاء القوم الذين وكلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدينه الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه، والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه والعمل بما فيه... فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم ﴿ٱقْتَدِهْ﴾ يا محمد، أي: فاعمل، وخذ به واسلكه»[2].

ويبين الإمام الرازي أن صفات الشرف وخصال الكمال هذه كانت مفرقة في الأنبياء بأجمعهم. فأيوب كان من أصحاب الصبر. وداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر. وسيدنا يوسف كان مستجمعًا لهاتين الصفتين -الصبر والشكر-. وموسى كان صاحب الشريعة القاهرة والمعجزات الظاهرة، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب زهد، وإسماعيل كان صاحب الصدق، ويونس كان صاحب التضرع. وبعد

(١) انظر: الأنعام: ٨٤-٨٦.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٥١٨-٥١٩.
وانظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٨/ ٢٧٢.

ذكرهم، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، أي: اقتد بكل هذه الصفات المفرقة فيهم؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أفضلهم[1].

ومن الصفات التي تحلى بها الأنبياء عليهم السلام، وأمرنا أن نتأسى بهم فيها، البراءة من الأعداء، وإظهار العداوة والبغضاء بيننا وبينهم أبدًا حتى يؤمنوا بالله وحده.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

فالمؤمنون عليهم التأسي بإبراهيم والذين معه في عدم الرضا بعبادة الأصنام، وأن يتشبهوا بهم في البراءة من الكفار في كل الأحوال، حتى وإن كانوا ضعفاء، أيًا كان الضعف، سواءً أكان ضعف النصرة، كما كان زمن النبي صلى الله عليه وسلم في الفترة المكية، أم ضعف الإرادة، كما هو حال مسلمي اليوم.

وأن يقتدوا بإبراهيم والذين معه في عظمة البراءة، وألا تكون على خجل، كما يصنع بعض الناس اليوم. وأن يقتدوا بإبراهيم والذين معه في الكفر بجميع المعبودات، سواءً أكان المعبود بشرًا- كعبادة الزعماء في بعض الدول- أم عبادة المؤسسات- كالتي تشرع من دون الله. وأن تستمر البراءة من ذلك أبدًا حتى يؤمنوا بالله وحده.

وعلينا أن نقتدي بإبراهيم والذين معه في خصال الخير، في عدم الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، وفي التبرؤ من حولنا وقوتنا إلى حول الله وقوته، وأن نتشبه بهم في التوكل على ربنا، وفي الإنابة إليه، فالمصير إليه.

ونقتدي بهم في مناجاة ربنا ألا يجعلنا فتنة للقوم الكافرين، وأن يغفر لنا: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الممتحنة: ٤-٥].

وأول سورة الممتحنة نزل في حاطب بن أبي بلتعة[2]، الذي والى أهل مكة في محاولة إنبائهم سير النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة، فكان التوجيه الرباني في هذه الآية إلى المؤمنين أن يقتدوا بإبراهيم والذين معه في البراءة من المشركين.

وكانت الوصية الربانية، في اتخاذ الأنبياء عليهم السلام أسوة حسنة في سورة الممتحنة نفسها، فقال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٣/ ٥٨.

(٢) انظر: لباب النقول، السيوطي، ص٢٥٦.

﴿كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦].

فالذي يقتدي بأئمة الهدى هؤلاء، هو من آمن بالله واليوم الآخر. وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، إنما تسهل على من آمن واحتسب الأجر[(١)].

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم سيد الخلق، وأكرمهم على الله تعالى، ولما كان على خلق عظيم، جاء التوجيه الرباني بتخصيصه أن يكون أسوة حسنة.

فقال الله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولكي يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة، فقد أهله الله لذلك في كل ميدان من ميادين الدين والدنيا. ففي مجال الثبات على العقيدة وعدم التنازل عنها، ثبت أمام مغريات المال والجاه والنساء التي عرضت عليه مقابل ثنيه عن الدعوة، فثبت ولم يساوم[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾. [الكافرون: ١-٦].

وفي مجال الأخلاق، كان النبي صلى الله عليه وسلم الأعلى فيها كلها، ويكفيه شرفًا أن زكى الله خلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤].

وحرف الجر يفيد الاستعلاء، فكأنه صلى الله عليه وسلم اعتلى الأخلاق كلها، وكلمة عظيم توحي بشأن هذه الأخلاق العظيمة؛ فهو صلى الله عليه وسلم صاحبها الذي امتلأت حياته بها.

وفي مجال التعامل، كان صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة. فكان باشًا مع أصحابه، محترمًا إياهم، محبًا لهم، ملبيًا حاجاتهم. وغير ذلك من مجالات الاقتداء التي يستطيع كل فرد في المجتمع -أيًا كان مركزه وعمله- أن يقتدي به صلى الله عليه وسلم، سواءٌ أكان زوجًا أم أبًا أم جارًا أم مربيًا أم قائدًا أم مجاهدًا.

وختمت صفات عباد الرحمن بدعائهم ربهم أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

قال البخاري: «أيمة نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا»[(٣)].

وصفات العباد الذين نسبهم الرحمن لنفسه هي: التواضع، ومخاطبة الجاهلين بالسلام، والدعاء، والاعتدال، في الإنفاق

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٥٦.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ١٣٠.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٨/ ١٣٩.

ولا يشركون ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، وكذلك من صفاتهم التوبة وعمل الصالحات، ولا يشهدون الزور، والإعراض عن اللغو، والإصغاء لآيات الله[1].

وختم هذه الصفات بدعاء ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ فيه إشارة إلى أن هذه الصفات هي جزء من صفات عباد الله الواجب على الناس أن يتبعوهم فيها، والتي تؤهلهم للإمامة وقيادة الناس.

واليوم يعيش المسلمون أزمة قدوات فصار جزء منهم يقتدي بمن فسدت عقائده، وساءت أخلاقه، وراج سوؤه. فصار باطن الجيل وظاهره مقلدًا للكفر، ولدعاة على أبواب جهنم. وحتى يحسن حالنا، ويسوء وجه عدونا؛ لا بد من أئمة للهدى يقتدي بهم التائهون، ويؤوب إليهم المرضى بهم يستشفون.

وأئمة الاقتداء والهدى هؤلاء، لا بد لهم من صفات يتصفون بها، وسمات تعلو باطنهم وظاهرهم، ومنها:

١. أن تتحدث عنهم أفعالهم أكثر من أقوالهم.

٢. ألا يخالف فعلهم قولهم، اقتداء بشعيب عليه السلام الذي ذكر الله قيله لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

٣. أن يكونوا على خلق عظيم، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي زكى الله أخلاقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

٤. أن يكون القدوة حرًا طليقًا من القيود المذلة، كالمهنة التي تحجبه عن قول الحق، اقتداءً بالرسل عليهم السلام الذين خاطبوا أقوامهم: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠] وهذه الآية نفسها التي تبدأ بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، والتي تم الحديث عنها سابقًا.

٥. العلم: كما أمر الله تعالى نبيه- وكل من يصلح له الخطاب- بقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فقدم العلم على التوحيد؛ إذ لا نعرف التوحيد إلا بالعلم؛ لذا كان أول ما نزل: ﴿ٱقْرَأْ﴾.

وغيرها من الصفات التي تؤهل المسلم ليكون قدوة للمتقين.

ثالثًا: إظهار الصورة المنفرة للمقلدين:

أنعم الله تعالى على الإنسان بنعم كثيرة، فقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

وعلى الإنسان أن يقوم بواجب الشكر لله

(١) انظر: سورة الفرقان: ٦٣-٧٤.

على هذه النعم، وشكرها يكون باستعمالها فيما أمر الله، فإن استعملها صاحبها في غير ما أمر الله تعالى فقد كفر هذه النعمة، وحينها يستحق الذم.

ومن النعم التي أنعم الله بها على الإنسان السمع والبصر والعقل؛ لتكون له عونًا على اتباع الحق، واجتناب الباطل، ومن عطلها عن هذه الوظيفة التي خلقت لأجلها؛ فقد شبهه القرآن الكريم بالبهائم.

فقال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فهؤلاء لهم قلوب لا يفقهون بها الخير والهدى، ولهم أعين لا يبصرون بها طريق الحق، ولهم آذان لا يسمعون بها مواعظ القرآن سماع اتعاظ. هؤلاء مثلهم كمثل الأنعام لا تفقه ما يقال لها. بينما الأنعام وهي غير مكلفة، طائعة لربها، وهي مفطورة على ذلك؛ فهي: «تبصر منافعها، وتتبع مالكها، وهم بخلاف ذلك»[(١)].

ووصفهم الله تعالى بالغفلة الكاملة، فهي خاصة بهم ﴿هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[(٢)].

إن تفضيل الله تعالى للأنعام على من أنكر حق الله تعالى في الوجود، وفي العبادة متبعًا في ذلك غيره، ومعطلًا ما وهبه الله من حواس، لهو تفضيل في غاية البشاعة والازدراء، فناسب تعطيلهم الحواس، تصويرهم البشع بأنهم أضل من الأنعام، فلو كان عندهم شيء من الإحساس والأنفة والعزة، لاهتزت مشاعرهم، وانتفضت قلوبهم الصدئة على تبعية عمياء، وجاهلية حمقاء، ولأنصت السمع للحق، ولنطق به اللسان، وعملت به الجوارح. يقول عبيد الله بن المعتمر: «لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد»[(٣)].

وقريب من آية الأعراف السابقة، آية الفرقان التي يقول تعالى فيها: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

والملاحظ أن كلتا الآيتين جاء فيهما الإضراب لزيادة الذم.

أما ارتباط الآيتين بما قبلهما، فقد جاءت آية الأعراف السابقة بعد الحديث عن الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، وآتاه الله علمًا لكنه أخلد إلى الأرض متبعًا هواه[(٤)]؛ فلما كان حاله ترك آيات الله، واتباع هواه، شبهه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٢٠٦. وانظر: نظم الدرر، البقاعي، ٣/ ١٥٩.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٧٧، نظم الدرر، البقاعي، ٣/ ١٥٩.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/ ٣١٢.
(٤) انظر: سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٩.

الله تعالى بالكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. وهذا مثل في غاية السوء، وهذا استنفار لذي الحجر؛ ليقلع عن كل عمل يوصل إلى مثل هذا الحال. أما آية الفرقان فقد سبقتها آيات تخبر عن استهزاء الكفار بالنبي صلى الله عليه وسلم.

ووصفهم إياه بالضلال، واتخاذهم الهوى إلهًا من دون الله، فكان الرد الرباني عليهم بأنهم من الجهل بمكان وأنهم أضل من الأنعام سبيلًا. يقول سعيد حوى: «إن القيام بأمر الله هو وحده الذي يطلق طاقات الإنسان كلها في طريقها الصاعد نحو الكمال، وترك أمر الله يعني إطلاق هذه الطاقات نحو الحيوانية الحرة»[1].

ولم يكتف القرآن الكريم بتشبيه الذين يتبعون آباءهم -معرضين عن داعي الله تعالى لهم باتباع ما أنزل الله- بالأنعام، بل شبههم أيضًا بالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً. وهذه الصورة منفرة من التقليد الذي لا يقوم على دليل، قال سبحانه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

والآية هذه سبقت بالآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

يقول الرازي: «ضرب لهم هذا المثل تنبيهًا للسامعين لهم إنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء، وقلة الاهتمام بالدين، فصيرهم من هذا الوجه بمنزل الأنعام، ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسرًا لقلبه، وتضييقًا لصدره، حيث صيره كالبهيمة فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد»[2].

هؤلاء المقلدون عطلوا حواسهم-التي خلقها الله لهم لينتفعوا بها-واتبعوا آباءهم مقلدين لهم دون وعي وتفكير، ولم يتبعوا الرسل معاندين لهم. فهم صم عن سماع الحق، بكمٌ عن النطق به والدعوة إليه، عميٌ عن اتباعه؛ لأجل ذلك وصفهم القرآن في سورة الأنفال: بأنهم من الدواب، وأنهم شرها.

قال الله سبحانه: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢].

ويلاحظ أن آيتي البقرة والأنفال وصفتا المقلدين بالصم والبكم وعدم العقل، وهذا الوصف يليق بهم في الدنيا إذ إنهم كذلك. أما يوم القيامة حينما يرون ما وعدهم ربهم

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم، حوى، ص٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٥/ ٨.

من النار، فإنهم يحسنون استعمال سمعهم وعقولهم؛ فيندمون ولات حين مناص.

يقول الله تعالى واصفًا حالهم هذه: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ [الملك: ١٠-١١].

وفي هذا أكبر الزجر لأولئك المقلدين، كي يتوبوا من غيهم، ويفيقوا من غفلتهم ولا يكونوا إمعات[^1] معطلين لأسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم، متبعين كل ناعق.

ويخرج عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الإمعة من زمرة العلماء والمتعلمين حينما يقول: «اغد عالمًا أو متعلمًا ولا تكونن إمعة»[^2].

ولقد صور الله تعالى الكافرين بصورة مزرية، حينما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد: ١٢].

فهم كالبهائم لا هم لهم إلا شهوة البطن والفرج، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٦].

ولئن شبه المتبعون غير ما أنزل الله، بالأنعام، فقد كان للحمار دور في التشبيه به أيضًا. فالله تعالى وصف اليهود الذين لا يلتزمون أمره بالحمار في الحقارة والبلادة والجهل، قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٥].

فالله تعالى كلف اليهود بالعمل بما في التوراة، ومن ذلك اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، إلا إنهم كتموا، وحرفوا وبدلوا، وظاهروا المشركين على المسلمين فلما كانوا كذلك، شبههم بالحمار يحمل أسفارًا، لا يدري ما يحمل ولا ينتفع بما يحمل، إنزالًا من قدرهم، وحطًا من شأنهم. والحمار يضرب به المثل في الجهل والبلادة والحقارة[^3].

والغاية من ذلك تحقير المقلد ليكون ذلك أدعى لدفعه لترك التقليد. وهذا المثل فيه ترهيب للمسلمين من أن يتهاونوا بشيء من أحكام القرآن؛ فيكونوا أكثر سوءًا من اليهود؛ ومن ثم يكونون دون الحمار؛ فرسولهم صلى الله عليه وسلم أعظم، وكتابهم أعلى.

وفي الأمة الإسلامية اليوم من يحفظ كتاب الله تعالى ويعلم ما فيه، إلا إنه يخالفه في عمله وأخلاقه وتصرفاته وتصوراته، فشابه اليهود في هذه الصفة المذمومة.

وعليه أن يعتبر ويتعظ ويعمل بما علم، كي لا يلحقه من الذم ما لحق اليهود.

[^1]: جمع إمعة وهو: الذي لا رأي له ولا عزم، فهو يتبع كل أحد، ولا يثبت على شيء. انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٣.
[^2]: إعلام الموقعين، ابن القيم، ٢/ ٢٦٨.
[^3]: انظر: اللباب في العلوم الكتاب، ابن عادل، ١٩/ ٧٦.

رابعًا: إعلان المسؤولية الفردية:

المسؤولية الفردية تعني تحمل الإنسان تبعة معتقداته وأفعاله وأقواله، في الدنيا والآخرة، ولا يشاركه أحد في ذلك. ومن عدل الله تعالى أن أرسى هذا المبدأ، فلا يحمل أحد وزر أحد.

يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

فالآية تحث المقلد على الانتباه، وعدم الانجرار وراء الناعقين دون وعي وإدراك، لأن المتبوع لن يحمل شيئًا من أثقال التابع وآثامه. والمقلد غيره على غير هدى، يتحمل تبعة تقليده، ولا يغني عنه المتبوع شيئًا، فهو أضعف من أن يدفع العذاب عن نفسه، فضلًا عن أن يدفعه عن غيره.

هذا المبدأ الرباني وردت آيات كثيرة تقره وتعلنه، وضرب الله تعالى أمثلة عدة توضحه، تمثلت في أولي العزم من الأنبياء كإبراهيم عليه السلام مع أبيه، ونوح عليه السلام مع ولده وزوجه، والنبي صلى الله عليه وسلم مع عمه؛ ليكونوا أسوة حسنة لغيرهم من المؤمنين في التبرؤ من المشركين. فإبراهيم عليه السلام خاطب أباه أنه لا يملك له من الله شيئًا، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤] فهو-على مكانته من الله تعالى- لا يستطيع أن يمنع أدنى شيء عن أبيه ﴿مِن شَيْءٍ﴾، وفي هذا إظهار لمبدأ المسؤولية الفردية عن الأعمال.

والتعبير في الآية عن الملك ﴿وَمَآ أَمْلِكُ﴾ ليظهر أن الكل ملك لله تعالى، والمرء لا يملك نفسه التي بين جنبيه، فكيف يملك غيرها ليرد عنها العذاب. وهذا فيه تحذير للمغرورين في الدنيا وتبعية أهلها ألا تعملوا إلا وفق ما أراد المالك سبحانه، لأن مخالفته تعني تحمل النتيجة من العذاب.

أما بالنسبة لمبدأ المسؤولية على مستوى البنوة، فقد قدم القرآن الكريم صورة نوح عليه السلام مع ولده الكافر الذي ناداه للنجاة من الغرق كما أخبر القرآن الكريم: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

فنوح عليه السلام أمر ولده أن يتبع سبيله، وألا يتبع سبيل الكافرين، إلا أن الابن كان مطيعًا للكافرين لا لأبيه، فكانت النتيجة أن هلك مع الذين كثر سوادهم، واتبع سبيلهم، وأطاع أمرهم من الكافرين، ولم تنفع قرابة الأبوة شيئًا، حتى مجرد المناجاة التي كانت من نوح عليه السلام لربه لم تستجب، والتي ذكرها القرآن العظيم: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾

[هود: ٤٥-٤٦].

فكان التسليم المطلق من النبي الطائع بعدها مباشرة لأمر الله، والإنابة إليه من ندائه هذا، فقال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود: ٤٧].

نوح هذا الذي هو من أولي العزم لم يستطع أن يرفع العذاب عن ابنه الذي هو من صلبه، ولم يستجب دعاوه في أكثر الناس قربًا له، فكانت الثمرة أن تحمل الولد وزر نفسه، وثمرة اختياره، وكان والده من الذين رضي الله عنهم، بينما ولده من الذين غضب الله عليهم فأهلكه معهم.

وأكد القرآن الكريم هذا النموذج في المسؤولية الفردية بين الابن إبراهيم عليه السلام وأبيه الكافر، وبين الأب نوح عليه السلام وبين ابنه الكافر، حينما جعله مبدأ عامًا بين كل ابن وأب، وبين كل أب وابن، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

كذلك كانت المسؤولية الفردية على مستوى الزوجية، ولم يغن الزوج النبي عن زوجته الكافرة شيئًا، فقال الله سبحانه عن الزوجتين الكافرتين لنوح ولوط عليهما السلام: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم: ١٠].

إن الصلة بين الزوجين صلة متينة قوية، والعلاقة بينهما علاقة حميمة، وكلًا منهما لباس للآخر، يسترها وتستره، هذه المودة لم تكن لتجدي نفعًا عند الله تعالى حتى في ظل النبوة والرسالة.

ورغم أن الزوج نبي مرسل من عند الله تعالى، إلا إنه لم يستطع أن يغني شيئًا من عذاب الله تعالى عمن عاش معها حينًا من الدهر، حينما اختارت الكفر على الإيمان، ورضيت لنفسها طريق الكافرين على طريق المؤمنين، واتبعت خطوات الشيطان، وكفرت بخالقها وعصت زوجها إذ دعاها إلى الإيمان.

فالنتيجة لم يحمل من آثامها وأثقالها شيئًا، وحصدت هي وحدها -ووحدها فقط- ثمرة غراسها السيء ﴿وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾. بينما هو النبي كانت له ثمرة غراسه الطيب رضوان الله تعالى والفوز بالجنة لطاعته ربه، ومخالفة الهوى والكافرين. يقول الله سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٧].

ويقول سبحانه: ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

كذلك الأمر كان بالنسبة لسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم حينما جمع أهل مكة وحذرهم وبين لهم حقيقة المسؤولية الفردية للأعمال، وأنه لا يغني عنهم من الله شيئًا، وأن الجميع: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥].

وأن ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧].

فقال صلى الله عليه وسلم مؤكدًا هذا المبدأ: (يا معشر قريش -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا)[1].

فالنبي صلى الله عليه وسلم على قدر كرامته عند الله تعالى، وهو أحب الخلق إليه؛ إلا إنه لا يغني عن أقرب الناس إليه شيئًا، فكيف بالأباعد عنه نسبًا ممن يدعون أنهم من أمته، ولا يهتدون بهديه، ويتبعون غيره مستبدلين بشرعه شرع غيره، هؤلاء يؤتى بهم يوم القيامة ولا يردون الحوض، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إني لكم فرط على الحوض، فإياي لا يأتين أحدكم فيذب عني كما يذب البعير الضال، فأقول: فيم هذا؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقًا)[2].

ولو أن أحدًا يملك لأحد شيئًا، لكان هذا الأمر من سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب الذي دافع عنه في أيام الدعوة الإسلامية الأولى دفاع المستميت، إلا إنه صلى الله عليه وسلم نهي عن الاستغفار لعمه أبي طالب حينما مات على الكفر وعلى ملة الآباء والأجداد.

قال الله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

وسبب النزول أنه: «لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: أي عم قل معي: لا اله إلا الله، أحاج لك به عند السله. فقال أبو جهل وابن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به على ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، رقم ٢٧٥٣، ٣/ ١٩٠-١٩١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا وصفاته، رقم ٢٢٩٥، ٤/ ١٧٩٥.

أنه عنه، فنزلت[1].

فالنهي كان للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن يستغفروا للمشركين، حتى ولو كانوا أولي قربى. هذا النهي كان قد توجه لنبيين من أولي العزم هما نوح وإبراهيم عليهما السلام، فنوح نهاه ربه أن يدعو لابنه الكافر، وإبراهيم نهاه ربه أن يستغفر لأبيه المشرك، فكان الموقف مماثلًا مع النبي صلى الله عليه وسلم. وكذلك كان النهي للمؤمنين في كل زمان أن يشفعوا للكافر ولو كان ذا قربى، لأنه حاد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

هذا الأمر وجدنا الصحابة رضوان الله عليهم يطبقونه أفضل تطبيق.

فقال الله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله يوم أحد، وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد، وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وفي علي وحمزة قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر[2].

هكذا تكون المفاصلة، وهكذا تكون النتيجة، صفين: صف إيمان لا كفر فيه، وصف كفر لا إيمان فيه، يحمل كل منهما تبعة اختياره، وثمرة زراعته، ولا يحمل أحد وزر أحد ولو كان ذا قربى. ليحذر المرء وليتنبه من غفلته وغروره، وأنه لن يحمل أحد عنه من أوزاره شيئًا؛ كي يبقى طائعًا لله وحده، مخالفًا كل ذي هوى.

ولقد ضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون في إيمانها وصبرها أمام أعتى جبابرة الأرض.

فقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١].

هذه المرأة الصابرة، رغم ضعفها الجسدي إلا إنها قوية بإيمانها، صبرت على أذى زوجها وتعذيبه، لأنها علمت أن ليس لها إلا ما سعت، وأن زوجها الكافر لن يغني عنها من الله شيئًا، ولن يدفع عنها ضرًا، فكان قرارها الراسخ أن لا عودة إلى الكفر بعد إذ هداها الله إلى الإيمان، وفي هذا عبرة للمؤمنين.

هذه النماذج، ما ذكرها القرآن على هذا المستوى -مستوى النبوة- إلا لتؤكد مبدأ المسؤولية الفردية، وأن المرء مهما علت

(١) أسباب النزول، الواحدي، ص١٧٧.
(٢) المصدر السابق، ص٢٧٨.

مكانته عند ربه، ومهما كان قريبًا من ربه، فإنه لن يستطيع أن يحمل عن أحد وزرًا ولو كان ذا قربى. فإذا كانت الأنبياء مع آبائها وأبنائها وأزواجها على هذا النحو، فكيف بمن هم أبعد من ذلك، كيف بمن اجتمعوا من أنساب شتى على الكفر والصد عن سبيل الله، والتآمر على دينه ويوم القيامة لا نسب ولا سؤال.

يقول الله سبحانه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وفي هذا بيان للناس أجمعين -في كل زمان- أن يستشعروا خطورة الموقف، وتبعة المسؤولية الشخصية حينما يتبعون غير أمر الله، ويطيعون العصاة في معصية الله، ويحادون الله ورسوله تبعًا لكبرائهم، أو لأهوائهم ومصالحهم الذاتية، حيث تنقطع الصلات ومصالح الدنيا.

فقال الله سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)﴾ [البقرة: ١٦٦].

ولقد وجد في البشرية من يتكل على فضائل الآباء، ظنًا منه أنها تنفع الأبناء، ومن هؤلاء اليهود الذين ادعوا نسبتهم إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، ولم يقتدوا بهم، ظانين أن النسب إليهم سينفعهم.

فرد الله تعالى عليهم هذا الادعاء: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾ [البقرة: ١٣٤].

فلكل ما كسب واكتسب، ولن ينفعوكم يوم القيامة.

ويزعم النصارى -حسب معتقداتهم- أن المسيح عليه السلام حمل خطايا الآخرين وكفر عنها بدمه، فجاء القرآن العظيم نافيًا هذا الاعتقاد الخاطئ، حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [النساء: ١١١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وصناديد الكفر يصدون عن سبيل الله تعالى، ويحرضون الناس على عدم اتباع الأنبياء والدعاة إلى الله، ويحثونهم على اتباع طريقتهم والعمل بمنهجهم، وتكثير سوادهم؛ لتبقى لهم القوة والغلبة، مؤملين أتباعهم بالأماني الفارغة، والوعود الكاذبة وأنهم سيحملون أوزارهم عنهم.

حتى إذا حانت لحظة الشدة -في الدنيا والآخرة- تبرءوا من أتباعهم، فكان القرآن العظيم يقص قصتهم هذه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ

﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

إن الكبار يحملون وزر إضلال الصغار ويتحملون تبعة الافتراء على الله، وسيحاسبون على جريمة إضلال الضعفاء، وللضعفاء تبعة تبعية الضالين المضلين، فكانت النتيجة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

فإعلان مبدأ المسؤولية الفردية على هذا المستوى، هو إعلان فيه التحذير الشديد من التقصير أو التهاون في شأن الطاعات والتزام أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، وألا يتكل أحد على حسنات أحد مهما كان قربه من الله تعالى.

موضوعات ذات صلة

الاتباع، القدوة





عناصر الموضوع



مفهوم التقوى

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «وقي: الواو والقاف والياء: كلمة واحدة تدل على دفع شيء بغيره، والوقاية: ما يقي الشيء. واتق الله: توقه»[1]. وقال ابن منظور: «وقي: وقاه الله وقيًا ووقاية وواقية: صانه.. ووقيت الشيء: أقيه إذا صنته وسترته عن الأذى.. وتوقى واتقى بمعنًى، وقد توقيت واتقيت الشيء وتقيته أتقيه تقًى وتقية وتقاء: حذرته. والاسم: التقوى، التاء بدل من الواو، والواو بدل من الياء»[2]. وقال القرطبي: «والأصل في التقوى: وقوى، على وزن فعلى، فقلبت الواو تاء من وقيته أقيه أي: منعته، ورجل تقي، أي: خائف، أصله: وقى، وكذلك: تقاة كانت في الأصل وقاة»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف ابن كثير التقوى فقال: «التقوى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات»[4].

ويقول ابن رجب الحنبلي: «وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه»[5].

قال البيضاوي: «والوقاية: فرط الصيانة، وهو في عرف الشرع: اسم لمن يقي نفسه مما يضره في الآخرة»[6].

قال أبو حيان في تعريف المتقي: «والمتقي في الشريعة هو الذي يقي نفسه أن يتعاطى ما توعد عليه بعقوبة من فعل أو ترك»[7].

فالتقوى في الاصطلاح: هي عبارة عن اجتناب ما نهى الله عنه، ويدخل فيه أداء ما فرضه الله على المسلم من الطاعات والواجبات.

---

(١) مقاييس اللغة ٦/ ١٣١.
(٢) معجم لسان العرب ١٥/ ٤٠١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٤١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٠٠.
(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ص١٣٨.
(٦) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٤٨.
(٧) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٣٨.

التقوى في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (و ق ي) في القرآن (٢٥٨) مرة، يخص موضوع البحث منها(٢٣٩) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٧	﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[البقرة:٢١٢]
الفعل المضارع	٥٧	﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[النساء:٧٧]
الفعل الأمر	٨٢	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾[البقرة:٢٠٦]
المصدر	١٧	﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[البقرة:١٩٧]
اسم الفاعل	٤٩	﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[البقرة:١٩٤]
اسم	٢	﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[آل عمران:٢٨]
صفة مشبهة	٣	﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾[مريم:١٣]
اسم تفضيل	٢	﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾[الليل:١٧]

وجاءت التقوى في القرآن بمعناها في اللغة، وهي: من الوقاية التي تعني: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٥٨-٧٦١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٨٨١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإيمان:

الإيمان لغة:

الإيمان في اللغة يراد به معنيان، يظهر معناهما بحسب السياق، وهما: الأمن وضده الخوف، والتصديق وضده التكذيب، والمعنيان متداخلان(١).

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى معنى لغويًا آخر للإيمان؛ وهو أن يكون الإيمان بمعنى الإقرار؛ فيقول فيه: ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار؛ لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد(٢).

الإيمان اصطلاحًا:

التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أخبر الله ورسوله عنه في القرآن والسنة، وأمر بالإيمان به؛ والانقياد له ظاهرًا وباطنًا(٣).

الصلة بين الإيمان والتقوى:

الإيمان هو التصديق بكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، والتقوى هي العمل بمقتضى هذا التصديق، فالتقوى مترتبة على الإيمان، والإيمان سبب لها.

٢ الخشية:

الخشية لغة:

قال ابن فارس: «الخاء والشين والحرف المعتل يدل على خوفٍ وذعرٍ»(٤).

الخشية اصطلاحًا:

وعرف الأصفهاني الخشية بأنها: «خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]»(٥).

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢٠٧١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٥١٨، لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٢١.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٩١، الإيمان، حقيقته، خوارمه، نواقضه، عند أهل السنة والجماعة، عبد الله بن عبدالحميد، ص١٩-٢١.

(٣) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص٤١.

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٤٨.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨٣.



وعرفها الجرجاني بأنها: «تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل، يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته، وخشية الأنبياء من هذا القبيل»[١].

الصلة بين الخشية و التقوى:

إن في الاتقاء معنى الاحتراس مما يخاف، وليس ذلك في الخشية[٢]، فالخشية مقترنة بالعلم، ففيها زيادة العلم والمعرفة بالمعبود سبحانه وتعالى فهي خوف مع تعظيم.

(١) التعريفات، الجرجاني ص ٨٦-٨٧.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٢٤٣.

أصناف المخاطبين بالتقوى

تنوعت أساليب القرآن الكريم في الأمر بالتقوى والحض عليها، فورد الأمر بالتقوى للناس أفرادًا وجماعات: مؤمنين وغير مؤمنين، كما وردت على لسان كثير من الأنبياء والأولياء، مما يشير للأهمية الكبيرة للتقوى.

١. النبي عليه السلام.

فقد أمر الله سبحانه نبيه بالتقوى فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

قال البيضاوي: «ناداه بالنبي وأمره بالتقوى؛ تعظيمًا له وتفخيمًا لشأن التقوى. والمراد: الأمر بالثبات عليه؛ ليكون مانعًا له عما نهي عنه بقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يعود بوهن في الدين»[١].

وقال ابن الجوزي: «فإن قيل: ما الفائدة في أمر الله تعالى رسوله بالتقوى، وهو سيد المتقين؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن المراد بذلك استدامة ما هو عليه. والثاني: الإكثار مما هو فيه. والثالث: أنه خطاب ووجه به، والمراد: أمته»[٢].

٢. الصحابة.

من الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فقد أمرهم الله سبحانه بالتقوى عسى أن تكون شكرًا للنعمة على نصره العظيم وقد كانوا قلة. قال ابن عطية: «أمر تعالى المؤمنين بالتقوى ورجاهم بالإنعام الذي يوجب الشكر. ويحتمل أن يكون المعنى: اتقوا الله عسى أن تكون تقواكم شكرًا على النعمة في نصرة بدر»[٣].

٣. أولو الألباب.

أمر الله أولي الألباب بالتقوى في أكثر من موضع في كتابه منها قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

يعني بذلك جل ثناؤه: واتقون يا أهل العقول والأفهام بأداء فرائضي عليكم التي أوجبتها عليكم في حجكم ومناسككم وغير ذلك من ديني الذي شرعته لكم، وخافوا عقابي باجتناب محارمي التي حرمتها عليكم؛ تنجوا بذلك مما تخافون من غضبي عليكم وعقابي، وتدركوا ما تطلبون من الفوز بجناتي. وخص -جل ذكره- الخطاب بأولي الألباب؛ لأنهم أهل التمييز بين الحق والباطل، وأهل الفكر الصحيح والمعرفة بحقائق الأشياء التي بالعقول تدرك وبالألباب تفهم، ولم يجعل لغيرهم من أهل الجهل في الخطاب بذلك حظًا؛ إذ

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٧٦.
(٢) زاد المسير ٣/ ٤٤٦.
(٣) المحرر الوجيز ص٣٥٢.

كانوا أشباحا كالأنعام، وصورا كالبهائم، بل هم أضل سبيلا من البهائم[(١)].

وقال ابن عطية رحمه الله «وخص ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ بالخطاب وإن كان الأمر يعم الكل؛ لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله، وهم قابلو أوامره والناهضون بها، وهذا على أن اللب لب التجارب وجودة النظر، وإن جعلناه لب التكليف فالنداء بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ عام لجميع المكلفين، واللب العقل»[(٢)].

٤. المؤمنون.

أكثر آيات الأمر بالتقوى موجهة للمؤمنين؛ لأن فيها جماع الخير كله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

والآيات كثيرة في ذلك؛ لأن القرآن الكريم يربط التقوى بالأوامر والنواهي والنصر والتمكين وغيرها، بصور وأشكال وأساليب مختلفة.

٥. أهل الكتاب.

وقد كانت وصية الله سبحانه لأهل الكتاب بالتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

٦. جميع الناس.

وكذلك ورد الأمر بالتقوى لجميع الناس.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

فقد ورد الأمر بالتقوى في الخطاب لجميع الناس، قال البيضاوي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب يعم بني آدم... وترتيب الأمر بالتقوى...؛ لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التي من حقها أن تخشى، والنعمة الباهرة التي توجب طاعة موليها، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه، على ما دلت عليه الآيات التي بعدها»[(٣)].

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٠١.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٢٧٤.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٣٢٩.

أساليب الأمر بالتقوى

أولًا: أسلوب الغيبة أو الخطاب:

وقد تنوعت صيغة الخطاب فاستخدم القرآن الكريم الغيبة والخطاب المباشر في الحديث عن التقوى، وكان أكثر حديث القرآن بلفظ ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ بصيغة الخطاب المباشر المفيد للأمر بالتقوى، والمرتبط بمختلف الأحكام الشرعية وغيرها.

وقد يبتدأ بالأمر بالتقوى أولًا؛ تمهيدًا للدخول في الموضوع، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وقد يأتي الأمر بالتقوى لاحقًا للأمر أو النهي عن أحكام معينة، كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وهذه الأوامر وردت بصيغة الأمر.

وقد يرد الخطاب بالتقوى بصيغة الفعل المضارع، كقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وصيغة الفعل المضارع؛ للتجدد والاستمرار.

وقد يضاف الخطاب بنسبته المباشرة إلى الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقد خص بالخطاب أولي الألباب، قال البيضاوي: «حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه، وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى، فلذلك خص أولي الألباب بهذا الخطاب»[1].

كما أنه سبحانه أضاف الأمر بالتقوى بالخطاب المباشر لذاته؛ لتربية المهابة، وتأكيد الأمر بالتقوى.

كما ترد التقوى بصيغة الغائب، كقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

سواء كان ذلك بصيغة الفعل الماضي كما ذكر في الآية، أو بصيغة الفعل المضارع، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٧٨.

٢-٣].

ثانيًا: أسلوب الحض على التقوى:

وقد ورد الحض على التقوى بألفاظ وأساليب مختلفة:

فقد يرد الحض بتحصيل التقوى لذاتها؛ لما فيها من جوامع الخير، وسعادة الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

ويراد به القيام بما يقتضيه الأمر بالتقوى. لكن لما كان الأمر غير مقدور للإنسان أن يتقي الله حق تقواه طلب من المرء أن يتقي الله حسب استطاعته. عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال: «لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ تخفيفًا على المسلمين ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦].

فنسخت الآية الأولى». لكن روي عن ابن عباس أنه قال عن آية: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أنها لم تنسخ، ولكن حق تقاته: أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله تعالى لومة لائم، ويقوموا لله سبحانه بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم[1].

المهم أن المأمور به من التقوى ما يستطيعه الإنسان؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

ثم إن التقوى هبة من الله سبحانه وتعالى، لا يملك المرء هذه الملكة إلا بتوفيق منه سبحانه، فيبذل الإنسان جهده في تحصيلها، وأهم وسيلة أن يطلب بصدق من الله تعالى أن يهب له التقوى.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

يقول سيد قطب: «فالذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء، فكافأهم الله بزيادة الهدى، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل: ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧] ...، والتقوى حالة في القلب تجعله أبدًا واجفًا من هيبة الله، شاعرًا برقابته، خائفًا من غضبه، مستطلعًا إلى رضاه، متحرجًا من أن يراه الله على هيئة أو في حالة لا يرضاها»[2].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٥.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٤.

صفات المتقين

تحدث القرآن عن صفات المتقين وسوف نتناولها فيما يأتي:

أولًا: صفات اعتقادية:

١. الإيمان بالغيب.

ورد من صفات المتقين الإيمانية أنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

والغيب: ما غاب عن الحواس، ويقابله الشهادة، أي: ما تشاهده الحواس.

ولقد نفى الله تبارك وتعالى علم الغيب عن جميع المخلوقات إلا من أراد هو أن يطلعه على الغيب بالقدر الذي يشاء. فقد نفى علم الغيب عن الإنسان وعن الجان وحتى عن الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه.

قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

والجن الذين آتاهم الله بعض القدرة، حيث كانوا يسترقون السمع نفى عنهم علم الغيب فقال: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

والإنسان محاط بالغيب المجهول الذي يقف العقل عنده عاجزًا قاصرًا. وقد أثبت القرآن علم الغيب وجعل له مفاتح لا يعلمها إلا الله تعالى، وأن علم الغيب منفي عن المخلوقات إلا ما يشاؤه الله تعالى، والإيمان بالغيب يجعل الإنسان يتجاوز ما تدركه الحواس فيتجاوز مرتبة التفكير في هذا الوجود الذي كانت فيه دلائل الوحدانية، ولهذا امتدح الله المؤمنين المتقين بأنهم الذين يؤمنون بالغيب.

فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٢ - ٤].

قال الألوسي: «واختلف الناس في المراد به هنا على أقوال شتى..، والذي يميل إليه القلب أنه ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام وهو الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره؛ لأن الإيمان المطلوب شرعًا هو ذاك»[(١)].

وفي التعبير بالفعل المضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وهو فعل يفيد الاستمرار، فإيمانهم حاضر لا يغيب وهو مستمر في نفوسهم، ولا تجدهم لحظة يفقدون إيمانهم، ولا مستلزمات إيمانهم، أو لاستحضار تلك الصورة البديعة.

وفي اقتران الإيمان بالغيب بإقام الصلاة

(١) روح المعاني، الألوسي ١/ ١١٤ .

وإيتاء الزكاة نجد أن الآيات تتحدث عن الإيمان قبل ذكر الصلاة والزكاة بعدها؛ لأن بينهما صلة: إن علاقة الصلاة بالإيمان بالغيب أنها المظهر العملي له، فالصلاة بها يستشعر الإنسان صفات الله، ويتذكر القرآن والرسل والملائكة واليوم الآخر، فالصلاة مذكرة بهذه المعاني كلها...

وأما علاقة الإنفاق بالإيمان بالغيب فذلك كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الصدقة برهان)[1].

فالإنسان الذي ينفق ماله مع حبه له وحرصه عليه لا لشيء وبدون مقابل سوى ابتغاء وجه الله فذلك دليل على إيمانه الله واليوم الآخر بشكل عملي ودقيق.

وإذا كان الإيمان بالغيب يشمل أركان الإيمان وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وقد أجملت الآية هذه القضايا بقوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ولكن كان لإيمان المتقين بكل ركن من أركان الإيمان صفة خاصة.

٢. الإيمان باليوم الآخر.

من صفات المتقين الإيمانية أنهم يؤمنون باليوم الآخر إيمانًا يقينيًا لا يخالطه أي شك أو ريبة.

ومن صفاتهم أنهم مشفقون من الساعة، فكانت لهم في الإيمان باليوم الآخر صفتان اثنتان:

الأولى: يوقنون بالآخرة.

اليقين هو الاعتقاد بالشيء من حيث لا يعتريه شبهة ولا شك، فإذا انتفت الشبهة والشك عن الشيء سمي يقينًا.

قال الراغب: «اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال: علم يقين، ولا يقال: معرفة يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم،... وقوله عز وجل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]. أي: ما قتلوه قتلًا تيقنوه، بل إنما حكموا تخمينًا ووهمًا»[2].

ومن صفات المؤمن أنه يعتقد اعتقادًا يقينًا فينبغي أن لا يخالط اعتقاده أية شبهة أو شك. وقد جعل الله الأدلة التي تورث اليقين في النفس.

قال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وامتدح الله أنبياءه وعباده الصالحين حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وذم الله الكافرين والمنافقين لعدم يقينهم فقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٢٢٣، ١/ ٢٠٣.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٥ .

﴿يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

وقال: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقد امتح الله المتقين بيقينهم بالآخرة حيث قال: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

أي: إن اعتقادهم بالآخرة لا يخالطه شك ولا ريبة، فهم يعتقدون اعتقادًا جازمًا بأمر الآخرة وأحوالها.

الثانية: مشفقون من الساعة.

الصفة الثانية التي امتدحهم الله بها هي إشفاقهم من الساعة.

قال تعالى: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨ – ٤٩].

قال الراغب في بيان معنى الإشفاق: «الشفق: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦].

والإشفاق: عناية مختلطةٌ بخوف؛ لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه، قال: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

فإذا عدي بـ(من) فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بـ(في) فمعنى العناية فيه أظهر»[1].

فمعنى أنهم من الساعة مشفقون أي: خائفون منها مع الاعتناء بأمورها.

قال أبو السعود: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩] «أي: خائفون منها بطريقة الاعتناء... وإيثار الجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه»[2].

ثانيًا: صفات المتقين الفعلية:

١. إقامة الصلاة.

وردت بعض الآيات في وصف صلاة المتقين أنهم يقيمون الصلاة.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ١ – ٣].

وورد في آية البر: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي آية أخرى أنهم يقيمون الليل بالصلاة والاستغفار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥ – ١٨].

فالمتقون يقيمون الليل بالتهجد والاستغفار.

وقبل الحديث عن قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ لابد من الحديث عن معنى إقامة الصلاة وأقوال المفسرين في

(١) المصدر السابق ص٢٦٤.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٦/ ٧٠.

معنى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣].

قال الراغب في بيان معنى القيام: «يقال: قام يقوم قيامًا فهو قائم، وجمعه: قيام... والقيام على أضرب: قيامٌ بالشخص إما بتسخير أو اختيار، وقيام للشيء هو المراعاة للشيء والحفظ له، وقيام هو على العزم على الشيء. فمن القيام بالتسخير: ﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

ومن القيام الذي هو بالاختيار: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩].

ومن المراعاة للشيء قوله: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

ومن القيام الذي هو العزم قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦].

وقوله ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة: ٥٥].

أي: يديمون فعلها ويحافظون عليها»[١].

فمعنى ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يداومون على أفعالها ويحافظون عليها.

وذكر البيضاوي معنى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ فقال: «أي: يعدلون أركانها ويحفظونها من أن يقع زيغ في أفعالها، من أقام العود إذا قومه، أو يواظبون عليها، من قامت السوق: إذا نفقت وأقمتها: إذا جعلتها نافقة.. فإنه إذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذي يرغب فيه، وإذا ضيعت كانت كالكاسد المرغوب عنه. أو يتشمرون لأدائها من غير فتور ولا توانٍ، من قولهم: قام بالأمر وأقامه إذا جد فيه وتجلد، وضده قعد عن الأمر وتقاعد. أو يؤديها، عبر عن الأداء بالإقامة؛ لاشتمالها على القيام، كما عبر عنها بالقنوت والركوع والسجود والتسبيح. والأول أظهر؛ لأنه أشهر، وإلى الحقيقة أقرب وأفيد؛ لتضمنه التنبيه على أن الحقيقة بالمدح من راعى حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن، وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال بقلبه على الله تعالى، لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون، ولذلك ذكر في سياق المدح المقيمين الصلاة، وفي معرض الذم فويل للمصلين»[٢].

٢. إيتاء الزكاة والإنفاق.

وصف الله المتقين بأنهم يؤتون الزكاة، وذكر صفة زكاتهم وإنفاقهم، ومن هذه الصفات هي: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذه الآية تبين أن المتقين يؤتون المال على حبه.

- إيتاء المال على حبه.

فهذه الصفة من صفات المتقين أنهم يؤتون المال على حبه، أي: يدفعون

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤١٧.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٥٧.

للصدقات أفضل ما عندهم من مال، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧].

يحتمل أن يكون المقصود به الزكاة المفروضة ويحتمل أن يراد به النوافل، قال البيضاوي: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

«يحتمل أن يكون المقصود منه ومن قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الزكاة المفروضة، ولكن الغرض من الأول بيان مصارفها، ومن الثاني أداؤها والحث عليها. ويحتمل أن يكون المراد بالأول نوافل الصدقات أو حقوقًا كانت في المال سوى الزكاة»(١).

وقال الألوسي: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧] «بناءً على أن المراد بما مر من إيتاء المال نوافل الصدقات. وقدمت على الفريضة؛ مبالغة في الحث عليها، أو حقوق كانت في المال غير مقدرة سوى الزكاة»(٢).

وعليه فقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧].

يحتمل أن يكون في الزكاة أو في نوافل الصدقات. وأيًا ما كانت فإنها صفة امتدح الله بها المتقين، وهي أنهم يؤتون المال على حبه.

والضمير المجرور في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧].

عائد على المال «أي: أعطى المال كائنًا على حب المال. والتقييد بقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ لبيان أفضل أنواع الصدقة»(٣).

وقال ابن كثير: «أي: أخرجه وهو محب له راغب فيه»(٤).

❁ الإنفاق في السراء والضراء.

وهناك آية أخرى وصفت إنفاق المتقين، وهي قوله تبارك وتعالى في وصف المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال الراغب في بيان معنى الإنفاق: «نفق الشيء: مضى ونفذ.. والإنفاق قد يكون في المال وغيره، وقد يكون واجبًا، وقد يكون تطوعًا»(٥).

وقال الألوسي: «والإنفاق: الإنفاد، يقال: أنفقت الشيء وأنفدته بمعنًى، والهمزة للتعدية، وأصل المادة تدل على الخروج والذهاب»(٦).

وقد حث الله تبارك وتعالى على الإنفاق وبذل المال، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

(١) المصدر السابق ١/ ٣١٣.
(٢) روح المعاني ٢/ ٤٧.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٤٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٩٧.
(٥) المفردات ص٥٠٢.
(٦) روح المعاني ١/ ١١٨.



وحث على إخراج الطيبات من الرزق، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

بين سبحانه أجر الإنفاق فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

كما بين الله تعالى أن الصدقة والإنفاق لا يذهبان بالمال، بل على العكس فهما ينميان المال أكثر.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وبهذه الصورة وامتثالًا لأمر الله تبارك وتعالى وسنة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام لبى المتقون نداء ربهم، فجادت نفوسهم بالعطاء، فكان العطاء بالنسبة لهم خيرًا من الأخذ، وقد علموا أن ما أعطوه إنما هو ذخرٌ لهم عند ربهم تبارك وتعالى، وقد أنفقوا أموالهم في سبيله لا يبتغون إلا رضاء وجهه الكريم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

أي: في اليسر والعسر.

قال أبو السعود: «في حالتي الرخاء والشدة واليسر والعسر، أو في الأحوال كلها؛ إذ الإنسان لا يخلو من مسرة أو مضرة. أي: لا يخلون في حالٍ ما بإنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير»[(١)].

وقال ابن كثير: «أي: في الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤].

والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى، والإنفاق في مراضيه، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر»[(٢)].

وقد عبر عن الإنفاق بالفعل المضارع؛ لأنه يفيد التجدد والاستمرار.

قال الألوسي: «وأما الإنفاق حيث كان أمرًا متجددًا عبر عنه بما يفيد التجدد

(١) إرشاد العقل السليم، ٣/ ٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٣٨٢.

والحدوث»[1].

بينما عبر في آية أخرى بالجملة الاسمية فقال: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٧].

وذلك أن الجملة الاسمية تفيد الثبات والاستقرار، فالجملة الأولى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ تفيد التجدد والاستمرار والتي تبين استمرار إنفاقهم وتصدقهم. والجملة الثانية: ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ تفيد المدح؛ لأنها منصوبة على المدح. وقد تم الجمع بين الجملة الفعلية والاسمية.

أما قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

فقد عبر هنا عن الشيء الذي ينفقونه بالرزق، والرزق: العطاء... وقيل: أصل الرزق الحظ. قال الراغب: «الرزق يقال للعطاء تارة -دنيويًا كان أم أخرويًا- وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة، يقال: أعطى السلطان رزق الجند، ورزقت علما»[2].

وفي الآية ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. «أسند الرزق إلى نفسه تبارك وتعالى؛ للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله، ويسمى رزقًا منه...، وقدم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم، وكأنه قال: يخصون بعض المال الحلال بالتصدق به»[3].

٣. الاستغفار.

وصف الله المتقين بأنهم يستغفرون الله تبارك وتعالى، وكانت لهم في ذلك صفات مميزة.

قال تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقال: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فالمتقون يستغفرون بالأسحار ولا يصرون على المعاصي.

❁ الاستغفار بالأسحار.

الاستغفار هو مغفرة الذنوب. وأصل الغفر: الستر والتغطية.

قال ابن منظور في لسان العرب: «وأصل الغفر: الستر والتغطية. وغفر الله ذنوبه، أي: سترها... واستغفر الله ذنبه -على حذف الحرف-: طلب منه غفره»[4].

فأصل كلمة غفر: ستر وغطى، وفي الاصطلاح: ستر الذنوب.

(١) روح المعاني ٤/ ٥٨.
(٢) المفردات ص١٩٤.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٣.
(٤) لسان العرب، ٥/ ٢٥.

والسحر: هو الوقت الذي يكون قبل طلوع الفجر.

قال الراغب في المفردات: «السحر والسحرة: اختلاط ظلام آخر الليل بضياء النهار»[1].

فوقت السحر ينتهي بطلوع الفجر. وهو آخر الليل قبيل الصبح. قال ابن كثير: «وأصح ما ورد في تحديد وقت السحر ما ثبت في الصحيحين وغيرهما... من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟**)[2]»[3].

وقد اختلف المفسرون في بيان معنى الاستغفار في الآية ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

فقال بعضهم: المراد به: الدعاء. قال ابن جرير الطبري: «اختلف أهل التأويل في القوم الذين هذه صفتهم، فقال بعضهم: هم المصلون بالأسحار.. وقال آخرون: هم المستغفرون... وقال آخرون: هم الذين يشهدون الصبح في جماعة.. وأولى هذه الأقوال قول من قال: هم السائلون ربهم أن يستر عليهم فضيحتهم بها بالأسحار، وهي جمع سحر، وأظهر معاني ذلك أن تكون مسألتهم إياه بالدعاء. وقد يحتمل أن يكون معناه: تعرضهم لمغفرته بالعمل والصلاة، غير أن أظهر معانيه ما ذكرنا من الدعاء»[4].

وقال القرطبي: «لا تناقض في ذلك فإنهم يصلون ويستغفرون»[5].

والحكمة في تخصيص وقت السحر بالدعاء والاستغفار: أنه أفضل الأوقات للعبادة والدعاء. فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟**)[6].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: «وحكمة تخصيص السحر: أن العبادة تكون حينئذ أشق على أهل البداية؛ لأنه الوقت الذي يطيب فيه النوم ويعزب الرياء، وأروح لأهل النهاية؛ لأن النفس تكون أصفى، والقلب أفرغ من الشواغل»[7].

(١) المفردات ص٢٢٦

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، رقم ٧٤٩٤، ٩/ ١٤٣، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء، رقم ١٦٩، ١/ ٥٢١ .

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٣٣ .

(٤) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠٩ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣٩ .

(٦) سبق تخريجه.

(٧) المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ٢٥٣ .

وقال القاسمي في تفسيره: «والحكمة في تخصيص الأسحار: كونه وقت غفلة الناس عن التعرض للنفحات الرحمانية والألطاف السبحانية. وعند ذلك تكون العبادة أشق، والنية خالفة، والرغبة وافرة، مع قربه -تعالى وتقدس- من عباده»[(١)].

وقال الرازي: «واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر في قوة الإيمان وفي كمال العبودية من وجوه:

الأول: أن وقت السحر يطلع نور الصبح بعد أن كانت الظلمة شاملة للكل، وبسبب طلوع نور الصبح كأن الأموات يصيرون أحياء، فهناك وقت الجود العام والفيض التام، فلا يبعد أن يكون عند طلوع صبح العالم الكبير يطلع صبح العالم الصغير وهو ظهور نور جلال الله تعالى في القلب.

والثاني: أن وقت السحر أطيب أوقات النوم، فإذا أعرض العبد عن تلك اللذة وأقبل على العبودية كانت الطاعة أكمل...»[(٢)].

وقال النسفي: «وخص الأسحار؛ لأنه وقت إجابة الدعاء، ولأنه وقت الخلوة»[(٣)].

❁ عدم الإصرار على المعصية.

قال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قال الراغب في بيان معنى الفاحشة: «الفحش والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال»[(٤)].

وقال البيضاوي: «﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ فعلة بالغة في القبح كالزنى ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بأن أذنبوا أي ذنب كان. وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة»[(٥)].

فكل تجاوز أو كل ذنب يسمى ظلمًا، والذنب سواء كان كبيرًا أم صغيرًا فإنه يسمى ظلمًا، وعليه فمعناه في الآية: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

أي: أذنبوا في حق الله تعالى، وعليه تكون الفاحشة: المعصية البالغة في القبح، والظلم: الذنب مطلقًا، كما ذكر الألوسي سابقًا.

والمتقون -إن وقع منهم ذنب سواء كان كبيرًا أو عظيمًا والتي سماها (الفاحشة) أو أذنبوا ذنبًا صغيرًا والتي سماها ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾، يسارعون ويتذكرون حق الله تعالى ويتذكرون عقابه ويتذكرون عفوه فيستغفرون الله عما وقع منهم.

ومعنى ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾: أي: تذكروا حقه

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٦٥ .
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٢٠٢ .
(٣) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٤٩ .
(٤) المفردات ص٣٧٤.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٤٣ .

العظيم ووعيده، أو ذكروا العرض عليه، أو السؤال عن الذنب يوم القيامة أو نهيه أو غفرانه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾.

قال ابن كثير في معناه: «أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه»[(١)].

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما أصر من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة)[(٢)].

قال الراغب: «الإصرار: التعقد في الذنب والتشدد فيه والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله من الصر، أي: الشد»[(٣)].

٤ـ خشية الله تعالى.

من صفات المتقين الإيمانية أنهم ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

والخشية: خوف يشوبه تعظيم.

قال الراغب: «الخشية: خوف يشوبه تعظيم. وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣]. أي: من خاف خوفًا اقتضاه معرفته بذلك من نفسه»[(٤)].

والخشية ينبغي أن تكون خالصة لله تعالى ولا يكون فيها خشية للناس.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠].

ولقد نهى رسوله أن يخشى الناس؛ إذ الخشية ينبغي أن تكون لله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وبما أن الخشية أكثر ما تكون عن علم بما يخشى منه فإن خشية الله أكثر ما تكون من خلال معرفته عز وجل بصفاته وآياته وأفعاله، فمن كان أعلم بالله تعالى كان أخشى له، لهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال الألوسي: «والمراد بالعلماء: العالمون بالله عز وجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الحميدة وسائر شئونه الجميلة، لا العارفون بالنحو والصرف مثلًا، فمدار الخشية ذلك العلم لا هذه المعرفة، فكل من كان أعلم به تعالى كان أخشى...

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٨٥.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، رقم ١٥١٤، ٢/ ٨٤.
وحسنه ابن كثير في تفسيره ١/ ٣٨٥.
(٣) المفردات ص٢٧٩.
(٤) المفردات ص١٤٩.

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أنا أخشاكم لله وأتقاكم له)[1].

ولكونه المدار ذكرت الخشية بعد ما يدل على كمال القدرة، ولهذه المناسبة فسر ابن عباس -كما أخرج عنه ابن المنذر وابن جرير- (العلماء) في الآية بالذين يعلمون أن الله تعالى على كل شيء قدير»[2].

فمعرفة الله تبارك وتعالى تورث الخشية له، والعلماء العارفون بآيات الله وصفاته أكثر خشية له. ويدخل في إطار العلماء علماء الكون والطبيعة الذين يتوصلون لمعرفة أسرار الله في خلقه. فالكون هو كتاب الله المنظور الذي يدل فيه على أن الله هو خالق هذا الكون والمتصرف فيه، حيث جعل فيه دلائل قدرته وبديع صنعه، فحث على النظر في ملكوت السموات والأرض، والتفكر في شئونهما، لذا كان العلماء الذين يتوصلون لاكتشاف بدائع صنع الله تعالى داخلون في الخشية التي خصهم الله بها، وهذا إن كانت هذه الأمور توصلهم لخشية الله تعالى.

٥. القنوت.

وصف الله المتقين بالقنوت، وهو طاعة الله عز وجل مع الخضوع له.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

قال الراغب: «القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع، وفسر بكل واحد منهما في قوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقيل: خاضعون، وقيل: طائعون، وقيل: ساكتون، ولم يعن به كل سكوت، وإنما عنى به ما قال عليه الصلاة والسلام: (إن هذه الصلاة لا يصح فيها شيءٌ من كلام الآدميين: إنما هي قرآن وتسبيح)، وعلى هذا قيل: أي الصلاة أفضل؟ فقال: (طول القنوت)، أي: الاشتغال بالعبادة ورفض كل ما سواه»[3].

وقال الألوسي: «﴿قَانِتِينَ﴾ أي: المطيعين، قاله ابن جبير، أو المداومين على الطاعة والعبادة، قاله الزجاج، أو القائمين بالواجبات، قاله القاضي»[4].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، رقم ١١١٠، ٢/ ٧٨١.
(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٩١.
(٣) المفردات ص٤١٣.
(٤) روح المعاني ٣/ ١٠٢.

وقال الألوسي عند قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: «﴿قَانِتِينَ﴾ أي: مطيعين كما هو أصل معنى القنوت عند البعض، وهو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما»[1].

فأصل معنى القنوت: هو الطاعة مع الخضوع، وإذا فسر معناه بعبارات أخرى فإنه ينطوي تحت هذا المعنى، وقد وصف الله المتقين بالقنوت، وهذا يشمل الصلاة وغيرها.

ثالثًا: صفات المتقين الخلقية والسلوكية:

١. الصبر.

وصف الله تبارك وتعالى المتقين بالصبر، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فقد وصف المتقين بالصبر، وأنهم يصبرون في كل حال، وإليك بيانها.

- الصبر في البأساء.

قال أبو حيان: «واختلف المفسرون في البأساء والضراء، فأكثرهم على أن البأساء هو الفقر»[2]، وقال الألوسي: «(البأساء): البؤس والفقر»[3]، وقال الراغب: «البؤس والبأساء في النكاية»[4].

وأصل كلمة بؤس وبأس: الشدة والمكروه، لكن ورد عن كثير من المفسرين أن المراد بها هنا: الفقر، ولا يمنع أن يراد بها كل شدة أو مكروه، ومنها الفقر.

وقضية الفقر ابتلاء من الله تبارك وتعالى لعباده، فمن صبر كان من المتقين الذين وصفهم الله وامتدحهم بالصبر على الفقر، لذلك كان الفقراء الصابرون أكرم عند الله تعالى، وكان أكثر أهل الجنة من الفقراء.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام)**[5]. وروى البخاري ومسلم

(١) المصدر السابق ٢/ ١٥٧.

(٢) البحر المحيط، ٢/ ٨.

(٣) روح المعاني ٢/ ٤٨.

(٤) المفردات ص٦٦.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ١٦/ ٣٨٣، رقم ١٠٦٥٤، والترمذي في سننه، أبواب الزهد باب ٣٨، ٤/ ٥٧٨، رقم ٢٣٥٤. قال الترمذي: حسن صحيح.

عن ابن عباس وعمران بن الحصين رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء)**(١).

❁ الصبر في الضراء.

الضراء من الضر، وهو عكس النفع، وهو سوء الحال إما في النفس أو في البدن أو في حالة ظاهرة من قلة مالٍ أو جاه أو نحوه.

وقد ورد عن المفسرين تفسير الضراء بالمرض والأسقام.

قال أبو حيان في تفسير البحر المحيط: «واختلف المفسرون في البأساء والضراء، فأكثرهم على أن البأساء هو الفقر، وأن الضراء الزمانة في الجسد، وإن اختلفت عباراتهم»(٢).

وقال الألوسي: «الضراء: السقم والوجع»(٣).

وقد يراد به كل ما يضر الإنسان من مرض أو غيره.

فما يصيب الإنسان من ضر أصابه سواء كان في بدنه أو في نفسه أو غير ذلك إنما هو ابتلاء من الله تبارك وتعالى؛ ليعلم الصابر من غير الصابر.

ففي الابتلاء في المرض تكفير للسيئات وحط للذنوب حتى يلقى الله وما عليه خطيئة من كثرة ما أصابه من البلاء.

ففي الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة)**(٤).

❁ الصبر حين البأس.

أي: في مواطن القتال عند لقاء الأعداء، وعندها يكون الصبر فريضة لازمة ويكون الفرار من الزحف من الموبقات التي حذر منها النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا ما ذكر القتال والحث عليه فإنه غالبًا يذكر الصبر، وغلبة الأعداء مقترنة بالصبر بعد إعداد العدة والتوكل على الله وإخلاص النية لله تعالى، فلا غلبة بلا صبر.

ولهذا يأمر الله المؤمنين بالقتال والثبات والصبر، فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥ - ٤٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ٨/ ١١٣، رقم ٦٥٤٦.
(٢) البحر المحيط ٢/ ٨.
(٣) روح المعاني ٢/ ٤٨.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٣/ ٢٤٨، رقم ٧٨٥٩، والترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٤/ ٦٠٢، رقم ٢٣٩٩. قال الترمذي: حسن صحيح.

ويشتد الأمر بطلب الصبر عندما تتحكم القوى والنفوس، وعندها يتبين الصابر من غيره.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحث على الثبات عند لقاء العدو، فقد روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: (يا أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)»[1].

٢. كظم الغيظ.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

والغيظ يعني: حبس النفس عند الغضب، وهو: أشد أنواع الغضب، والغضب: هيجان في الطبع.

قال الراغب في بيان معنى الغيظ: «الغيظ: أشد غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه»[2].

وقال الألوسي: «والغيظ: هيجان في الطبع عند رؤية ما ينكر»[3].

والكظم معناه: الحبس.

قال أبو السعود: «والكظم: الحبس يقال: كظم غيظه، أي: حبسه، قال المبرد: تأويله أنه كتمه على امتلائه منه، يقال: كظمت السقاء إذا ملأته وشددت عليه»[4].

والمعنى المراد: «والمتجرعين للغيظ، الممسكين عليه عند امتلاء نفوسهم منه، فلا ينقمون ممن يدخل الضرر عليهم، ولا يبدون له ما يكره، بل يصبرون على ذلك مع قدرتهم على الإنفاذ والانتقام، وهذا هو الممدوح»[5].

روى الترمذي وأبو داود عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله سبحانه وتعالى على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور ما يشاء**)[6].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو، ٤/ ٦٣، رقم ٣٠٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب كراهية تمني لقاء العدو، ٣/ ١٣٦٢، رقم ١٧٤٢.

(٢) المفردات ص٣٦٨.

(٣) روح المعاني ٤/ ٥٨.

(٤) إرشاد العقل السليم، ٢/ ٨٥.

(٥) روح المعاني ٤/ ٥٨.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من كظم غيظًا، ٤/ ٢٤٨، رقم ٤٧٧٧، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، رقم ٢٤٩٨.
قال الترمذي: حسن غريب.

فصفة حبس النفس عند الغضب وعدم الانتقام من صفات المتقين التي امتدح الله بها المتقين. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يرشد أصحابه أن لا يغضبوا، ويبين أن الشديد ليس الذي يصرع الناس، إنما الشديد هو الذي يملك نفسه ويضبطها عند الغضب. فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: **(لا تغضب)** فردد مرارًا، قال: **(لا تغضب)**[1].

وروى البخاري أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)**[2].

ورسول الهدى محمد صلى الله عليه وسلم كما كان مثالًا يحتذى في كل شيء حسن كان مثالًا في عدم الغضب وفي كظم الغيظ، فكان صلى الله عليه وسلم لا يغضب إلا لأمر يستدعي الغضب، فإنه كان لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الشريعة.

روى البخاري عن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدري رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا! فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ، فقال: **(إن منكم منفرين، فأيكم أم الناس فليوجز، فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة)**»[3].

٣. العفو.

بعد أن أخبر الله تعالى عن المتقين أنهم (الكاظمين الغيظ) فلا يظهرون غيظهم إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله تعالى، أخبر الله عنهم -إتمامًا لتلك الصفة- أنهم يعفون عن الناس.

فقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فكانت صفة العفو من صفات المتقين الراسخة فيهم.

ومعنى العفو: ترك عقوبة المذنب أو المخطىء.

قال الراغب: «عفوت عنه: قصدت إزالة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ٨/ ٢٨، رقم ٦١١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ٨/ ٢٨، رقم ٦١١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، ٤/ ٢٠١٤، رقم ٢٦٠٩.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب تخفيف الإمام في القيام، ١/ ١٤٢، رقم ٧٠٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة، ١/ ٣٤٠، رقم ٤٦٦.

ذنبه»[1].

ومعنى قوله تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أنهم يتركون عقوبة من استحقها.

قال الألوسي: «﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: المتجاوزين عن عقوبة من استحقوا مؤاخذته، إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين»[2].

وقد أمر الله تبارك وتعالى بالعفو، فقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

كما وصف الله تعالى نفسه بالعفو، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وصفة العفو صفة حميدة «لا تصدر إلا من نفس كبيرة راجحة العقل، صبرت على اعتداء الغير وأذاه... وإن مقابلة الإساءة بالإحسان تنزع من المعتدي البغضاء، وتتركه مندهشًا فيرتد غالبًا عن غيه وتنقلب بغضاؤه إلى مودة»[3].

وقد بين القرآن أن المعاملة الحسنة مع الأعداء تجعلهم ينقلبون عن عداوتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ولهذا أمر الله تعالى بالعفو ووصف به المتقين. وفي الآية: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وصف للمتقين بالجملة الاسمية التي تفيد الثبات والاستمرار وأنها صفة راسخة فيهم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر الناس تمثلًا بصفة العفو، فكان العفو شيمته صلى الله عليه وسلم، روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيًا من الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: **(اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)**»[4].

٤. الصدق.

وصف الله المتقين بالصدق حيث قال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ

(١) المفردات ص٣٣٩.
(٢) روح المعاني ٤/ ٥٨.
(٣) روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة ص٢١٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ٤/ ١٧٥، رقم ٣٤٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب غزوة أحد، ٣/ ١٤١٧، رقم ١٧٩٢.

النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

وفي آية البر بعد أن ذكر أوصاف الأبرار قال عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

ففي الآية الأولى قال: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ وهذه الصفة امتدح الله بها المتقين، وهي منصوبة بتقدير يدل على الاختصاص، أي: أخص أو أعني الصادقين.

وفي الآية الثانية -آية البر- وصف المستجمع لخصال البر بالصدق، حيث قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فقد وصف الله تعالى المستكمل لهذه الخصال بالصدق كما وصفه بالتقوى، فبين أن المتقين صادقون في جميع هذه الخصال وهي:

- الصدق في الاعتقاد، وأشار إليه بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾.
- الصدق في حسن المعاشرة، أي: الصدق في حسن معاملة الناس جميعًا، وخاصة الفقراء والمحتاجين، وإليه أشار: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾.
- الصدق مع نفسه، وذلك بتهذيبها وتعويدها على الخصال الحميدة التي تعود على نفسه بالخير، سواء كان تعامل النفس مع الله أو تعاملها مع الناس، وإليه أشار: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.

كما تم الإخبار عنهم باسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾، وهذا الاسم يستخدم للإشارة إلى البعيد؛ ليدل على أنهم متأصلون في هذه الصفة.

وفي الآية الثالثة: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

قال ابن عاشور: «الذي جاء به هو: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصدق:

القرآن... وجملة: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ صلة موصول محذوف تقديره: والذي صدق به؛ لأن المصدق غير الذي جاء بالصدق»[1]. وقال الشوكاني: «وقيل: إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله وأرشد إلى ما شرعه لعباده. واختار هذا ابن جرير، وهو الذي اختاره من هذه الأقوال»[2].

وعليه يحتمل أن يكون المعنى أن الذي جاء بالصدق هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الذي صدق به هم المؤمنون، فقد ترجموا القرآن إلى سلوك عملي، كما كان رسول صلى الله عليه وسلم عندما أخبرت عنه عائشة: «كان خلق رسول صلى الله عليه وسلم القرآن». فهؤلاء المؤمنون الذين ترجموا القرآن إلى واقع هم المتقون.

٥. الوفاء بالعهد.

قال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومعنى الوفاء بالعهد: إتمامه وافيًا بكامل حقوقه وشروطه، وعدم نقضه. ومعنى وفى وأوفى: أعطى الحق وافيًا. والعهود نوعان: عهد مع الله، وعهد مع الناس.

❁ العهد مع الله تعالى.

والمراد به: ما عاهد عليه المسلم الله من الوفاء والتكاليف والالتزامات التي شرعها، قال الراغب: «وعهد الله تارة يكون بما ركزه في عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا به بالكتاب وبالسنة ورسله، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشرع كالنذور وما يجري مجراها، وعلى هذا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾[التوبة: ٧٥]»[3].

وقد جعل الأخير عهدًا مع الله؛ لأن الإنسان يتعامل مع الله من خلال تعامله مع الناس، فلا يجوز نقض العهد؛ لأن الله أمرنا بذلك.

وأول عهد يطالب الإنسان بالوفاء به: عهده مع الله عز وجل بالإقرار له بالربوبية، وعلى نفسه بالعبودية.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولا يفي الإنسان بهذا العهد حتى يعتقد علمًا وعملًا أن الله وحده له حق الأمر والنهي، والتحليل والتحريم، فعنه يتلقى وله يطيع. ومتى أعطى المسلم حق الطاعة المطلقة، أو حق التشريع والتحليل والتحريم لأحد غيره من هيئة أو جماعة أو

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ٨ .
(٢) فتح القدير ٤/ ٢٦٣ .
(٣) المفردات ص ٣٥٠.

فرد أو مجلس فقد نكث بعهد الله وميثاقه.

ومن العهد مع الله الالتزام بالشريعة الإسلامية وتوفية حقوق الله كاملة، فإن من حق الله على عباده أن يطاع فلا يعصى. والوفاء بالالتزام بالشريعة يعني أداء الحقوق كاملة، فالصلاة تؤدى كاملة، وكما أمر تبارك وتعالى من الشروط الظاهرة والباطنة كالخشوع وغيره، وكذلك الزكاة، وكذلك كل عمل يقوم به المرء يقصد التقرب إلى الله تعالى، فإن الوفاء بالعهد يعني توفيته كاملًا غير منقوص ومراعاة حقوقه وشروطه. والوفاء بعهد الله في الجهاد يعني أن يجاهد المرء ويثبت في ذلك حتى ينال الموت في سبيل الله أو النصر على الأعداء، وعلى هذا قوله تعالى في مدح رجال من المؤمنين: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

- العهد مع الناس.

ويدخل فيه كل تعامل مع الناس. والواقع أن هذا العهد يدخل في العهد الأول؛ لأن التعامل مع الناس يعني التعامل مع الله، ولهذا لا يجوز للمسلم نقض العهد مع أي إنسان كان مسلمًا أو غير مسلم.

والوفاء بالعهد واجب سواء كان تعاملًا مع المسلمين أم مع غير المسلمين.

أ- التعامل مع المسلمين: ويدخل فيه كل عهد أو عقد يجعله الإنسان مع غيره من أمور الدنيا وغيرها، كالوفاء بالالتزامات التي يجريها الإنسان في معاملاته اليومية، في زواجه وبيعه وشرائه وشركته ومزارعته ما دامت عقوده جائزة شرعًا.

ويدخل فيه الوفاء ببيعة الخليفة، وهي أن يطاع الخليفة أو الأمير الذي اختاره الخليفة مكانه في غير معصية، لذلك حث الله ورسله على طاعة أولي الأمر، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)[1].

ب- التعامل مع غير المسلمين: ويدخل فيه العهد مع المشركين حينما كان جائزًا في أول الإسلام، والذي انتهى بنزول سورة التوبة التي تأمر بقتل المشركين أينما وجدوا. كما يدخل فيه العهد مع أهل الكتاب، حيث لا يجوز نقضه إلا إذا نقضوه أو ظهر منهم ما يشير إلى الخيانة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب، باب السمع والطاع للإمام، ٤/ ٤٩، رقم ٢٩٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ٣/ ١٤٦٩، رقم١٨٣٩.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

ومعنى ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أن يخبرهم إخبارًا ظاهرًا مكشوفًا بالنقض، ولا يناجزهم الحرب بغتة[١].

ولذلك وصف الله المتقين بالوفاء بالعهد حيث قال سبحانه: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

والمراد بالعهد هنا: ما يشمل كل الحقوق سواء كانت حقوقًا لله أو حقوقًا للناس.

مكانة التقوى

للتقوى مكانة عظيمة في الدين؛ لأن فيها سعادة الدنيا والآخرة، وقد ورد في مكانتها الكثير، منها أنها خير زاد وأجمل لباس، لذلك أوصى الله بها وصية للأولين والآخرين، وأوصى بها جميع الرسل أقوامهم. ويمكن بيانها من خلال ما يأتي:

أولًا: التقوى خير زاد:

قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وأصل الزاد من الزيادة، ومعناها: أن ينضم إلى ما عليه الشيء في نفسه شيء آخر. والزيادة قد تكون زيادة فضل، وقد تكون زيادة مذمومة، فإن كانت لا حاجة لها أو تؤدي إلى ضرر فهي مذمومة، وإن كانت زيادة فضل فهي محمودة. والزاد هو الشيء المدخر الزائد على ما يحتاج إليه في الوقت. والتزود هو أخذ الزاد[٢].

والتقوى خير زاد يتزود به.

واستخدام القرآن الكريم لفظ الزاد للتقوى للإشارة إلى استخدامها وقت الحاجة، بمعنى أن يبذل الإنسان جهده في فعل الخير وقت الرخاء؛ ليستخدمه وقت الحاجة والشدة.

---

(١) فتح القدير ٢/ ٣٢٠.

(٢) المفردات ص٢١٦.

والمرء بحاجة إلى الزاد في الدنيا والآخرة؛ فأما في الآخرة فهو أمر ظاهر؛ لأن الإنسان إذا مات انقطع عمله في الدنيا، ولن يكون له من عمله إلا ما سعى، ويبقى عمله مستمرًا في العلم الذي ينتفع به الآخرون والصدقة الجارية والولد الصالح الذي يدعو له.

وكذلك يحتاج المرء إلى التزود في الحياة الدنيا، فيبذل جهده في فعل الخير وقت الرخاء؛ ليكون عونًا له على ذلك وقت الشدة.

وفي الحديث: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)[1].

ولا يعني مفهوم التزود بالتقوى ترك زاد الدنيا، أو ترك الأخذ بأسباب الحياة، فإن هذا المفهوم خاطئ، بل إن الأخذ بأسباب الحياة من التوكل الحقيقي مطلوب. وما ورد من روايات وأسباب النزول يوضح المعنى الحقيقي لمفهوم التزود.

فكان بعض العرب يحجون ولا يتزودون من الطعام، معتبرين أن ذلك هو التوكل الحقيقي، وكانوا يقولون: كيف نحج بيت ربنا ولا يطعمنا؟ فكانوا يحجون بلا زاد، ويقولون: نحن متوكلون على الله سبحانه![2].

بل إن بعضهم كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادًا آخر فكان يتوكل بعضهم على بعض. فنزلت الآية تبين لهم خطأ هذا المفهوم، وأن التزود بالطعام لا يتنافى مع أعمال الحج، وأرشدهم للزاد الحقيقي الذي هو التقوى.

وذكر البخاري أن هذا المفهوم كان عند أهل اليمن، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]»[3].

ثانيًا: التقوى أجمل لباس يتزين به العبد:

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

واللباس اسم للشيء الذي يستر عورة الإنسان، سواء كانت مادية أو معنوية. والعورة: سوأة الإنسان، وهي كناية، وأصلها من العار. والسوأة هي كل ما يسيء

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/٥، رقم ٢٨٠٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٩٦١.

(٢) فتح القدير ٢٦٩/١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾، ١٣٣/٢، رقم ١٥٢٣.

الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية. وكني بالسوأة عن الفرج[1]؛ لأن كشف السوأة أمر مناف للفطرة.

فاللباس يستخدم لمعنى التغطية والستر، فيسمى ما يستر عورة الإنسان لباسًا، وكذا تغطية معايبه. وسمي الأزواج من الذكور والإناث لباسًا، حيث يمنع كل واحد الآخر ويكون عونًا له في ستر معايبه.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

قال أبو السعود: «وجعل كل من الرجل والمرأة لباسًا للآخر؛ لاعتناقهما واشتمال كل منهما على الآخر بالليل... أو لأن كلًّا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور»[2].

وجعل الليل لباسًا؛ لكونه يستر الناس بظلامه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

واستخدم القرآن الكريم كلمة اللباس للجوع والخوف؛ لكونه غشيهم من كل جانب.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

لذلك كان لباس التقوى أجمل لباس يلبسه المرء، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وللمفسرين في معنى (لباس التقوى) عشرة أقوال أوردها ابن الجوزي في زاد المسير، وهي:

١. السمت الحسن.
٢. العمل الصالح.
٣. الإيمان.
٤. خشية الله تعالى.
٥. الحياء.
٦. ستر العورة للصلاة.
٧. الدرع وآلات الحرب.
٨. العفاف.
٩. ما يتقى به الحر والبرد.
١٠. ما يلبسه المتقون في الآخرة خير مما يلبسه أهل الدنيا[3].

ولا مانع من إرادة الجميع. ولباس التقوى خير من الثياب؛ لأن الفاجر وإن كان حسن الثوب فهو بادي العورة.

(١) المفردات ص٢٥٣.
(٢) إرشاد العقل السليم، ١/ ٢٠١.
(٣) انظر: زاد المسير ص٤٨٩.

ثالثًا: وصية جميع الرسل لأقوامهم بالتقوى:

التقوى شعار المؤمنين ووصية الله تعالى للخلق أجمعين، وكانت هدفًا عامًا بعث من أجله الرسل، كما كانت من أهم ما أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه وأمته.

فقد أوصى الله تبارك وتعالى جميع الخلق بتقواه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وكانت التقوى من أهم ما دعا إليه الأنبياء أقوامهم. فهذا نبي الله نوح عليه السلام يدعو قومه لتقوى الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٦ - ١١٠].

وإبراهيم عليه السلام يدعو للتقوى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وكذلك موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠ - ١١].

وعيسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣].

وهود: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٤ - ١٢٦].

ولوط: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٦١ - ١٦٣].

وإلياس: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: ١٢٣ - ١٢٤].

وصالح: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٢ - ١٤٤].

وشعيب: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٧٧ - ١٧٩].

وكذلك وصف يحيى بن زكريا بالتقوى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٢ - ١٣].

فهذه نبذة عما ورد على لسان الأنبياء من التقوى تتبين فيها الأهمية البالغة للتقوى.

فضائل التقوى

للتقوى فضائل بينها القرآن الكريم للحث على التخلق بها، نبينها فيما يأتي:

أولًا: فضائل التقوى في العلاقة مع الله:

١ . معية الله تعالى.

ومعيته تعالى نوع من ولايته، فالمعية تعني التأييد والنصر.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

قال الراغب: «(مع): يقتضي الاجتماع إما في المكان، أو في الزمان، أو في المعنى.. وإما في الشرف والرتبة نحو: هما معًا في العلو، ويقتضي معنى النصرة، وأن المضاف إليه لفظ (مع) هو المنصور، نحو قوله: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].. أي: ناصرنا»[١].

فأصل هذا الحرف يقتضي الاجتماع كما يقتضي معنى النصرة.

وذهب أبو السعود إلى أن المعية تعني: «الولاية الدائمة التي لا تحوم حول صاحبها شائبة شيء من الحزن»[٢].

فالمعية أبلغ من الولاية.

والمعية لم تذكر إلا مع أصناف من المسلمين بلغوا درجةً إيمانية عالية، فقد ذكرت المعية مع المتقين والمحسنين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

وذكرت المعية مع الصابرين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

أما الولاية فهي عامة لكل المؤمنين: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وهذه المعية هي المعية الخاصة؛ لأن المعية معيتان: خاصة وعامة، فالمعية العامة لكل البشر، وهي معية ملاحظة ومراقبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

أما المعية الخاصة فهي تعني: العون والتأييد والنصر والهداية.

قال ابن كثير: « ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه، وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢].

وقوله لموسى وهارون: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم للصديق -الذي ذكره القرآن وهما في الغار-: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

(١) المفردات ص ٤٧٠ .
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٦٦ .

وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]»[١].

٢. ولاية الله تعالى.

من ثمرات التقوى أن الله تعالى يكون وليًا للمؤمنين يتولاهم بعنايته وتأييده ونصره.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

وتدل أصل كلمة الولاية على القرب، قال الألوسي: «والأولياء جمع ولي من الولي، بمعنى: القرب والدنو، يقال: ولي، أي: قرب»[٢].

وقال ابن عاشور: «والولي: الموالي، أي: المحالف والناصر. وكلها ترجع إلى معنى الولي -بسكون اللام-، وهو القرب، وهو في معنى الولي كلها قرب مجازي»[٣].

وقال الراغب: «الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعدًا، حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما. ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة، والنصرة، والاعتقاد. والولاية -بكسر الواو-: النصرة، والولاية -بفتح الواو- تولي الأمر.. وحقيقته: تولي الأمر»[٤].

فأصل كلمة الولاية تعني القرب. والولاية تعني تولي الأمر بالرعاية والعناية لأوليائه على أعدائه؛ لأنه يتولاهم بتأييده ونصره.

وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه الولي فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩].

أي: إن الله وحده هو الولي، فالولاية الحقيقية له تبارك وتعالى.

والولاية ولايتان:

- ولاية عامة لكل الناس جميعًا.
- ولاية خاصة للمؤمنين.

فالله ولي المؤمنين والكافرين من حيث التصرف في شئونهم وأرزاقهم ونصرهم أو خذلانهم.

قال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٧٣ .
(٢) روح المعاني ١١/ ١٤٦ .
(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٢١٦.
(٤) المفردات ص٥٣٣ .

﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٧٣].

أي: إن الذين اتخذوهم أولياء لا ينصرونهم في شيء فالولاية والنصرة الحقيقية من الله تعالى.

أما الولاية الخاصة فهي ولاية المؤمنين، وذلك بتأييدهم ونصرهم على عدوهم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ولهذا أمر الله تعالى المؤمنين باتخاذ الله وليهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة: ٥٥].

وبين أن النصر والغلبة والتأييد من عنده تبارك وتعالى، وأن الذين يجعلون الله وليهم ورسوله والمؤمنين هم الغالبون الظافرون. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

كما أنه تعالى يخرج أولياءه من الظلمات إلى النور: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وأنه يكفي المؤمنين أن يكون الله وليهم: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ [النساء: ٤٥].

أما الذين يتخذون من دون الله وليًا فإنهم خاسرون ولا يجدون وليًا أبدًا يرعاهم ويؤيدهم وينصرهم، لهذا نهى الله المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء لهم.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وبين أن صف الكافرين واحد، وأنهم أولياء لبعضهم البعض: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

كما بين أنه لا قيمة أبدًا لمن اتخذه الكافرون أولياء، وأنه لا يملك لغيره، بل ولا لنفسه نفعًا ولا ضرًا: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ [الرعد: ١٦].

لهذا عبر عنهم أنهم ليس لهم ولي: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

كما بين أن الولاية الحقيقية لمن لا يؤمنون هي ولاية للشيطان: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقد نفى الإيمان عن الذين يوالون الكافرين: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١].

وقد شبه الله الذين اتخذوا أولياء من دون الله بالعنكبوت عندما تتخذ بيتًا: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

وبهذا وصف المتقين بأنهم أولياؤه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣].

وقد فسر معنى الأولياء هنا بأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

قال ابن عاشور: «ودل قوله: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ على أن التقوى ملازمة لهم، أخذًا من صيغة ﴿وَكَانُواْ﴾، وأنها متجددة منهم؛ أخذًا من صيغة المضارع في قوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾»[1].

وقال أبو السعود: «فملاك أمر الولاية هو التقوى»[2].

وقال ابن عاشور: «وهذه الآية هي أقوى ما يعتمد عليه في تفسير حقيقة الولي شرعًا»[3].

وكذلك وصف الله تعالى نفسه أنه ولي المتقين، فقال جل شأنه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

فإنه إذا كان صف الظالمين واحدًا وأنهم أولياء بعضهم فإن صف المتقين صف واحد، والله وليهم جميعًا، فهو متولي أمرهم بتيسير أمورهم ونصرهم وعونهم وتأييدهم.

٣. حب الله تعالى.

تدل أصل كلمة الحب على ميل القلب إلى أمر يراه خيرًا ويستلذ به، قال الراغب: «والمحبة: إرادة ما تراه أو تظنه خيرًا، وهي ثلاثة أوجه: محبة للذة؛ كمحبة الرجل المرأة... ومحبة للنفع؛ كمحبة شيء ينتفع به... ومحبة فضل؛ كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض؛ لأجل العلم. وربما فسرت المحبة بالإرادة في نحو قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وليس كذلك، فإن المحبة أبلغ من الإرادة، وقوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

فمحبة الله تعالى للعبد إنعامه عليه، ومحبة العبد له طلب الزلفى لديه»[4].

وقد تحدث الألوسي عن المحبة ومعناها فقال: «فالمحبة لغة: ميل المتصف بها إلى أمر ملذ» ثم تكلم عن أنها يمكن توفرها في العبد حقيقة... أما محبة الله للعبد فهي من المتشابهات، فقال: «وأنت تعلم أن ذلك من المتشابه، والمذاهب فيه مشهورة»[5].

وقال البيضاوي: «ومحبة الله تعالى للعباد إرادة الهدى والتوفيق لهم في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة»[6].

---

(١) التحرير والتنوير ١١/ ٢١٧.
(٢) إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٥٩.
(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٢١٧.
(٤) المفردات ص١٠٥.
(٥) روح المعاني ٦/ ١٦٣.
(٦) أنوار التنزيل، ٢/ ١٥٥.

وذكر ابن القيم عن محبة الله لعبده فقال: «محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله صفة زائدة على رحمته وإحسانه وعطائه، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها. فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وبره أتم نصيب»[1].

وعلى كل حال فإن المحبة كما قال ابن القيم: «لا تحد بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها. ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة. وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها»[2].

وقد رسم لنا القرآن الكريم الطريق العام لنيل محبة الله تعالى، فقال جل شأنه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فإن الطريق لنيل محبة الله اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله.

وكذلك بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم الطريق لنيل محبة الله تعالى، فقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)[3].

وإذا أحب الله تعالى عبدًا من عباده فإنه يوقع له المحبة من أهل السماء وأهل الأرض. ففي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانًا فأحببه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.. وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، فيبغضه أهل السماء، ثم توضع له البغضاء في الأرض)[4].

وكذلك إذا أحب الله تعالى عبده فإنه يؤيده وينصره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته،

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٨ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ٩ .
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٢، عن أبي هريرة .
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده، ٤/ ٢٠٣٠، رقم ٢٦٣٧.

ولئن استعاذني لأعيذنه)[1].

لذلك قال الله تعالى في ذكر بعض ثمرات التقوى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

والتقوى صفة من جملة الصفات التي إن تحلى بها المرء نال حب الله تعالى، فقد ذكر القرآن أن الله يحب من اتصف بصفات معينة، وهذه الصفات هي أمهات الفضائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم: (إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي)[2].

فالتقوى صفة من الصفات التي يحب الله من اتصف بها.

٤ . رحمة الله تعالى.

ومن ثمرات التقوى نيل رحمة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

ومعنى رحمة الله تعالى لعباده هي: العطف والإنعام والإحسان والرأفة.

والله رحيم بهذا الإنسان يرعاه ويعينه في كل لحظة من لحظات حياته، ولولا رحمة الله بهذا الإنسان لما استطاع العيش ولا للحظة واحدة، إنه المخلوق الضعيف الذي يحتاج إلى الرعاية والعناية.

ورحمة الله واسعة لا تشمل الإنسان فحسب، بل تشمل كل مخلوق خلقه الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فالله تعالى هو المتصرف في شئون هذا الكون، وكل ما في الكون ملك له، والإنسان وغيره مخلوقات ضعيفة منقادون لله تعالى، ومع هذا فإن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة؛ تفضلًا وتكرمًا، وهذه نعمة عظيمة على المرء أن لا يغفل عنها.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، رقم ٢٩٦٥، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وإذا كانت رحمة الله تعالى تقتضي الإحسان والتخفيف والرأفة على هذا المخلوق الضعيف، وأنها تشمل المؤمن والكافر، إلا أن هناك رحمات خاصة يخص بها عباده المؤمنين الطائعين، وهذه الرحمة تعني: زيادة العطف والعناية والرأفة بهؤلاء المؤمنين، فالله يحيطهم برحمة خاصة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقد رسم لنا القرآن الطريق لنيل رحمة الله التي خص بها عباده، فمن هذه الطرق:

١. تلاوة القرآن الكريم والاستماع مع الإنصات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٢. إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله والرسول: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

٣. الاستغفار: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

٤. الإصلاح مع التقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

والملاحظ في هذه الآيات وغيرها أن الله تعالى يعبر عن نيل رحمته بـ (لعل) كما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وهذا يفيد الرجاء، أي: رجاء أن ترحموا. وفي هذا التعبير دلالة على أن الرحمة من الله يعطيها لمن يشاء، فلتطلب الرحمة من طرقها مع رجاء الله في نيل رحمته، أي: إن من أهم طرق الرحمة هو: رجاء الله في نيلها، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لن يدخل هو الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته. فرجاء رحمته تعالى هي أهم شيء في طلبها.

قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ولهذا نجد القرآن الكريم يحثنا كثيرًا على طلب رحمة الله وعدم القنوط من رحمته تبارك وتعالى التي وسعت كل شيء، وسعت الإنسان مهما عمل من المعاصي إذا تاب.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

والله تعالى يختص برحمته من يشاء، وقد خص بها أصنافًا من المؤمنين، ومن هؤلاء الأصناف: المتقون.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

ففي هذه الآية نجد أن من يتقي الله فإن الله يؤتيه كفلين من رحمته. وأصل الكفل: الحظ الذي فيه الكفاية، أي: يؤتكم نصيبين من رحمته.

قال ابن عاشور: «والكفل -بكسر الكاف وسكون الفاء-: النصيب، وأصله: الأجر المضاعف، أي: يؤتكم أجرين عظيمين، وكل أجر منهما هو ضعف الآخر مماثل له، فلذلك ثني كفلين»[(١)].

وقال سيد قطب: «أي: يعطكم نصيبين من رحمته، وهو تعبير عجيب، فرحمة الله لا تتجزأ، ومجرد مسها الإنسان يمنحه حقيقتها، ولكن في هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والرحمة هنا ذكرت مقابل العذاب: «قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء» ففي مقابل العذاب جاء ذكر الرحمة؛ لبيان أن الرحمة تسبق العذاب، كما ورد في الحديث القدسي: (إن رحمتي تغلب غضبي).

قال أبو السعود: «وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات. وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد»[(٣)]. وقد كانت الرحمة هنا أولًا للذين يتقون.

٥. قبول العمل.

وقبول العمل يعني: أخذه مع إعطاء الثواب عليه، أو الرضا به مع إثابة العامل.

وقد امتن الله على المؤمنين بأن أثابهم على استقامتهم بقبول أفضل أعمالهم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

ثم قال عنهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

وقبول العمل عطاء من الله تعالى، ولهذا ورد الدعاء بقبول العمل. فهذا إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام يأمرهما الله تعالى ببناء الكعبة المشرفة، فيقومان بعملهما؛ امتثالًا لأمره تبارك وتعالى، ثم يدعوان الله أن يتقبل عملهما.

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٤٢٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩٦ .
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٧٨ .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وهذه امرأة عمران تدعو الله تعالى أن يتقبل منها نذرها، فيكرمها الله تعالى بقبول نذرها.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

وهنا نقدر قيمة ما أعطى الله تعالى للمتقين من قبول العمل، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وذلك أن ابني آدم عليه السلام قربا قربانًا فقبل الله من أحدهما ولم يقبل من الآخر، فأراد الآخر قتل أخيه، فأخبره أن عدم قبوله؛ لانسلاخ نفسه من التقوى.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

قال أبو السعود: «﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لا من غيرهم، وإنما تقبل قرباني ورد قربانك؛ لما فينا من التقوى وعدمه، أي: إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلي، فلم تقتلني؟! خلا أنه لم يصرح بذلك بل سلك مسلك التعريض؛ حذرًا من تهيج غضبه، وحملًا له على التقوى، والإقلاع عما نواه»[1].

وقال الزمخشري: «إنما أتيت من قبل نفسك؛ لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلي فلم تقتلني؟ وما لك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان. وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعةً إلا من مؤمن متقٍ»[2].

٦. التقوى ميزان التفاضل بين العباد.

خصلة التقوى هي التي يتم بها التفاضل عند الله تبارك وتعالى، فأكرم الناس عنده من كان تقيًا. ولا فضل لأي إنسان، ملكًا كان أو أميرًا، صاحب مال أو جاه أو سلطان على غيره من الضعفاء والفقراء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٧ .
(٢) الكشاف ١/ ٣٣٣ .

فهو ميزان التفاضل الحقيقي الذي يضع الناس في أماكنهم، ويجعل تقييمهم حسب المبادئ والقيم والأخلاق. وليس حسب مقاييس اجتماعية براقة كاذبة خداعة. المقاييس التي تجعل من الناس طبقات يتسلط فيها القوي على الضعيف، والغني على الفقير، يتسلط فيها أصحاب الفساد في المجتمعات، فتشترى الذمم وتنتشر الرذائل.

والكرم: اسم للأخلاق والأفعال المحمودة، ويقال: لفظ الكرم لمن ينفق في المحاسن الكبيرة، كمن ينفق مالًا؛ ليجهز جيشًا في سبيل الله، أو يتحمل حمالة تحقن دماء قوم من الناس[1].

وأكرم الأفعال وأشرفها ما يقصد به وجه الله تعالى، وأشرفها التقوى، لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

يقول سيد قطب في بيان معنى الآية: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم من ذكر وأنثى... وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبًا وقبائل، إنها ليست التناحر والخصام، إنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والاخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون؛ للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات. وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله، إنما هنالك ميزان واحد تتحد به القيم، ويعرف به فضل الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.. والكريم حقًا هو الكريم عند الله»[2].

٧. التقوى طريق للعلم.

والتقوى طريق لتحصيل العلم، حيث قرن القرآن الكريم بين العلم وتقوى الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والعلم الحقيقي هو العلم الموصل إلى الهداية؛ لأن كل ذرة في هذا الكون تشهد بأن الله هو خالق هذا الكون، فمخلوقات الله تشهد على خالقها، وهذا النوع حث القرآن على النظر فيه والتفكر في شأن السماوات والأرض.

فإذا لم يكن العلم موصلًا إلى الهداية ومؤكدًا لحقيقة الإيمان بالله تبارك وتعالى، فليس هو العلم الذي دعا إليه القرآن الكريم وحث على التعلم فيه، لذلك نجد كثيرًا ممن لا تزيدهم علومهم إلا جهلًا بالحقيقة وابتعادًا عن الإيمان بالله تعالى وهم قلة، وقد قص علينا القرآن مثال الذي آتاه الله

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٤٢٩.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٤٨.

علمًا فأضله الله على علم: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

والعلم الحقيقي هو الذي يبتغي به الإنسان وجه الله، ويكون سببًا في هداية المرء وتعرفه على مخلوقات الله، فيعرف الله سبحانه وتعالى من معرفة مخلوقاته، ولهذا نجد أن القرآن الكريم يمتدح الذين يعقلون والذين يتفكرون في مخلوقاته، وينعى باللائمة على الذين لا يعقلون والذين لا يتدبرون.

ولهذا أشار القرآن إلى أن العلماء هم الذين يخشون الله حق خشيته، وقد خصهم بخشيته فقال: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

ويدخل في إطار العلماء كل من كان له علم حقيقي، سواء كانوا عالمين بالله وبصفاته وبقدرته أم بمخلوقاته وأسرار خلقه من علم بأمور الطبيعة والكون، فالكون هو كتاب الله المنظور الذي يدل على أن الله خالقه ومبدعه. والله جعل في هذا الكون دلائل قدرته وأظهر فيه بدائع صنعه، لذا كانت العلوم الكونية موصلة إلى معرفة أسرار المخلوقات الدالة على خالقها.

وعلى هذا فالعلم الحقيقي موصل إلى الهداية، ومعرف بالحقيقة الأزلية؛ حقيقة خلق الله للأشياء وقدرته وإبداعه، والعلم بهذه الصفات عطاء إلهي، فمنها ما يتوصل إليه بأسباب، ومنها ما لا يكون للوصول إليها إلا بإرادة الله تعالى، ولهذا نجد أن الله تعالى أعطى العبد الصالح -صاحب موسى عليه السلام- من العلم ما لم يعطه لموسى عليه السلام نفسه، وهو نبيه ورسوله، والذي جاء خبره في سورة الكهف، حيث قال تعالى عن العبد الصالح: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقد أوحى الله إلى موسى أن هناك عبدًا أعلم منه، وأرشده للذهاب إلى لقياه والتعلم منه[1].

وقد جعل القرآن بعض الأمور سببًا في منح شيء من علم الله لهم منها التقوى، فقد جعل القرآن التقوى سببًا من أسباب منحهم شيئًا من علمه تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ ينبئ عن أن التقوى تثمر العلم.

يقول رشيد رضا: «أي: اتقوا الله في

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٩١ .

جميع ما أمركم به ونهاكم عنه، وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم، فإنكم لولا هدايته لا تعلمون بذلك»[(١)].

ويقول سيد قطب: «ثم -وعلى عادة القرآن في إيقاظ الضمير، لا من مجرد ضغط النص- يدعو المؤمنين إلى تقوى الله في النهاية، وذكرهم بأن الله هو المتفضل عليهم، وهو الذي يعلمهم ويرشدهم، وأن تقواه تفتح قلوبهم للمعرفة وتهيء أرواحهم للتعليم؛ ليقوموا بحق هذا الإنعام بالطاعة والرضى والإذعان»[(٢)].

ويقول ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ تذكير بنعمة الإسلام الذي أخرجهم من الجهالة إلى العلم بالشريعة، ونظام العالم الذي هو أكبر العلوم وأنفعها، ووعدٌ بدوام ذلك؛ لأنه جيء فيه بالمضارع.

وفي عطفه على الأمر بالتقوى إيماء إلى أن التقوى سبب إفاضة العلوم، حتى قيل: إن الواو فيه للتعليل، أي: ليعلمكم»[(٣)].

فالتقوى سبب إفاضة العلوم على الإنسان، فإن من ابتعد عن معاصي الله تعالى ورثه علم ما لم يعلم. وهذا كما قال الإمام الشافعي[(٤)]:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصي

ثانيًا: البركة في الرزق:

ومن ثمرات التقوى: الرزق، فإن من يتق الله فينتهي عما نهى عنه، ويعمل بما أمره به، فالله يرزقه من حيث لا يحتسب.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

والرزق من القضايا التي استأثر الله بها وأعطى منها الإنسان بما يشاء تبارك وتعالى وكيف يشاء.

والله وصف نفسه بأنه هو الرزاق: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

ومعنى ذلك: أنه هو الذي خلق الأرزاق وجعل في الأحياء الباعث على اكتسابها، وخلق فيهم أسباب التمتع بها. لذا كان الرزق من الله وحده، يعطيه لمن يشاء.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

والله تبارك وتعالى قسم الرزق بين عباده فأعطى كلًا منهم بما يشاء، أعطاه لحكمة

(١) المنار، ٣/ ١٣١ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٣٧ .
(٣) التحرير والتنوير ٣/ ١١٨ .
(٤) ديوان الشافعي ص ٧٦.

يعلمها هو تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٣٦].

فمسألة بسط الرزق وتقديره تتعلق بحكمة من عند الله تبارك وتعالى فهو يوسع على من يشاء ويقدر على من يشاء، فقد يغدق على أهل الخير أو على أهل الشر، وقد يضيق عليهم، كل ذلك؛ ليبتليهم بأمرِ هذا الرزق.

وبسط الرزق وتقديره يرجع لحكمة، فيعطي الله تعالى كل إنسان بما يشاء وبالقدر الذي يكون أفضل للإنسان المؤمن، فالله تعالى يعلم من أحوال بعض المؤمنين أن قلة المال أفضل لهم حتى لا يشغلهم المال عن ربهم فيضيق عليهم. والمال في حد ذاته فتنة: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

إلا من عصمه الله تبارك وتعالى، ولهذا يضيق الله على بعض المؤمنين حتى لا تكون فتنة لهم: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧].

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

فلولا الخشية رحمة بالمؤمنين من أن يكون المال فتنة لهم لكان علامة الكافرين أن يغدق عليهم المال الكثير.

والله تبارك وتعالى جعل للزرق أسبابًا معينة وربط بها الرزق، وحث على طلب الرزق في مظانه، ومن جملة هذا الأسباب:

١ . السعي في طلب الرزق.

فقد أمر الله تعالى الإنسان أن يسعى في طلب رزقه، فقال: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للسائل: «إن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة».

وينبغي أن يكون مع السعي توكل على الله تعالى واعتماد على أنه هو مصدر الرزق، فيسعى للرزق وقلبه معلق بالرزاق يدعوه مبتغيًا منه الرزق.

قال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

لذلك كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو الله أن يرزق زوجته وولده: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

٢ . الاستقامة على هدي الله.

وقد يكون من أسباب إفاضة الرزق على العباد الاستقامة على هدي الله

تبارك وتعالى، فإن آمن بالله وعبده واتقاه واستغفره وعمل ما أمر به فإن الله يفيض عليه من النعم التي لا تعد ولا تحصى.

وكثيرًا ما يربط القرآن بين الإيمان وصلاح القلوب وبين إفاضة النعم الدنيوية، فضلًا عن الأخروية.

فقد جاء على لسان نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وقد ربط القرآن في أكثر من موطن بين التقوى وبين إفاضة النعم، فقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

ربط فيه بين التقوى وبين إفاضة النعم الدنيوية.

والحديث وإن كان في معرض الكلام عن أحكام الطلاق إلا أن الآية عامة ويندرج فيه أمور الطلاق.

قال الألوسي: «وجوز أن يكون اعتراضًا جيء به على نهج الاستطراد عند ذكر قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ [الطلاق: ٢]. وهو أولى؛ لعموم الفائدة»[1].

ومعنى قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ «أي: من جهة لا تخطر بباله»[2].

فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجًا مما يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فيدفع عنهم ما يضرهم، ويجلب لهم ما يحتاجون إليه، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللًا فليستغفر الله وليتب إليه.

ثالثًا: غفران الذنوب وتكفير السيئات:

ومن ثمرات التقوى أن الله يغفر ذنوب المتقين، وذلك أن الإنسان لابد له من الخطأ والذنب، والله تعالى وعد المتقين بمغفرة الذنوب، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

ومعنى غفران الذنوب هو كما قال الراغب: «أن يصون العبد من أن يمسه العذاب»[3].

وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية.

والله تعالى يغفر ذنوب المتقين، أي: يسترها ولا يحاسبهم عليها. قال ابن عاشور:

(١) روح المعاني ٢٨/ ١٣٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٠ .

(٣) المفردات ص٣٦٢ .

«وغفران الذنوب جزاء على التقوى؛ لأن عمود التقوى اجتناب الكبائر، وقد غفر الله للناس الصغائر باجتناب الكبائر، وغفر لهم الكبائر بالتوبة»[1].

ويقول سيد قطب: «﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. فالإنسان إنسانٌ مهما وهب من النور، إنسانٌ يقصر حتى لو عرف الطريق، إنسانٌ يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله»[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

فليس الأجر على التقوى تكفير السيئات فحسب، بل زيادة في الأجر، فإن الله يضاعف الحسنة إلى سبعمائة ضعف أو أكثر.

أما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩].

فقد جمع هنا بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب مما يدل على اختلافهما.

قال ابن عاشور: «والتقوى تشمل التوبة، فتكفير السيئات يصح أن يكون المراد به تكفير السيئات الفارطة التي تعقبها التقوى. ومفعول ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ محذوف، وهو ما يستحق الغفران وذلك هو الذنب، ويتعين أن يحمل على نوع من الذنوب، وهو الصغائر التي عبر عنها باللمم، ويجوز أن يكون العكس بأن يراد بالسيئات الصغائر وبالمغفرة مغفرة الكبائر بالتوبة المعقبة لها.

وقيل: التكفير: الستر في الدنيا، والغفران: عدم المؤاخذة بها في الآخرة»[3].

وهذا الأخير قاله الألوسي حيث قال: «﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: يسترها في الدنيا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالتجاوز عنها في الأخرى، فلا تكرار»[4].

رابعًا: تيسير الأمور وتفريج الهموم:

ومن ثمرات التقوى أن الله يجعل أمور المتقين ميسرة، ويخرجهم من الضيق الذي يعانون منه، ويصلح لهم أعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

فمن كان في ضيق أو تعسر عليه أمر وأراد تيسير أموره فعليه بتقوى الله تعالى. واليسر هو جعل الأمور سهلة غير معقدة، ولا ضيق فيها، يضاده: العسر، الذي هو تضييق الأمور وجعلها معقدة غير ميسرة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠]. أي: سهل خروجه.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٢٣.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩٦.
(٣) التحرير والتنوير ٩/ ٣٢٧.
(٤) روح المعاني ٩/ ١٩٦.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

أي: سهل غير صعب، وكذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

واليسر نعمة من الله تعالى يمن بها على عباده المؤمنين المتقين، ولهذا عندما كلف الله موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون، طلب موسى من الله تعالى أن يجعل أمره سهلًا يسيرًا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٥ - ٢٦].

فتيسير الأمور نعمة كبرى يمن الله بها على عباده.

يقول سيد قطب: «واليسر في الأمر غاية ما يرجوه إنسان، وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده. فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيق. يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره، وينالها بيسر في حرفته وعمله، ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها»[1].

والعسر -الذي هو ضيق في الأمور سواء كان في المعيشة أو غيرها-؛ ابتلاء من الله تعالى يبتلي به العباد؛ ليعلم الصابر من غيره. وقد امتن الله على عباده بأنه رحيم بهم لم يجعل أمورهم كلها في عسر وضيق، بل جعل الفرج من شدة الضيق.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ - ٦].

فقد جعل الله تعالى مع كل عسر يسرًا، فإن العبد قد يشتد عليه أمرٌ ما، ولكن الله جعل مع كل عسر يسرًا. وجاء في الآية تكرار ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، ليؤكد هذا الأمر، وجاء اليسر منونًا بينما العسر معرفًا؛ لتفخيم أمر اليسر. وجعل بعضهم اليسر يسران أخذًا من الآية، وحمله بعضهم على يسر الدنيا ويسر الآخرة[2].

فالله جعل اليسر ملازمًا للعسر، وقد عبر عنه بالمعية مع العسر؛ للدلالة على ملازمته الأكيدة والتامة. وفي هذا حث لمن أصيب بالعسر أن يصبر على العسر فإن اليسر معه.

فمن العسر ما يصيب الإنسان من ضيق في أمر معيشته، فإن على المرء أن يصبر ويحتسب ذلك عند الله تعالى؛ لأنه فيه ابتلاء، كما أن الفرج ملازم لهذا الضيق.

ومن العسر ما يصيب الإنسان من ضر في بدنه، فعلى المرء الصبر على ذلك؛ فإن الفرج لابد آتيه، وهذا ما حصل لنبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام فصبر واحتسب، فمن الله عليه بالشفاء، وأخرجه من هذا الضيق الذي عاناه.

وهذا نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام يقع في الضيق فيسجن، ولكنه صبر واحتسب، فكان أن من الله عليه بالفرج

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٠٢.

(٢) انظر: روح المعاني ٣٠/ ١٧٠.

والخروج من الضيق.

ومن العسر ما يصيب الأنبياء، وكذلك الدعاة من عدم استجابة الناس للدعوة الإلهية، فيصبرون، ثم يأتيهم الفرج والخروج من ذلك الضيق.

والخروج من الضيق والعسر إما أن يكون في الدنيا أو في الآخرة، فيكون في الدنيا بتفريج الأمور وقلبها من الشدة إلى اليسر، وهذا ما حصل ليوسف عليه السلام عندما خرج من السجن وجعله الملك أمينًا للخزائن، وكذلك حصل لأيوب حينما برأه الله ووهب له أهله ومثلهم معهم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

وقد لا يكون التفريج في الدنيا، فيكون في الآخرة بأن يثيبه الله تعالى عليه في الآخرة بالثواب العظيم.

ولكن الله تعالى جعل بعض الأمور تزيد في تسهيل الأمور والخروج من الضيق الذي يعانيه المرء، ألا وهي التقوى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

خامسًا: النصر والتمكين:

من أهم عوامل النصر للمسلمين التقوى؛ لأن المسلمين لا يتغلبون على أعدائهم بمجرد العدد والعدة، بل لابد من طاعتهم لله تبارك وتعالى، لذا كانت التقوى من أهم المواصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المجاهدون في سبيل الله؛ لتحقيق النصر.

وكثيرًا ما يتم التعبير عن المؤمنين -في سياق القتال والجهاد- بالمتقين، وذلك؛ إبرازًا لصفة التقوى وأهميتها، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

فهذه المعية ليست خاصة بصنف من المؤمنين وهم المتقون، ولكنها عامة لكل المؤمنين، وقد عبر عنهم بالمتقين؛ إبرازًا وتأكيدًا لأهمية هذا الوصف في هذا الجانب وهو القتال في سبيل الله.

قال أبو السعود: «ووضع الظاهر موضع الضمير؛ للتنصيص على أن الإيمان والقتال على الوجه المذكور من باب التقوى، والشهادة بكونهم من زمرة المتقين»[(١)].

أي: إنه قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] ولم يقل: إن الله معكم.

وقال الألوسي: «وإنما وضع المظهر موضع المضمر؛ مدحًا لهم بالتقوى، وحثًا للقاصرين على ذلك، وإيذانًا بأنه المدار في

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١١٢.

النصر»[1].

وفي سورة التوبة: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

والمعنى: واعلموا أن الله معكم، ولكنه جعل معيته للمتقين؛ إبرازًا لهذه الصفة، كأنها صارت مثل الشرط، كما قال ابن كثير: «واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه»[2].

وفي سورة محمد يتحدث عن القتال فيذكر الجنة التي أعدها الله للمؤمنين فيقول: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥].

فيبرز صفة التقوى؛ لأهميتها في هذا المجال.

ومن أهم واجبات المؤمن في المعركة الصبر في مواطن القتال، فلا نصر بلا صبر. وكثيرًا ما تحدث القرآن عن الصبر وقرنه بالتقوى، فإن من تمسك بالصبر والتقوى كان في مأمن من كيد الأعداء وكانت له العاقبة والنصر.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

كما يبين تبارك وتعالى أنه لابد من الصبر والمصابرة والمرابطة مع اقترانهما بالتقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقد بين الله تعالى أن المؤمنين في غزوة أحد لو أنهم صبروا واتقوا ربهم لأمدهم بالملائكة ونصرهم على أعدائهم.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

فلابد من الصبر في المعركة واقترانه بالتقوى حتى يكون النصر والتمكين للمؤمنين المتقين. لذلك نجد في مواطن كثيرة يعقب عليها القرآن بقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

قال أبو السعود: «﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: لأهل التقوى، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ تنبيهًا على أن ملاك الأمر هو التقوى»[3].

وكذلك نجد أن القرآن الكريم يمتن على المؤمنين بالنصر في غزوة بدر ويطلب منهم أن يشكروا الله على هذا النصر، طلب منهم أن يشكروه بالتقوى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ

(١) روح المعاني ١٠/ ٩٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٨٤.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٥١.

﴿بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فإن في التقوى شكرًا له على النصر، وحتى يدوم لهم النصر فلابد من التقوى.

فالقرآن يلوح دومًا بالتقوى في مجال الجهاد وفي المعركة، فلابد من ملازمتها للمجاهد في سبيل الله تعالى، وأنه بقدر تقوى المؤمنين يعطيهم النصر، وبقدر ابتعادهم عن التقوى يسلط عليهم عدوهم كما حصل يوم حنين عندما أعجب البعض بكثرتهم.

عاقبة التقوى وآثارها

بين الله سبحانه وتعالى عاقبة التقوى وآثارها في القرآن الكريم، وسوف نتناول ذلك فيما يأتي:

أولًا: عاقبة التقوى في الدنيا وآثرها على الفرد والمجتمع:

بين الله تبارك وتعالى أن العاقبة الحسنى للتقوى والمتقين.

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

فقد أمر الله تبارك وتعالى بالتقوى وتحصيل مبادئها وترك الالتفات إلى ما سواها؛ لأن العاقبة والنتيجة الحسنى للتقوى، سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة.

وأصل العقب هو مؤخر الرجل، وخص العقب والعقبى بالثواب، وكذلك العاقبة[١]، أي: الثواب الحسن للتقوى، مما يدل على أن التقوى هي ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير[٢].

فالتقوى سبيل المؤمنين، وخلق الأنبياء والمرسلين... ووصية الله تعالى لعباده الأولين والآخرين. يقول القرطبي: «التقوى

(١) المفردات، الراغب ص٣٤٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٩٥.

فيها جماع الخير كله، وهي وصية الله في الأولين والآخرين، وهي خير ما يستفيده الإنسان»[(١)].

ويقول العلامة الفيروزآبادي عن التقوى: «لو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم للأجر وأجل في العبودية، وأعظم في القدر، وأولى في الحال، وأنجح في المآل من هذه الخصلة لكان الله سبحان أمر بها عباده، وأوصى خواصه بذلك؛ لكمال حكمته ورحمته.

فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة جميع الأولين والآخرين من عباده، واقتصر عليها، علمنا أنها الغاية التي لا متجاوز عنها ولا مقتصر دونها. وأنه عز وجل قد جمع كل محض نصحٍ ودلالةٍ وإرشاد وسنة وتأديب وتعليم وتهذيب في هذه الوصية الواحدة»[(٢)].

يقول سيد قطب: «فالإنسان هو الرابح بالعبادة في دنياه وأخراه، يعبد فيرضى ويطمئن ويستريح، ويعبد، فيجزى بعد ذلك الجزاء الأوفى، والله غني عن العالمين»[(٣)].

لذلك فإن للتقوى أثرًا عظيمًا على حياة الناس:

فالفرد التقي يجمع كل صفات الخير وينال كل أسباب السعادة الدنيوية، من الرزق والعلم وراحة البال، وكل ما يسعد الإنسان في حياته، يسلم أمره لله في كل شأنه من شئون حياته، ويعلم علم اليقين أن الله الذي يعلم السر وأخفى متكفل به.

والمجاهد في سبيل الله يدرك تمام الإدراك بأنه لو اتقى الله حق تقواه فلابد أن ينصره الله على عدوه، وإن لم يظهر نصره فلخلل في تقواه، إلا أن العاقبة الحسنى في الدنيا للمتقين.

والمجتمع المسلم التقي الذي يؤمن أن في التقوى خيره وما يسعده، فيظهر أثر التقوى في سلوك ذلك المجتمع، وتجد التكافل في أبلغ صوره من التكافل بين الأفراد، وسد حاجة بعضهم لبعض، ويظهر في المجتمع أثر التعاون والإحسان للمحتاج، كما يظهر أثر الإيثار بين الناس، وكرائم الأخلاق، من الصدق والإحسان وكظم الغيظ والعفو عن الناس.

لذلك فإن كان بين العباد فرد فاضل ومجتمع فاضل ومدينة فاضلة فهو مجتمع التقوى والمتقين.

وهذه المثالية لم توجد في مجتمع آخر، كما وجدت في مجتمع المسلمين الأتقياء، لقد وصل الناس في زمن من تاريخ المسلمين لأن ينادى في الشوارع بالصدقات إذا كان هناك أحد يستحقها فلا يجدون، والفرد يتعلم العلم في جميع

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٦٢ .
(٢) بصائر ذوي التميز ٢/ ١١٦ .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٥٧ .

مراحل حياته وهو مكفول في كل مراحل طلبه للعلم من خلال الأوقاف الكثيرة التي تنفق على طلبة العلم، ولم يعد عند القضاء إلا مسائل معدودة يختلف فيها الناس، ومثل ذلك وغيره كثير.

ثانيًا: عاقبة التقوى في الآخرة:

للمتقين في الحياة الآخرة شأن عظيم، ومهما كان أمرهم في الحياة الدنيا فإنهم في الآخرة أفضل مقامًا وأجرًا.

وقد بين لنا القرآن الكريم أن الدار التي يقيم فيها المتقون في الآخرة أفضل منها في الدنيا، فإنه بقدر ما أعطاهم من ثمرات على التقوى في الدنيا فإنه يعطيهم أفضل منها في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وكذلك يكون الجزاء في الآخرة أفضل، قال تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقد أكرم الله المتقين إكرامًا خاصًا في كل مشهد من مشاهد الآخرة، إليك بيانها:

١ . عند الوفاة.

يبين القرآن الكريم مشهد المؤمنين المتقين عندما تقبض الملائكة أرواحهم، وكيف تتلقاهم الملائكة بطيب وسرور بالغ وهم يزفون تلك الروح إلى جنة الخلد.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٠ - ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي: طاهرين من دنس الشرك والمعاصي.

قال الراغب: «وأصل الطيب: ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس...، والطيب من الإنسان من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال، وإياهم قصد بقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٠]»[1].

(١) المفردات ص٣٠٨.

فالملائكة تتوفى المؤمنين حال كونهم طيبي النفوس، أي: طاهرين من دنس الشرك والمعاصي، وقيل: «فرحين طيبي النفوس ببشارة الملائكة إياهم بالجنة، أو طيبين بقبض أرواحهم؛ لتوجه نفسهم بالكلية إلى جانب القدس»[1].

فإن النفس المؤمنة تكون طيبة فرحة بلقاء ربها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

٢ . يحشر المتقون حشر تكريم.

فإذا كان المجرمون يحشرون على وجوههم صمًا وبكمًا وعميًا فإن المتقين يحشرون حشر تكريم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

قال ابن عاشور: «أي: حشر الوفود إلى الملوك، فإن الوفود يكونون مكرمين»[2].

وقال ابن كثير: «إنه يحشرهم يوم القيامة وفدًا، والوفد: هم القادمون ركبانًا، ومنه الوفود»[3].

وقال الألوسي: «أي: ركبانًا... وأصل الوفد جمع وافد، كالوفود والأوفاد والوفد، من وفد إليه وعليه وفدًا ووفودًا ووفادة وإفادة: قدم وورد.. وقال الراغب: الوفد والوفود هم الذين يقدمون على الملوك مستنجزين الحوائج.. وهذا المعنى الذي ذكره هو المشهور، ومن هنا قيل: إن لفظة الوفد مشعرة بالإكرام والتبجيل، حيث آذنت بتشبيه حالة المتقين بحالة وفود الملوك، وليس المراد حقيقة الوفادة من سائر الحيثيات؛ لأنها تتضمن الانصراف من الموفود عليه، والمتقون مقيمون أبدًا في ثواب ربهم عز وجل. والكلام على تقدير مضاف، أي: إلى كرامة الرحمن أو ثوابه وهو الجنة أو إلى دار كرامته أو نحو ذلك...، وكان الظاهر بأن يقال: يوم نحشر المتقين إلينا، إلا أنه اختير الرحمن؛ إيذانًا بأنهم يجمعون من أماكن متفرقة وأقطار شاسعة إلى من يرحمهم»[4].

٣ . عند اجتياز الصراط.

وبعد بعث الناس وحشرهم يأتي الحساب، فيعطى كل إنسان كتابه بيمينه أو بشماله، ثم يمرون على الصراط.

والصراط جسر على جهنم يمر عليه الناس مؤمنون وكافرون، فيسقط في النار الكافرون ومن قضي عليه بالعذاب، بينما ينجي الله المؤمنين المتقين من الوقوع في النار.

وقد وردت روايات في وصف الصراط بأنه أحد من السيف وأدق من الشعر.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١١١ .
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ١٦٨ .
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٣٤ .
(٤) روح المعاني ١٦/ ١٣٦ .

وعلى هذا الصراط يعبر المؤمنون المتقون، ولكن سرعة عبورهم على حسب أعمالهم، وذلك أن المتقين يمرون فلا يقعون، وعندها ينجيهم الله برحمته من الوقوع في جهنم.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢].

واختلف المفسرون في المراد بالورود، فقال بعضهم: يراد بورود النار: دخولها، فيدخلها المؤمنون، ولكنها تكون عليهم بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم عليه السلام. وقال آخرون: إن المراد بالورود: المرور عليها من غير دخول.

٤ . عند دخول الجنة.

وأول ما نلاحظه في الآيات من دخول المتقين الجنة: أن المتقين قبل دخولهم الجنة فإن الجنة تقرب لهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠].

ومعنى الإزلاف: التقريب، أي: قربت الجنة للمتقين.

قال أبو السعود: «أي: قربت الجنة للمتقين عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم المحشورون إليها»[1].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢١٥.

وقال ابن عاشور: «والمعنى أن المتقين يجدون الجنة حاضرة فلا يتجشمون مشقة السوق إليها»[2].

بينما قال عن الضالين المجرمين: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

«أي: جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأحوال الهائلة، ويتحسرون على أنهم المسوقون إليها»[3].

وكذلك فإن المتقين يصلون إلى الجنة فيجدون أن الأبواب قد فتحت لهم وأن خزنة الجنة واقفة عند باب الجنة؛ لاستقبالهم.

أما عن استقبال الملائكة لهم وكيفيته فقد قال الله فيه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

فالملائكة تستقبلهم بالسلام قائلين لهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ويبينون لهم سبب هذا الدخول وهذا الاستقبال بقولهم: ﴿طِبْتُمْ﴾ أي: طبتم من دنس المعاصي والآثام، والتطيب هو التطهير، أي: تطهرتم من المعاصي والشرك، قال سيد قطب: «فهو الاستقبال الطيب والثناء المستحب. وبيان السبب ﴿طِبْتُمْ﴾ وتطهرتم، كنتم طيبين، وجئتم طيبين»[4].

وقال الألوسي: ﴿طِبْتُمْ﴾ أي: من

(٢) التحرير والتنوير ١٩/ ١٥١.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٩/ ١٠١.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٦٣.

دنس المعاصي، وقيل: طبتم نفسًا بما أتيح لكم من النعيم المقيم، والأول مروي عن مجاهد، وهو الأظهر»[1].

وقال أبو حيان: «طبتم أي: أعمالًا ومعتقدًا ومستقرًا أو جزاءً»[2].

فالملائكة تستقبل المتقين مسلمة عليهم كما ذكر في سورة (ق): ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [٣٤].

وبعد دخولهم إلى الجنة واستقبال الملائكة لهم يتوجه المتقون إلى ربهم بالحمد والشكر على هذه النعمة العظيمة: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

والمراد بالأرض: أرض الجنة، قال ابن كثير: «أي: أرض الجنة»[3].

وقال الزمخشري: «﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه واتخذوه مقرًا ومتبوأ، وقد أورثوها، أي: ملكوها وجعلوا ملوكها، وأطلق تصرفهم فيها كما يشاءون تشبيهًا؛ بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه وذهابه في إنفاقه طولًا وعرضًا.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿حَيۡثُ نَشَآءُ﴾؟ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره؟

قلت: يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره»[4].

(١) روح المعاني ٢٤/ ٣٤.
(٢) البحر المحيط، ٧/ ٤٤٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٦٩.
(٤) الكشاف ٣/ ٣٥٨.

موضوعات ذات صلة:

الإحسان، الإيمان، البر، الخشية





عناصر الموضوع



مفهوم التمكين

أولًا: المعنى اللغوي:

مشتق من تمكن يتمكن تمكنًا فهو متمكن، يقال: تمكن الشخص بالمكان: أي: استقر فيه ورسخ، يقال: مكانك أيها اللص: أي: اثبت في مكانك، وتمكنت من الأمر، أي: صار عندي سهلًا، وتمكن الشخص من الأمر، أي: أصبح ذا قدرة عليه أو ظفر به، وتمكن عند الناس، أي: علا شأنه عندهم[(١)].

نستدل مما سبق أن التمكين في اللغة يدل على معاني القوة، والقدرة، والاستقرار، والعلو، وعلى ذلك يكون المراد به لغة: إعطاء ما يصح به الفعل من الآلات والأدوات، وإزالة ما يمنع هذا الفعل[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يرى الخازن أن التمكين: «هو أن لا ينازع الممكن منازع فيما يراه ويختاره»[(٣)].

ويرى ابن عرفة: «التمكين هو القدرة على الفعل»[(٤)].

وقد سئل الإمام الشافعي رحمه الله يومًا: أيٌّ أفضل الصبر أو المحنة، أو التمكين؟ فقال الشافعي رحمه الله: «التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتحن صبر، وإذا صبر مكن، ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه، وامتحن سليمان عليه السلام، ثم مكنه، وآتاه ملكًا، والتمكن أفضل الدرجات»[(٥)].

واستنادًا لما سبق يمكن القول بأن التمكين اصطلاحًا: هو منزلة رفيعة يهبها الله سبحانه وتعالى للصالحين من عباده بعد صبرهم على الابتلاءات والمحن، فتسمو مكانتهم، وتعلو كلمتهم، ويسود شرعهم، وتمتلأ الدنيا بنورهم عدلًا، وبهديهم إحسانًا وبرًا.

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن معانيه اللغوية.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٧٩، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٧٧، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٨١.

(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١١١، شمس العلوم، نشوان الحميري ٩/ ٦٣٦١.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٣٦.

(٤) انظر: تفسير ابن عرفة، ١/ ٣٥٨.

(٥) تفسير الإمام الشافعي ٢/ ٩٧٨.

التمكين في الاستعمال القرآني

وردت مادة (مكن) الدالة على (التمكين) في القرآن الكريم(١٨) مرة[1]، وهي على النحو الآتي:

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٠	﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾[يوسف:٢١]
الفعل المضارع	٤	﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص:٥٧]
صيغة المبالغة	٤	﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾[التكوير:٢٠]

وجاءت مادة (مكن) الدالة على (التمكين) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو من القدرة على الشيء وإطاقته، مع زوال المانع[2]، أو من الرسوخ والاستقرار[3]، وأصله من المكان، والمكان لغةً: هو الحاوي للشيء، كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾[الكهف:٨٤].

يعني: «أعطيناه ملكًا عظيمًا متمكنًا، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم»[4].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٧٢.
(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٤/ ١٠٤.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٦٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ النصر:

النصر لغة:

النون والصاد والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على إتيان خيرٍ وإيتائه. ونصر الله المسلمين: آتاهم الظفر على عدوهم[1].

النصر اصطلاحًا:

العون، ويختص لفظ النصر بأنه إعانة في مقابل العدو المتربص، إما بالظفر عليه، وإما بدفع مضرته[2].

الصلة بين التمكين والنصر:

التمكين أعظم من النصر، وذلك أن حدوث التمكين قد يتطلب سلسلة من الانتصارات.

٢ الغلبة:

الغلبة لغة:

من غلب يغلب غلبةً، وهو القهر[3].

الغلبة اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، قال الراغب: «الغلبة القهر»[4]. والمقصود هو قهر العدو.

الصلة بين التمكين والغلبة:

أن الغلبة قد تكون مؤقتة سرعان ما تزول، قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ٣].

والفرس غلبت الروم، ولكن سرعان ما أعقب هذه الغلبة هزيمة للفرس على يد الروم[5]، ولكن التمكين يكون معه دوام الغلبة واستقرارها.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣٥.

(٢) المفردات، الراغب ص٨٠٨، الفروق اللغوية، العسكري ص١٨٩، الكليات، الكفوي ص ٩٠٩.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٨٨.

(٤) المفردات، ص٦١١.

(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٩٥.

٣ الاستخلاف:

الاستخلاف لغةً:

من خلف، ويعني أن يجيئ شيء من بعد شيء يقوم مقامه[(١)].

الاستخلاف اصطلاحًا:

هو «استرعاء يختص لمن ينصح للمرعي، فيؤدي عن الله أمره ونهيه، ولا يأخذه في الدين لومة لائم، ولا سطوة جبار»[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

الصلة بين الاستخلاف والتمكين:

أن الاستخلاف لا يكون إلا مع الاستبدال (أي: استبدال الصالحين مكان الطالحين)، ولا يشترط الاستبدال مع التمكين[(٣)].

٤ العزة:

العزة لغةً:

عز أي: اشتد وقوي[(٤)].

العزة اصطلاحًا:

صفة تفيد حصول الفوقية والغلبة لله سبحانه وتعالى وعباده الصالحين على أعدائهم[(٥)]، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

الصلة بين العزة والتمكين:

أن العزة من لوازم التمكين.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢١٠.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري، ١/ ٣٩٥.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٥٦.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٨.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٢٩.

التمكين مشيئة إلهية

يقول مصطفى مسلم: «إن لفظة التمكين في القرآن الكريم لا تأتي إلا للشيء الذي لا تسعفه الأسباب المادية من الوصول إليها، فيأتي بأسباب وتدابير ربانية غير عادية»[(١)].

وذلك يعني أن حصول التمكين مرتبط بالمشيئة الإلهية التي تقتضي توفير أسباب غير عادية تؤدي إلى حصول هذا التمكين، وفيما يلي أمثلة تبرهن على ذلك:

- تمكين الله سبحانه وتعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام.
- تمكين الله سبحانه وتعالى لنبيه يوسف عليه السلام.
- تمكين الله سبحانه وتعالى عباده المسلمين من الانتصار على أعدائهم المشركين خلال فترات الصراع بين المسلمين والمشركين على الرغم من اختلال موازين القوى، وذلك كما حدث على سبيل المثال في غزوة بدر، والخندق، والحديبية.

فإن قيل: ما الأسباب والتدابير الربانية التي توفرت فيما سبق ذكره من أمثلة؟

فالجواب كما يأتي:

أولًا: بالنسبة لإبراهيم عليه السلام، فبعد أن صبر على دعوته لقومه إلى عبادة الله وحده، وصبر على ما لاقاه من الأذى والتنكيل في سبيل هذه الدعوة مكنه الله سبحانه وتعالى بأن أنجاه من النار، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ولما اعتزل قومه وأصنامهم وهبه الله سبحانه وتعالى الولد على الرغم من كبر سنه، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ولما أمره الله سبحانه وتعالى بترك ذريته في مكة عند البيت الحرام دون أن يتوفر عندهم المياه، ففجر الله عين زمزم[(٢)].

ثانيًا: بالنسبة ليوسف عليه السلام: فبعد أن ألقاه إخوته في الجب لهلك وحيدًا، مكنه الله سبحانه وتعالى بأن خلصه من الجب، وآواه في بيت العزيز.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

(١) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص٢١٦.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٠١.

يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ١٩-٢١].

يقول الدكتور وهبة الزحيلي: «خطط إخوة يوسف للتخلص نهائيًا من أخيهم، فباءوا بالخيبة والفشل؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الإله القادر المنفذ لما يريد»[١].

وبعد أن كبر وصار شابًا وقع في محنة مراودة امرأة العزيز له عن نفسه.

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولما استعصم سجن ظلمًا وعدوانًا.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فمكنه الله سبحانه وتعالى، بأن أخرجه من السجن ليكون عزيز مصر[٢].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٤-٥٦].

ثالثًا: بالنسبة للمسلمين أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: فقد مكنهم الله سبحانه وتعالى من أعدائهم المشركين في مواطن عديدة منها:

يوم بدر، حيث كان المسلمون على قلة في العدد والعدة مقارنة بالمشركين، ومع ذلك نصرهم الله تعالى على عدوهم نصرًا مؤزرًا، علت بسببه مكانة المسلمين بين الأمم، وفي المقابل انحدرت مكانة المشركين وضاعت هيبتهم بين الأمم[٣].

وقد حكى القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

وبغية تحقيق هذا الوعد الإلهي.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

واستمر الدعم الإلهي للمؤمنين في هذه الغزوة حتى وصل إلى ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وقد روى ابن حبان في صحيحه قال: قال أبو زميل: حدثني ابن عباس قال: بينما

(١) الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٠٩٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢١٧.

(٣) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٤/ ٢٧٧.

رجل من المسلمين، يومئذ يشد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس فوقه يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه خر مستلقيًا فنظر إليه، فإذا هو خطم أنفه، وشق وجهه بضربة سوط، فاخضر ذاك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: (صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة)[1].

يوم الخندق: حيث تكالبت قوى الشر الممثلة في الأحزاب لضرب المسلمين عن قوس واحدة، وقد كانت ظروف المسلمين حينها غاية في الصعوبة، فلا وفرة في الطعام ولا دفء، إضافة إلى خذلان المنافقين، ونكوث العهد من قبل يهود بني قريظة بتحالفهم مع الأحزاب ضد المسلمين.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

ومع ذلك مكن الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ونصرهم على عدوهم دون قتال[2].

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

يوم الحديبية: حيث ظن المسلمون في بداية الأمر أن قريشًا غدرت بهم، وقتلت عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولم يكونوا قد أعدوا العدة لمواجهة هذا الموقف العصيب؛ إذ لم يكن معهم سوى سلاح الراكب المسافر، ومع ذلك قرروا إعلاء شأن دينهم، وبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على قتال المشركين، وبعدها جاء التمكين الإلهي للمؤمنين، فقد عاد عثمان رضي الله عنه سالمًا، وأرسلت قريش سهيل بن عمرو ليفاوض النبي صلى الله عليه وسلم، فنجم عن ذلك صلح الحديبية والذي كان بمثابة بداية الطريق لنصر عظيم مؤزر من الله سبحانه وتعالى به على المؤمنين، فما هي إلا سنتين حتى نكثت قريش عهدها مع الرسول صلى الله عليه وسلم، مما أدى إلى فتح مكة عام (٨هـ)[3].

وقد حكى القرآن الكريم ذلك، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة، ٣/ ١٣٨٣، رقم ١٧٦٣.

(٢) انظر: السيرة النبوية، كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، محمد الصوياني ٣/ ٩٤.

(٣) انظر: دلائل النبوة، البيهقي، ٤/ ١٦٠.

[١٨].

وقد أكد الله مشيئته بتمكين المؤمنين بوعد يساوي في قوته القسم.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾

[النور: ٥٥].

ومما يؤكد أن وعد الله بذلك يساوي القسم دخول اللام في جواب القسم المفهوم من الوعد، وذلك في الوعود الثلاثة: (الاستخلاف والتمكين واستبدال الخوف بالأمن) إضافة إلى وجود نون التوكيد الثقيلة في الوعود الثلاثة، مما يؤكد أن ذلك واقع لا محالة إن تحقق الإيمان والعمل الصالح، عبادة بلا شرك.

وهذا دليل قاطع على أن التمكين يتبع لمشيئة الله عز وجل، وليس لإرادة بشرية مهما كانت قوية، فالله يعز من يشاء بعزه، ويذل من يشاء متى يشاء بما يشاء، سبحانه وتعالى القوي القدير صاحب العزة والجبروت.

أنواع التمكين

للتمكين أنواع تحدث عنها القرآن الكريم، نعرضها فيما يأتي:

أولًا: التمكين الخاص:

والتمكين الخاص هو ما كان خاصًا بالأفراد، وبحسب القرآن الكريم فقد حصل لنبي الله يوسف عليه السلام، ولذي القرنين من البشر، ولجبريل عليه السلام من الملائكة، وبيان ذلك فيما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

يقول الشيخ الشعراوي: «وقد بدأ التمكين في الأرض من لحظة دخوله بيت عزيز مصر ليحيا حياة طيبة»[١].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

يقول الشيخ الشعراوي: «وهكذا كان تمكين الله ليوسف عليه السلام في الأرض

(١) تفسير الشعراوي ١١/ ٦٨٩٩.

بحيث أدار شئون مصر»[1].

ويقول الشيخ محمد الناصري في تفسير هذه الآية أن فيها: «إشارة إلى ما أكرم الله به يوسف من الحرية والسعة والنفوذ والتصرف في أرض مصر...»[2].

والملاحظ أن التمكين في الآيتين السابقتين هو تمكين خاص بفرد واحد هو نبي الله يوسف عليه السلام، كما يلاحظ أن الآية الأولى أشارت إلى تمكين جزئي ليوسف عليه السلام، فكل ما حصل له أنه نجا من الجب، وانتقل للعيش في بيت يكفل له الحياة الكريمة، فهذا وإن كان بمثابة نقلة نوعية في حياة يوسف عليه السلام، إلا أنه لا يرقى ليصل إلى درجة العلو والهيمنة، وهذا ما نوه إليه الشيخ الشعراوي رحمه الله، حين وصف التمكين المذكور في الآية الأولى بأنه بداية التمكين وليس تمام التمكين[3].

بينما نجد أن الآية الثانية قد أشارت بالفعل إلى التمكين الكلي لنبي الله يوسف عليه السلام، حيث أصبح يدير شئون مصر كما ذكر المفسرون.

يقول الدكتور علي الصلابي: «فإذا تأملت في الآيتين تلاحظ أن الآية الأولى أشارت للتمكين الجزئي ليوسف عليه السلام، والآية الثانية للتمكين الكلي في حقه...»[4].

وبناءً على ذلك يمكن القول بأن التمكين المذكور في الآية الثانية هو تمكين خاص كلي.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٣- ٨٤].

يقول المراغي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ «أي: مكنا له أمره من التصرف فيها كيف شاء، بحيث يصل إلى جميع مسالكها، ويظهر على سائر ملوكها، وآتيناه من كل شيء أراده من مهام ملكه وبسطة سلطانه طريقًا يوصله إليه، فآتيناه العلم والقدرة والآلات التي توصله إلى ذلك»[5].

ويتضح من خلال كلام المراغي رحمه الله، أن تمكين الله سبحانه وتعالى لذي القرنين هو تمكين خاص كلي.

قوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠].

ومعنى مكين هنا: أن جبريل عليه السلام، ذو جاه ومنزلة رفيعة عند الله سبحانه وتعالى[6]، ومن ثم فتمكين الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام هو

(١) المصدر السابق ١١/ ٧٠٠١.
(٢) التيسير في أحاديث التفسير ٣/ ١٨٨.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١١/ ٦٨٩٩.
(٤) فقه النصر والتمكين ص٧.
(٥) تفسير المراغي، ١٦/ ١٦.
(٦) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦٠٧.

تمكين خاص كلي.

ثانيًا: التمكين العام:

والتمكين العام هو ما كان غير مختص بفرد معين، وإنما يكون للجماعات، وبحسب القرآن الكريم فقد ثبت هذا التمكين لأصحاب القرون الأولى مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، ولأهل مكة، وللمؤمنين الصادقين، وبيان ذلك فيما يلي:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول سبحانه وتعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي، الجاحدون بنبوتك، كثرة من أهلكت من قبلهم من القرون الذين وطأت لهم البلاد والأرض توطئة لم أوطئها لهم، وأعطيتهم فيها ما لم أعطهم»[(١)].

ويقول أبو الحسن النيسابوري في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ «أعطيناهم من المال والعبيد والأنعام ما لم نعطكم»[(٢)].

وبناءً على ذلك، نفهم من كلام المفسرين أن تمكين الله سبحانه وتعالى لأصحاب القرون الأولى مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، كان تمكينًا عامًا كليًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

يقول أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ «لما أمر الله سبحانه أهل مكة باتباع ما أنزل إليهم، ونهاهم عن اتباع غيره، وبين لهم وخامة عاقبته بالإهلاك في الدنيا والعذاب المخلد في الآخرة ذكرهم ما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر ترغيبًا في الامتثال بالأمر والنهي إثر ترهيب، أي: جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا، أو ملكناكم فيها وأقررناكم على التصرف فيها»[(٣)].

ويفهم من هذا الكلام أن تمكين الله سبحانه وتعالى لأهل مكة كان تمكينًا عامًا كليًا.

ومن الجدير بالذكر أن الله تعالى قد مكن لتلك الأقوام على الرغم من كفرها؛ لأنها أخذت بأسباب التمكين المادية كإعداد الجيوش، وامتلاك الأموال وغير ذلك، ولكنهم لما تركوا السبب الأهم لبقاء التمكين وهو اتباع الرسل، أهلكهم الله تعالى.

(١) جامع البيان ١١/ ٢٦٣.
(٢) الوجيز ص ٣٤٥.
(٣) إرشاد العقل السليم ٣/ ٢١٤.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

يقول مقاتل بن سليمان في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، «يعني: أرض المدينة وهم المؤمنون بعد القهر بمكة»[(١)].

ومعنى التمكين في هذه الآية: النصر على العدو[(٢)]، وبالفعل فإن الله سبحانه وتعالى قد مكن الصحابة الكرام ومن بعدهم من المؤمنين من عدوهم بعد هجرتهم إلى المدينة المنورة فألحقوا به الهزيمة تلو الهزيمة بدءًا بغزوة بدر عام (٢هـ) مرورًا بغزوة فتح مكة عام (٨هـ) ووصولًا إلى اتساع الفتح الإسلامي حتى وصل إلى الصين شرقًا والمحيط الأطلسي غربًا، وقد كان هذا التمكين تمكينًا عامًا كليًا.

وقد وعد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين الصادقين بتمكينهم في الأرض تمكينًا عامًا كليًا ما داموا على إخلاصهم له سبحانه، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

يقول الدكتور مازن عيسى: «فهذا الوعد مناسب لكل من اتصف بهذا الوصف، فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله كما وعد، وقد اتصف بعدهم به قوم بحسب إيمانهم وعملهم الصالح، فمن كان أكمل إيمانًا وعمل صالحًا، كان استخلافه المذكور أتم، فإن كان فيه نقص وخلل كان تمكينه خللًا ونقصًا؛ وذلك أن هذا جزاء هذا العمل، فمن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء»[(٣)].

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ١٣٠.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ٩/ ٥٨.
(٣) الإصابة في الذب عن الصحابة رضي الله عنه ص١١٩.

مقومات التمكين

مما لا شك فيه أن الإنسان مطالب إلى جانب عبادة الله سبحانه وتعالى وحده، أن يحصل على التمكين في الأرض، فقد قال ربنا جل علا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وإسناد هاتين المهمتين للناس دليل على أنه لا مجال لأداء العبادات بحرية دون قيد إلا بتحقيق الاستخلاف في الأرض، وإن الاستنكاف عن السعي لتحقيق أي من المهمتين يعني ضياع المهمة الأخرى وعدم التمكن من تحقيقها، وهذا يعني الإفساد في الأرض، يفهم هذا من رد الملائكة لما أخبرها الله عز وجل أنه سيجعل في الأرض خليفة قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قالوا ذلك لعلمهم بما كان من الجن الذين أفسدوا في الأرض، فعاقبهم الله سبحانه وتعالى، وحتى يتجنب الإنسان من الوقوع فيما وقع فيه الجن من قبل، لابد له من المحافظة على ما أسند له ربه سبحانه وتعالى من مهمات، ولضمان ذلك لابد له أن يحصل على التمكين في الأرض، وللحصول على هذا التمكين لابد من توفر المقومات الواردة فيما يلي:

أولًا: الإيمان:

يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

في هذه الآية نجد أن الله سبحانه وتعالى قد ربط بين تحقيق الإيمان وحصول الاستخلاف، ويفهم من هذا الربط أن تحقق الإيمان شرط أساس لحصول الاستخلاف، فلا استخلاف دون إيمان[١].

وهذه القاعدة لا تقف عند هذا الحد فقط، بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى كون الاستخلاف باقيًا ما دام الإيمان متحققًا عبر الأجيال التي حصل آباؤها على الاستخلاف في الأرض، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك من خلال إحدى قصص بني إسرائيل، وهي تلك التي وردت في سورة الإسراء.

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ

(١) انظر: نور الإيمان وظلمات النفاق، الدكتور سعيد القحطاني ص٢٣.

نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ [الإسراء: ٢-٧].

فهذه الآيات تبين أن الله سبحانه وتعالى قد من على المؤمنين الذين كانوا مع نوح عليه السلام، بأن نجاهم من الغرق الذي أصاب الكافرين آنذاك وذلك يعتبر تمكيناً لهم.

ثم جاء من بعدهم خلفٌ من ذريتهم أفسدوا في الأرض، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم من يهزمهم شر الهزيمة، وهذا زوال للاستخلاف، وبعد ذلك عاد بنو إسرائيل لرشدهم وإيمانهم، فأعاد لهم العزة والهيمنة، وبذلك عاد لهم الاستخلاف.

ثم أخبر القرآن أنهم سيعودون بعد ذلك إلى الفساد مرة أخرى، وهذا سيؤدي إلى إهلاكهم مرة أخرى، وهذا يعني زوال الاستخلاف تارة أخرى عن بني إسرائيل، ثم يقرر الله سبحانه وتعالى أنه في كل عودة للكفر والإفساد يزول الاستخلاف، وفي كل رجعة إلى الله تعالى بالإيمان والإحسان يرجع الاستخلاف، وهذه القاعدة ليست خاصة ببني إسرائيل وحدهم، وإنما هي سنة إلهية تتكرر لكل من أوكل الله سبحانه وتعالى إليهم مهمة الاستخلاف، يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

ونصرة الله سبحانه وتعالى تكون بالجهاد في سبيله، وإعلاء شأن دينه، واتباع رسوله، وموالاة أوليائه، والتزام أوامره، واجتناب نواهيه، وهذه من لوازم الإيمان بالله سبحانه وتعالى[1].

ثانيًا: العمل الصالح:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

كما هو ملاحظ في هذه الآية، فإن القرآن قد استخدم أحد أهم وأقوى أساليب التوكيد وهو الوعد المكافئ للقسم، من أجل تقرير الوعد الإلهي لمن تحقق فيهم الإيمان مع

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ١/ ٢٦٦.

المداومة على العمل الصالح بالاستخلاف في الأرض.

وقد دلنا ربنا جل وعلا على الأسس التي يرتبط على وفقها حصول التمكين بالعمل الصالح، وهذه الأسس تتمثل في أنه لحصول العبد على التمكين لابد له من الجمع بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

كما تتمثل هذه الأسس أيضًا في أنه من غرق في المعاصي والذنوب فإن عاقبته الهلاك وزوال التمكين عنه إن كان من الممكنين.

قال تعالى في سياق وعيده لأهل مكة بسبب كفرهم وعصيانهم بالهلاك أسوة لمن سبقهم من الأقوام الفاسدة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ٨-١٠].

وقد جمع ربنا بين الأساسين السابقين في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وشكر الله سبحانه وتعالى بطاعته وعمل الصالحات، وكفره بجحود نعمه والانغماس في الشهوات[(١)].

ومن الأسس أيضًا أن أفضل الأعمال الصالحة التي تؤدي إلى حصول التمكين هي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أمة التمكين بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن الأسس أن أخطر ما يؤدي إلى زوال التمكين هو ترك التناهي عن المنكر، وقد استحق كفار بني إسرائيل اللعنة بسبب ذلك.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨- ٧٩].

وقال رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه،

---

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٩.

وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد)[1].

ومن الأسس أيضًا أنه لابد من المداومة على العمل الصالح لضمان بقاء التمكين واستمراره.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٠-١٣].

وفائدة الشكر هي استمرار العطاء للشاكر، وترك الشكر يعني الحرمان مما يستوجبه الشكر وترك الشكر عليه[2].

وباستقراء التاريخ يلاحظ أن استخلاف الله سبحانه وتعالى لعباده اقترن بإيمانهم وعملهم الصالحات، وذلك كما حدث مع بني إسرائيل كما هو مبين فيما سبق، وكما حدث مع غيرهم من الأقوام، وفي مقدمتهم الصحابة الكرام، والتابعون وتابعوهم بإحسان، وفي كتب السيرة والتاريخ وغيرها ما يشهد بذلك.

ثالثًا: الأخذ بالأسباب:

إن العبد مأمور بالأخذ بالأسباب، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

فالآية تحتوي على أسلوب شرط، وقد ربط الشرط هنا بين الإيمان بالله والتوكل عليه -جل وعلا-، واستنادًا إلى تعريف الشرط بأنه أحد أساليب الخطاب التي تقوم على الربط بين الشرط وجوابه، فلا يتحقق الثاني إلا بتحقيق الأول، يمكن القول بأنه لا يتحقق الإيمان إلا بتحقق التوكل، ومعنى الآية: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾.

وقد حذف جواب الشرط؛ لأنه تقدم في الآية ما يدل عليه وهي جملة ﴿فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾، ومن المعلوم أن التوكل على الله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بأمرين هما:

١. الأخذ بالأسباب الممكنة.

٢. ثم تفويض الأمر إلى الله سبحانه وتعالى مع كامل الثقة به جل وعلا[3].

ومن ثم فإن الأخذ بالأسباب جزء من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ٤/ ١٧٥، رقم ٣٤٧٥.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ٢/ ٢٤٨.

(٣) انظر: جهود الشيخ محمد الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، عبد العزيز الطوبان ١/ ١٦٣.

التوكل على الله سبحانه وتعالى، وبتركه يصبح التوكل تواكلًا، والتواكل مذموم، كما أشار إلى ذلك الخليفة الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما قال لأبي عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه: «أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله!»[1].

ويستفاد من كلام عمر رضي الله عنه، ضرورة الأخذ بالأسباب، مع العلم أن الأخذ بالأسباب من القضاء والقدر.

ولقد علمنا ربنا جل وعلا ضرورة الأخذ بالأسباب، ونجد ذلك جليًا في قوله تعالى لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥].

والله سبحانه وتعالى قادر على أن يسقط الرطب دون أن تقوم الصديقة مريم عليها السلام بهز النخلة، كما أنه جل وعلا علمنا أيضًا ألا نستهين بالأخذ بالأسباب وإن بدا لنا أنه لا تجدي نفعًا، فمن المعلوم أن المرأة النفساء لا تقوى على هز جذع النخلة، فضلًا عن أن يتسبب ذلك الهز في إسقاط الرطب، فذلك يحتاج إلى جهد يفوق ما تقوى عليه النفساء، ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى أمرها بالهز، كما علمنا جل شأنه كذلك أن فاعلية الأسباب التي أمرنا بالأخذ بها مرهونة بمشيئته جل وعلا، فهو المسبب للأسباب، والقادر على تعطيلها، ويفهم ذلك من قوله تعالى خلال سرد قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٨- ٦٩].

كما علمنا أنه سبحانه لو أراد أن يجعل ما لم تجر العادة بكونه سببًا لجعل منه سببًا لما أراد أن يكون سببًا له، فهذه العصا التي سأل الله سبحانه وتعالى موسى عنها فرد عليه قائلًا: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٨].

فذكر موسى عليه السلام الأسباب التي اتخذ العصا من أجلها ولم يكن من ضمنها فلق البحر، ومع ذلك جعلها الله سبحانه وتعالى سببًا لفلق البحر، وأنقذ المؤمنين من فرعون وجنوده.

قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٦].

هذا بالإضافة جعلها سببًا لتحقيق أمور أخرى لا تحققها العصا بالعادة، كما علمنا

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ١٦٣.

ربنا -جل وعلا- أنه واهب الأسباب، وأنه ما على العبد إلا أن يكون صاحب إرادة لتوظيف هذه الأسباب فيما يرضيه سبحانه يدل على ذلك:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقوله تعالى عن الرجل الصالح الذي سار معه موسى عليه السلام[(١)]: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقوله تعالى عن ذي القرنين: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا﴾ [الكهف: ٨٤].

والمفهوم من تلك الآيات وغيرها أن الله سبحانه وتعالى هو واهب الملك، والعلم، والقدرة، وسائر الأسباب، وقد فقه أهل الصلاح ذلك كله لذلك: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

والرجلان هما من أهل الصلاح ممن كانوا على دين موسى عليه السلام[(٢)].

ولذلك أيضًا رفع رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء قبيل غزوة بدر حتى ظهر بياض إبطه الشريف راجيًا ربه أن ينجز له ما وعده من النصر[(٣)]، مستخدمًا بذلك أقوى الأسباب فاعلية في جلب المصالح ودفع المضار، ألا وهو سلاح الدعاء الخالص لله سبحانه وتعالى[(٤)]، فنصره الله سبحانه وتعالى، ومن معه من المؤمنين، ولذا أيضًا حفر الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين الخندق بأظفارهم وبما توفر لديهم من وسائل يسيرة، مصدقين بذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فأيدهم الله سبحانه وتعالى ونصرهم على الأحزاب[(٥)]، ولذلك أيضًا حافظ المسلمون على سنة السواك في معاركهم، فكان ذلك سببًا من أسباب نصرهم على

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٩٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٨٢.

(٣) انظر: مغازي الواقدي، ١/ ٦٧.

(٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ص٤٦٦.

(٥) انظر: دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٣٩٩.

أعدائهم أصحاب القوة والبأس[1]، والتاريخ حافل بدلائل التمكين الإلهي للمؤمنين الآخذين بكل ما توفر لديهم من أسباب النصر والعزة والغلبة.

رابعًا: العلم:

معلوم أن من أحد أهم عوامل تحقيق التمكين في الأرض هو العلم، لاسيما وأنه السبيل إلى الرفعة والهيمنة، وتبيانًا لذلك يقول ربنا جل وعلا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقد ربطت الآية الكريمة بين الإيمان وطلب العلم، وذلك الربط يأتي في إطار الإشارة إلى أن طلب العلم يؤتي ثماره الطيبة إذا كان طالب العلم مؤمنًا، فالإيمان هو الضابط لطالب العلم، فلا يوظف علمه إلا بما يرضي الله سبحانه وتعالى، كما يعود بالنفع على البشرية[2].

ومما يبرز الدور الهام لطالب العلم في تحقيق التمكين في الأرض هو المضمون الذي اشتملت عليه آيات القرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين الصادقين بأن يستخلفهم ويمكن لهم دينهم. قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

والدين الذي يرتضيه ربنا جل وعلا هو الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلام هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء جميعًا، وإن أول ما أوحى به الله سبحانه وتعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن هو الأمر بالقراءة.

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

والقراءة تعد من أهم وسائل طلب العلم، ومن ثم فلا تمكين إلا بإقامة الدين، ولا دين غير الإسلام، وقد بدأ الإسلام بالدعوة إلى طلب العلم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨].

هذه الآية هي ثناء من الله سبحانه وتعالى على نبيه يعقوب عليه السلام لما حصل من العلوم، وبالنظر في نصوص القرآن نجد أن

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٩/ ١٩٨٧.
(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٣٦٦.

يعقوب عليه السلام قد وظف علمه خلال نصحه لأبنائه، فهذا يوسف عليه السلام يروي لأبيه يعقوب الرؤية التي رآها في منامه، فنصحه أبوه ألا يقص رؤيته لإخوته فيكيدوا له.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٤ - ٥].

فيعقوب عليه السلام علم من خلال سماعه الرؤيا أمرين:

الأول: تأويل الرؤيا.

الثاني: الأثر السلبي الذي قد تتركه الرؤيا على إخوة يوسف عليه السلام إذا سمعوا بها، فكانت نصيحته لولده يوسف عليه السلام تهدف إلى المحافظة على بقاء اللحمة بين أولاده، وهذا يؤدي إلى حصول التمكين.

وفي موقف آخر ينصح أبناءه عندما أرادوا الخروج من عنده، والتوجه إلى مصر قائلًا لهم: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

وذلك خوفًا عليهم من العين[(١)]، ومما لا شك فيه أن نصيحته هذه تدل على علمه بالضرر الذي قد يسبب فيه دخولهم من باب واحد، وتجنب الضرر يؤدي إلى حصول التمكين.

وقال تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١].

يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه داود عليه السلام في هذه الآية أن يتقن صنعة الحدادة، وذلك من خلال قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾، أي: تمهل وترو في السرد كي تحكمه[(٢)]، وإتقان الصنعة يؤدي إلى حصول التمكين.

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ۖ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

يقول الزمخشري: «وانتصاب ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ على الحال من ﴿عَلَّمْتُم﴾، فإن قلت: ما فائدة هذه الحال وقد استغنى عنها بـ ﴿عَلَّمْتُم﴾؟

قلت: فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح تحريرًا في علمه مدربًا فيه، موصوفًا بالتكليب ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال ثانية أو استئناف، وفيه فائدة جليلة وهي أن على كل آخذ علمًا أن

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١٢/ ١٧٣.

(٢) معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن الجمل ٣/ ٣١٨.

لا يأخذه إلا من أقتل أهله علمًا، وأنحرهم دراية، وأغوصهم على لطائفه وحقائقه، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل»[1].

وإتقان المهارات يؤدي إلى حصول التمكين.

خامسًا: القوة:

جرت سنة الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لمن أراد التمكين لهم الوسائل التي يستطيعون من خلالها الحصول على التمكين، وذلك يعني أنه لابد للذي يسعى للحصول على التمكين في الأرض أن يكون صاحب بضاعة تعينه على تحقيق ما يسعى للحصول عليه، وإن أهم ما تحويه تلك البضاعة هو عنصر القوة، وأهمية هذا العنصر تكمن في أنه الوسيلة التي تتم من خلالها عمليتي الحصول، والمحافظة على التمكين، وتنقسم هذه القوة إلى قسمين هما:

- القوة المادية: فهي تتمثل في قوة الجسد، وكثرة العدد والعدد.
- القوة المعنوية: فهي تتمثل في رجاحة العقل، وشجاعة القلب.

الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يهب التمكين لأحد أعطاه القوة.

قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

والملاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد جمع لطالوت بين القوة المادية الجسدية، والقوة المعنوية العلمية، بحيث أنه فاق بما آتاه الله سبحانه وتعالى من القوة أهل زمانه، فكان أهلًا لاختياره ملكًا[2].

وقد قدم الله سبحانه وتعالى قوة العلم على قوة الجسم لبيان أنه لابد من تقديم القوى العقلية على القوى المادية عند استخدام القوة؛ وذلك لتوجيه الطاقات في الاتجاه الصحيح، وعدم تدبيرها وإحسان استثمارها، وفي قصة ملكة سبأ التي أرسل الله إليها سليمان عليه السلام رسالة يدعوها فيها وقومها للإسلام، فاستشارت رؤوس دولتها، فردوا عليها ما مفاده أنهم جاهزون للمواجهة العسكرية ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

فردت عليهم ردًا يبين رجاحة عقلها، قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤ - ٣٥].

وهذا الرد من الملكة يبرز أن تغليب العقل على امتلاك القوة المادية من شأنه أن

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٠٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣١٣.

يحقن الدماء، ويحفظ الممتلكات، ويبقي على السيادة.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالسعي بكل جهد للحصول على أسباب القوة؛ بغية الحصول على التمكين.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقد دل الله سبحانه وتعالى عباده على أهم الأسباب التي يؤتي الله سبحانه وتعالى عباده من خلاله وهو الاستغفار.

قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وفي مقابل ذلك حذر من الوقوع في الآثام والمخالفات التي من شأنها تدمير القوة مهما بلغت، وإزالة التمكين.

قال تعالى مخاطبًا الكفرة الفجرة: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

سادسًا: الأمانة:

جعل الله سبحانه وتعالى الحصول على التمكين أمانة في أعناق المؤمنين، والشواهد على ذلك في القرآن عديدة، منها:

قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

في هذه الآية يأمر ربنا سبحانه يحيى عليه السلام بأن يعرف أحكام الله، وأن يحكم بها وهو صغير[(١)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

في هذه الآية يكلف الله سبحانه وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقضي بين الناس بما علمه من أحكام الدين[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وفي هذه الآية يأمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يقاتلوا المشركين الناكثين عهودهم مع المسلمين وحبسهم ومحاصرتهم ومطاردتهم، وعدم التسامح معهم إلا في حال توبتهم، وإيمانهم بالله

---

(١) انظر: المصدر السابق ص٤٩٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ١٧٥.

سبحانه وتعالى، وأدائهم حقوق الله سبحانه وتعالى عليهم[1].

ومما سبق يمكن القول بأن الله سبحانه وتعالى استأمن يحيى عليه السلام على الحكم بالكتاب الذي أنزله ليكون هدى للناس، واستأمن محمدًا صلى الله عليه وسلم للقضاء بين الناس بموجب أحكام القرآن، واستأمن المسلمين على المحافظة على بلاد المسلمين وتطهيرها من الفجار، وذلك كله يعني أن الله سبحانه وتعالى استأمن عباده على المحافظة على الإسلام، وتطبيق أحكامه في الأرض من خلال بسط المسلمين سيطرتهم على الأرض وتمكنهم منها.

وقد ذم الله سبحانه وتعالى الذين فرطوا في المحافظة على أمانة التمكين.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد استأمن اليهود والنصارى على حمل التوراة والعمل بموجب أحكامها، والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم خانوا هذه الأمانة فهم بذلك كالحمار الذي يحمل الكتب التي تحتوي على العلوم الكثيرة، ولكنه لا يعي منها شيئًا[2].

وحتى يتجنب أتباع محمد صلى الله عليه وسلم تلك المذمة لابد لهم من المحافظة على أعظم أمانة استحفظ الله سبحانه وتعالى عليها الإنسان، وهي أمانة الدين.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ومسئولية الحفاظ على هذه الأمانة العظيمة وإن كانت تقع على عاتق المسلمين جميعًا، إلا أن الجزء الأكبر من هذه المسئولية إنما تقع على العلماء وأولي الأمر من المسلمين، وقد أعانهم الله سبحانه وتعالى على تحمل هذه المسئولية من خلال توجيه الأمر لعامة المسلمين بطاعة أولي أمرهم وعلمائهم.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

والمقصود بالذين يستنبطونه هم:

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٣٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٧٧.

العلماء النحارير[1]، وقد أعانهم أيضًا من خلال الحث على طلب العلم الشرعي؛ بغية نشره بين الناس.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ومما يدل على أن المسئولية الكبرى في حفظ أمانة الدين تقع على عاتق العلماء والقادة قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

والربانيون هم الولاة والأحبار هم العلماء[2].

ومما يدل على مشاركة عامة الناس للقادة والعلماء في مسئولية حفظ أمانة الدين: ذمه سبحانه وتعالى اليهود والنصارى طاعة علمائهم في معصية الله سبحانه وتعالى والإيغال في ذلك.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فعلى العلماء والقادة تقع أمانة التبليغ والتطبيق لأحكام الدين، وعلى العامة الطاعة في غير معصية الله سبحانه وتعالى.

ولا يعني التخصيص لأمانة حفظ الدين بالذكر أن المحافظة على باقي الأمانات أمر ثانوي لحصول التمكين، وإنما كان الاختيار لأمانة حفظ الدين لأمرين مهمين:

الأول: أن الحفاظ على هذه الأمانة هو الأساس لحصول التمكين، يفهم ذلك من تركيز القرآن على الدعوة لحفظ هذه الأمانة العظيمة.

الثاني: أن المحافظة على هذه الأمانة باعث للحفاظ على باقي الأمانات التي هي فرع، ولا انفصال بين الأصل والفرع كما هو معلوم، وبهذا الفهم الدقيق مكن الله سبحانه وتعالى للصالحين في الأرض، ومن الأمثلة على ذلك:

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٠-٣٣].

هذا نبي الله سليمان عليه السلام يشغله حب الخيل وبهاء منظرها عن الصلاة، فيغضب لذلك، ويدرك خطورة الانشغال بمتاع الدنيا عن حفظ أمانة الدين، فيقوم

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٠٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٤٣.

بعقر تلك الخيل[1].

وهذا هو الأساس الذي مكن الله سبحانه وتعالى به لسليمان عليه السلام.

ولما ارتد أناس عن الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بتركهم للزكاة أمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بتحريك الجيوش وقتال المرتدين؛ وذلك ليقينه بضرورة حفظ أمانة الدين من أجل بقاء التمكين للمسلمين[2].

وقد سار المسلمون الأوائل على هذا النهج القويم، وحافظوا على الأمانات التي استحفظ الله سبحانه وتعالى عباده عليها، متأولين بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

فأمكن الله سبحانه وتعالى لهم حتى وصلت فتوحات المسلمين الصين شرقًا، والمحيط الأطلسي غربًا[3].

سابعًا: العدل:

يمثل العدل أحد أهم الركائز التي يستند إليها للحصول على التمكين مع ضمان بقائه واستمراره، وإن من أهم الدلالات على ذلك أن الله سبحانه وتعالى أمر بالعدل وجعله من جوامع الخير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

كما أنه سبحانه وتعالى نهى عن الجور، وذلك كما جاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا...)[4].

والعدل مما أوصى به ربنا جل وعلا في كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

والعدل كما هو مفهوم من هذه الآية لابد له من أن يكون بعيدًا عن حظوظ النفس، فلا تؤدي العداوة لقوم إلى عدم إنصافهم[5].

ومما يعلل كون صفة العدل أحد أهم سبل الوصول إلى حالة التمكين أنه لا أحد

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٧/ ١٧٧.
(٢) انظر: حياة محمد صلى الله عليه وسلم، محمد حسين هيكل ص٣٣٢.
(٣) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص٢٨٠.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.
(٥) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٦٠٢.

من الخلق يقبل وقوع الهضم والحيف عليه، ومن ثم فإن النفوس تكره كل ظالم وبالذات إذا كان في موقع النفوذ والسلطان؛ لأن ظلمه يكون أشد وفرص معاقبته تكون محدودة إن لم تكن معدومة، والعكس صحيح، وهذا يعني أنه لابد لمن أراد التمكين في الأرض أن يتصف بالعدل؛ حتى ينال محبة الناس وثقتهم، فيحصل بذلك على ما أراد.

وقد أيقن المسلمون الأوائل أهمية العدل في حصول التمكين فحافظوا عليه، فحفظ الله سبحانه وتعالى عليهم ملكهم، ويسر لهم فتح البلاد، وحبب منهم العباد، ومن الشواهد على عدل الخلفاء الراشدين ما كان يوصي به عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلًا: «إني لم أسلطكم على دماء المسلمين، ولا على أموالهم، ولكني بعثتكم تقيموا بهم الصلاة، وتحكموا بينهم بالعدل»[(١)]، وغير ذلك من الشواهد كثير.

ثامنًا: التعاون:

العباد مأمورون من الله سبحانه وتعالى بأن يكونوا متعاونين متآزرين في الحق، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

والبر هو ما أمر الله سبحانه وتعالى به، والتقوى هو اجتناب ما نهى الله سبحانه وتعالى عنه[(٢)].

ومن أبرز ما دعا الإسلام للتعاون من أجل تحقيقه هو الحصول على التمكين، أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وهذه دعوة من الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالتضامن مع بعضهم البعض لنصرة دين الله سبحانه وتعالى وإعلاء كلمته[(٣)].

ومن المعلوم أن الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى هو الطريق إلى تمكين المسلمين في الأرض يؤيد دعوة التناسب بين دعوة المسلمين إلى رص صفوف المجاهدين في سبيل الله سبحانه وتعالى وبين نهي المسلمين عن موالاة الكافرين قبل تلك الدعوة.

فقد قال سبحانه وتعالى في آخر آية من سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

ثم قال تعالى في أول سورة الصف التي تلي سورة الممتحنة مباشرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم

(١) شعب الإيمان، البيهقي، ٩/ ٤٩٣، رقم ٧٠٠٩.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتردي ٣/ ٤٢٣، لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٣٩٨.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٥٢.

﴿بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٤].

يقول المراغي عن مطلع سورة الصف: «ومناسبتها لما قبلها أنها اشتملت على الحث على الجهاد والترغيب فيه، وفي ذلك تأكيد المنهي الذي تضمنته السورة السابقة من اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين»[1].

وطلب المعونة من الغير ممن تجوز الاستعانة بهم في سبيل تحقيق التمكين للمسلمين في الأرض أمر مطلوب، وأولى من يستعان به لذلك هو الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٧- ١٢٨].

كما أنه يستعان بأسباب القوة المختلفة من أجل تحقيق التمكين.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ [الكهف: ٩٤- ٩٥].

فذي القرنين طلب المعونة من أجل بناء السد على الرغم من أنه صاحب قوة.

وتاريخ المسلمين يشهد بأنهم طلبوا العون في سبيل تحقيق التمكين، ومن ذلك ما حصل في غزوة الأحزاب حيث استعان الرسول صلى الله عليه وسلم بالصحابي الجليل نعيم بن مسعود الغطفاني رضي الله عنه من أجل تفريق كلمة الأحزاب[2]. وغير ذلك من الشواهد كثير.

(١) تفسير المراغي ٢٨/ ٧٩.

(٢) انظر: معارج القبول، حافظ الحكمي ٢/ ٥٦٥.

أهداف التمكين

تحدث القرآن الكريم عن أهداف التمكين وسوف نبينها فيما يأتي:

أولًا: إقامة شعائر الدين:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وأوكل إليه مهمة الاستخلاف، وهذه المهمة تشمل أمرين أساسيين، هما:

١. عبادة الله سبحانه وتعالى على الوجه الذي يرضيه جل وعلا.

٢. الإصلاح والتعمير في الأرض.

دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فرد الملائكة لما أخبرها ربها جل وعلا أنه سيجعل في الأرض خليفة بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، دل على أن الاستخلاف يلزم منه الإصلاح والتعمير، وقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، دل على أن الاستخلاف يلزم منه العبودية لله سبحانه وتعالى[١].

مما سبق يتبين أن مهمة الخلافة هي مهمة حساسة؛ لكونها شديدة التأثر بما يحيطها من العوامل، وأبرز تلك العوامل هو عامل التمكين، فليس لأحد أن يقوم بمهام الاستخلاف في الأرض إلا إذا كان ممكنًا فيها، ويجب على المؤمنين بمجرد أن يمكن الله سبحانه وتعالى لهم في الأرض أن يسعوا بكل جهد إلى تحقيق مهام الاستخلاف التي أسندها الله سبحانه وتعالى إليهم، وأولى هذه المهام هي مهمة العبادة لله سبحانه وتعالى وحده، وإقامة شعائر دينه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وفي مقدمة المؤمنين الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم[٢]، ومما يشهد بذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما قدم المدينة المنورة قام ببناء المسجد الذي يعتبر المقر الرئيس لإقامة شعائر الدين.

كما حرص الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم على السير على ذات الدرب الذي سار عليه المصطفى صلى الله عليه وسلم فكان في عهدهم أن جمع القرآن ونقط وشكل، وحورب المرتدون، وفتح

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٧٩، التفسير البسيط، الواحدي ١/ ١٩٤.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٤٤.

بيت المقدس، وعلا دين الله سبحانه وتعالى على ما سواه[1].

ثانيًا: عمارة الأرض:

الإسلام هو دين التعمير والبناء والإصلاح في الأرض، وقد أوجب الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يعمروا في الأرض، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

والعمارة هنا نوعان:

الأول: معنوية بالصلاة والاعتكاف والذكر في هذه المساجد.

الثاني: مادية بالبناء والتشييد والتوسيع بهذه المساجد[2].

ودل على وجوب الإصلاح والتعمير في الأرض قوله صلى الله عليه وسلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[3].

والمقصود بالعلم هو كل علم نافع سواءً أكان علمًا دينيًا أو دنيويًا، وكما أن علوم الدين تدعو إلى توظيف الإمكانات للبناء والتعمير، فإن علوم الدنيا تشرف مباشرة على ذلك البناء والتعمير.

(١) انظر: ثلاثية البردة بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، حسن حسين ص١٢٩.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٤٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ١/ ١٠١، رقم ٢٢٤.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٩١٣.

اسباب زوال التمكين

وضح القرآن الكريم أسباب زوال التمكين، وسوف نتناولها بالبيان فيما يلي:

أولًا: الكفر:

الكفر بأقسامه وأنواعه يؤدي إلى زوال التمكين، يؤيد ذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ١٧-٢٧].

فهذه الآيات تتحدث عن فرعون وملئه، وعن عاقبة إفسادهم في الأرض، حيث أغرقهم في البحر بعد أن كانوا أهل سيادة في الأرض[(١)].

ثانيًا: الظلم:

الظلم بأنواعه سبب من أسباب زوال التمكين، يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ٩٦-١٠١].

فهذه الآيات تتحدث عن إهلاك الله سبحانه وتعالى لقوم موسى عليه السلام بسبب ظلمهم أنفسهم بالكفر والمعاصي[(٢)].

ثالثًا: كفران النعمة:

مما لا شك فيه أن إنكار ونسيان النعم التي من الله سبحانه وتعالى بها على عباده من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى زوال تلك النعم، ولما كانت نعمة التمكين من أعظم ما يمن به الله سبحانه وتعالى على عباده كان إهمالها ونكرانها أحد أعظم الأسباب التي تؤدي إلى زوال تلك النعمة والحرمان منها.

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ١١٨.

(٢) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١١/ ٥٤٦.

﴿كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وهذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن يكون في رغد من العيش وسعة، ثم يكفر بما أنعم الله سبحانه وتعالى به عليه لتكون عاقبته الحرمان من تلك النعم[١].

ونظرًا لخطورة كفران النعمة فقد حذر الله سبحانه وتعالى عباده من الانجرار وراء رغبات نفوسهم التي تأمرهم بالجحود والنكران.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

﴿لَكَنُودٌ﴾ هو الكفور[٢] الذي يذكر المصائب، وينسى النعم[٣].

وقد أكد الحق جل وعلا بالمؤكدات الثلاث: القسم، وإن، واللام؛ للمبالغة في تحذير الإنسان من كفران النعمة الذي ينجم عن الانصياع للنفس التي تنسى ما أنعم الله سبحانه وتعالى به عليها، وتذكر ما ابتلاها به فقط، ومن ثم يكون من الواجب على العبد أن يؤدب نفسه، ويذكرها بوافر نعم الله سبحانه وتعالى كلما حرضته على جحود تلك النعم العظيمة، والتي في مقدمتها نعمة التمكين.

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٢٨٤.
(٢) انظر: تفسير التستري، ١/ ٢٠٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٨٥.

رابعًا: ارتكاب الذنوب:

وعد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين الصالحين المداومين على فعل الطاعات بالغلبة والتمكين في الأرض، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ويفهم من هذا الوعد الإلهي بالمخالفة أن الكفر بالله وإتيان الذنوب يؤديان إلى زوال التمكين.

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨- ٩].

والعتو عن أمر الله سبحانه وتعالى إنما يكون بمعصيته وارتكاب الذنوب[٤].

لذلك فإنه من الواجب على العباد أن يحذروا من الوقوع في الذنوب؛ لئلا تزول عنهم نعمة التمكين.

موضوعات ذات صلة:

الخلافة، النجاة، النصر

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٦٩.

فهرس المحتويات